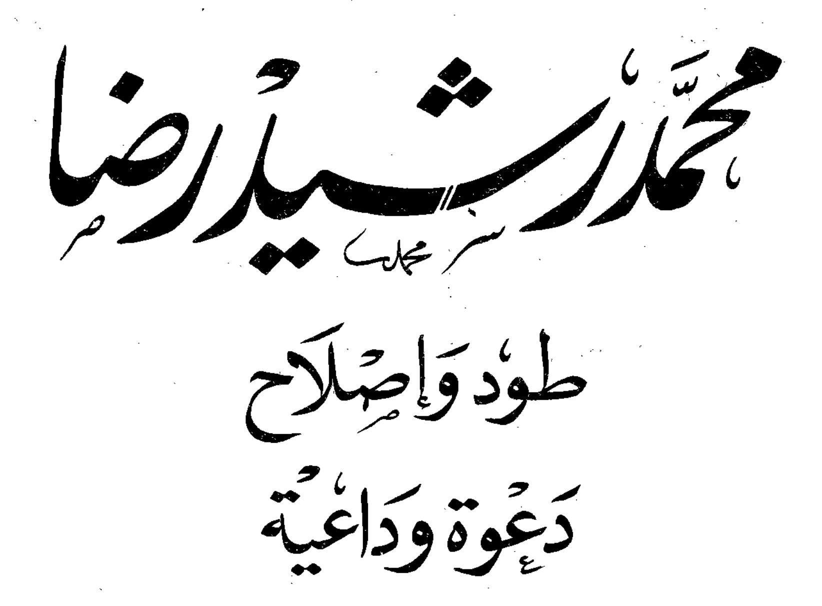
رسالة ماجستير مقدمة للمعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٤٠٨هـ



«١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ»

«جهاده في خدمة العقيدة وأثره في الاتجاهات الفكرية المعاصرة»

تأليف

خالد بن فوزي بن عبد الحميد آل حمزة

المدرس بدار الحديث الخيرية - بمكة المكرمة

إشراف

د.عبد العزيز الحميدي

عميد كلية أصول الدين بجامعة أم القرى "سابقاً"

د.مصطفى حلمي

رئيس قسم الفلسفة بدار العلوم بمصر

د.علي جريشة

الأستاذ بالمعهد العالي بمكة المكرمة

دار علماء السلف

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد رشيد رضا
طود وإصلاح
دعوة وداعية

الطبعة الثانية ١٤١٥هـ
مزيدة ومنقحة
الإخراج الفني / جمال بن محمد

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير مقدمة للمعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٤٠٨هـ وقد أشرف عليها الدكتور/ عبد العزيز الحميدي عميد كلية أصول الدين بجامعة أم القرى "سابقاً" وناقشها كل من د. مصطفى حلمي "رئيس قسم الفلسفة بدار العلوم بمصر" ود. علي جريشة الأستاذ بالمعهد، وفقهم الله تعالى.

وقد حازت الرسالة على تقدير "ممتاز" ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً.

الناشر
دار علماء السلف
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع العريش - سموحة - الإسكندرية ج . م . ع

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وبعد .

فهذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب، وكان قد طبع الطبعة الأولى في عام ١٤٠٩هـ لكنها كانت مشتملة لبعض الأخطاء ، كما حدث تغيير في عنوانها برغبة الناشر .

واليوم تقدم الطبعة الثانية مزيدة، ومنقحة إلى القارئ الكريم مزيلة بفهارس متنوعة لخدمة الكتاب بعناية الأستاذ جمال بن محمد المسئول الفني والتجاي لدار علماء السلف وكنت أود أن يصلني بعض الاستدراكات العلمية على الطبعة الأولى إذ إن مستوى الكتاب به كثير من المسائل التي هي محل اختلاف بين مايُسمى اليوم بالصورة الإسلامية، وقد حاولت جاهدًا أن أبين المسائل العلمية وأحققها تحقيقًا مجردًا عن التعصب . وقد جاءني بعض من الملحوظات القيمة والتي أفدت منها في هذه الطبعة، ولكن لا يزال الأمر يحتاج إلى مزيد من النظر إذ يصعب جدًا تحقيق المناط في كثير من المسائل الحادثة والنازلة بكافة متغيراتها . والرأي المخالف يظهر أحيانًا ما يخفى على الخصم وقد أضفتُ لهذه الطبعة مبحثًا في الرد على بعض النقاط التي أثارها الدكتور البوطي وفقه الله في كتابه «السلفية» كما حذفت من آخر الكتاب المبحث الإضافي في العذر بالجهل إذ يغني عنه الرسالة اللطيفة التي وضعتها لذلك وفيها زيادات وهي منشورة بهامش «قواعد وضوابط التكفير بالجهل» .

وفي الختام فأكرر طلبي لعموم الإخوة أن يقوموا بحق النصح في هذا الكتاب أو في أي من مباحثه، كما أكرر دعوتي لعمل بناء متكامل للجماعات الإسلامية المختلفة يزول فيه أسباب الفرقة المذمومة شرعًا، حتى نعمل على إعادة الوحدة المطلوبة عقلاً ونقلاً فالخير كل الخير في ذلك .

قال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾ .

والحمد لله أولاً وآخرًا .

كتبه

خالد بن فوزي بن عبد الحميد بن حمزة

المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد .

فالحمد لله الذي أرسل رسله بالحق المبين ، واصطفى من خلقه سيد المرسلين، وجعل له أصحاباً وحواريين ، بهم استقام أمر الدين .

الحمد لله الذي جعل في أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم العلماء والمصلحين ، والأئمة المهديين الذين حكموا بالشرع وكانوا به يعدلون .

ثم أما بعد .

فقد بعث الله نبيه محمداً في أمة يسودها الجهل والضلال ، وتتنازعها الأهواء والمعتقدات ، فلا دين يجمعهم ، ولا رباط يشملهم ، الكل في وادٍ يهيمون ، وعن شريعة ربهم معرضون ، منهم من يئد البنات ، وفيهم عقوق الآباء والأمهات ، الشرك طريقهم ، والضلال غايتهم ، والحرب وجهتهم ، لا عدل ولا سلام ، ولا حب ولا وئام ، شريعتهم أقرب لشريعة الغاب ،

ومعيشتهم لاتعدو التراب ، لعبت بهم الأهواء ، وسار بهم الشيطان كل مسلك وواد .

فجاءهم الهدى والنور ، على يد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم انتشلهم مما هم فيه ، وأضاء الله قلوبهم بالهدى ، فجمعهم الدين ، وشملهم الإسلام ، الكل سواسية كأسنان المشط ، لافضل لبعيد على قريب ، ولا رفيع على وضيع ، إلا بالتقوى والعمل الصالح فساروا بهداهم ، ومشوا بنورهم ، ينشرون الخير والحق في ربوع المعمورة فاتحين مكبرين ؛ لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأسرعوا للتفقه في الدين أفراداً وأزواجا ، ويسر الله لكثير منهم أن صاروا أئمة وعلماء ، ووعاظاً وخطباء ، أصلح الله بهم الأمر فكانوا مصلحين ، وجدد بهم ماطُمس من الدين ، فساروا على نهج الأوائل والسالفين .

وكلما خبت أنوار الهدى في مكان أو في زمان ، بعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة عام مصلحاً مجدداً [1] ، وهاديا مرشداً ، يبين الطريق للعباد ، ويهديهم إلى الحق والرشاد .

ويمضي ركب الإسلام ، على ظهر مركب الزمان ، حتى ترسو به على شاطىء القرن الرابع عشر الهجري ، العشرين الميلادي ، وقد تبدلت الشرائع وغيرت السنن ، وعم الجهل وطم فالإسلام لا يحكم وأهله عنه غافلون

---

(١) ورد هذا في حديث صحيح رواه أبو داود (٤٢٩١) ، والحاكم (٤/ ٥٢٢) وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة حديث (٥٩٩) (٢/ ١٥٠) ، ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

وتداعت علينا الأمم وتكالبت وأخذتنا من كل حدب وصوب وأصبحنا لقمة سائغة لشذاذ الآفاق وحثالة اليهود .

وفرضت على المسلمين الانتدابات والاستعمارات ، وعلماء الدين بين مغلوب على أمره لا ينادي بشيء ، وبين منقاد علت الغشاوة عينيه ولكن الأمر لم يخل من مصابيح تبين الهدى من الضلال والحق من الباطل ، والنور من الظلام ، فقاموا وصنفوا ، وخطبوا وألفوا . دعوا الناس للرجوع إلى أصل هذا الدين ، ونقاوة هذه العقيدة ، لتكون بيضاء نقية ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

واستيقظ القوم على أصوات تنادي بالإصلاح والصفاء ، تهيب بالمسلمين بالرجوع إلى ما ضيهم المشرق ، واستعادة مجدهم التليد .

وكان بين أولئك الأعلام المبرزين ، والأئمة المشهورين ، السيد محمد رشيد رضا الذي حمل على عاتقه أمر الإصلاح ، فصنف وكتب ، وألف وألهب ، أنشأ المنار فكانت منارة للعلم والأدب ، مدحها المخلصون ، وعاداها المبغضون وإني لأحمد الله أن يسر لي فرصة البحث والتنقيب والجمع والترتيب ، عن هذا الرجل الذي اندثرت أعماله أو كادت ، وذهب اسمه أو نسي ، وطُمس رسمه أو بالإخفاء كُسي .

والله المعين أن يوفقني لأن أدرس حياته وأعماله دون غلو أو إجحاف أضع النقاط في مواضعها . لإبراز فكره ومنهجه لعل الله ييسر الانتفاع بذلك والله المستعان .

بين يدي البحث :

إن هذا البحث ، وذلك الموضوع ، لحري أن يدرس في مرحلة الدراسات العليا ، ويطرح عدة أطروحات تخصص « ماجستير » أو عالمية عالية

«الدكتوراه»، وإذا كانت الجامعات والمعاهد العلمية ، تهتم كثيراً بالأعلام والمصابيح ، وتطرح بحوثها ورسالاتها حولهم ، فإن هذا الرجل بعد قراءتي المتواضعة في حياته وتآليفه ، أولى بالاهتمام والعناية (١) .

ولقد كنت قديماً تراودني فكرة إخراج مثل هذا البحث للوجود ولكن كثرة المشاغل وقلة الأوقات حالت دون ذلك ، حتى يسر الله أن يكون هذا البحث في معهد علمي ، يقدم لأهل الخبرة المتخصصين ، يرشدونني لما هفوت فيه ، أو جانبت فيه الصواب . وإني أؤكد أن موضوعي هذا لبنة تستحق أن توضع في بناء ، ونبتة تستوجب الرعاية للنماء ، ولم أصل في هذا البحث إلى غاية منشودة ، أو أمنية مفقودة ، ولكن هذه السطور تضع علامات استفهام كبيرة، وتطرح أسئلة كثيرة ، نبحث عن إجابتها . حاولت فيه قدر المستطاع أن أبرز القضية ، وما حف بها ، وما خالطها ، فإن تيسر لي الإجابة على سؤال ولو احتمالاً فعلت ، وإلا أبقيت السؤال رهن السطور ، وقيد الكلمات ، لعل الله أن ييسر له من يأخذه ويعتني به فيجيب عليه .

وما منعني من الإجابة على كثير من هذه السؤالات ، إلا ضيق الوقت ، وافتقار هذا البحث إلى التحليل العلمي المتخصص الذي يوجد في البحوث التي كثرت مراجعها ومظانها ، فلقلة المعرفة وندرة المراجع ، والتعتيم الواضح الذي أضفي على شخصية هذا الرجل ، كل ذلك كان مانعا لي من إتمامه على الصورة التي أريد .

---

(١) وكنت قد اقترحت منذ سنوات على بعض كبار أساتذتنا أن يترجم رشيد رضا في كتابه في عقيدة أهل الحديث بدلاً من ترجمته لمحمد إقبال الأقرب للفلسفة ، فوعدني بالنظر في الأمر وأسر إليّ أن جامعة من جامعات إحدى دول شمال أفريقيا رفضت لطالب تقدم برسالته العلمية في رشيد رضا ، والأسباب غير واضحة !!!

وكثير من المسائل توقفت عندها ، وحرت فيها وإن كنت قد سطرت داخل البحث بعض الإجابات السطحية عنها ، التي لا تشفي غليلاً ولا تروي عليلاً ولكنها قد تكون نقطة انطلاق صحيحة يكمل بها الطريق ، وتصحح بها المسيرة .

ومن أبرز هذه الأسئلة .

- لماذا أضفي طابع التعتيم على حياة ومؤلفات رشيد رضا ؟
- ولماذا لم تلق مؤلفاته من الاهتمام نصف أو ربع بل عشر مالاقاه من هو دونه ؟
- وما علاقة رشيد رضا بنحو شكيب أرسلان ذاك الدرزي الملقب بأمير البيان؟
- وما علاقته ببعض النصارى ؟ ، وما صحة المنسوب إليه من جمعية ضمته ومحب الدين الخطيب لإسقاط الدولة العثمانية ؟ وما الغرض من ذلك ؟
- وما هو ارتباطه بالشيعة والتقريب بين المذاهب ؟
- ولماذا لم تنشر آراؤه وتنسب له ، وقد انتشر كثير منها ونُسب لغيره ؟ وما هي مدرسته ، وما منهجها ، وكيف نحدد معالمها مع وجود ما ظاهره التناقض فيها ؟
- وما علاقته بمحمد عبده مع ما يشاع من تناقض بينهما ؟
- وهل هناك أمر خفي وراء وفاته المفاجئة ؟

أسئلة كثيرة ، ما ننتهي من أحدها إلا وينسينا تاليها أولها .

ولعل العمر إن كانت فيه بقية ، ويسر الله لي أن أعيد النظر فيما كتبته فسوف أستخير الله أن يكون البحث أوسع مجالاً حول رشيد رضا ، « طود وإصلاح » أحاول أن أرتق فيها ما انخرق من هذه السطور ، وألم شعث ما تبعثر منها ، وأرأب ما صُدع من كلماتها ، كي يخرج البحث على الصورة المرضية ، والغاية المرمية ، وقد رأيت أنه من المناسب تقسيم البحث إلى ما عهد في الرسائل العلمية من أبواب وفصول وخاتمة أذكر فيها أهم النتائج التي توصلت فيها من خلال هذا البحث .

فصدرته **بالباب الأول** ، وتناولت فيه نبذة عن حياته وسيرته الشخصية تناولت فيها اسمه ونسبه ، ومولده ونشأته ، وبداية إصلاحه ، نقطة التحول في حياته ثم المرحلة المصرية ، وتأسيس المنار ، ثم أهم أعماله في ميدان الفكر والتعليم ، والسياسة ، ومؤلفاته ، وثناء العلماء والمفكرين عليه ، وتلاميذه ، ثم وفاته ، ثم ختمت الباب ببعض الأمور التي تؤخذ عليه إجمالاً .

أما **الباب الثاني** : فخصصته لبيان عقيدته ، عرضاً وشرحاً ومناقشة من خلال مؤلفاته .

وأما **الباب الثالث** : فخصصته لدراسة ولبيان خصومه ومحبيه ، وبينت عند الكلام على خصومه ، خصوماته للخرافيين ، وللمستشرقين والشيعة ، والنصارى ، ولأتباع المدرسة العقلية .

ثم تكلمت بعد ذلك عن بعض الاتجاهات الفكرية التي تأثرت برشيد رضا ، تكلمت في هذا المبحث عن علاقة كل من أنصار السنة المحمدية ، والعلامة الألباني ، وجماعة (الإخوان المسلمون) برشيد رضا ، ويجدر التنبيه هنا أن الأستاذ المشرف حفظه الله طلب حذف فصل المقارنة الأخير لأنه لا يراه متفقاً مع أصل البحث ، وأحب أن ينبه على ذلك في هذه المقدمة وختمت

بالكلام على محبيه بأن عقدت مقارنة بين دعوة رشيد رضا المتمثلة في شخصه، وبعض الدعوات الأخرى المعاصرة ومدى تأثرها بمنهج رشيد رضا وانبثاقها عن بعض آرائـــــه .

واختتمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم ما توصلت إليه ، وما قصرت عن الإحاطه به وذيلتها بمقترحات وتوصيات أتقدم بها لعلي أكون محقاً في إحداها ، فتستجيب لها الآذان وتتفتح لها القلوب .

وأحاول من خلال هذا أن أصل إلى ورقة عمل إسلامي موحد لبناء الهيكل الدعوي للجماعات وربما عرضت أثناء البحث لبعض فتاوي السيد رشيد رضا التي نحتاجها اليوم في هذا العصر .

من الناحية الشكلية ، قمت بترقيم الآيات القرآنية ، وتخريج الأحاديث النبوية ، وأما الأعلام فلم أترجم إلا من رأيت أن لترجمته صلة بموضوع البحث ، أو لنكتة لا تخفى على القارىء ، وحاولت قدر المستطاع أن ألتزم بعلامات الترقيم الحديثة ، قمت بعمل فهارس متنوعة تتميماً للفائدة .

والله سبحانه المسؤول أن يوفقنا ويسدد خطانا ، ويجمعنا على الخير في الدنيا والآخرة .

وفي النهاية : إن كنت أصبت في شيء مما سطرت فهذا من فضل الله ورحمته ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان ، وأسأل الله أن يغفر لي زللي وخطئي ، ويرحمني ويعافيني إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم المعين ، سبحانه العلي العظيم الغفور الرحيم .

الباب الأول

موجز عن حياته وسيرته

اسمه ونسبه :

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين ابن السيد بن منلا علي خليفة القلموني ، البغدادي الأصل [١] الحسيني النسب [٢] .

وقد ترجم السيد رشيد رضا لنفسه في مجلة المنار والأزهر ترجمة حافلة [٣] وسأحاول هنا أن أختصر مهماتها . مع ما أضيف إليها من الكتب التي ترجمت له . رحمه الله .

مولده ونشأته :

ولد يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨ تشرين الأول سنة ١٨٦٥م في قرية « قلمون » على شاطىء البحر جنوب طرابلس

---

(١) انظر في نسبه ٦/٣٦١ من الأعلام للزركلي ، ص ٩/٣١٠ من معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، ص ٥٣٩ من المجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعيدي ، وص ١٧٠ من أطروحة التخصص « المدرسة العقلية الحديثة » لفهد الرومي . جامعة الإمام بالرياض ، ص ١٠٣ من كتاب الشرباصي .

(٢) شكك بعضهم في نسب رشيد رضا ، فذكر الدكتور حبيب السامرائي أنه سأل عن عائلة رضا وفتش في كتب النسب في النجف ، وفي كتب أشراف العراق ، فلم يجد اسم منلا خليفة البغدادي . والله أعلم . انظر ص ١٧١ من رسالة المدرسة العقلية .

(٣) انظر ص ١٣٣ من المنار والأزهر ط . المنار سنة ١٣٥٣ هـ للسيد رشيد .

الشام ، على بعد ثلاثة أميال منها وفيها تعلم القرآن والخط ، وقواعد الحساب ، ثم التحق بالمدرسة الرشدية الابتدائية بطرابلس وكانت تابعة للدولة العثمانية ، ويدرس فيها باللغة التركية ، ولكنه لم يلبث أن تركها بعد سنة ، والتحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية في سنة ١٢٩٩هـ - سنة ١٨٨٢م وله نحو سبع عشرة سنة ، وكانت هذه المدرسة نقطة تحول بالنسبة له ، إذ كان التعليم فيها باللغة العربية ، وكان منشئها والمدرس فيها الشيخ حسين الجسر الأزهري أحد علماء الشام الذين يميلون للإصلاح ، وكانت هذه المدرسة تدرس اللغتين التركية والفرنسية إلى جانب العربية ، وتدرس علوم الرياضيات والطبيعيات إلى جانب العلوم الشرعية ولم يطل عمر هذه المدرسة فأغلقت أبوابها وتفرق طلبتها ، لأنها كانت مدرسة أهلية لا تكسب الطلاب الرخصة في عدم دخول العسكرية وبعدها التحق السيد رشيد بالمدارس الدينية بطرابلس ، ولم تنقطع صلته بالشيخ حسين الجسر الذي يسر له الكتابة في الصحف ، وكان وقتها قد حصل من المعارف ما يؤهله لذلك ، وظهرت عليه علامات النجابة ، فكان ينتقد ما يراه مخالفاً للقواعد والأصول ، وكان يحترم شيوخه لاسيما الشيخ حسين الجسر إلا أنه كان يأخذ عليه مداراته وعدم جهره بالحق الذي يعتقده [1]

---

(١) وقد صرح بذلك في عدة مواضع من كتبه أنقل هنا أحدها قال : « إن المبالغة في مداراة القاصرين تقف بصاحبها دون ما هو أهل له من زعامة المصلحين فإن أستاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر نسيج وحده في علماء سوريا الجامعين بين علوم الشرع . والوقوف على حالة هذا العصر ، ولولا مبالغته في مداراة الجامدين من المعممين ، وكذا العوام أيضاً لكان ثالث السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، في زعامة الإصلاح وإنني قد صارحته باستنكار هذه المبالغة في المداراة مشافهة له ، وهو ما انتقده على كتاب الرسالة الحميدية له من إيراد المسائل العلمية التي لا شك فيها بعبارات تدل على الشك فيها ، واحتمال صحتها بالفرض والتسليم الجدلي ، ثم قلت له ، وقد اعتذر بمداراة الجامدين : إذا لم يكن مولاي الأستاذ في مكانته من سعة العلم والصلاح يجرىء المسلمين على =

وقد برع في نظم الشعر في صباه ثم شغف بكتاب إحياء علوم الدين فأخذه شيء من التصوف ، وكان هذا في مبدأ الطلب ، ولكنه وفق إلى ترك الضار منه ، فلم يأخذ به مثل عقيدة الجبر ، والتأويلات الأشعرية ، والصوفية ، والغلو في الزهد ، والغناء ، وبعض العبارات الباطنية والمبتدعة [١] ، ومع ذلك استمر في طريقته ورياضته الصوفيه إلى حين ، ثم ظهر أثر تغيره بعد المرحلة المصرية كما سيأتي إن شاء الله .

بداية إصلاحه :

بدأ السيد رشيد رضا حياته الإصلاحية بأن ثار على المنكرات المتفشية في ذلك الزمان بين أهل قريته وبلده ، فأعلن إنكاره لما يحدث في مجالس الذكر لجماعة المولوية ، وكان يقرأ الدروس في المسجد بطريقة سهلة بسيطة ، بعيدة عن المماحكات اللفظية ، والتقعرات المنهجية ، ويحث في خطبة الجمعة على الإصلاح بل يذهب إلى المقاهي وينصح من فيها بأداء الصلوات ، ويبسط في تعليمهم أبواب الفقه ، ويقرب قواعده للعامة ، ويحذر من التبرك بأصحاب القبور ويأمر بقطع الأشجار التي يتبرك بها العوام ، ويلقي الدروس على نساء القرية لتعليمهن أمور دينهن في الطهارة والعبادات واللباس [٢] .

= الجزم بالمسائل العلمية التي يستنكرها أو يجهلها الجمهور ، فمن ذا الذي يجرئهم على هذا ، ولا يخشى اعتراض الجاهلين ؟؟ »

انظر ص ٢٠٩ الرسالة الثانية بين السنة والشيعة له ط ٢ سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ط المنار .

(١) انظر ص ١٤٠ من المنار والأزهر .

(٢) وقد ذكر جملة مما وقع له في ذلك في ص ١٧١ وما بعدها من المنار والأزهر .

نقطة تحول في حياته :

بعد برهة من طلبه العلم ، وجده في تحصيله ، وقع في يديه عددان من مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها الأفغاني ومحمد عبده ، فكانت نقطة تحول بالنسبة له . ولنترك السيد رشيد رضا يصف هذا التحول حيث يقول عن هذين العددين « فقرأتهما بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر » ويقول « كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا ، فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفقت أستعد لذلك استعداداً »(١) ، وامتداداً لهذا التحول ، كان من الطبيعي أن يحاول السيد رشيد أن يتصل بالأفغاني ومحمد عبده ، وبالفعل كتب للأفغاني وهو في الأستانة كتاباً أبدى له فيه محبته وتأييده ، وسأله إن كان يقبله مريداً يتلقف الحكمة منه ، وتلميذاً يقوم ببعض الخدمة (٢) .

وكذلك التقى بالشيخ محمد عبده في طرابلس مرتين ، فازداد إعجابه به ، ورغب في الاتصال بهما ، وعزم على ذلك في سنة ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م ، ولكن السيد جمال الدين الأفغاني توفي في هذه السنة ، فاشتدت رغبة رشيد رضا في الهجرة إلى مصر ، للاتصال بوارث علمه وحكمته ، وكان وقتها قد نال شهادة التدريس العالمية من شيوخه بطرابلس ، ولكن والده عارضه في

---

(١) انظر ص ٨٤/ ١ من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا .

(٢) انظر ص ٨٧/ ١ من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ، وانظر ص ١١/ ١ من تفسير المنار .

ذلك ، فلم يزل به حتى أرضاه فسافر بطريق البحر من بيروت إلى الإسكندرية(١) .

المرحلة المصرية :

وصل السيد رشيد رضا إلى الإسكندرية في ٨ رجب سنة ١٣١٥هـ =٣ يناير ١٨٩٧م وهو وقتها في أول العقد الرابع من عمره ، وقد اكتملت معارفه الأولية ، ونذر نفسه للإصلاح ، فما أن وطئت قدماه الإسكندرية حتى هرع للقاهرة فوصلها في يوم السبت ٢٣ رجب سنة ١٣١٥هـ واتصل بالشيخ محمد عبده في ضحوة الأحد ، وأخبره بغرضه في الهجرة ، وهي تلقي الحكمة عنه ، وأنه يعتقد أنه بقية رجاء المسلمين في السعي إلى الإصلاح ، والاضطلاع(٢) به ثم عرض على محمد عبده أن يبدأ في إلقاء دروس التفسير ، وبعد إلحاح كبير منه وافق محمد عبده ، وبدأ في إلقاء درس في التفسير ، والذي بدأ في غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ وانتهى منه بوفاته في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ عند تفسير قوله تعالى ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطا** ﴾ من الآية ١٢٥ من سورة النساء(٣) ، وأكمل رشيد رضا التفسير حتى وصل الآية ١٠١ من سورة يوسف ، وطبعه في المنار نهاية الآية ٥٣ من سورة يوسف .

---

(١) المجددون في الإسلام ص ٥٣٩ وما بعدها .

(٢) وانظر ص ١١ من الجزء الأول من تفسير المنار ، وانظر (المجددون في الإسلام) ص ٥٣٩ وما بعدها .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ص ١/٧٦٥ وانظر ص ١/١٤ من المنار .

وكان منهجه في التفسير يختلف عن طريقة أستاذه في الجملة حيث بينه بقوله : « هذا وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها ، وفي تحقيق بعض المفردات ، أو الجمل اللغوية ، والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة ، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها »[(١)]

تأسيس المنار :

كان من أغراض السيد رشيد الباعثة له على الانتقال من الشام إلى مصر إنشاء صحيفة إصلاحية إلا أنه أحب أخذ موافقة أستاذه أولاً فاستشاره في ٦ شعبان سنة ١٣١٥هـ ، وبعد نقاش وحوار وافق الشيخ محمد عبده مشترطاً عليه أموراً ثلاثة :

١- أن لا يتحيز لحزب من الأحزاب

٢- أن لا يرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض له بذم أو انتقاد .

٣- أن لا يخدم أفكار أحد من الكبراء[(٢)] .

وعلى هذه الشروط تم اتفاقهما ، فكانت « المنار » والتي قامت مقام مجلة العروة الوثقى ، وامتازت عليها ، فإنها مكثت زمناً طويلاً ، فارتفع بها صوت

---

(١) تفسير المنار ص ١٦/١ .

(٢) انظر ص ١٠٠٣/١ من تاريخ الأستاذ الإمام .

الإصلاح في هذا الزمن الطويل وهو يمتد إلى وفاة السيد محمد رشيد رضا عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م . وقد حاول الأستاذ حسن البنا أن يصدر المنار بعد وفاة الشيخ رشيد رضا رحمه الله ، وسطر ذلك في مذكرات الدعوة والداعية ، ولكن صدر الأمر الحكومي بإلغاء الترخيص [١] ، وآخر ما طبع من المنار الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م [٢] .

وقد بين السيد رشيد في مقدمة التفسير سبب إنشائه للمنار حيث قال « وأنشأت المنار للدعوة إلي الإصلاح » [٣] وفعلاً أعلنت المنار أغراضها في العدد الأول وهي : نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، وإقامة الحجة على أن الإسلام دين شامل ، ومواصلة السير على منهج العروة الوثقى [٤] وكانت « المنار » كاسمها مناراً للعمل والإصلاح ، نشر فيها مقالات محمد عبده ، وكتب فيها بنفسه مقالات أخرى ، واستكتب العلماءَ والأدباء الذين يشاركونهم المنهج وبسبب المنار اشتهر اسم رشيد رضا من جانب ، واسم

---

(١) انظر ص ٢٥٣ من مذكرات الدعوة والداعية .

(٢) انظر ص ١٧٧/ ١ من « المدرسة العقلية »

(٣) انظر ص ١٢ جزء ١ من تفسير المنار ، وفي كلامه رحمه الله على حديث « إن للإسلام صوى ومناراً » أي علامات وشرائع ، ذكر أن ذلك دفعه لتسمية المجلة بالمنار ، حيث قال ، هذا وإننا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلاً بأن يكون مبيناً لصوى الإسلام ، وناصباً لأعلامه ، وموضعاً لنور الحقيقة التي نحتاج إليها في حياتنا العملية والاجتماعية . اهـ انظر ص ٦٣٢ جزء ٢ من فتاوى الإمام رشيد رضا .

(٤) انظر ص ٦٢٢ جزء ٢ من فتاوى الإمام رشيد رضا .

محمد عبده من جانب آخر

وبُثت منها أفكارهما وآراؤهما ، وكذلك التفسير ، وأقدم كثير من العلماء والأفراد والجمعيات والمستشرقين على مراسلة المنار مشيدين بها .

وكانت المنار في أول عهدها تطبع في المطابع التجارية ، ثم أنشأ السيد رشيد مطبعة خاصة لها نفس الاسم « المنار » لم تقتصر على طبع المنار فحسب ، بل كانت تطبع الكتب الإسلامية المفيدة أيضاً .

وقد لمس محمد عبده فائدة المنار عندما زار تونس والجزائر ، ووجد أن شهرته وآراءه وأفكاره وتفسيره قد سبقته إلى هناك ، وعليه صار يثني عليها في مجالسه ، ويتحدث عنها ، وكأنه صاحبها ، بذل وسعه في بثها وانتشارها .

والظاهر أن ملكة السيد رشيد رضا اللغوية كانت تفوق أستاذه ، وذلك يظهر فيما سطره في المنار ، وأما التفسير ، فكانت العبارة لرشيد ، وإن كان استقى المعنى أو أكثر من محمد عبده ، فلقد كان يكتب ما يسمعه منه في الدرس ثم يبيضه ويعرضه عليه قبل النشر (أو بعده !!!) وينسبه له ، بل الأعجب من ذلك أنه كان ينسب له ما فهمه منه وسطره بيده ، ومن إنشائه الخالص !!!

قال في مقدمة التفسير :

« ولما كان رحمه الله يقرأ كل ما أكتبه ، إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الأقل ! ، لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه إليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدرس ، لأن إقراره يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة أن لا أعزو إليه إلا ما كتبته عنه ، أو حفظته حفظاً ، وصرت أكثر أن أقول : قال ما معناه ، أو ما مثاله ، أو ما

ملخصه ، مثلاً ، على أنني أعتقد أنه لو بقي حياً واطلع عليه لأقره كله »[1] اهـ .

وانطلق صوت الحق من المنار ، فجاء منه التحذير من البدع والخرافات السائدة في المجتمع ، وبين السيد رشيد أن الإسلام بريء منها ، وحمل العلماء مسئولية انتشارها ووجوب قلعها من جذورها ، وبين أن العلماء والحكام بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الإنسان ، وأن صلاح حالهما يصلح حال الأمة ، وأن العلماء هم القائمون على الطب الروحاني الذي هو تهذيب الأخلاق ، وتقويم العادات وبين لهم الطريق إلى ذلك بأنها طريقة الوعظ والتعليم والخطابة على المنابر ، وفي أماكن البدع نفسها ، وتحمل المشاق المترتبة على ذلك مع تحلي الدعاة بالأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية السامية[2] .

ورغم أن الشيخ محمد عبده كان يثني على المنار ويزكيها ، إلا أنه أخذ عليها وعلى السيد رشيد رضا أموراً هي :

(١) الشدة في إظهار الحق ، وكان يقول له في هذا : « إنك كثيراً ما تبرز الحق عرياناً ليس عليه حلة ، وحُلى يزينه للناظرين فينبغي أن تذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعي إليه صديق ، وأنه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد إعراضهم عنه » .

(٢) كون المنار في موضوعه ولغته بحيث لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص ، فينبغي أن يكون بحيث يفهمه جميع القارئين حتى العوام .

---

(١) انظر ص ١٥/١ من المنار «التفسير »

(٢) انظر ص ١٧٨/١ من المدرسة العقلية الحديثة .

وقد تحرى المنار العمل بهذه النصيحة فيما بعد السنة الأولى ، ولكنه أبقى كثيراً من مباحثه للخواص مع ذلك التحري .

(٣) الخوض في سياسة الدولة العثمانية التركية ، وقد ذكر السيد محمد رشيد رضا أنه كان يكره ذلك أيضاً ، ولكنه كان يعرض له من الضرورة ما يحمله عليه [١] .

أهـــم أعمـــاله :

(١) في ميدان الفكر والتعليم :

أ - المدارس :

نادى السيد محمد رشيد رضا بالإصلاح في مجال التربية والتعليم ، فحذر الراغبين في إصلاحه من تقليد المدارس الحكومية السائدة ، إذ إن هدف تلك المدارس إعداد تلاميذها للوظائف «ومن يرمي بتعليمه إلى هذا الغرض فهو خاسر . . وأجدر بتعليم هذا شأنه أن يسعى فى إزالته [٢] .

وبين رشيد رضا الفنون التي يجب إدخالها فى ميدان التربية والتعليم لمسايرة ركب العلم والعرفان ، وأصبح المرجع في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة [٣] .

وكانت الفنون التي أدخلها والعلوم التي أوصى بها هي : علم أصول

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا ص ١٠٢٢ الجزء الأول وانظر (المجددون في الإسلام) ص ٥٣٩ وما بعدها .

(٢) انظر ص (١٧٧-١٧٨) من رشيد رضا لإبراهيم العدوي ، وانظر ص ١٧٨/ ١ من المدرسة العقلية .

(٣) انظر ص ٢٦١/ ٦ من الأعلام للزركلي .

الدين، وتهذيب الأخلاق ، وفقه الحلال والحرام ، والعبادات ، والاجتماع ، وتقويم البلدان والتاريخ ، والاقتصاد ، وتدبير المنزل، والحساب ، والصحة ، وعلم لغة البلاد ، والخط . . [(١)] » .

ب ـ إصلاح الأزهر :

نادى السيد رشيد رضا بإصلاح الأزهر ، وكان عمله امتداداً لعمل أستاذه محمد عبده وازدادت مسئوليته في ذلك بعد استقالة أستاذه ووفاته .

وتكالب عليه خصوم أستاذه فأصبحوا خصوما له بالتبع ، مما اضطره أن يكتب كتابه «الأزهر و المنار » في سنة ١٣٥٢هـ شرح فيه آراءه ، وخلاصة تجاربه في هذا الميدان ، وماعترضه من عقبات [(٢)] .

ومما يذكر أيضاً أنه أتى محمد عبده بكتاب «أسرار البلاغة » من طرابلس وحمله على تصحيحه ، وتدريسه في الأزهر مجدداً به البلاغة العربية بعد أن بليت رسومها في كتب السعد والسيد ومن إليهما [(٣)] وكذلك نادى السيد رشيد بالتحرر من ربقة التقليد ، وعقد محاورات بين المصلح والمقلد ، ناصحا الأزهر أن يأخذ طريقه في الإصلاح ، ولا يكون عقبة في مساره .

وممانادى به لإصلاح الأزهر بل لإصلاح أحوال العالم الإسلامى كله ، هي محاولة تغيير طريقة تدريس الفقه واستمداده وتحديث مصادر جديدة تصفي القديم مما علق به يقول في ذلك عند الكلام على المغني لا بن قدامة ومعه

---

(١) انظر ص (١٧٧-١٧٨) من رشيد رضا لإبراهيم العدوي .

(٢) انظر ص ٢٠٧ من رشيد رضا لإبراهيم العدوي ، من ص ١٧٩/ ١ من المدرسة العقلية الحديثة .

(٣) انظر ص ٦/٦٣١ من الأعلام .

الشرح الكبير :

« وإنما غرضنا أن نبين يُسْر الشريعة ، وحكمة التشريع ، وكون الاجتهاد رحمة للأمة إنما يعرف من مجموع كلام المجتهدين ، ويفوت من قصر نظره على مذهب واحد من مذاهبهم ، وأن طلاب الإصلاح للأمة الإسلامية مازالوا يقترحون تأليف جمعية من علماء المذاهب المتبعة ، كلها تضع للأمة كتباً في العبادات والمعاملات ، تؤخذ من نصوص الكتاب والسنة ، ومن اجتهاد جميع المجتهدين ، يراعى فيها اليسر ورفع الحرج ، ودرء المفاسد ، ومراعاة المصالح ، ومراعاة العرف ، وغير ذلك من القواعد العامة .

وهذان الكتابان (يعني المغني والشرح الكبير) من أعظم الوسائل لذلك ، فهو الفائدة السابقة لما تقدم من فوائدهما ، وماوضعناه عليهما من التعليقات منها في الفقه ونسأله تعالى أن يعيد لهذه الأمة وحدتها وهدايتها ، ولن يصلح آخرها إلا ما صلح به أولها » أهـ .

جاءت هذه الكلمات في آخر رسالته في اختلاف الأمة ، طبعها الأستاذ زهير الشاويش مع غيرها في المكتب الإسلامي .

ج - عهد الدعوة والإرشاد .

حاول السيد رشيد أن يتمم ما بناه ، وأن يتوج ما بثه من آراء في إصلاح التعليم ، ويعطي صورة مثالية لما ينبغي أن يكون التعليم عليه ، ولذلك عمد إلي إنشاء معهد لإعداد الدعاة والمرشدين ، وكان هذا بعدما رجع من الشام إبان إعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ[١] .

---

(١) انظر ص ٦/١٣١ من الأعلام .

وكان قد مهد السبيل إلى افتتاح المعهد بأن كتب في المنار عن الرسائل التي كتبت إليه من أطراف العالم الإسلامي تطلب منه العون والمساعدة ضد الإرساليات التبشيرية التي أغرقت البلاد بمبشريها ومدارسها ، فقام السيد رشيد إثر ذلك بسطر عدة مقالات في المنار ، ولم يكتف بذلك بل زار الأستانة وحصل على الموافقة على ذلك [١] .

وافتتح المعهد في ربيع الأول سنة ١٣٣٠هـ (١٩١١ م) وكان يمنح الطالب فيه شهادة مرشد بعد ثلاث سنوات تؤهله للدعوة والإرشاد بين المسلمين ، أما إذا وصل سنوات ثلاث أخرى فيصبح داعياً من الدعاة لغير المسلمين للدخول في الإسلام ، وكان لهذه المدرسة أثر كبير في إعداد الدعاة ، وتربيتهم ، ولكنها لم تستمر طويلاً ، بعد إنشاء مدرسة دار الدعوة والإرشاد بسنوات قليلة ، توقفت المساعدات التي كانت تأتي للمدرسة من الحكومة المصرية فاكتفت بما فيها من الطلاب ثم أقفلت نهائياً سنة ١٩١٦م [٢] .

د - مشاركاته الأدبية والعلمية :

كان للسيد رشيد مشاركات في كثير من الجمعيات الإسلامية والدينية والثقافية فكان عضواً في المجمع اللغوي الذي تأسس في سنة ١٩٢٢م [٣] ، وشارك في الجمعية الخيرية في دمشق (والتي أنشأت في سنة ١٢٩٥هـ - سنة ١٨٧٨م ، مع شكيب أرسلان وجمال الدين القاسمي كما كان يخطب في جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بمصر [٤] .

---

(١) انظر ص ٦١ - ٧٣ من رحلات رشيد رضا جمع وتحقيق يوسف أبيش وص ١٧٨ - ١٧٩/ ١ من المدرسة العقلية .

(٢) انظر مجموع فتاوى رشيد رضا مقدمة المحققين ص ١٩ .

(٣) انظر ص ٦٢ من كتاب الشرباصي .

(٤) انظر ص ٨٦ من المرجع السابق .

كما كان من مؤسسي الرابطة الشرقية في عام ١٩٢٢م وكذا كان مؤسس جمعية السلم العام في بلد الله الحرام سنة ١٩٢٤ م والتي كان من أهدافها نشر الفنون والعلوم [١] .

وكل هذه الجمعيات والمؤسسات لم تدم طويلاً ، ولكنها دليل على جهوده الإصلاحية في ميدان الفكر واستقلاليته برأيه ، ولقد كان الشيخ رشيد حريصاً على أن يؤكد استقلاليته في الفكر قال في ترجمة حياته : « فإن بعض الناس كانوا يظنون أنني قد قمت بهذه الدعوة الإصلاحية في الإسلام بالتلقين من الشيخ محمد عبده رحمه الله وإنني لم أكن ذا رأي مستقل فيها ولا عاملاً بوازع من نفسي ، ويظن آخرون أني أنشأت المنار لأجل كسب الرزق ، ولكن قراء المنار ولا سيما الأولين منهم كانوا يعلمون أن الأمر بخلاف ذلك من كل وجه ، وإنني كنت مستقلاً برأيي في كل شيء » . [٢]

٢ - في ميدان السياسة :

كان أول نشاط رشيد رضا السياسي مع مطلع العدد الأول من المنار حيث كتب في مقدمته بيان ما للأمة على الإمام ، وما للإمام على الأمة ، فما كان من أساتذة محمد عبده إلا أن حذروه من الخوض في السياسة ، والتدخل فيها . والحق أن محمد عبده كان جامحاً لتطلعات رشيد رضا في إصلاح السياسة لأنه رأى عدم الفائدة من وراء ذلك وأن المتلبس بها أقرب للوقوع فيه من الأخذ منه ، وقد أبان عن هذا الموقف رشيد رضا بقوله : « سالمنا السياسة فساورت وواثبت وأسلسناها لها فجمحت وتقحمت ، وكنا نهم لها في بعض الأحيان

---

(١) انظر ص ٨٧- ٨٨ من المرجع السابق .

(٢) انظر ص ١٣٣ من المنار والأزهر .

فيصدف بنا الأستاذ الإمام ، ولم تنل منها ما نهواه ، إلا بعد أن اصطفاه الله » اهـ وظل رشيد رضا فعلاً بجد من أستاذه كابحاً كلما همّ بالانطلاق نحو معترك السياسة [١] ، إلا أنه كان يضطر للدخول فيها اضطراراً ، وذلك أنه لما كان عبدالرحمن الكواكبي طليقاً يكتب في السياسة ما يشاء وألف « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » لم يقف السيد رشيد مكتوف اليدين أمام هذا النشاط فنشر تباعاً « سجل أم القرى » فساعد على ترويج المنار [٢] .

ولما توفي الأستاذ دخل السيد رشيد ميدان السياسة جهاراً فانتقد الدولةالعثمانية ، وأنشأ مع العثمانيين المقيمين في القاهرة « جمعية الشورى العثمانية » وتولى رئاستها ، وبدأت ترسل منشوراتها السياسية السرية إلى سائر أرجاء البلاد العثمانية ، فأقلق مضاجع السلطة إلى أن وقع الانقلاب العثماني . ويذكر بعض المؤرخين أن السيد رشيد رضا كان من الساعين إلى هذا الانقلاب في الخفاء [٣] .

ومما يثير التساؤل حقاً أن السيد رشيد رضا قد شارك في (حزب اللامركزية العثماني) فضلاً عن جمعية الشورى الآنفة الذكر والجديد هنا أن حزب اللامركزية هذا ضم اتجاهات فكرية متباينة .

---

(١) انظر رشيد رضا لإبراهيم العدوي ص ٢١٦ - ٢١٩ ، ص ١١٨٠ من المدرسة العقلية الحديثة .

(٢) انظر ص ١٨٠/ ١ من المدرسة العقلية الحديثة .

(٣) انظر ص ١٨٠/ ١ من المصدر السابق ومما يجدر ذكره أن مقصود الجمعية كما جاء في المادة الثانية من قانونها : هو التوسل لإقامة قاعدة الشورى على وجهها القطعي في دول آل عثمان ، ونشر العدل والترقي في المملكة على ما يقتضيه العصر انظر ص ٢٣ من رشيد رضا لأحمد الشرباصي ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

وأما سبب إنشائه فهو ما كان من أمر البلقان ، وسقوطها .

يقول سعيد أمين في الثورة العربية الكبرى :

(لقد كانت عبر الحرب البلقانية فاتحة تحول خطير في الرأي العام العربي فقد أوجس العقلاء شراً من النتائج سيما وقد كانت بلاد العرب مجردة من جميع وسائل الدفاع كما كانت ثغورهم عاطلة من معدات الحرب والكفاح لا تقوى على الثبات والوقوف في وجه المغيرين فإنشاء حزب اللامركزية وتأسيس الجمعيات الإصلاحية في بيروت والبصرة وبغداد هو نتيجة طبيعية للحرب البلقانية) اهـ .[1]

فهذا سبب نشأتها وأما أعضاؤها ومؤسسوها فهم (رفيق العظم - السيد محمد رشيد رضا - الدكتور شبل شميل - اسكندر عمون - سامي الجريديني - حقي العظم - محب الدين الخطيب) وجاء في برنامجها :

- **المادة الأولى** : ألف حزب سياسي باسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني) .

- **المادة الثانية** : القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية .

- **المادة الثالثة** : ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه ما يعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية

---

(١) الثورة العربية الكبرى : لسعيد أمين ص ١٤ .

من أحد لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية (١) .

ومن الجمعيات التي أنشأها السيد رشيد رضا أيضاً جمعية الجامعة العربية وذلك بعد عودته من الأستانة سنة ١٩٠٩م فقد رجع منها كما يقول سعيد أمين - باعتقاد عدم إمكان دوام اتحاد العرب والترك .

وقد رمى إلى غرضين من إنشائها : أولهما : السعي لاتحاد حلفي بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق . ثانيهما : التعاون على عمران البلاد والدفاع عنه وإيجاد صلة بين الجمعيات العربية في سوريا والعراق وغيرهما .

وجاء في قسم الجمعية الذي وضعه رشيد رضا إذ كانت خاصة بالأمراء والزعماء وكلهم من المسلمين :

(أقسم بالله العظيم القهار ، المنتقم الجبار ، العالم بسري وعلانيتي ، القادر على سلبي كل ما أعطاني من المواهب والقوى ، وبكتاب الله المجيد أنني أبذل كل جهدي وما في وسعي لجمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم ، بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية التي أنتظم في سلكها اليوم . وإنني أسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والإخلاص وإنني لا أبخل في سبيل ذلك بمالي ولا بنفسي ولا يلفتني عنه هواي وحظي الشخصي ولا حظ أحد من أهلي وولدي وأنني أحافظ على مقاصد الجمعية وأسرارها بأشد ما أحافظ به على ديني وشرفي

---

(١) انظر ص ١٥ من المرجع السابق .

وعرضي فلا أفشي لها سراً ولا أعارضها [١] فهذه الجمعيات وأمثالها مما يستند إليه القائلون بأن السيد رشيد رضا عمل على إسقاط الخلافة العثمانية .

وتحقيق القول في هذا الأمر مشتبه جداً إلا أن الثابت أن السيد رشيد رضا كان يهاجم أموراً من الفساد والانحطاط في سياسة بعض الولاة العثمانيين .

كما انتقد سياسة الدولة العثمانية في حروبها لإيران ، لما تسببت فيه من إثارة عصبية الشيعة [٢] ، ولكن هل هذا يعني أنه كان يسعى لإسقاط الخلافة؟!!

إن السيد رشيد رضا قد فهم خطة الاستعمار وأعلنها ، فكيف يساعدهم عليها لقد قال عن رجال الاستعمار أنهم « يبثون في البلاد العربية فكرة الاستقلال العربي ، مخادعة للعرب ، ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية وماذا تريد أوروبا بعد ذلك؟ ، تريد أن تضع البلاد العربية تحت حمايتها ، أو تضمها إلى معسكراتها ، وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال » [٣] .

غير أنه ما كان راضياً عن السلطان عبد الحميد لما عليه هذا الأخير من استبداد وظلم وفساد في رأي السيد رشيد رضا ولذا فرح بمجيء السلطان محمد رشاد وخلع السلطان عبد الحميد [٤] .

وبعد سقوط الخلافة تطلع لها كل من ملك مصر والحسين بن علي ملك

---

(١) انظر ص ٤٩ من المرجع السابق .

(٢) انظر ص ٥٤ والهامش - من السنة والشيعة ط ٢ سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .

(٣) انظر ص ٣١ من كتاب الشرباصي .

(٤) انظر ص ٣٤ من المصدر السابق .

الحجاز ، وأيضاً كان الأمر معلقاً بملك اليمن وسلطان نجد ، وحاول رشيد رضا أن يعقد في كتاباته موازنة لمن يصلح أن يكون ملكاً للعرب وكان يميل للملك عبد العزيز بن سعود وقبلها كان يميل للشريف حسين وكانت له مع مجلة « القبلة » لسان حال الحسين ومع مديرها المسؤول محب الدين الخطيب علاقات عمل لمدة طويلة [١] .

الحاصل أن من ذكر سعي السيد رشيد رضا في سقوط الخلافة ، لم يأت بأدلة صريحة على زعمه . وقد تأسف بعضهم على عمل السيد رشيد رضا بالسياسة ، ومهاجمته للدولة العثمانية ظناً منه أن رشيداً كان له دور في إسقاطها ، قال في كتاب « المجددون في الإسلام » :

« وليته سمع لأستاذه في ترك الخوض في سياسة هذه الدولة ، لأن الدول الأجنبية كانت تستغل هذا في مصلحتها ، وبعض الناقمين عليها كان يشتغل بتأثير هذه الدول وكانت عاقبة هذا أنها استولت على البلاد العربية بمساعدة كثير من أبنائها ، وهم الآن يبنون سوء مساعدته لها ، ويندمون عليها حين لا ينفع الندم » [٢] اهـ .

وكلام صاحب المجددين هذا فيه إجمال وإيهام ، والثابت أن السيد رشيد رضا كان يقاوم التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية بكل قواه ، ويحذر منه ، كما سبق بيانه ، ويدل أيضاً على ذلك أنه حينما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب ، كتب عشر مقالات بعنوان المسألة الشرقية حذر فيها من الخطر الذي يحدق بالعالمين الإسلامي والعربي حتى اضطر وكلاء الدول الأوروبية في مصر

---

(١) انظر ص ٧٦ من المصدر السابق

(٢) انظر ص ٥٣٩ من المجددون في الإسلام لعبد المتعال الصعيدي .

إلى الالتجاء إلى المعتمد البريطاني في مصر ليوقف هذه المقالات ويحول دون انتشارها بين الأمة العربية [١] . أما موقفهم بريطانيا والإنجليز فأشهر من أن يوضح ويحقق ، فإن كتبه ومقالاته طافحة بذكر عيوبهم والتحذير من تدخلهم في شئون المسلمين ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى حاول الإنجليز استمالته إليهم ، ولما لم يروا منه ذلك صار تحت مراقبتهم [٢] .

وقد هاجم السيد رشيد الإنجليز أيضاً في معرض هجومه الشديد على سياسة الأمراء حسين وفيصل وعبد الله ، وانتقاده لسياستهم في الحجاز قبل استيلاء الملك عبد العزيز عليه . فمن ذلك قوله متهكماً :

« يظهر أن مدير التيمس ، ومراسلة التيمس بمصر ، وأمثالهما لا يزالون يظنون كما يظن رجال الوزارة الخارجية البريطانية ، أن المسلمين لا يزالون كالبله يصدقون كل ما يقول الإنجليز ، بدليل أن بعض أهل فلسطين وسورية والعراق لا يزالون يعظمون حسيناً وفيصلاً وعبد الله مع ظهور خيانتهم للأمة العربية ، وخيانتهم على الدين الإسلامي »[٣] .

ويقول مندداً بمن يساعد الإنجليز في كتاباته :

« أرجف بعض الكتاب الذين يخدمون السياسة الإنكليزية من طريق الحجاز بأن سلطان نجد يريد إكراه الحسين بضغطه على توقيع المعاهدة العربية البريطانية فمتى خضع عاد جيش نجد أدراجه . . وأرجفوا بأن ابن سعود ينفذ

---

(١) انظر ص ٢٣٦ من رشيد رضا للعدوي عنه ، وانظر ص ١٨٠ ، ١٨٥/ ١ وص ٤٧ من المدرسة العقلية

(٢) تنظر ص ٢٤٣ من رشيد رضا للعدوي وص ١٨٠/ ١ من المدرسة العقلية وص ٤٧ من كتاب الشرباصي .

(٣) انظر ص ٢٠ من الوهابيون والحجاز : لرشيد رضا .

للإنكليز في الحجاز ما لم ينفذه حسين ، وأنهم هم الذين أغروه بالاستيلاء على الحجاز ، فظهر كذبهم أتم ظهور . . . .

ثم ذكر حججه على ذلك (١) .

وقد نشط السيد رشيد رضا في إبداء آرائه السياسية في جميع الأحداث التي كانت في الفترة بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، متمتعاً بنضج سياسي ناجم عن رحلاته الكثيرة لبلاد العالم الإسلامي ويذكر أنه رحل إلى الأستانة سنة ١٩٠٩ م ، سنة ١٣٢٧هـ للسعي في إنشاء معهد الدعاة ولإزالة سوء التفاهم بين العرب والترك ، ثم رحل إلى الهند للاشتراك في ندوة العلماء ورحل إلى الحجاز ، وغيرها ولما نضج سياسياً بدأ يكشف مخططات الدول الأجنبية ، وكانت له مشاركة حميدة في محاربة الصهيونية ، والحيلولة دونهم للاستيلاء على فلسطين ، وكتب سلسلة من المقالات عن ثورة فلسطين أسبابها ونتائجها ، وحقائق في بيان حال اليهود والإنجليز والعرب ، واشترك في المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف سنة ١٩٢١ م ، ووقع الاختيار عليه ليكون نائباً لرئيس المؤتمر (٢) .

وقد ذكر صاحب الأعلام ، وصاحب معجم المؤلفين أن السيد رشيد رضا قصد سورية في أيام فيصل بن الحسين وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها ، ثم غادرها على إثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠ م (٣) . ولعل هذا هو الأرجح من الذي ذكره صاحب المدرسة العقلية ، فإن المؤتمر السوري كان في دمشق لا في جنيف ، وإنه انتخب رئيساً للمؤتمر لا نائباً في سنة ١٩٢٠م ويدل

---

(١) انظر ص ٤٩ من المصدر السابق .

(٢) انظر ص ١٨٠/١ من المدرسة العقلية للدكتور الرومي .

(٣) انظر ص ٣٦١/٦ من الأعلام ، وص ٣١٠/٩ من معجم المؤلفين .

على ذلك ما سطره رشيد رضا في رده على العاملي حينما زعم الأخير أن فيصلاً هو الذي عين السيد رشيد رضا رئيساً للمؤتمر ، فقال السيد رشيد رضا رداً على مفترياته ومدللاً على كذبه : « كزعمه أن فيصلاً هو الذي عين صاحب المنار رئيساً للمؤتمر السوري العام في دمشق ، وكل الناس يعلمون - كالشيخ العاملي - أن المؤتمر انتخب صاحب المنار لرياسته انتخاباً ، وأنه ما كان لفيصل أن يعينه تعييناً »[1] وكثيراً ما حذر السيد رشيد رضا المسلمين من مخططات الإنكليز وفضح أساليبهم ، ووصفهم بأنهم أعداء الخلافة الإسلامية والعرب معاً ، وأنهم الذين يحاربون دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويساعدون خصومهم بالمال والعتاد ، ويذكر موانع انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأنها الدولة العثمانية ، محمد علي باشا ، ودولة الدسائس الشيطانية ويقصد بها بريطانيا[2] .

ولم تربطه علاقة وطيدة بالإنكليز كالتي كانت مع صاحبيه الأفغاني وعبده، ولم تربطه علاقة إلا بمستر « متشل أنس » الذي وصفه السيد رشيد رضا أنه كان من خيار الإنكليز الذين تقلدوا بعض أعمال الحكومة بمصر[3] .

أما الاستعمار الفرنسي فحاربه السيد رشيد وهاجم سياسته الرامية إلى تنصير المسلمين ونقد الأزهر في عدم إصداره احتجاجاً على فرنسا بهذا المعنى[4] وعلى جانب آخر ثار على جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت

---

(١) انظر ص ٣٣ من السنة والشيعة .

(٢) انظر ص ٢٠٥ جزء ٢٦ من مجلة المنار ، وانظر ص ١٨٥/ ١ من المدرسة العقلية .

(٣) انظر ص ٤٢٢/ ١٠ من المنار ، وانظر ص ١٨٥/ ١ من المدرسة العقلية .

(٤) انظر ص ١٤ من المنار والأزهر لرشيد رضا .

السلطان عبد الحميد ، ووصفها بأنها جمعية الأحمرين الدم والذهب [١] ، ووصف مصطفى كمال أتاتورك بالإلحاد والمروق من الدين الإسلامي [٢] ، ثم تأسف على الخلافة ، وأخذ يدعو بشدة إلى إعادة الخلافة الإسلامية ، وألف في ذلك كتابه الخلافة أو الإمامة العظمى ، ودعا إلى عقد مؤتمر للخلافة في مصر سنة ١٣٤٣هـ وتم انعقاده بلا نتيجة مشجعة [٣] .

وقد تحدث السيد رشيد عن أعماله السياسية فقال « ويمكنني كتابة سفر كبير في أعمالي السياسية وحدها » [٤] . وهكذا نجد أن الشيخ رشيد قد دخل ميدان السياسة بما له من ذكاء وحنكة ، ولكن هل حصيلة هذا الأمر تعد من حسناته أو ما يعاب عليه ، هذا مايحتاج إلى عمق أكثر في البحث ، ولا سيما وكثير من الحقائق السياسية عن هذه الفترة مازال حتى الآن يعد من الأسرار الدولية ، لم

---

(١) وقد ذكر شكيب أرسلان أن السيد رشيد لما انضم لأعداء الدولة العثمانية قبل الحرب الكبرى كان غرضه إسقاط جمعية الاتحاد والترقي ولم يكن يريد زوال الدولة العثمانية . انظر ص ١٩٧ من ترجمة الأمير شكيب للسيد رشيد رضا .

(٢) بل قد وصف جميع أعضاء وزعماء حزب الاتحاد والترقي بذلك ، وصفهم بأنهم « أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانيك . . . » اهـ وكان هذا في خطبته السياسية في منى لما حج ، انظر ص ١٧٩ من رحلات السيد رشيد رضا جمع أبيش ، وانظر ص ١٦/١٤٥ ، ص ١٦/١٥٩ من المنار ، و١٨٦ من المدرسة العقلية .

(٣) انظر رشيد رضا أو أخاء أربعين عاماً لشكيب أرسلان ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، وص ٤٤٤ - ٤٥٠ عن ص ١/١٨٧ من المدرسة العقلية .

(٤) انظر ص ١٩٤ من المنار والأزهر..

تستطع الهيئات أن تكشفه أو تبوح به [١] .

وهنا يطرح سؤال نفسه .

هل يجوز الدخول في مثل هذه الجمعيات السرية ، حتى ولو كان من أعضائها غير المسلمين .

ثم أيمكن لرجل من أهل العلم كرشيد أن يكون متناقضاً بين النظرية والتطبيق ؟

وقبل محاولة الجواب عن هذا السؤال أعرض أن وجهة نظر الشيخ رشيد في دخول الجمعيات السياسية هو تسيير الدولة إلى أن تبسط نفوذها الإسلامي على العالم كله ، وإلى إصلاح شؤونها الداخلية .

يقول في المنار [٢] . « إن الدين الإسلامي دين سلطة وسياسة لا دين تعبد وتحنث فقط ، وأصوله بأن يسعى أربابه بأن يكون لهم السلطة على العالم كله لا على المسلمين وحدهم كما يظن البعض . ولكن هذا الأمر من وظائف الخلفاء لا من وظائف العامة ، فترشدها إليه الجرائد والخطباء وتؤلف لأجله الجمعيات . وإننا نعتقد أن الله تعالى ما كلفنا بنشر ديننا في جميع العالم ورفع لواء سلطتنا على رؤوس جميع الشعوب لأجل الأبهة والفخفخة وتمتع الملوك والأمراء بالسلطة المطلقة واستعباد الناس وإذلالهم ، وإنما أمرنا الله باستعمار الأرض وإصلاح الناس ، ولذلك ذكر في أول الآيات التي نزلت في الإذن

---

(١) ومما يدعو للعجب أن وثائق المخابرات الإنجليزية والتي تنشر كل خمسين سنة قد أجل موعد نشرها لأجل بعيد حفاظاً على السياسة الدولية كما زعموا !! .

(٢) المنار ج ٣ ص ٢٤٢/ ٢٤٣ .

بالقتال ، هذا المقصد الشريف » . فقال عز من قائل : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ . [الحج : ٣٩ - ٤١] . اهـ .

فهذا رأي الشيخ رشيد وأما الإجابة عن السؤال فقد كفانا الشيخ رشيد مؤونتها بأن أجاب بنفسه عليه فقد ورد سؤال له بهذا المعنى وتولى هو الرد عليه وأنا أنقله بنصه لفائدته [١] .

سئل رحمه الله : هل يجوز لمؤمن أن يدخل جمعية سرية مختلطة من دون أن يقف على (كـــذا) ؟ وهل ورد في النهي عن ذلك في شيء من الآيات والأحاديث ؟

وهل يجوز لمسلم أن يدخل على جمعية رئيسها من غير أبناء دينه ؟ هل يباح لمسلم أن يلقب بفارس الهيكل وما أشبه هذا اللقب المختص في هذه الأزمان ببعض الجمعيات الغير المتدينة ؟

ج - المؤمن حر يجوز له أن يدخل في أي عمل مشروع وكل جمعية عملها مشروع ، وإن كان بعض أعضائها أو رئيسها من غير المسلمين ، فالعبرة إنما هي بالعمل هل هو جائز شرعاً أم لا ؟ فإذا تألفت جمعية خيرية لإسعاف الذين يصابون بالمصائب كالجروح والحريق (كجمعية الإسعاف في مصر)

---

(١) مجموع فتاوى رشيد رضا ص ١٠٣٢ ، ص ١٠٣٣ .

أو جمعية طبية خيرية كالجمعيات التي تتألف لمقاومة بعض الأمراض ، كالرمد الصديدي والسل الرئوي ، أو لتحسين أحوال العجزة كالعميان ، أو ترقية بعض العلوم النافعة كالطب والزراعة ، فيجوز للمسلم أن يدخل فيها مع غيره ولا يضره أن يكون رئيسها غير مسلم ، إذ ربما كان غير المسلم أقدر على النفع فيها من المسلم . فالجمعيات في هذا الزمان كالأحلاف التي كانت في الجاهلية ، منها ما هو على خير وما هو على شر . فأما ما كان حلفه على الفتن والغارات ، فهو الذي قال فيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا حلف في الإسلام » رواه مسلم . وأما حلفهم على التعاضد والتساعد ونصر المظلوم كحلف الفضول فهو الذي قال فيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » وقال : « شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت » هكذا أورده ابن الأثير مختصراً . وفي كتب السير « لقد شهدت » ويعني حلف الفضول الذي عقدته قريش في تلك الدار بعد حرب الفجار ، والمتحالفون فيه هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ابني عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة . تحالفوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم، إلا قاموا معه حتى يردوا إليه مظلمته . وإنما سمي حلف الفضول تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي وللغريب من القاطن ، قام به رجال من جرهم قبلهم يسمى الفضل منهم الفضل بن الحارث والفضل بن وداعة والفضل بن فضالة ، قال ابن الأثير في النهاية : وقيل إنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها ولا يقر ظالم على مظلوم فالمراد بالفضول ما يؤخذ ظلماً أي فاضلاً

عن الحق زائداً عليه .

والذي لا يجوز للمسلم هو أن يدخل في جمعية يتحالف مع أهلها ويتعاهد على أمر مخالف للشرع ، كإعطاء الشيء إلى غير أهله وقتل من لا يجوز قتله شرعاً ، كما هو شأن بعض الجمعيات السياسية السرية . ولا ينبغي له أن يدخل في جمعية لا يعرف مقصدها لأنه ربما كان مقصداً محرماً ، ولأنه لا يليق بالعاقل أن يلتزم القيام بما يجهل حقيقته وعاقبته ، فإذا دخل في جمعية على أنه ليس فيها شيء مخالف للشرع الثابت، ثم ظهر له فيها ما يخالفه ولم يستطع إزالته وجب عليه أن يتركها ويتبرأ منها .

وأما لقب « فارس الهيكل » فلا يحظر على أحد أن يلقب به نفسه أو ولده إلا إذا ترتب على ذلك مفسدة أو محرم كغش أو إيهام باطل ، وإلا فالألفاظ مباحة للناس في الأسماء والألقاب لا يكره منها إلا ما يدل على معنى مكروه أو فيه دعوى العظمة كما ورد في الحديث الصحيح النهي عن التسمي بملك الأملاك وملك الملوك . [1] اهـ .

مؤلفاتــــــه :

أكثر السيد رشيد رضا من المؤلفات في شتى المجالات ، وكانت كلها تتسم بالعمق والتحقيق ، وقد رأيت أنه من المناسب أن أسرد ما تيسر جمعه منها

---

(١) وهو كلام طيب إلا أنه ينبغي للمسلم أن لا يلتزم مع جمعية أو جماعة أو جهة بوعد وعهد لم يشرعه الله وقد أجابت اللجنة الدائمة للإفتاء بالسعودية على سؤال عن وعد الكشافة بأنه يجب أن يكون عمل الإنسان وفق شريعة الله تعالى فلا يجوز أن يأخذ على نفسه عهداً أن يعمل بقانون دولة أو طائفة - أو فئة ما من البشر بإطلاق ، اهـ وراجع الفتوى رقم ٤٧٦٧ في كتاب فتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٢٣٢/ ٢٣٣ .

مقسماً إياها على الأبواب والمواضيع ليعلم مكانته في هذا الدين ، وخدماته للإسلام ، وأذكر فيها ما كان من إنشائه ، أو ما كان بتحقيقه ، وإشرافه وما تركته أكثر مما سطرته ، وهو جهد المقل لعل الله أن ينفع به .

وقد جمع السيد رشيد جملة من مؤلفاته وأودعها في ترجمته ، ولكنني اقتصرت هنا على المطبوع والمنشور [١] .

في التفسير وعلوم القرآن :

١ - المنار وقد تقدم الكلام عليه (مطبوع) [٢]

٢ - فضائل القرآن لابن كثير (تحقيق) (مطبوع)

٣ - ترجمة القرآن (مطبوع)

في أصول الدين :

١ - الوحي المحمدي (مطبوع) [٣]

٢ - كليات الدين (مطبوع)

---

(١) راجع فصل الآثار العلمية من نظم ونثر وتصنيف في الترجمة التي ترجمها لنفسه من ١٨٠ من المنار والأزهر .

(٢) وقد شرع الشيخ رشيد في اختصاره ولم يتم المختصر الذي سماه التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد . وقد أكمل الاختصار الشيخ محمد أحمد كنعان وطبع بالمكتب الإسلامي سنة ١٩٨٤م .

(٣) وهو كتاب عظيم النفع ، جليل القدر ، وقد سئل رشيد رضا عن أحب كتبه إليه وآثرها عنده فسماه ، وقد قسمه إلى خمسة فصول : الأول في تحقيق معنى الوحي والرسالة وحاجة البشر إليها .
والثاني في إقامة الحجة على مثبتي الوحي المطلق في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم
والثالث في شبه منكري عالم الغيب على الوحي المحمدي .
والرابع في إعجاز القرآن بأسلوب وبلاغة .
والخامس في مقاصد القرآن في تربية نوع الإنسان وذكر فيها عشرة مقاصد وقد نشر في آخره عدة تقاريظ قال بعدها في « حكمة نشر هذه التقاريظ (ص٤١٨) . التي كتبها علماء ورواد : « وهذا كتاب فيه من حكم الإسلام في أهم أصوله وفروعه أكثر مما في رسالة التوحيد (أي المجموعة) .
ومما كان يسمعه مني متشل أنس وأمثاله (وهو وكيل المالية الإنكليزي في مصر) وفيه شواهد الكلام =

٣ - الخلافة (مطبوع)

٤ - السنة والشيعة (مطبوع)

٥ - الهدية السنية والتحفة الوهابية لابن سحمان (تحقيق) (مطبوع)

٦ - الرسائل والمسائل لابن تيمية (تعليق) (مطبوع)

٧ - التوسل والوسيلة لابن تيمية (تعليق) (مطبوع)

٨ - إنجيل برنابا (تعليق) (مطبوع)

٩ - شبهات النصارى وحجج الإسلام (مطبوع)

١٠ - المسلمون والقبط (مطبوع)

١١ - يسر الإسلام في النهي عن السؤال (مطبوع)

١٢ - الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية ، وهو أول مؤلفاته دوَّنه أثناء طلبه للعلم في الشام .

في الفقه :

١ - مناسك الحج (مطبوع)

=مالا يمكن أن يقال معها إنه من رأيي وقد اتفق على الشهادة له العلماء والأدباء وكتاب الأقطار من جميع الطبقات وفي مقدمتهم شيخ الأزهر (أي المراغي) بما هو صريح في تفضيله على جميع الكتب في موضوعه (إثبات الوحي والنبوة وإعجاز القرآن وأصول الإسلام الدينية والمدنية) وسيرون من فائدته في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وفي تثبيت المسلمين في دينهم ما هو فوق ذلك إن شاء الله تعالى ولله الفضل والمنة (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) [يونس : ٥٨].

والجدير بالذكر أن الشيخ رشيد نشر كتابه هذا برمته في تفسيره لسورة يونس .

انظر التفسير ١١/١٤٦ - ٢٩٣ .

٢ - الربا تقديم محمد بهجة البيطار (مطبوع)
٣ - مسائل أحمد لأبي داود (تحقيق) (مطبوع)
٤ - المغني لابن قدامة (تحقيق) (مطبوع)
٥ - الفروع لابن مفلح (تحقيق) (مطبوع)

في التاريخ :

١ - المولد وخلاصة السيرة (مطبوع)
٢ - شكيب أرسلان رحلة الحج (تحقيق) (مطبوع)
٣ - تاريخ الشيخ محمد عبده المسمى (تاريخ الأستاذ الإمام) (مطبوع) ثلاث مجلدات .
٤ - الوهابيون والحجاز (مطبوع)

في الإصلاح وموضوعات متفرقة :

١ - الوحدة الإسلامية وقد أعاد طبعه المكتب الإسلامي بتعليقات زهير الشاويش
٢ - المنار والأزهر (مطبوع)
٣ - محاورات المصلح والمقلد (مطبوع)
٤ - نداء للجنس اللطيف (مطبوع)
٥ - مساواة الرجل بالمرأة (مطبوع)
٦ - محاضرات طبية إسلامية (تعليق) (مطبوع)
٧ - البلاغة للجرجاني (تعليق) (مطبوع)
٨ - مجلة المنار (مطبوع)
٩ - فتاوى السيد رشيد رضا جمع صلاح الدين المنجد ٦ مجلدات وأكثر

هذه المؤلفات قام هو نفسه بطبعها في مطبعة المنار .

ثناء العلماء والمفكرين عليه :

شهد لهذا الرجل ثلة من العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي من شتى الاتجاهات والعجب أن اجتمع للشهادة له المنتمون إلى الفرق المتباينة، والمذاهب المختلفة فقد أثنى عليه الكثيرون من سلفيين وشيعة وصوفية ووطنيين و .... و .... وأسرد هنا قليلًا مما قيل فيه ، أو أسطر عنه ، مما قد لا يوجد في مراجع ، أو يخفى كثيرا على البعض ، وأترك كثيرا مما قيل فيه مما اشتهر عن المعاصرين له أو من جاء بعده ، ولعل الأنسب أن نذكر رأي أستاذه الشيخ محمد عبده بادىء ذي بدء [1] ، وأقتصر هنا على : إيثار محمد عبده لرشيد رضا على خلافته في الدعوة إلى الإصلاح ، وكان سببا في أن رشحه ذلك في مرضه الذي مات فيه بالإسكندرية حيث قال له : لقد جاش في نفسي الشعر في غيبتك ، كأني لا أقول الشعر إلا في الحبس أو المرض (يشير إلي قصيدة نظمها في السجن عقب الحوادث العربية) ثم أنشده هذه الأبيات :

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولكنه دين أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وللناس آمال يرجون نيلها ... إذا مت ماتت واضمحلت عزائم

فيارب إن قدرت رجعى [2] قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم

---

(١) لما حاول الخليفة التفريق بين الشيخ رشيد ومحمد عبده ، أوفد الشيخ محمد شاكر ، فلما كلم محمد عبده في ذ لك قال له ، وكيف أترك صحبة السيد رشيد رضا وهو ترجمان أفكاري ، انظر ص٩٦ من المنار والأزهر ، ص١٦٦ من كتاب شكيب أرسلان (رشيد رضا).

(٢) الرجعى مصدر (رجع) قال تعالى (إن إلى ربك الرجعى) (العلق ٨) وفي لسان العرب ٨/ ١١٤) رجع يرجع رجعا ورجوعا ورجعى ورجعانا ومرجعة وانظر تاج العروس شرح القاموس (٥/ ٣٤٨) .

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا (رشيداً) يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقا وعلما وحكمة ويشبي مني السيف والسيف صارم [(١)]

وقد أثنى الشيخ مصطفى صبري [(٢)] على السيد رشيد رضا ، وبالرغم أن الشيخ مصطفى صبري والذي كان يلقب بشيخ الإسلام لكونه شيخاً للدولة العثمانية ، أقول بالرغم من أنه هاجم بعض آراء السيد محمد رشيد في كتابه « موقف العلم والعقل والعالم

---

(١) انظر ص١٠٢١ من تاريخ الأستاذ الإمام رشيد رضا ، وقد ذكر هناك أنه لما توفي الأستاذ الإمام ونشرت الجرائد يوم دفنه الأبيات التي قالها قبيل وفاته ، ساء بعض حاسديه ذلك (وسماه) لأن قوله (وارزقه مرشدا رشيدا) صريح فيما فهمه كل الناس من أنه يعني بذلك رشيد رضا وتحدثوا بذلك في حفلة المأتم .

(٢) هو آخر شيوخ الدولة العثمانية ،وقد خرج من تركيا سرا بعد استيلاء الكماليين على الحكومة ، وانتقل بين مصر ، وأوروبا والحجاز ، والشام ، وضيق عليه حتى استقر به المقام في مصر وبها توفي في سنة ١٩٥٤م وكان جريئا شجاعا في الحق ، له مشاركة جيدة في العلوم ، إلا أنه كان في الاعتقاد أميل لمذهب الماتردية ، منحرفا عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه العلامة ابن القيم ، ولعله ما اطلع على حقيقة أقوالهما كما يقول مصطفى حلمي حفظه الله . وله من المؤلفات كتاب حافل وهو (موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين) رد فيه على العقلانيين ، وهو كتاب جيد لولا ما خالطه من كلام ليس بجيد عن مذهب السلف وأئمته، وكذلك له كتاب (قولي في المرأة)، وكتاب (النكير على منكري النعمة) وهو من أواخر كتبه ، وانظر شيئا من ترجمته في مقدمة الدكتور مصطفى حلمي لكتابه (النكير) .

من رب العـالمين . . »[1] إلاأنه لما اختبر الشيخ رشيد عن قرب عرف علمه وفضله ، فنراه يتكلم عن كتـاب رشيد رضـا « الخلافـة أو الإمامة العظمى » فيقول :

« وأما كتـاب صاحب المنار ، ففي غاية الإفادة والإجادة، كـمـا يتـوقع من مؤلفه الذي هو فـارس خطير في أمثـال هذا الميدان ، وقـد وجه إلى الحكـومة التركية الحاضرة ا نتقادات ووصايا ودعاهم إلى الضلاح والإصلاح ، وقدمهم في الاستعانة والاستخدام لرقي الإسلام ، فلله دره في تحقيق المقام واجتهاده في إحياء منصب الخلافة الصحيحة مع قطع النظر عن آرائه ومذاهبه التي تدور حول الأشخاص والأسماء ، وموازنة بعضهم على بعض لكن المهم المقدم على كل شيء ، ومايليق أن أقول في كتابه ، وألفت الأنظار إليه أنه لم يصرح أصل الداء حق صراحته ، وإن بالغ في تعريف الدواء . . . . » . اهـ .[2]

ذكر الشيخ حسن البنا رحمه الله في مذكرات الدعـوة والداعية تصديراً لمجلة المنار كتبه الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر جاء فيه :

---

(١) ومن ذلك قوله تعليقا على كلام لمحمد عبده ؛ « . . . . وبهذه النهضة المعكوسة والحماسة الضالة المأسورة من الإمام قال تلميذه صاحب المنار فيما كتبه دفاعا عن كتاب حياة محمد لمعالي هيكل باشا ؛ «إن المعجزات شبهة لا حجة» . اهـ . ص٣٤٧ من مواقف العقل والعلم والعـالم من رب العالمين ، وما ذكره عن رشيد رضا ليس بالوجه الذي أنكره لأن السيد رشيد ذكر أ ن المعجزات الكونية أعطاها الله لنبينا تأييدا في الشدائد ولم يكن حجةعلى نبوته.كالقرآن.ص٨٠، ٨١ من (الوحي المحمدي) .

(٢) من ص(١١٣) من كتاب النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة . دراسة وتقديم الدكتور مصطفى حلمي .

« . . . . وكان صاحبها السيد رشيد رضا رحمه الله رجلاعالماً عاملاً غيوراً مخلصاً للإسلام ، محباً لكتاب الله ، وسنة رسوله وآثار السلف الصالح ، وقف حياته لخدمة دينه ، والأمم الإسلامية، وكان شجاعاً في الحق لايهاب أحداًولا يجامل ولا يحابي ونشأ على هذا واستمر فيه إلى أن لقي ربه [١] .

كتب الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية رحمه الله تعالى خاتمة لكتاب السنة والشيعة ، بالغ في الثناء على السيد رشيد رضا ، ووصف نفسه بأنه «تلميذ حكيم الإسلام السيد رشيد رضا »

وقد ترجم الشيخ محمد بهجة البيطار علامة الشام لكتاب «الوحي المحمدي » أشاد بالكتاب ومؤلفه وكان يصفه بالسيد الإمام يترحم عليه ويترضى عنه .

سألت الشيخ الفاضل «محمد رشاد غانم » [وهو من الرواد الأول لجماعة أنصار السنة في الإسكندرية وقرين للشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي] عن رشيد رضا ، فذكر أنه(أبو السلفية في مصر) (٢) .

ويقول شكيب عنه : « ومما لاشك فيه أنه كان أعلم بعلوم كثيرة من أستاذه، وإنما كان الشيخ محمد عبده أطلق لساناً » [٣] .

---

(١) انظر ص٢٥٣ ، ٢٥٤ من مذكرات الدعوة والداعية للشيخ البنا .

(٢) وقد عرضت هذا القول على شيخنا وشيخ مشائخنا العلامة عبد الرزاق عفيفي فأجابني بأنه «ليس على كل حال» وأنه في الجملة سلفي إلا أن له شطحات ،وأحالني على قصة آدم في تفسير المنار في سورة البقرة ، وقرأتها عليه ، وفيها ملحظ ومأخذ وإن كان السيد رشيد نقلها عن محمد عبده ، وأشار إلى اختياره المخالف له في نهايتها وانظر المنار « التفسير » ص ٢٨٠ وما بعدها الجزء الأول كما أكد ذلك في مجلة المنار والأزهر وأن ما ورد فيها كان على طريقة أهل التأويل وأنه منها بريء (ص٥٤، ٥٥) .

(٣) انظر ترجمة شكيب لرشيد رضا ص٢٧٣ «رشيد رضا أو إخاء أربعين عاماً) .

وقد اجتمعت بالشيخ «عبدالله الصديق الغماري [١] » المغربي ، عندما زار مصر قبل سنوات ، وسألته عن رأيه في بعض العلماء كالألباني رحمه الله ، وأحمد شاكر رحمه الله ، فشهد للأول بطول الباع في الحديث ، وكان رأيه منحرفاً عن الثاني إلا أنه استطرد قائلا : « لكن المحدث الحقيقي هو رشيد رضا» . اهـ

وقد أفاض الكثيرون في مدح رشيد

قال عنه الشيخ المراغي : « كان شديد الإحاطة بما في العصر الذي كان يعيش فيه ، خبيراً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية ، ملمًّا بما في العالم من أصول جديدة ، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان ، فهو ممن أوتي الحكمة ورزق الخير الكثير [٢] .

وقال عنه د . إبراهيم العدوي « ويقف السيد رشيد رضا وسط عصره وأهله كأنه علم في رأسه نار تأتم به الهداة [٣] .

---

(١) وهو شيخ صوفي له مشاركة في الحديث والأصول وعلوم أخرى وإن كان له آراء عجيبة في الحديث ، فهو مثلا لا يرى أن قواعد الحديث كلها مطبقة على الأحاديث ، فليس هناك في الحقيقة شذوذ أو اضطراب في رأيه، ثم له آراء في الرجال أعجب فهو يصحح إسناد الحارث الزعور (المتهم بالكذب) عن علي بن أبي طالب ، وربما يراه من أصح الأسانيد وقد قرأت عليه بعضاً من دروس الفقه من أبواب المعاملات ، تخللها مناقشات طويلة في مسائل تتعلق بالعقيدة والاتباع ، لما رماني بالوهابية ، ولم تمنعه هذه المناقشات من أن يعطيني تزكيتين أنا وأخاً معي واحدة للالتحاق بكلية الشريعة في السودان ، موجهة للشيخ المطيعي (رحمه الله) وأخرى موجهة للشيخ حسنين مخلوف (رحمه الله) للحصول على تأشيرة الحج ، ولم ييسر الله لي الأمرين .

(٢) انظر ص١٨٤ من الشرباصي .

(٣) رشيد رضا للعدوي ص٥ وانظر ص١٧١ من الشرباصي .

ويقول عنه محمد عبده هو ترجمان أفكاري » [١]

ويقول عنه شكيب أرسلان « أستاذ الأساتيذ » وعلامة العلماء وإمام الأئمة ، ونبراس هذه الأمة [٢] . ومن قرأ تقاريظ كتاب « الوحي المحمدي » يعلم جملة من ثناء الأئمة والعلماء على السيد رشيد فقد قرظه كل من الإمام يحيى حميد الدين والملك عبد العزيز آل سعود والإمام محمد بن عبد الله الخليلي إمام الإباضية [٣] ، وشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغي ، والشيخ محمد العدوي ، والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار ، والشيخ محمد رشيد ميقاتي مفتي طرابلس والشام ، والشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي الذي وصف رشيد رضا بأنه (إمام هذا العصر وحكيمه الأكبر) وكذلك العقاد وإن كان انتقد بعض مباحثه ورد عليه رشيد رضا ، وكذلك شكيب أرسلان والذي ألف كتاباً في حياة رشيد رضا حافلاً بمآثره ، وكل هذه التقاريظ فيها من الثناء الكبير والمدح العظيم الشيء الكثير .

---

(١) ص ٩٦/ ١ من المنار والأزهر .

(٢) وانظر هذه الألقاب في ترجمة شكيب لرشيد رضا في كتابه عنه ص٢٧٨ وانظر ص ١٧٦-١٧٧ من كتاب الشرباصي فقد نقل جملة منها .

(٣) الإباضية فرقة تعد من فرق الخوارج عند المصنفين إلا أن أئمتهم الآن ينكرون ذلك ومن أصولهم في الاعتقاد القول بخلق القرآن ، وإنكار رؤية الباري في الآخرة ، والحكم بخلود عصاة الموحدين في النار ، ولا يقولون بصحة خلافة الدولة الأموية وما بعدها ، ولهم آراء منحرفة في عثمان وعلي رضي الله عنهما، وقد قدر الله أن ألتقي بمفتي الإباضية في عمان الشيخ أحمد الخليلي ومدير الأوقاف والشؤن الإسلامية هناك الشيخ أحمد سعود السيياني ، وقد طالت المناظرة بيننا في كثير من المسائل التي يخالفون فيها أهل السنة والجماعة ، وقد سجلت هذه المناظرة كتابة وبعضها في شريط مسجل .

تلاميذه :

في الواقع لا يمكننا أن نحصر تلاميذ رشيد رضا ، لأن كل من قرأ المنار واستفاد منه ، فقد تتلمذ على يديه ثم كل من كان في معهد الدعوة يكون قد أخذ عنه ، وأذكر هنا نبذة عن أسماء لامعة هي من تلاميذه أو ممن افتخر بالانتساب له فمن هؤلاء محمد حامد الفقي رئيس جمعية أنصار السنة سابقاً ، وربما كتب كما في ص ١٣٩ من هذه الرسالة عن نفسه « تلميذ حكيم الإسلام السيد محمد رشيد رضا » .

ومن هؤلاء يوسف ياسين مقدم مجموع الفتاوى ، وصف السيد رشيد بأنه أستاذه ونقل عنه كلاماً له على شيخ الإسلام [١] .

ويقول عنه محمد فؤاد عبد الباقي « إنه مرشدي وأستاذي » [٢]

ويقول عنه محمد عبدالرزاق حمزة « أنا تلميذ السيد رشيد رضا واستفدت منه ما أشكر الله وأشكر أستاذي على ذلك وأترحم عليه لأجله » [٣] .

ويقول عنه أحمد محمد شاكر : « أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله» [٤].

---

(١) انظر ص (د) من مقدمة الأستاذ يوسف ياسين من جزء (١) من مجموع الفتاوى ، والشيخ يوسف هذا هو كاتب سر الملك عبد العزيز آل سعود .

(٢) انظر ص٢٠٣ من كتاب الشرباصي .

(٣) من ظلمات أبي رية ص ٢٣٧ (عن الاحتجاج بالأثر ص ٢٨٨) .

(٤) تعليق أحمد شاكر على المسند ١٢/ ١٢٤ ، وهذا والذي قبله كان في معرض ردهما لقوله بإنكار صحة أحاديث المهدي .

وفاتـــه :

خرج السيد رشيد رضا يوم الخميس ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ لوداع الأمير سعود بن عبد العزيز في السويس ، وأثناء عودته بالسيارة وقبل وصوله مصر الجديدة كان منصرفاً لقراءة القرآن ، وما زال يقرأ حتى أصابه دوار من ارتجاج السيارة ، وتقيأ ثم عاد إلى قراءة القرآن ثم اتكأ على ظهره في السيارة وقد فاضت روحه في منتصف الساعة الثانية من بعد ظهر هذااليوم ، عن عمر جاوز السبعين ودفن رحمه الله في قرافة المجاورين في قبر بجوار أستاذه محمد عبده (١) .

وقد أنكر الشيخ الشرباصي ما ذكرته الموسوعة العربية الميسرة من أنه توفي أثر حادث (٢) ومما ينبغي ذكره أنه يوم أن مات كان عليه دين وقدره ألفا جنيه ، وكانت داره مرهونة ، ويعلق الدكتور الشرباصي قائلاً : فتأملوا يا أولي الألباب في مآل هذاالرجل الذي خدم الإسلام تلك الخدمة الجلى ، التي قلما وفق إليها أحد في العالم الإسلامي وتأملوا في بهتان أولئك الذين كانوا يتقولون عليه أنواع الأقاويل ويتهمونه بالطمع في المال وبقبض الأموال الطائلة من ابن سعود وغيره (٣) .

---

(١) انظر رشيد رضا لإبراهيم العدوي ص٢٨١-٢٨٣ ، وص ١٨٢/ ١ من المدرسة العقلية .

ومن عجيب ما وقع أن آخر آية قام بتفسيرها هي قوله تعالى يقص عن يوسف «توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» ، وآخر ما كتبه في التفسير عبارة (فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام) ثم توفي بعد ذلك ، انظر ص٥٦٣ جـ٣ من مختصر تفسير المنار .

(٢) انظر ص٢١٣ من كتاب الشرباصي .

(٣) انظر ص١٦٩ من كتاب الشرباصي .

وبقي السؤال هنا ، هل كانت وفاته طبيعية ، أم أنه قد دس له السم مثلاً بدلالة تقيئه ، ولذا عبرت بعض المصادر عن وفاته أنه نتيجة « حادث » لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك ولكن الأمر فيه نوع احتمال ، والله سبحانه أعلم بالحقيقة .

لقد مات السيد رشيد ، ولكنه خلف أعمالاً ورجالاً ، مازالت نابضة بفكره ورأيه ، جزى الله السيد رشيد عن أبناء هذه الأمة جزاء العاملين إنه سبحانه رحيم كريم .

بين رشيد رضا ومحمد عبده

إنه من المتعذر حقاً على الباحث أن يفصل بين رشيد رضا ومحمد عبده لأن الشيخ رشيد ظل وفياً لمحمد عبده حتى بعد موته وكتب كتاباً في حياة محمد عبده سماه « تاريخ الأستاذ الإمام » جمع فيه سيرته وأحواله ورسائله ، وكذلك عندما كتب (المنار والأزهر) لم يشأ في كثير من المواطن أن يكتفي بقوله (هذا قول محمد عبده وأنا أخالفه) وذلك فيما انتقد على محمد عبده ، بل أخذ يلتمس له عذراً فيما سطره والباحث المنصف يحتاج إلى دراسة أكثر عمقاً لحياة محمد عبده كي يقرر مدى تأثر السيد رشيد به .

ولكن ما أحب أن أقرره هنا الآتي :

ولد السيد رشيد عام ١٢٨٢ هـ وأول لقاء مع محمد عبده كان عام ١٣١٤هـ

وعمره آنذاك ٣١ سنة ونزل إلى مصر عام ١٣١٥ هـ وعمره ٣٢ سنة وبدأ محمد عبده دروسه في التفسير عام ١٣١٧هـ ، وعمر رشيد آنذاك ٣٤ سنة (وتوفي محمد عبده عام ١٣٢٣ هـ) - ، وعمر رشيد ٤٠ سنة وبعد موته بـ ٢٨ سنة أصدر رشيد رضا المنار والأزهر عام ١٣٥٢ وله من العمر سبعين سنة ثم توفي السيد رشيد عام ١٣٥٤ هـ .

وهذه الأرقام توضح أن السيد رشيد صاحب محمد عبده ثمان سنوات فقط منها ست سنوات سمع منه فيها التفسير .

والعادة أن مرحلة الطلب تكون قبل الثلاثين من عمر الإنسان ومرحلة النضج بعد الأربعين .

والشيخ رشيد صاحب محمد عبده وهو في سن ٣٢ سنة وافترق بموت محمد عبده ورشيد في الأربعين أي لم يصحبه لا في مرحلة الطلب ولا في مرحلة النضج هذا من جهة .

ومن جهة أخرى عاش السيد رشيد بعد موت محمد عبده ثلاثين سنة وهذه العقود الثلاثة كفيلة بما تم فيها من مشكلات سياسية ودينية واقتصادية ، أن تغير فكر الشخص وتنقله مما هو عليه ، وبناء على ما سبق فإنني أميل إلى أن تأثر السيد رشيد بمحمد عبده لم يكن التأثر القوي الذي يمكن أن نطلق عليه أنه تتلمذ على يديه وأخذ نهجه ومشى على طريقه .

وقد صرح رشيد بما سبق النقل عنه من أنه قام بالدعوة الإصلاحية دون التلقين من محمد عبده وأنه كان مستقلاً برأيه في كل شيء [١] وعلى العموم يحتاج الأمر إلى أن يعاد النظر في تاريخ محمد عبده بنظرة موضوعية لا نظرة مدفوعة بالتهم ، وموجهة بالأحقاد ولا سيما ومحمد عبده له آراء اعتقادية وسياسية حسنة كعقيدته في القضاء والقدر واقتضاء العلم العمل وانتقاده لبدع الموالد والشر[٢] وأكثر أبواب توحيد الألوهية ودفعه الاحتجاج بالقدر على ترك العمل [٣] ورده على هانوتو الوزير الفرنسي وغير ذلك مما هو مبثوث في هذا البحث .

---

(١) انظر ص٢٥ من هذا البحث .

(٢) انظر ص٢٩٦ من هذا البحث .

(٣) انظر ص ١٥٠ من هذا البحث .

نقاط وعبر وأخذ ورد

كلٌ يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذا القبر (يعني الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم) جملة قالها الإمام مالك ، شفت نفوس السالكين ، وأراحت المشتغلين ، وعليها قام الفهم الصحيح للدين ، فلا إله إلا الله ، ولا رسول بعد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقد وقع السيد رشيد في شطحات وأخطاء ، تغفر له في بحر خيره ، ولجج علمه وجهاده ، ولكن اقتضت الأمانة العلمية الإشارة إلى بعض هذه الأمور ، كي لا يغتر بها الجاهل وليعتبر بها طالب الهدى والرشاد .

١ - مع قضية المرأة :

يبدو أن السيد رشيد في مطلع قدومه لمصر قد علق في ذهنه ما علق بأذهان المسلمين المنهزمين آنذاك من تطلع للحضارة الغربية وتقدمها التكنولوجي في ميادين الطبيعيات ، ولذا كان من ضروريات تلمذته للشيخ محمد عبده أن يتأثر بدعوة هذا الأخير إلى الانفتاح على ميادين العلم التجريبي ، وربما ساهم ذلك في أن زل السيد رشيد في موضوع المرأة ومدح كتابي قاسم أمين (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) [١] متوسعاً في الثناء عليهما ولخص أبوابهما وساق شواهد منهما [٢] ولا يتعجب من هذا إذا علمنا أن الشيخ محمد عبده كان يثني على هذه الكتب طويلاً ، بل إن أصابع الاتهام تشير إلى أن الشيخ محمد عبده

---

(١) في كتاب المحفوظات للصف السادس الابتدائي بالسعودية ص٥٣ موضوع بعنوان «تعليم البنت» وبالهامش مكتوب ؛ من كتاب المرأة الجديدة ! ولا تعليق .

(٢) انظر ص ٩٦ من كتاب الشرباصي ، وص ٨٥/ ٣ ، ٢٦/ ٤ من مجلة المنار .

كان كاتباً لبعض فصول هذين الكتابين بأسلوبه وبإنشائه .[١]

وكحلقة في سلسلة يكتب رشيد رضا عن ضوابط إرسال البنات إلى أوروبا للتعليم وينشر بحوثاً عن مسألة الحجاب ومكانة المرأة ويثني على ملك حفني ناصف ، باحثة البادية ، وعلى مي زيادة ويقول عنهما « وإن هاتين النابغتين العربيتين قد فاقتا جميع بنات جنسهما في هذا العصر بل تفخر مصر العربية بهما بنات كل شعب وكل مصر»[٢] .

بيد أنه كلما امتد العمر بالسيد رشيد ولا سيما بعد وفاة شيخه محمد عبده قلت في كتاباته هذه النزعة ولم يكن يرضاها لأهله فهو عندما حج في سنة ١٣٣٤هـ - كتب إلى شقيقه صالح يقول :

فاتني أن أقول إنني لا أحب أن تخرج أم شفيع من الدار في غيبتنا مطلقاً « وأم شفيع هي السيدة سعاد حسن الصفدي » زوجه وأم أولاده والتي بقيت معه حتى توفي[٣] .

إلا أنه لم يكن يشتد في ذلك عندما يكون موجوداً فلقد كان من عادته أن يمشي في باكورة الصباح وربما خرجت معه زوجته محجبة تماماً في أول الأمر ثم كشفت وجهها معه أخيراً[٤] ولعل هذا بعدما كانت من القواعد ، فأخذت بالرخصة .

---

(١) ذكر ذلك الأستاذ محمد عمارة في الأعمال الكاملة لمحمد عبده ودلل على قوله بأدلة . انظر ص ٢٥٢-٢٥٥ . ويشير الأستاذ محمد قطب أن محمد عبده كاتب المقدمة ربما كان له دور في الكتاب كله . انظر ص٣١٠ من واقعنا المعاصر .

(٢) انظر ص ٣٧ من كتاب الشرباصي عنه ، ص ٧٨/ ٢٣ المنار .

(٣) انظر ص ٢٢٣ من كتاب الشرباصي .

(٤) انظر ص ٢٠٧ من المرجع السابق ، والسيد رشيد لا يرى وجوب حجاب الوجه وله في ذلك فتوى ص ٦٧٩/ ٢ من فتاويه .

٢ - حب الشهرة :

« إنني أمقت هذه الرياسات والألقاب التي يتنافس الناس فيها منذ أدركت وأنا تلميذ في طرابلس ، من تيارات التنافس الضار بين المفتونين بها » . [١] هذه كلمات رشيد رضا ، إلا أن الباحث فيما كتبه ، وفي حياته ، يجد أنه قبل وبلا تردد أو معارضة (كما يقول د. الشرباصي) رياسات متعددة ، مثل رياسة مؤتمر العلماء في الهند ، ورياسة مدرسة الدعوة والإرشاد ، ورياسة المؤتمر السوري بدمشق وغيرها [٢] وهذا عند الشرباصي يناقض ما ادعاه من مقته للرياسات كما كان يكثر السيد رشيد الكلام عن نفسه ، بالثناء والمدح ، إلى حد المبالغة أحياناً فمن الهفوات التي أخذت عليه ، ما سطره عن كتابه الحكمة الشرعية إذ قال حاكياً عن بعض البلغاء حينما قرأ فصلاً منه : « كدنا ألا نميز بين كلام تلك المقدمة وما فيها آيات القرآن لولا الحفظ » [٣] .

كما كان الشيخ رشيد يكثر من نشر عبارات تعظيمه في المنار ، فهو ينشر لبعضهم يصفه بأنه « حجة الله على العالمين ، فضيلة الأستاذ الأفخم والمصلح الأعظم السيد محمد رشيد رضا المجدد لدين الله والناشر لوحيه ويعلق الدكتور الشرباصي على ذلك قائلاً : « ليت رشيد رضا رحمه الله خفف من نشر هذه العبارات» [٤] .

---

(١) انظر ص ٤٩٩ من رشيد رضا للعدوي ، وص ١٩٦ من كتاب الشرباصي .

(٢) كتاب الشرباصي ص ١٩٦ .

(٣) انظر ص ٢٠٢ من المرجع السابق ، وانظر ص ١/٦٢٦ من المنار .

(٤) انظر ص ١٨٠ من كتاب الشرباصي .

ويعتذر عنه الدكتور الشرباصي في موضوع آخر قائلاً : « ورشيد رضا كثير الحديث عن نفسه ، ولعل ظروف جهاده في المجالين العربي والإسلامي - دفعته إلى هذا الحديث ، أو لعل شعوره بقلة تقدير الناس لجهوده ، وشخصيته ، هو الذي دفعه إليه ، أو لعل ألسنة الناقدين والحاقدين والمعاندين ، هي التي أرغمته على أن يطيل هذا الحديث [1] .

٣ - مع النصارى :

لقد كانت لتربية السيد رشيد أثر كبير في لينه الجانب للنصارى في الأمور الاجتماعية ، وكان يعرف هذا من نفسه ، فهو مثلاً يقول :

« إنني منذ دخلت في سن التمييز أرى في دارنا وجهاء النصارى من طرابلس ولبنان ، بل وأرى فيها القسوس والرهبان ، لاسيما في أيام الأعياد ، وأرى الوالد رحمه الله تعالى يجاملهم ، كما يجامل من يزوره من الحكام ووجهاء المسلمين . . . . وقد كان هذا من أسباب دعوتي إلى التساهل والوفاق اهـ [2] وامتداداً لهذه النشأة ، وتلكم التربية ، نجد السيد رشيد رضا يجامل النصارى في المناسبات ، بل امتد أمره إلى أن رثى (جورجي زيدان) عندما مات سنة ١٩١٤م رثاه بخمس صفحات في المنار ، ذكر فيها أن الأمة العربية فقدت بهذا الرجل ركناً من أركان نهضتها الحديثة في العلم والأدب . [3] علماً أن هذا الكافر (زيدان) كان معاول الهدم للقيم والأخلاق مما ليس هذا محل بسطه ، وهو أشهر من أن يذكر .

---

(١) انظر ص ١٩٩ من كتاب الشرباصي .

(٢) انظر ص ١٨٦ من كتاب الشرباصي .

(٣) انظر ص ١٨٤ المصدر السابق نقلاً من المنارص٦٣٦/ ١٧ .

وكذلك نوه السيد رشيد بمجلة الباحث المسيحية ، التي كان يصدرها الخوري جرجس فرح وكيل بطر كخانة الموارنة بالإسكندرية [١]

ويموت البابا لاون الثالث عشر ، فيرثيه رشيد في عدد ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٣م من مجلة المنار واصفاً إياه بـ « كان أعقل رجال أوربة وأعلاهم كعباً في السياسة » [٢] .

وينتقد على السيد رشيد بعض قرائه فيجيبه : هل من الحكمة أن نتجاهل ما يفعله القوم من خدمة دينهم ، ونشره ، وأن نكتم ما يتفق لنا علمه لأنه مما يمدحون عليه ؟؟ [٣] .

ولما يموت الدكتور شبل شميل ، يسود السيد رشيد ثمان صفحات من المنار في رثائه ، بل ويشترك بخطبة في تأبينه في ذكرى الأربعين ، لأنه كان في نظر رشيد مصلحا اجتماعيا [٤] ، ويعلق الدكتور الشرباصي بأدب ، على ذلك فيقول « وقد يكون للكثيرين الحق حين يتحجرون فلا يستسيغون هذا التصرف من رشيد ، لما هناك من وشائج بين الاعتقاد والدين والإصلاح الاجتماعي ، ولما يقابل به هذا التصرف من تعليق غير دقيق [٥] .

٤ - مع شكيب أرسلان .

إن شكيب أرسلان (أمير البيان) كان درزيا [٦] في الأصل ، وقد قيل

---

(١) انظر ص ١٨٤ من كتاب الشرباصي .عن ص ٨٤٠/ ٦ من المنار .
(٢) انظر ص١٨٥ من كتاب الشرباصي .عن ص٤٢٥\٦ من المنار .
(٣) انظر ص١٨٥ من كتاب الشرباصي .عن ص٤٢٥\٦ من المنار .
(٤) انظر ص١٨٥ من كتاب الشرباصي . عن ص ٦٢٥\١٩من المنار .
(٥) انظر ص١٨٥ ، ١٨٦ من كتاب الشرباصي ، وسيأتي إن شاء الله في ص ٣٢٤ زيادة إيضاح ، والله الموفق .
(٦) فرقة من الفرق الباطنية الإسماعيلية ، حكم عليها العلماء بردتهم ، قال شيخ الإسلام «وهم أعظم كفراً من الغالية يقولون بقدم العالم ، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته ، وهم من القرامطة الباطنية =

برجوعه لمذهب أهل السنة ، ولم أر من حقق هذا تحقيقاً سديداً ، وإن كان إقدامه على الحج يوحي بذلك لأن الدروز لا يحج عامتهم [١] .

يقول الدكتور الشرباصي في كتابه عن شكيب (ص ٢٢) « ولقد سبق أن الأمير يعد من الناحية الشكلية درزياً ولكنه كان في الاعتقاد سنياً وكان يتعبد على مذهب أهل السنة فهو يصوم ويصلي ويزكي ويحج كما يفعل جمهور المسلمين ودفاعه عن الدروز كان سياسة وبقصد تجميع الكلمة وعدم التفرقة بين الأمة » . اهـ .

ولكن من الواضح أن العلاقة التي تربط رشيد رضا بشكيب أرسلان علاقة خاصة ، وقوية ومشكلة مثيرة للاستفهام ، كيف يجتمع رشيد السلفي مع شكيب الدرزي ؟؟؟ [٢] .

= الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب . . . . .

وقال أيضاً : كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون ، بل من شك في كفرهم فهو كافر » انظر ص ١٦١ ، ١٦٢ / ٣٥ من مجموع الفتاوى . بينما نجد شكيب يقول عنهم « الدروز فرقة من الفرق الإسلامية . . . . ويقول : « هؤلاء من جملة المسلمين كما لا يخفى . . » ثم يدافع عنهم وانظر ص٢٠ من كتاب د. الشرباصي عنه .

(١) وقد وضع شكيب أرسلان كتابه «الارتسامات اللطاف» أرَّخ فيه رحلته إلى الحج وطبعه رشيد رضا في المنار ؟! .

(٢) ولا سيما أن رشيد رضا كان يفتي بكفر الدروز وخروجهم عن الملة وأن « البحث معهم عبث فإنه لا قانون في دينهم للاستدلال » انظر ص ١٧٦/ ١ من فتاوى رشيد رضا . ولعل هذا مما يؤكد رجوع شكيب للسنة، والله أعلم، ويؤكده أيضاً أن الشيخ كان يرى أن الدعوة الوهابية إصلاح في الدين على الصراط المستقيم الكتاب والسنة انظر مقدمة رشيد رضا لحاضر العالم الإسلامي لشكيب ، وانظر ص ٢٤٨ من إخاء أربعين عاماً لشكيب .

ومما أورده الدكتور الشرباصي في ترجمته لرشيد - من رسائل متناولة بينهما ، وكذلك ما أورده شكيب نفسه في ترجمته لرشيد ، كل هذا يدل على أن العلاقة بينهما خاصة جداً .

وقد سألت أستاذنا الدكتور / عبد العزيز الحميدي حفظه الله عن ذلك ، فأقر استشكال هذه العلاقة ، وانفصل عن هذا الاستشكال برأيه أن سببها هوالاهتمام عن كل منهما بالمصالح العامة للإسلام ، والدعوة إلى الإسلام وصد الهجمات الواردة عليه ، إن لم يثبت رجوعه ، وهو رأي وجيه إلا أن من اطلع على الرسائل المتبادلة بينهما يجدها رسائل صداقة خاصة لامهمات عامة ، فالسيد رشيد يرسل إليه ويصفه بأوصاف الثناء ، بل ويدعو له أن يكون من المجددين [١] ، ويراسله يشكو له همومه ومشكلاته الشخصية حتى المادية منها[٢] . وحدثني الشيخ عبد الوهاب فايد حفظه الله وهو من أساتذة الجامعة الإسلامية أن الأمير شكيب رجع عن درزيته ، وإن ثبت هذا انحل الإشكال ، وإلا بقي عندي كما هو ، لاسيما وقد زوج شكيب ابنته لكمال جنبلاط زعيم الدروز كما هو معلوم . وقد يكون شكيب رجع للسنة لكنه لا يكفر عوام الدروز ويبيح مصاهرتهم أو كان هذا قبل رجوعه والله أعلم

٥ - فتاوى وأحكام :

لم تسلم فتاوى رشيد رضا من انتقاد موضوعي وأذكر هنا نبذاً مما وجدته في فتاويه مع شيء من التعليق اليسير عليها بحسب مقتضى الحال فمن ذلك لما

---

(١) انظر ص ١٧٣ من كتاب الشرباصي .

(٢) انظر ص ١٦٦ - ١٦٩ من كتاب الشرباصي .

سئل عن أفضل الناس بعد النبي قال : ولا يوجد نص قطعي في القرآن أو حديث متواتر يدل على أن فلاناً أفضل الناس بعد النبيين ، وإنما هناك آحاد مشتركة ولا يصح منها شيء قطعي الدلالة . . . .

ثم ذكر بعضها ، وضعف جزءاً منها كحديث : « **أفضل ما طلعت عليه الشمس أبو بكر** » وناقش صحيحها بأنه غير صريح [(١)] وهو عجيب جدا من هذا الإمام ، لاسيما وكتب السلف عامة طافحة بتحقيق مثل هذه القضية ، وأنا أنقل هنا قول من جمع رأي السلف وخلاصته شيخ الإسلام ابن تيمية فقد بين أن ماورد في فضائل الصحابة كثير ، وما روي في فضائل علي فهو مشترك ، يعني شارك علياً غيره في ذلك ، وأما بعض ما روي في فضائل أبي بكر فهو خاص وذكر على ذلك أمثلة منها قوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم « **لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً** » وفيه : « **لا يبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر** » وفيه أيضاً قوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم : « إن أمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر » وهذا من الأحاديث الثابتة [(٢)] وقال أيضا في شأن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما « ولهذا كان معرفة فضلهما على من بعدهما واجباً لا يجوز التوقف فيه ، بخلاف عثمان وعلي ففي جواز التوقف فيهما قولان» [(٣)] .

ونقل عن ابن مسعود قوله: حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة

---

(١) انظر ص ٥١٨/ ٢ من فتاوى الإمام رشيد رضا .

(٢) انظر ص ٤١٤ - ٤١٦ / ٤ من الفتاوى ، والحديث رواه البخاري وغيره ، انظر (١٢/٧ – الفتح) .

(٣) انظر ص ٤٣٥ / ٤ من الفتاوى .

أي من شريعة النبي ﷺ التي أمر بها فإنه قال : « **اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر** »[1] وفي هذا القدر من كلام شيخ الإسلام كفاية ، ومن أراد الزيادة فعليه بالرجوع إلى الفتاوى ومنهاج السنة لشيخ الإسلام وفي فتوى أخرى عن حكم خروج معاوية على علي رضي الله عنهما ، قال رشيد رضا . « إن سيرة معاوية تفيد بجملتها أو تفصيلها ، أنه كان طالباً للملك ، ومحباً للرياسة ، وإني لأعتقد أنه قد وثب على هذا الأمر مفتاتاً . . . [2] »

ولكن في آخر الفتوى قال السيد رشيد كلاماً أفضل من أولها وهو المعتمد حيث قال

« وإنني على اعتقادي هذا ، لا أرى للمسلمين خيراً في الطعن في الأشخاص والنبذ بالألقاب ، واللعن والسباب ، وإنما عليهم أن يبحثوا عن الحقائق ليعلموا من أين جاءهم البلاء فيسعوا في تلافيه مع الاتحاد والاعتصام ويحسن أن أنقل هنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مثل هذه القضية الشائكة: قال رحمه الله في شأن الفتنة وذكر حديث أبي سعيد في الخوارج يرفعه « تمرق مارقة على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » وفي لفظ « فتقتلهم أدناهم إلى الحق » قال « فهذا الحديث الصحيح دليل على أن كلا الطائفتين المقتتلتين - علي وأصحابه ، ومعاوية وأصحابه - على حق ، وأن

(١) انظر ص ٤٣٥/ ٤ من الفتاوى . والحديث أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب ١٦ ، ٣٧ ، وابن ماجه باب ١١ .

(٢) انظر ص٥١٨/ ٢ من فتاوى رشيد رضا .

(٣) انظر ص ٥١٨/ ٢ المصدر السابق .

علياً وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه [١] » اهـ .

فهذا الكلام هو من دقيق فقه شيخ الإسلام رحمة الله عليه ، وهو أيضاً يستدل على صحة ولاية معاوية بقوله ص : « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » رواه البخاري وغيره عن أبي بكر رضي الله عنه ، قال شيخ الإسلام : فجعل النبي ص مما أثنى به على ابنه الحسن ومدحه على أن أصلح الله تعالى به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، وذلك حين سلم الأمر إلى معاوية ، وكان قد سار كل منهما إلى الآخر بعساكر عظيمة .

فلما أثنى النبي ص على الحسن بالإصلاح وترك القتال ، دل على أن الإصلاح بين تلك الطائفتين كان أحب إلى الله تعالى من فعله ، فدل على أن الاقتتال لم يكن مأموراً به ، ولو كان معاوية كافراً [٢] لم تكن تولية كافر وتسليم الأمر إليه مما يحبه الله ورسوله ، بل دل الحديث على أن معاوية وأصحابه كانوا مؤمنين ، كما كان الحسن وأصحابه مؤمنين ، وأن الذي فعله الحسن كان محموداً عند الله تعالى [٣] ، محبوباً مرضياً له ولرسوله » [٤] .

---

(١) انظر ص ٤٦٧/ ٤ من الفتاوى والحديث في البخاري وغيره (٧/ ١١٩ الفتح)

(٢) إنما ذكر شيخ الإسلام ذلك لأنه كان في معرض الرد على رافضي نال من إسلام معاوية رضي الله عنه كما يعلم من كامل الفتوى .

(٣) يقول شيخ الإسلام بعد أن ذكر جملة من الأحاديث في النهي عن القتال في الفتن: « ولأجل هذه النصوص صرحت بأن القاعد فيها خير من القائم . . . » انظر ص ٤٤١/ ٤ من الفتاوى . وانظر منهاج السنة النبوية ١/ ٥٣٨ - ٥٤٦ فقد أجاد وأفاد .

(٤) انظر ص ٤٦٧/ ٤ من الفتاوى وانظر أيضاً ص ٧٠ ، ٧١/ ٣٥ منه .

فدل كلام شيخ الإسلام على أن معاوية كان على حق وأنه كان مؤمناً وكانت ولايته شرعية ، بل تكلم شيخ الإسلام عن الخلافة والملك وبين أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا وأن ذلك لا ينافي العدالة ، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل [(١)] » .

وتكلم شيخ الإسلام عن الحديث الذي فيه « أن عماراً تقتله الفئة الباغية » وبين أن هذا الحديث ليس فيه دلالة على تأثيم معاوية رضي الله عنه ومن معه ، لأن عماراً كان مع علي رضي الله عنه وقتل وهو من جنده ، وحاصل كلامه يتلخص في الآتي .

١ - بالنسبة لصحة الحديث فهو وإن طعن فيه أهل العلم ، لكن رواه مسلم في صحيحه وهو في بعض نسخ البخاري [(٢)]

٢ - قوله تعالى « **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . . إلى قوله إنما المؤمنون إخوة** » [(٣)] .

فقد جعلهم مع وجود الاقتتال والبغي مؤمنين إخوة ، بل مع أمره بقتال الفئة الباغية جعلهم مؤمنين وليس كل ما كان بغياً أو ظلماً أو عدواناً يخرج عموم الناس من الإيمان .

٣ - أن البغي المتأول صاحبه فيه ، غايته أن صاحبه مخطىء ، وقد قال الله تعالى « **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** » [(٤)] وقد ثبت[(٥)] في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء ، فإذا كان الباغي مجتهداً ومتأولاً ولم يتبين له أنه باغ بل

---

(١) انظر ص ٢٧/ ٣٥ من الفتاوى

(٢) انظر ص ٧٤/ ٣٥ من الفتاوى ، ص ٤١٤ / جزء ٤ من منهاج السنة .

(٣) سورة الحجرات آية : ٨ ، ٩

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٥) انظر مختصر صحيح مسلم ص ٥٦٥ رقم (٢١٢٥) وشاهد لأصله في البخاري ٨/ ٢٠٥ ، ٢٠٧ - فتح .

اعتقد أنه على الحق وإن كان مخطئاً في اعتقاده لم تكن تسميته باغياً موجبة لإثمه ؛ فضلاً عن أن توجب فسقه .

٤ - ولو قدر أن البغي كان بغير تأويل لكان ذنباً ، والذنوب تزول عقوبتها بأسباب متعددة بالحسنات الماحية والمصائب المكفرة وغير ذلك .

٥ - الحديث : « **تقتلك الفئة الباغية** » ليس نصاً في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل يمكن أنه أريد به تلك العصابة التي حملت عليه حتى قتلته ، وهي طائفة من العسكر ، ومن رضي بقتل عمار كان حكمه حكمها ، ومن المعلوم أن عبد الله بن عمرو بن العاص لم يرض بقتله ، بل كل الناس كانوا منكرين لقتل عمار حتى معاوية وعمرو قال شيخ الإسلام : « والمقصود أن هذا الحديث لا يبيح لعن أحد من الصحابة ولا يوجب فسقه »[1] فظهر بكلام شيخ الإسلام ما تقربه أعين الطالبين ، رحم الله رشيد رضا وغفر له زلته .

وأما قول من قال بتصويب من قاتل مع علي لا من قعد عن القتال فمبني على أن معاوية ومن معه كانوا بغاة : قال الحافظ في التعليق على الحديث المعلق : « **إن ابني هذا لسيد** » .

« واستدل به على تصويب رأي من قعد عن القتال مع معاوية وعلي وإن كان علي أحق بالخلافة وأقرب إلى الحق ، وهو قول سعد بن أبي وقاص وابن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وسائر من اعتزل تلك الحروب . وذهب جمهور أهل السنة إلى تصويب من قاتل مع علي لامتثال قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية [الحجرات ٨] ففيها الأمر بقتال الفئة الباغية ، وقد ثبت أن من قاتل علياً كانوا بغاة ، وهؤلاء مع هذا التصويب متفقون على أنه لا

(١) انظر ص ٧٦ - ٧٩/ ٣٥ من الفتاوى

يذم واحد من هؤلاء بل يقولون (اجتهدوا فأخطئوا) [١].

وفي شرح حديث : « **إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما في النار** » يقول الحافظ :

واحتج به من لم ير القتال في الفتنة وهم كل من ترك القتال مع علي في حروبه كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة [٢] وأبي بكرة وغيرهم وقالوا : يجب الكف حتى لو أراد أحدهم قتله لم يدفعه عن نفسه ، ومنهم من قال : لا يدخل في الفتنة فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه .

وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين ، وحمل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف عن القتال ، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق ، واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ، ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله تعالى عن المخطىء في الاجتهاد ، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المصيب يوجر أجرين . . .) [٣] ا . هـ .

« والحق حمل عمل كل أحد من الصحابة المذكورين على السداد فمن لابس القتال ، اتضح له الدليل لثبوت الأمر بقتال الفئة الباغية ، وكانت له قدرة على ذلك ، ومن قعد لم يتضح له أي الفئتين هي الباغية ، وإذا لم يكن له قدرة

---

(١) انظر الفتح (١٣/ ٦٧)

(٢) والذي شهد له النبي ﷺ أنه لا تضره فتنة كما بسنن أبي داود (١٢/ ٤٢١)

(٣) السابق (١٣/ ٣٣ ، ٣٤) ولعل تمامه أن يقال : اجتمعت فيهم شروط الاجتهاد بخلاف كثير ممن جاء بعدهم

على القتال » ا . هـ[١]

ونقل الحافظ كذلك عن الطبري قوله : « والصواب أن يقال : إن الفتنة أصلها الابتلاء ، وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه ، فمن أعان المحق أصاب ومن أعان المخطىء أخطأ ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها . . . » ا . هـ[٢]

وما سبق من تقرير لشيخ الإسلام أقرب والله سبحانه أعلم .

ومن الفتاوى التي أخذت على السيد رشيد أيضاً إباحتة سماع الملاهي والزعم بعدم ورود نص صريح في تحريمها ، إلا أنه استثنى ما إذا وصل الإسراف في اللهو إلى حد التشبه بالفساق ، فهو محرم أو مكروه [٣] .

وهو هكذا دائما لا تكاد تجد له فتوى لأهل النظر فيها مأخذ إلا تجده يتبعها بما يهون خطبها ويسهل خطأها ، رحمه الله وغفر له .

ومن الفتاوى التي أخطأ فيها إنكاره للمهدي الذي يخرج في آخر الزمان وتضعيفه لما ورد من أحاديث صحيحة وحسنة فيها تبعاً لابن خلدون في مقدمته[٤]

وقد طال الكلام منذ سنوات في هذه المسألة ، ومن أفضل الكتب التي كتبت في هذا الموضوع كتاب شيخنا في الإجازة حمود بن عبد الله التويجري رحمه الله المسمى بـ« الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر » .

---

(١) السابق (١٣/ ٤٢) وسبق الكلام على مسألة (هل كان أهل الشام بغاة أو لا) من كلام شيخ الإسلام في ص ٦٢ ، ٦٣ من البحث .

(٢) السابق (١٧/ ٣١) .

(٣) انظر ص ١٠٦٣/ ٣ من فتاويه .

(٤) انظر ص ١٠٦ / جزء ١ من فتاوى رشيد رضا ، وانظر ٩/ ٤٩٩ من التفسير .

وكتاب الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد المسمى بـ « الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» وكلا الكتابين أشار لكلام رشيد رضا وأنكره عليه غفر الله للجميع .

ومما أنكر على السيد رشيد أيضاً إنكاره لنزول عيسى في آخر الزمان ، وقد أنكر الشيخ خليل هراس عليه ذلك في كتابه « فصل المقال في رفع عيسى عليه السلام » [1] قال فيه « والعجب من هذا الرجل الذي حمل لواء الدفاع عن الإسلام دهراً طويلاً ضد خصومه والطاعنين عليه من أهل الأديان الأخرى ونافح عن مذهب السلف في العقيدة وأحيا وجدد كثيراً مما درس من معاني الإسلام أقول : العجب منه يسقط في هذه المسألة سقطة لا قاع لها ويلتوي في فهم الآيات والأحاديث التواءً معيباً ويتأثر ، وهو من رجال الأثر ، بكلام أستاذه يعني محمد عبده في هذه المسألة السمعية . . . . » اهـ.

ويظهر أن السيد رشيد لم يكن جازماً بعدم نزول عيسى بل متردداً فيه ولكن لعله لما رأى اتجاه بعض المسلمين أو أهل البدع كالشيعة إلى ترك ما أوجبه الله عليهم في الدنيا والدين اعتماداً على خروج المهدي أو نزول عيسى ، وكان هذا كله مثار شك عنده ، وما يمكن أن نسميه برد فعل معاكس .

والذي جعلني ألتمس هذا له أنني وجدت فتوى له تشعر ببعض التردد وهي أنه لما سئل عن ذلك قال : وأما نزوله « أي عيسى » في آخر الزمان وحكمه بالشريعة المحمدية وكسره للصليب وقتله للخنزير فليس لها نص في القرآن ، وإنما وردت بذلك أحاديث روى بعضها الشيخان والله أعلم [2] اهـ .

---

(١) عن كتاب العباد في المهدي ص ٤٥ .

(٢) انظر ح ٣ / ص ١٠٤٤ من فتاوى الإمام محمد رشيد رضا . وانظر كلامه على رفعه ووفاته بالتفسير ٣/ ٣١٦ .

ولا أدري أي الكلامين أسبق على الآخر ، ولعله راعى حال السائل في ذلك والله المستعان .

ومما يدل على أنه كان يخاف أن تكون هذه الأمور الغيبية محل فتنة بين الناس ما سطره في المنار فقد قال تحت عنوان (بهاء الله البابي ومسيح الهند القدياني) :

« يعلم الخاص والعام أنه ورد في علامات الساعة من الأخبار أنه يخرج رجل من آل بيت النبي ﷺ يقال له المهدي يملأ الأرض عدلاً بعد أن تكون قد ملئت جوراً وينزل في آخر مدته عيسى ابن مريم من السماء فيرفع الجزية ويكسر الصليب ويقتل المسيح الدجال وليس هذا مقام تحرير هذه المسألة ، وإنما اقتضت الحال أن تذكر من ضررها أنها لانتظار المسلمين لها ويأسهم من إعادة عدل الإسلام ونجده بدونها قد كانت مثار فتنة عظيمة ، فقد ظهر في بلاد مختلفة وأزمنة مختلفة أناس يدعي كل واحد منهم أنه المهدي المنتظر يخرج على أهل السلطان ويستجيب له كثير من الأغرار فتجري الدماء بينهم وبين جنود الحكام كالأنهار .

ثم ذكر فتنة مهدي السودان ثم القادياني ثم البابي والبهاء ثم قال :« والحق أنه ليس في القرآن نص يثبت أن عيسى ينزل من السماء ويحكم في الأرض وأما الأحاديث الواردة في ذلك فهي تخالف دعوى القادياني فإن منها أنه ينزل في دمشق لا في الهند ، ومنها أنه يقتل الدجال الذي يظهر قبله ومنها أنه يحكم ويملأ الأرض عدلاً ولا يزال الظلم والجور وسفك الدماء مالئاً الأرض وناهيك بما هو جار منها في بلاد البلقان في هذه الأيام . . . . . . إلخ »[1]

وقال في موضع آخر : بعد أن ضعف ما ورد من أحاديث المهدي

---

(١) انظر التفسير ص ٦/٥٧ .

(وأما أحاديث نزول عيسى فبعض أسانيدها صحيحة ، وهي على تعارضها واردة في أمر عيني متعلق بأحاديث الدجال المتعارضة . . . . . فينبغي أن يفوض أمرها إلى الله تعالى ، وأن لا تكون سبباً للتقصير في إقامة الدين والدنيا بما شرعه الله تعالى فيهما . .) (١)

فهذه الظروف هي التي دعت السيد رشيد رضا إلى إنكاره صحة أحاديث المهدي (وإن كان له سلف في ذلك) والتردد في نزول عيسى عليه السلام وكان الأولى به رحمه الله أن يثبت ما صح منها ، وهو من هو في التحقق من صحة الأحاديث وضعفها ، ثم يكل علمها إلى الله سبحانه ، ويوجه جهوده للرد على البهائية والبابية بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة ولو أن كل مبطل استدل على بطلان دعواه بظاهر أثر تأوله على غير تأويله ، دفعنا هذا لإنكاره لذهب كثير من السنة والله المستعان .

إلا أن موقف السيد رشيد كذلك ليس بالصورة السيئة التي يصورها مخالفوه فهو وإن كان متردداً في إثبات ذلك إلا أنه لا يجيز لمن يعتقد ثبوت النصوص الواردة في ذلك أن يخالفها فإن هذا يوجب ردته عنده

يقول في جواب له (٢)

« وأما من اطلع على الأحاديث الواردة في نزوله (أي عيسى) وقتله للدجال واعتقد صحتها فلا يسعه إلا أن يعتقد أن النبي ﷺ قالها بإعلام من الله تعالى لأنها ليست من الآراء الدنيوية التي يتكلم فيها الأنبياء كغيرهم بحسب الظن الذي يخطىء ويصيب وهم غير معصومين ، كما ورد في أحاديث تأبير النخل الذي في صحيح مسلم وما في معناه ، وحينئذ يجب عليه الإيمان بصدقه

---

(١) انظر التفسير ص ٤٦٠/ ١٠ .

(٢) انظر مجموع فتاوى الإمام رشيد رضا ص ٢٠٢٦ ، ص ٢٠٢٧ .

فيها ، فإن أنكره ورده عالماً بصحته غير متأول لمدلوله يكفر والعياذ بالله والأولى والأسلم له أن يقول :

إن قول الرسول حق وسيقع على الوجه الذي أراده من قوله ، والله أعلم بمراده منه في جملته وتفصيله . . .)

إلى أن قال :

والخلاصة أنه لا يجب على مسلم أن يقف على تلك الأحاديث وأمثالها لأنها ليست من أركان الإيمان ولا من أركان الإسلام كما تقدم ولا يضره في إيمانه وإسلامه الاشتباه في صحتها وعدم القطع بروايتها ودلالتها على ما قال الجمهور .

وإنما الذي يضره هو أن يكذب بها أو يردّها بعد العلم بصحتها . .) . اهـ المراد منه .

وهذا الكلام وإن كان فيه ملحظ إلا أنه أهون من التشنيع الذي قيل عن السيد رشيد في هذه المسألة [1] والله أعلم .

أما مسألة (انشقاق القمر) وقول الشيخ رشيد فيها ، فلولا أنني رأيت الشيخ مصطفى صبري آخر شيوخ الدولة العثمانية تعرض لها وأكثر من التعليق عليها عند انتقاده لرشيد رضا [2] ، لما التفت إليها في بحثي .

---

(١) ويراجع في هذا التشنيع ما كتبه الغماري الصوفي في كتابه في نزول عيسى عليه السلام وتعرضه فيه لرشيد رضا ، وهو مطبوع متداول ، وكذلك في موقف العلم والعقل لمصطفى صبري وغير ذلك من الكتب .

(٢) انظر على سبيل المثال ص ٢١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٣٥٤ ، وغيرها من الجزء الرابع من كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لمصطفى صبري .

وأشير ابتداء إلى عبارة من قوله ، يقول :

« رأيت للشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده تأويلاً في قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ والمعنى عنده : اقتربت الساعة وظهر الحق . . . » .

إلى أن قال :

« أما تأويل الشيخ رشيد فهو لغو في القرآن من أنواع اللغو الذي توسل به الأولون إلى عدم السماع للقرآن حين قالوا : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ .

وكان لغو الشيخ في القرآن كيلا يسمع له ، بعد أن أتى بألوان من اللغو كيلا يسمع أحاديث معجزة شق القمر التي عددها الأستاذ الفاضل الشيخ محمد ياسين ، والتي أخرجها أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والحاكم ، والبيهقي ، عن علي ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وجبير بن مطعم ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأنس » . اهـ . محل الغرض منه [١] .

والمطالع لكلام السيد رشيد يجده كلاماً علمياً مبنياً على قواعد وأسس ، والمفترض أن من يتصدى للرد عليه ، ينقض كلامه بنفس المنهجية والتحقيق الذي ساقه هو ، أما أن تتخذ هذه وسيلة للتشنيع ، برمتها في نهاية الجزء الخامس من مجموع فتاوى الشيخ رشيد [٢] ، في حوالي ثلاثين صفحة ، وقد

---

(١) السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٢) انظر ص ٢١٥٠ إلى ٢١٨١ / ٥ من فتاوى رشيد رضا جمع المنجدو الخوري .

لخص رأيه في نهايتها في نقاط ست هي :

١ - أحاديث انشقاق القمر آحادية لا متواترة .

٢ - وأنها متعارضة مختلفة لا متفقة مؤتلفة .

٣ - وليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كالأحاديث الناطقة بخصائصه .

٤ - وأنه ليس في الصحيحين منها إلا حديث واحد مسنداً إلى من صرح بأنه رأى ذلك ، وذكر أن فيه من الاختلاف ما أشار إليه عند تحقيقه للمسألة ، ثم ليس فيه أن انشقاقه كان بطلب من كفار مكة .

٥ - وحديث أنس الذي صرح فيه أن هذا كان بطلب من الكفار مرسل ، وقد عنعنه قتادة ، وهو مدلس .

٦ - والحديث أيضاً معارض بنص القرآن ، وسنة الله في الرسل وأقوالهم ، بأن المكذبين للآيات يستوجبون الهلاك والعذاب بعد تكذيبهم للآية التي سألوها ، وكذلك معارض للحديث المرفوع [(١)] المتفق عليه في حصر آية نبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم في القرآن [(٢)] .

ثم نعرض لتفسير الآية ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ [القمر : ١] ورأى

---

(١) روى البخاري (ص٣ : ج٩ . فتح) ، ومسلم (ص١٣ مختصر المنذري) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، ما أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وراجع شرحه في الفتح (ص٦ : ج٩) وفيه أن المراد به المعجزة العظمى الباقية التي لا تنقرض بانقراض عصرها .

(٢) انظر مجموع فتاوى رشيد رضا ص ٢١٧٥ / ج٥ .

أن تفسيرها الصحيح هو أن يقال : انشق القمر ، أي طلع ، وانتشر نوره ، أي وضع الأمر ، وظهر الحق ، وزيد ذلك بقول الراغب في (مفردات القرآن) « وانشق القمر ، قيل انشقاقه في زمن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقيل : هو انشقاق يعرض فيه حين تقترب القيامة ، وقيل معناه : وضح الأمر . . » اهـ[1] . ونقله عنه صاحب التاج .

وترجح لدى السيد رشيد الأخير (أي وضح الأمر) ، لأن الأول ، وهو انشقاق شقين لا دخل له في إنذار المشركين ، والثاني : لم يسبق أن عُدَّ من آيات الساعة انشقاق السماء وانفطار الكواكب ، فلم يبق إلا الثالث (في رأيه) وهو بمعنى ظهور الحق بآيات القرآن .

وفي نهاية البحث يقول :

« ومن اطمأنت نفسه من المسلمين بقبول سائر تلك الروايات على علاتها وكان ممن يرى مخالفة النقل القطعي والعقلي ، أهون من مخالفة زيد وعمرو، وصدق عقله أن تقع هذه الآية ولا يحدث بها أحد من الخلفاء الراشدين ، ولا غيرهم من قدماء الصحابة برؤيتها والاحتجاج بها ، فضلاً عن تواترها ، فليس له أن يجعلها من عقائد الإسلام ، وينفر مستقلي الفكر ، ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منهم . . .

إلى أن قال في التنبيه على مسألة الثقة بالروايات . . .

« إن جملة الروايات إنما تدل على أن بعض الصحابة ، وبعض الكفار رأوا القمر قد انشق فصار فرقتين في لحظة من الزمان ، ولا ضرر في تصديق ذلك

(١) انظر مفردات الراغب (٢ : ص ٢٩٩) هامش النهاية لابن الأثير ط . المطبعة الخيرية بمصر .

مهما يكن سببه ، وإنما الضرر أن يجعلوها آية مقترحة جعلها الله حجة على نبوة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وإنه يجب على مسلم أو كافر يريد الإسلام أن يؤمن بذلك ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » اهـ . كلامه [(١)] .

وبعد هذا العرض السريع لخلاصة فتواه التي حرر فيها روايات المسألة ، ونقل أقوال الخطابي ، وابن عبد البر ، والقاضي عياض ، والحافظ المزي ، والحافظ ابن حجر ، وغيرهم ، وانتقدهم انتقاداً علمياً - وإن كنت لا أوافقه في كل ما كتبه ، ولا أتبعه فيما ذهب - ولكن أقول بعد هذا كله هل يصح أن يقول الشيخ مصطفى صبري عن رشيد رضا :

« فالأحاديث المثبتة بمعجزة انشقاق القمر غير مقبولة عند شيخ (المنار) وقول القرآن ﴿ **انشق القمر** ﴾ لا يفهم منه انشقاق القمر ، وإنما يفهم منه معنى آخر غير انشقاق القمر ، قولوا بربكم : هل الشيخ لاغ في القرآن والحديث ولاعب بهما أم هو غير لاغ أجيبوني عن سؤالي هذا ولا تؤاخذوني بتشديد القول عليه ، فهل تريدون أن أقول للاعب بالقرآن : أحسنت ؟ » . [(٢)] اهـ .

فماذا نقول نحن للشيخ مصطفى صبري بعد عرض كلام رشيد رضا وكلامه ؟

إن الشيخ رشيد لم يكتب كلاماً فارغاً أجوف وإنما أتى بأدلته ، وساق براهينه فليكن الرد عليه ممن يرد علمياً لا تشنيعاً فحسب فإنما محور كلامه يدور حول أن هذه الآية لو وقعت ، لكان وقوعها من غير سؤال من المشركين واقتراحهم ثم استمرارهم على التكذيب ، لأن ذلك يعارض (في نظر رشيد)

---

(١) انظر فتاوى رشيد رضا ص ٢١٨١

(٢) انظر موقف العقل والعلم والعالم ص ١٧٣ ، ١٧٤ / ٤

آيات وأحاديث كثيرة تثبت أن القرآن هو الحجة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على نبوته ، وأن الآيات إذا جاءت ، يهلك المكذبون بعدها كما في قوله تعالى : ﴿ **ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله** ﴾ [يونس : ٢٠] ، وقوله : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون** ﴾ [الأنعام : ٨] وقوله : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً** ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقوله : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ [الأنعام ١٠٩]

وغير ذلك من الآيات ، وأما وقوع ذلك دونما سؤال أو اقتراح فخطبه (عند الشيخ رشيد) أسهل ، وإن استشكل كغيره ممن سبقه ونقل عنهم ، وقوع مثل هذه الآية العظيمة ولا يرويها غير آحاد كأنس ، ولم يكن حاضرها بل كان عمره خمس سنوات وقتها ، وغير ابن مسعود وابن عباس ولا يشترط أن يكون الحديث تفسيراً للآية حتى ولو صح ، فإنه لو ذهب شخص إلى أن المراد بالآية انشقاق قرب الساعة لأن القمر داخل في عموم قوله تعالى : ﴿ **وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ [الانفطار : ٢] ، ويكون هذا كخسوفه أو منه ويدل عليه اقتراب قيام الساعة بانشقاق القمر في قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ [القمر : ١] ، فمثل هذا لا يبعد وأشار إليه السابقون كما تقدم في كلام الراغب وذكره في الفتح عن بعضهم (٧/ ١٨٦) فيكون الحديث غير مفسر للآية ونظير ذلك حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « قال سليمان ابن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء الله فلم يقل ، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه . . » الحديث رواه البخاري (٦ : ٤٥٨) .

فهذا الحديث صحيح واستدل به بعض المفسرين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب** ﴾ [ص : ٣٤] ، ورد ذلك جمع من أهل العلم واستنكروه كما بالفتح (٦/ ٤٦١) فالحديث صحيح ولكنه ليس تفسيراً للآية .

وكذلك تأويل آية الميثاق بالأعراف ذهب ابن كثير إلى : أن المراد منها الفطرة ولم يجعل الأحاديث مفسرة لها وغير ذلك كثير .

والمراد هنا بيان موقف الشيخ رشيد بإنصاف وإن كانت النفس أميل إليّ في أن الحديث مفسر للآية ويدل على ذلك قول ابن مسعود الذي في الصحيح [٨ : ٥٧١ - فتح] « مضى خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام »(١)

ويؤيده كما قال الحافظ [٧ : ١٨٦ - فتح] « قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ [القمر : ٢] ، فإن ذلك ظاهر في أن المراد بقوله (وانشق القمر) وقوع انشقاقه لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة ، وإذا تبين أن قولهم ذلك إنما هو في الدنيا تبين وقوع الانشقاق ، وأنه المراد بالآية التي زعموا أنها سحر » ا.هـ .

وأما كون ذلك يخالف الآيات في العذاب عمن سأل الآية وكذب بها بعد ذلك .

فقد أجاب الخطابي عن ذلك واستجاده الحافظ في الفتح [٧ : ١٨٥] قال

---

(١) الدخان في سنين القحط بمكة لما دعا النبي ﷺ ، والروم بانتصارهم على الفرس في أول سورة الروم ، والبطشة واللزام يوم بدر ، واللزام والهلكة وانظر الفتح (٨: ٤٩٦ ، ٥١١ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤)

بأن المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن لأن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي ﷺ بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية فاختص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول ، وزيادة الأفهام ، ولو كان إدراكها عامًّا لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم ، وذكر أبو نعيم في الدلائل نحو ما ذكره الخطابي وزاد ولاسيما إذا وقعت الآية في بلدة كان عامة أهلها يومئذ الكفار الذين يعتقدون أنها سحر ويجتهدون في إطفاء نور الله . اهـ . من الفتح

هذا ، والمسألة محل نظر وبحث والاعتماد على الآثار في ذلك هو مذهب الجمهور ، وهو أقرب من تغليط الرواة ، أو رد الروايات والله أعلم .

ويتضح لنا مما سبق موقف الشيخ رشيد من المعجزات المحمدية بعامة وأنها تأتي تأييداً لا لإقامة حجة ، فالعجب من الشيخ مصطفى صبري أن ينسب لرشيد عدم الاعتراف بها في قوله « فمعجزات الأنبياء المعدودة من الخوارق التي تستند إليها نبواتهم غير معترف بها عند المبرزين من العلماء الذين اتخذتهم مصر الحديثة أئمة في الدين مثل الشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا والشيخ الأكبر المراغي . . . »[(١)]

أقول : إني لأتعجب لأن من ملاحق كتاب (موقف العقل)[(٢)] ردًّا من محمد فريد وجدي على رشيد رضا لما اتهمه السيد رشيد بإنكار معجزات

---

(١) انظر ص ١/٢٥ من موقف العقل والعلم وكذلك انظر ص ٣٧٤ من نفس المرجع

(٢) انظر ص ٤٥٤ - ٤٥٨ / ج٤ من ملاحق موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين .

الأنبياء ، وعذاب النار ، وأنه يدعو للأخوة العالمية العامة [١] وتوحيد الأديان ، ونحو ذلك .

أفيهاجم السيد رشيد من ينكر معجزات الأنبياء ثم لا يعترف بها هو ، أم أن كلامه في كونه معجزة النبي ﷺ الحجة القائمة هي القرآن ، وما سواه فليس بحجة عامة قائمة كما ذكر ذلك في (الوحي المحمدي) [٢] رحم الله الشيخ مصطفى صبري وغفر له ، ورحم الله الشيخ رشيد وغفر له ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أخذ أيضاً على الشيخ رشيد قوله في الربا ، وقد هوجم مهاجمة شديدة لقوله إن ربا الفضل لم يحرم لذاته بل لسد الذرائع وبنى على ذلك الفروع الفقهية ، والحقيقة أن السيد رشيد نظر في أدلة الربا وحكمة التشريع فيه ثم خرج بعد ذلك بتصور عام للربا بما يكون أخطأ في بعض جزئياته لكن هذا لا يخرج به عن دائرة التصور الإسلامي للربا .

ومن قرأ كتابه في الربا ومقدمة الشيخ محمد بهجة البيطار له تحقق من هذا الذي قدمته ، لاسيما وقد عزز نقله بما سطره العلامة ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين ، ثم وجدت فتوى للشيخ رشيد تؤكد أنه كان يطبق كثيراً مما اختلف عليه فيه التصور النظري فهو يمنع الربا بنوعيه في الأوراق النقدية ويجعل المتعامل بالربا فيها محتال على الحرام .

---

(١) وقد اتهم محمد عبده بهذا أيضاً ، وهو محل بحث ثبوته عنه ، ورده على هانوته الذي طعن في الإسلام يدل على خلاف ذلك . . ، انظر تاريخ الأستاذ الإمام رشيد رضا (٢/ ٣٩٥)

(٢) الوحي المحمدي ص ٨٠ ، ٨١ ، وانظر هامش (٣ ص ٢٣ من هذا البحث)

فقد سأله سائل عن الورق النقدي هل يجوز للإنسان أن يبيع قسماً من الورق النقدي متفقاً مع المشتري في أسعار أكثر من أسعار السوق الحاضرة لمدة معينة أم لا .

فأجاب رحمه الله

« سبق لنا تفصيل الأحكام للأوراق المالية « بنك نوت » فنكتفي هنا بأن نقول إن هذه الصورة المذكورة في هذا السؤال ليست صورة بيع وشراء بل هي صورة دين مؤجل بزيادة معينة في مقابلة الأجل وهو عقد ربوي ظاهر صريح ليس من قبيل الحيل التي اختلف فيها الفقهاء .

أما اضطراب أسعار ما يسمى الورق السوري فسببه معروف وهو يشبه فيه نقد الفضة التركي كالريال المجيدي ، فإذا اختلف سعر الريال إذا صرف بغيره من نقد المعدن أو الورق فهل يبيح ذلك إعطاء مائة ريال لرجل على أن يرد لمعطيها مائة وعشرة ريالات بعد أشهر أو سنة مثلاً وهل يسمى هذا بيعاً ؟ لا على أن بيع الربويات المختلفة الجنس التي يجوز فيها التفاضل ، يشترط فيها التقابض في المجلس وإلا كان من ربا الفضل الذي حرم لأنه ذريعة لربا النساء المجمع على تحريمه » . اهـ .

فها هو الشيخ رشيد يصرح بتحريم ربا الفضل وإن كان قد جعل العلة سد الذريعة ، والمسألة كما قدمت موضع خلاف وقد يكون الراجح خلافه لمطلق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رفعه : « **ولا تشقوا بعضها على بعض** » رواه البخاري [1] وغيره والله أعلم .

إلا أن الشيخ رشيد اعتمد كلام ابن القيم في إعلام الموقعين وانطلق من

---

(١) انظر البخاري (٤/ ٣٨٠ - فتح)

قاعدة (ما حرم لسد الذريعة كربا الفضل جاز للمصلحة) وقد ذكر كلاماً للفقهاء من المذاهب تراعي مثل هذه المصالح واستدل له ومن راجع كلامه تبين له حاله [١] .

فهذه نماذج من فتاويه التي أخذت عليه ، والعصمة ليست لأحد بعد النبي ﷺ وكل يؤخذ من قوله ويرد ، وخطأ هذه الأمة مغفور لها كما جاء في الأثر .

---

(١) راجع مجموع فتاويه ص ٦٠٤/ ١٣٤٠ ، ١٧٤٦ (مسألة عموم البلوى ويسر الشريعة) ، ١٧٤٨ ، ١٨٥٦ ، ١٦٠٢ وللأسف استغل بعض المعاصرين (د. الناصر) كلام رشيد رضا في إباحة فوائد قروض البنوك ، ومن رد عليه لم يحقق مذهب رشيد رضا ، فيما اطلعت عليه ولعلي أبحث في هذا إن شاء الله فيما بعد .

الباب الثاني

عقيدته

الباب الثاني

(عقيدتــه)

لعل من المناسب في هذا الباب ، أن أشير إلى أن منهج وفكر الشيخ رشيد رضا قد تحول تدريجياً من المذهب العقلي الذي كان يعتمد عليه كلياً الشيخ محمد عبده ومن قبله الأفغاني ، تحول إلى المذهب والفكر السلفي الذي استطاع وحده أن يلبي رغبات العقل والروح ، وهو الفكر الوحيد الذي صمد أمام دعاوى الاستشراق والتغريب والتحديث ، ولقد أعجب بهذا الفكر السيد رشيد رضا وتبين له سموه ورفعته ، فبدأ يتخلى شيئا فشيئا عن بعض إشارات واتجاهات شيخه محمد عبده ، ولعله لو امتد به العمر لكان يعلن انخلاعه الكامل عن الفكر العقلي المشار إليه ، ولما كنا نجد بعض شوائب وغبار رياح هذا الفكر على بعض مؤلفات السيد رشيد رضا من إنكار خروج المهدي أو نزول المسيح أو نحو ذلك مما رفضه فكر محمد عبده تماماً وتابعه في ذلك رشيد رضا .

وإن الكلام على عقيدته يشمل الجوانب الإيجابية والسلبية ، ومنهجه الذي سار عليه في دعوته ، وإنه لمن العسير أن أتكلم في هذه الوريقات عن جميع المسائل العقدية التي تعرض لها السيد رشيد ، ولذا سأكتفي بأبرز المسائل ، وأوضح الأفكار تاركاً للقارىء أن يستشف من بين السطور ما خفي منها ، أو أجمل فيها .

وسأتعرض لأهم مسائل العقيدة ، وأبين فكر الشيخ رشيد بوضوح من خلال ما سطره في مناره ، وربما أعقبت بعض البحوث بشيء من الاستدراك والتوضيح لاسيما في المباحث التي يظن أنه خالف فيها معتقد أهل السنة والجماعة .

وأما البحوث التي تعرضت لها في هذا الباب فهي :

* توحيد الألوهية * أحكام عصاة الموحدين
* توحيد الأسماء والصفات * التحسين والتقبيح والتعديل والتجوير
* رؤية الله في الآخرة * دار الحرب ودار الإسلام
* الإيمان * الحكم بغير ما أنزل الله
* الملائكة * أحكام الخروج

مع الشيعة (الولاء والبراء)

* القدر وأفعال العباد
* أبدية النار

وفيما يلي بيان ذلك ، يسر الله لنا الخير في الدنيا والآخرة

*** أما توحيد الألوهية .**

فقد قرره السيد رشيد أيما تقرير ، وأكثر من الكلام عليه والتنبيه على مقتضياته ومتطلباته ، وطبع ونشر كثيراً من الكتب التي تبحث في هذا المجال ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب .

وأحاول هنا أن أبرز عقيدته في ذلك مع شيء من الاختصار

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم . . .** ﴾ [البقرة : ٢١]

« وبدء الدعوة بعبادة الله وحده هو سنة جميع المرسلين قال تعالى [النحل : ٣٦] : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾

فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ (١) وذلك أن جميع تلك الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق الخلق هو ربهم ومدبر أمورهم ، وإنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذي هو ركن العبادة الأعظم في وجدان جميع البشر ، وبغير الدعاء والاستغاثة من العبادات العرفية ، كالتقرب إلى المعبود بالنذور وذبح القرابين أو الطواف والتمسح به إن كان جسماً أو تمثالاً لملك أو بشر أو حيوان أو قبر لإنسان ومنهم من كان ينكر البعث أيضاً ، ولما كان المخاطبون بالدعوة هنا أولا وبالذات في ضمن الدعوة العامة ، وهم اليهود والعرب في المدينة وما حولها يؤمنون برب العالمين ووحدانيته ويعبدون غيره إما بدعائه مع الله أو من دون الله وإما بجعله شارعاً يتبعونه فيما يصدره من أحكام التعبد أو الحلال والحرام - لما كانوا كذلك احتج على دعوتهم إلى توحيد الله تعالى بالتعبير بلفظ « رب » مضافًا إليهم فقال ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ووصفه بما يدل على انفراده بالربوبية من الصفات المسلمة عندهم وهي الخلق والتكوين والرزق فقال : ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ إلى آخر الآية التالية أي إذا كان ربكم هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم ، وهو الذي سخر لكم السماء والأرض لرزقكم ومنافعكم فيجب أن تعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه فتجعلونه مساوياً له وتفضلونه على أنفسكم تفضيلاً من نوع تفضيل الخالق على المخلوق والرب على المربوب .

انظر تفسير المنار(١/ ١٨٤)

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . . .** ﴾[يونس :١٨]

---

(١) سورة الأعراف آيات (٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥)

« هذه الآية في دحض شبهتهم على عبادة غير الله تعالى وهي الشفاعة ، وتقدم في الآية السابقة بطلانها وإقامة الحجة على وجوب عبادة الرب الخالق المدبر وحده ، وصرح هنا بإسناد هذا الشرك إليهم وباحتجاجهم عليه بالشفاعة ، ثم لقن رسوله الحجة على بطلان هذا الاحتجاج . . .) انظر التفسير ١١/ ٣٢٣

ويبين في موضوع آخر أنه لا فرق بين عبادة حجر أو ولي إذ كلها عبادة غير الله فيقول : (والصواب المجمع عليه المعلوم من دين الإسلام بالضرورة ، ونصوص القرآن القطعية أنه لا فرق في عبادة غير الله بمثل ما ذكرنا من الأصنام وغيرها من حجر وشجر وكوكب ، أو بشر ولي أو نبي ، أو شيطان أو ملك ، إذا توجه العبد إليها توجهاً تعبدياً ابتغاء نفع أو كشف ضر في غير العادات والأسباب التي سخرها الله لجميع الناس) (انظر التفسير ١٢/ ٩٩)

وبناء على تقريره هذا يكون كثير ممن ينتسب للإسلام الآن قد وقع في عبادة غير الله تعالى وهذا حق ولذا نجد السيد رشيد لايفتأ عن تقرير ذلك ، وعلى سبيل المثال ينقل عن شيخه محمد عبده والذي كان قوياً في هذا الباب[١] ، ينقل عنه ما يؤيد هذا فيقول :

---

(١) وفي هذا النقل وغيره رد على القصة المشهورة والتي مؤداها أن رجلا أنكر على امرأة تدعو ولياً من دون الله فناداها محمد عبده وسألها فقالت إني أعرف أن الله بيده كل شيء والنفع والضر منه ، ولكني أردت أن ينزل حاجتي بالله فقال لها محمد عبده اذهبي ، ثم قال للمنكر : أرأيت كيف أنها موحده ! ! فهذا لا شك في كذبه على محمد عبده لأنه كان يمنع من هذا بكل قوة كما هو معلوم عنه ، ونقله عنه السيد رشيد رضا في التفسير - كما في هذا الموضع - وكذلك في تاريخ الأستاذ الإمام والله أعلم .

«قال- أي محمد عبده-: فالشرك أنواع وضروب أدناها ما يتبادر إلى أذهان عامة المسلمين أن العبادة لغير الله كالركوع والسجود له وأشدها وأقواها هو ما سماه الله دعاء واستشفاعاً وهو التوسل بهم إلى الله وتوسيطهم بينهم وبينه تعالى ، فالقرآن ناطق بهذا ، وهو المشهور في كتب السير والتاريخ فهذا المعنى أشد أنواع الشرك وأقوى مظاهره التي ينجلي فيها معناه أتم التجلي وهو الذي لا ينفع معه صلاة ولا صيام ولا عبادة أخرى .

ثم ذكر أن هذا الشرك قد نشأ في المسلمين اليوم وأورد شواهد على ذلك على المعتقدين المغالين في البدوي (شيخ العرب) والدسوقي وغيرها لا تحتمل التأويل ، وبين أن الذين يؤولون لأمثال هؤلاء إنما يتكلفون الاعتذار لهم لزحزحتهم عن شرك جلي واضح إلى شرك أقل منه جلاء ووضوحاً ولكنه شرك ظاهر على كل حال وليس هو من الشرك الخفي الذي وردت الأحاديث بالاستعاذة منه الذي لايكاد يسلم منه إلا الصديقون ومنه أن يعمل المؤمن العمل الصالح من العبادة لله تعالى ويحب أن يمدح عليه أو يتلذذ بالمدح مثلاً) (انظر التفسير ٥/ ٨٣)

وقد كان السيد رشيد يتعجب من هذه العقول التي تلجأ إلى الموتى وتدعوهم من دون الله ، وقد أكثر ذلك في كتاباته حتى أنه في رده على كتاب العاملي الشيعي يذكر ذلك ويحذر منه فيقول : « ولكن في نشر هذا الكتاب ضرراً عظيماً وإفساداً كبيراً لعقائد المسلمين كافة ، وعقائد أهل السنة خاصة ، لما فيه من الشبهات الكثيرة الصادرة في صورة الأدلة على عبادة موتى الصالحين بالدعاء وغيره ، وتحريف نصوص القرآن الصريحة في منع ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ **فلا تدعوا مع الله أحدا** ﴾ [الجن : ١٨] وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾ [الأعراف : ١٩٤] وقوله:﴿ **أولئك الذين يدعون**

يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

أي أولئك الذين يدعونهم من دون الله توسلاً بهم إليه هم يبتغون الوسيلة والقرب إلى الله « **أيهم أقرب** » أي يبتغي ذلك أقربهم إلى الله كالمسيح عليه السلام والملائكة ، فكيف من دونهم ، كما أنه يرد بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك لأنها من رواية أهل السنة أو يحرفها بالتأويل !! . . . .)

ثم يقول : « وما أضعف المسلمين في دينهم ودنياهم شيء كما أضعفهم وأفسدهم الاتكال على الموتى في قضاء حاجاتهم ، ومعالجتهم ودفع الأذى عنهم ، فهذا ما يضر أهل السنة والشيعة ولا سيما في هذا العصر وهو يوهم الفريقين أنه من الإسلام وأنه لم يخالف فيه أحد منهم إلا الوهابية مع أنه لم يقل به أحد من أئمتهم لا أئمة أهل البيت كالصادق والباقر ولا أئمة الأمصار الآخرين كالأربعة رضوان الله عليهم أجمعين ، بل النصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام موافقة للأحاديث الصحيحة من منع هذه البدع الخرافية»(١)

وهو يقول أيضاً في فتوى له : « دعوة غير الله تعالى شرك ، ونعني بها اللجوء إلى غيره في طلب ما وراء المساعدة والمعاونة الكسبية التي تكون بين الناس عامة » (٢) **﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾** وسئل يوماً عن الذبح على القبور فقال « الذبح على القبور بدعة.. . »وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز الذبح لغير الله تقرباً إليه أو تعظيماً له أو رجاء فيه ، لأن هذا من الوثنية ، وقد صرح الفقهاء بأن من فعل ذلك على سبيل العبادة يكون مرتداً

---

(١) انظر ص ٣٨ ، ٣٩ من كتاب السنة والشيعة له

(٢) انظر ص ٥٦ / ١ من فتاوى السيد رشيد رضا . والآية هي رقم ١٨ من سورة الجن .

عن الإسلام . . .[١]

وللسيد رشيد في هذا الباب الفتاوى الكثيرة[٢] ولعل ما سبق فيه الكفاية لتوضيح عقيدة الشيخ في باب الألوهية ، وأنها على عقيدة السلف لا يشوبها شرك العبادة من قريب ولا بعيد ، وسيأتي مزيد لهذا عند الكلام على خصومته لأعداء الوهابية ونماذج من فتاويه في محاربة الخرافية في آخر هذا البحث والله أعلم .

× **أما توحيد الأسماء والصفات :**

فلا شك أن السيد رشيد اعتقد فيها اعتقاداً سلفياً صحيحاً ، وقد حاولت أن أبرز معتقده فيه بالإجمال والتفصيل ، فقمت بعرض لآرائه في وجوب الاعتقاد الصحيح السلفي في الأسماء والصفات ، ثم أعقبت ذلك بالكلام على ما سطره الشيخ في تفسيره في كل صفة على حدة والصفات التي تعرضت لها هي :

* صفة القرب * صفة النفس * صفة المجيء والإتيان
* صفة الاستواء * صفة الوجه * تفسير الكرسي
* صفة الفوقية * صفة الحب والرضا والغضب * معية الله سبحانه
* صفة الكلام * صفة الاستهزاء

---

(١) انظر ص ٣٣٦ / ١ من فتاويه

(٢) انظر على سبيل المثال دعاء الموتى والتوسل بهم من ص ٤٩٥ إلى ٥٠٣ / ٢ من فتاويه وص ٥٠٥ / ٢ منها وكذلك ص ١٤٦٨ / ٤ منها أيضاً

(٣) انظر ص ٣٨ ، ٣٩ من كتاب السنة والشيعة له .

(٤) انظر ص ٥٦ / ١ من فتاوى السيد رشيد رضا .

* صفة الرحمة
* صفة العين
* صفة الحياء
* صفة اليد

* **فأما اعتقاده المجمل :**

فقد ظهر جلياً في كتاب السيد رشيد رضا ، لا سيما في تفسيره ، ظهر أنه يعتقد فيه الاعتقاد السلفي السليم من إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تمثيل ، ومن غير تشبيه ولا تعطيل (٢) .

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . . .** ﴾ الآية [البقرة: ٣٠] قال السيد رشيد بعد أن ذكر حاصل ما قاله الأستاذ محمد عبده في عرض مذهبي السلف والخلف : وأقول أنا مؤلف هذا التفسير : إنني ولله الحمد على طريقة السلف وهديهم عليها أحيا وعليها أموت إن شاءالله تعالى » اهـ

وفعلاً نصر السيد رشيد مذهب السلف بكل قوة إلا أنه لم يغفل أن الأمة قد احتلبت لبن الأشاعرة والمتكلمين ، وفطمت على التأويل ، ومن العسير على من شب على شيء أن لا يشيب عليه ، ولذا نجد في بعض ألفاظ السيد رشيد ما ينفر منه لأول وهلة ذوو الاعتقاد السليم من الذين تربوا على منهج السلف في تلقي مثل هذه النصوص التي يسميها المتكلمون « مشابهات » ومن

---

(١) انظر ص ٣٣٦ / ١ من فتاويه

(٢) انظر على سبيل المثال دعاء الموتى والتوسل بهم من ص ٤٩٥ - ٥٠٣/ ٢ من فتاويه وص ٥٠٥/ ٢ منها وكذلك ص ١٤٦٨/ ٤ منها أيضاً .

(٣) انظر ص ٢٥٢/ ١ من تفسير المنار .

ذلك قول السيد رشيد : « وينبغي أن تعلم أيها القارىء المؤمن أن من الخير لك أن تطمئن قلباً بمذهب السلف ، ولا تحفل بغيره ، فإن لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب أهل اللغة العربية فلا حرج عليك ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعد [١] الظواهر كما فعل الإمام أحمد وغيره في آيات المعية [٢] وآخرون في غيرها ، والذي عليك قبل كل شيء بأن توقن بأن كلام الله كله حق ، وألا تؤول شيئاً منه بسوء القصد . وكذا ما صح عن رسول الله ﷺ من أمر الدين بغير شبه ، والتفسير الموافق للغة العرب لا يسمى تأويلا ، وإنما يجب معه تنزيه الخالق وعدم تشبيه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه [٣] . . . » اهـ

فهذا الكلام المصدر بالنداء للقارىء إنما هو من رحمة السيد رشيد بالأمة ويبين مراده هذا أنه قبله بأسطر قال عما يورده في تفسيره مما قد يخالف منهجه السلفي العام .

« وإنما أذكر من كلام شيخنا ومن كلام غيره ومن تلقاء نفسي بعض التأويلات لما ثبت عندي باختباري الناس أن ما انتشر في هذه الأمة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة المتقدمين والمتأخرين ، جعل قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف في الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح وتخطئة ما يخالفه أو طول ممارسة الرد عليهم ، ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في

---

(١) لعلها (بعض) وهي في الأصل بالدال .

(٢) سيأتي تفصيل يوضح نحو هذا الكلام إن شاء الله . وأيضاً لا يسمى هذا تأويلاً إذا دل عليه ظاهر السياق قال شيخ الإسلام «ليس في ظاهر المعية ما يوجب ذلك (يعني في الآيات) لأنا وجدنا جميع استعمالات (مع) في الكتاب والسنة لا توجب اتصالاً واختلاطاً فلم يكن بنا حاجة إلى أن نجعل ظاهره الملاصقة ثم نصرفه» انظر ص ٢٢/ ٢٣/ ٦ من مجموع الفتاوى .

(٣) انظر ص ٢٥٣/ ١ من تفسير المنار .

الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخي الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، رحمهما الله تعالى ، وإني أقول عن نفسي : إنني لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلاً إلا بممارسة هذه الكتب » (١)

فتبين من هذاالنقل أن السيد رشيد إنما أراد أن يتدرج القارىء الذي رضع سموم أهل الكلام في تلقي النصوص الشرعية بالمفهوم السلفي النقي ، وفي نفس الوقت يحرص ألا يزل هذا القارىء فيأخذ مذهب السلف دون معرفة بأحنائه فيقع في عدم تنزيه الله سبحانه ، وهذا أعظم ضرراً من أن يعتقد التنزيه ولكن يقع في نوع من التأويل ، والله أعلم

كما أن لشخصية رشيد رضا الحريصة على تجميع هذه الأمة أثرًا في كتاباته هذه ، فهو وإن كان يحقق المقام على ما تقتضيه الأدلة والنظر ، إلا أنه يبين عذر المخالف ، فهو مثلاً بعد أن بين صحة مذهب السلف وترجيحه له قال في نهاية تفسيره للآية المشار إليها آنفا ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . . . . الآية قال :

« فعلمنا أن السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شؤون المخلوقين ، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض والإنكار فلا فرق في هذه النتيجة بين تفويض وتسليم ، وتأويل وتفهيم ، والله بكل شيء عليم (٢) .

وأما عند مقام التحقيق ، فكما سبق لا يألو رشيد رضا جهداً أن يدلل على

---

(١) انظر ص ٢٥٢ / ١ من تفسير المنار .

(٢) انظر ص ٢٥٧ / ١ من المنار وذلك عند قوله (والأمر الذي اشتبه على الناس في الآية هو أن قانون التخاطب : إما هو استشاري وهو محال على الله تعالى ، وإما إخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم لحاجة وجدال وذلك لا يليق بالله ولا بملائكته وانظر في تفصيل ذلك ص ٢٥١ إلى ص ٢٥٧ من تفسير المنار .

مذهب السلف ويوضح أحقيته في أن نتناول النصوص من خلاله دون ما سواه من المذاهب ، وأنقل هنا شيئا من كلامه قال في بحث المتشابه عند تفسير قوله تعالى ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ الآية [آل عمران : ٧] فبعد أن ذكر أقوال المفسرين فيها قال : أعلم أنه ليس في كتب التفسير ما يروي الغليل في هذه المسألة وما ذكرناه آنفاً هو صفوة ما قالوه ، وخيره كلام الأستاذ الإمام ، وقد رأينا أن نرجع بعد كتابته إلى كلام في المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية كنا قرزنا بعضه من قبل في تفسيره لسورة الإخلاص ، فرجعنا إليه وقرأناها بإمعان فإذا هو منتهى التحقيق والعرفان ، والبيان الذي ليس وراءه بيان ، أثبت فيه أنه ليس في القرآن كلام لا يفهم معناه ، وأن المتشابه إضافي ، إذا اشتبه فيه الضعيف لا يشتبه فيه الراسخ ، وأن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، هو ما تؤول إليه تلك الآيات في الواقع ككيفية صفات الله تعالى ، وكيفية عالم الغيب من الجنة والنار وما فيها ، فلا يعلم أحد غيره تعالى كيفية قدرته ، وتعلقها بالإيجاد والإعدام ، وكيفية استوائه على العرش مع أن العرش مخلوق له وقائم بقدرته، ولا كيفية عذاب أهل النار ولا نعيم أهل الجنة كما قال تعالى في هؤلاء : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ [السجدة : ١٧٠] فليست نار الآخرة كنار الدنيا وإنما هي شيء آخر ، وليست ثمرات الجنة ولبنها وعسلها من جنس المعهود لنا في هذا العالم ، وإنما هو شيء آخر يليق بذلك العالم ويناسبه ، وإننا نبين ذلك بالإطناب الذي يحتمله المقام مستمدين من كلام هذا الحبر العظيم ناقلين بعض ما كتبه فنقول : إنما غلط المفسرون في تفسير التأويل في الآية لأنهم جعلوه بالمعنى الاصطلاحي ، وأن تفسير كلمات القرآن بالمواصفات الاصطلاحية قد كان منشأ غلط يصعب حصره [١] » اهـ .

---

(١) انظر ص ١٧٢/ ٣ من تفسير المنار .

ثم ذكر أن لفظ التأويل ورد في سبع سور ثم أورد الآيات التي اشتملت على هذا اللفظ ، وبين أن في كل منها جاء معنى التأويل بالمآل والعاقبة ، ثم عقد الكلام ، وبنى الأسطر ، وأجمل المعاني ، وفصل الاستدلال ، بعبارة مليحة موجزة جعلت من بحثه هذا في المتشابه مايحق له أن يعلو على أقرانه ، ويتقدم ما سواه [١] ثم عقد في آخره فصلا عن آيات وأحاديث الصفات ابتدأه بقوله :

« اعلم أن ما تلقيناه في كتب العقائد التي تقرأ للمبتدئين من طلاب العلم في ديار مصر والشام كالجوهرة والسنوسية الصغرى وما كتب عليهما من شروح وحواش وهو أن للمسلمين في الآيات والأحاديث المتشابهات في الصفات مذهبين ، مذهب السلف وهو الإيمان بظاهرهما مع تنزيه الله تعالى عما يوهمه ذلك الظاهر ، وتفوض الأمر فيه إلى الله تعالى ، ومذهب الخلف وهو تأويل ما ورد من النصوص في ذلك بحمله على المجاز أو الكناية ليتفق النقل مع العقل وقالوا : إن مذهب السلف أسلم لجواز أن يكون ما حمل عليه اللفظ المتشابه غير مراد الله تعالى ، ومذهب الخلف أعلم لأنه يفسر النصوص جميعها ويحمل بعضها على بعض فلا يكون صاحبه مضطرباً في شيء من دينه . . . إلى أن قال « وكنا نظن في أوائل الطلب أن مذهب السلف ضعيف ، وأنهم لم يؤولوا كما أول الخلف لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم ، لا سيما الحنابلة كلهم أو بعضهم .

ولما تغلغلنا في علم الكلام وظفرنا بعد النظر في الكتب التي هي منتهى فلسفة الأشاعرة في الكلام ، وبالكتب التي تبين مذهب السلف حق البيان لا

---

(١) وإني أقترح أن يفرد هذا البحث بطباعة أنيقة تبرزه في حلة جميلة لأهميته ولينتفع به الناس .

سيما كتب ابن تيمية ، علمنا علم اليقين أن مذهب السلف هو الحق الذي ليس وراءه غاية ولا مطلب ، وأن كل ما خالفه فهو ظنون وأوهام لا تغني من الحق شيئا (١)

ثم ذكر كلام خاتمة محققي الأشاعرة السعد التفتازاني في شرح المقاصد ، ثم ذكر كلام الغزالي في الإثبات من كتابه الإحياء ، واهتم بذلك (٢) . ثم ذكر اعتقاده وتحقيقه بعد عرض أقوال الناس فقال :

« فحاصل ما تقدم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الأسماء والصفات هو مما أطلق قبل ذلك على الخلق إذ لو وضع لصفات الله تعالى ألفاظ خاصة وخوطب بها الناس لما فهموا منها شيئا قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ [إبراهيم : الآية ٤] وقد جاء الرسل عليهم الصلاة والسلام بما دل عليه العقل من تنزيهه تعالى عن صفات المخلوقين ، وكونه لا يماثل شيئاً ولا يماثله شيء ، فعلم أن جميع ما أطلقوه عليه من الألفاظ الدالة على الصفات كالقدرة والرحمة (و) على الأفعال والحركات كالخلق والرزق والاستواء على العرش وعلى الإضافة ككونه فوق عباده لا ينافي أصل التنزيه ، بل يجب الإيمان بها بما تدل عليه مع التنزيه فنقول : إن له قدرة ليست كقدرتنا ، ورحمة ليست كرحمتنا ، وخلقا ليس كخلقنا فإن الخلق في اللغة التقدير المعروف من الناس للأشياء وهو تعالى أحسن الخالقين لا يخلق كخلقه أحد كما قال ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ [الرعد : ٦] .

---

(١) انظر ص ١٩٦ ، ٣/١٩٧ من تفسير المنار .

(٢) سبق في ترجمته أن السيد رشيد أعجب أيما إعجاب بالإحياء ، ولعله السبب في استشهاده بكلام الغزالي في تفسيره عامة ، وفي هذا البحث خاصة .

وليس استواؤه على عرشه كاستواء الملوك على عروشهم كما أن عرشه ليس كعرشهم ، ولا علوه على خلقه كعلو بعض الأجسام على بعض كما أنه تعالى ليس جسماً مماثلاً لهم [١] »

وبعد هذا التحقيق ، وبعد هذه الأدلة والبراهين الساطعة ، لا ينسى السيد رشيد أن في المسلمين مرضًا وأنه طبيب نصب نفسه لعلاجه وأراد أن يجتمع الشمل ، ويرأب الصدع ، وتقل الفروقات وتتقارب وجهات النظر فيقول عقب ما سبق :

« والسلف والخلف ، أو الأثريون والمتكلمون كلهم متفقون على تنزيه الله تعالى عن مماثلة خلقه ، وعلى أن جميع ما جاء على ألسنة الرسل في وصفه تعالى والحكاية عنه حق إلا أن المتكلمين يقولون :

إن العقل دل على أن لهذا العالم خالقاً عالماً مريداً قادراً فهذه الصفات ثابتة له عقلاً ، وعليها مدار إثبات الألوهية بالبرهان ، لأن جميع الكائنات دالة عليها فما يرد من الصفات السمعية يجب إرجاعه إليها ولا نعده صفة زائدة والسلف الأثريون يقولون : لا نفرق بين صفات الله تعالى التي أثبتها لنفسه في كتابه وعلى لسان رسله ، وإنما هذا خلاف ضروري إذ لا خلاف في التنزيه وفي كون كل ما جاء عن الله في ذلك حق ، ولولا أن المسلمين انقسموا إلى مذاهب عني أهل كل مذهب بإثبات مذهبهم وتأييده ، وإبطال مخالفه وتفنيده ، لزال هذا الخلاف ، وعرف الأكثرون الحق صورة ومعنى حتى لا يشنع أشعري على حنبلي ولا أثري على نظري ، ولذلك ترى محققي المتكلمين رجعوا في آخر عهدهم إلى مذهب السلف ، وبذلك صرح الشيخ أبو الحسن الأشعري في الإبانة وأبو حامد الغزالي في (إلجام العوام من علم الكلام) وغيره من كتبه التي ألفها في آخر حياته » [٢]

---

(١) انظر ص ٢٠١ /٣ من تفسير المنار .

(٢) انظر ص ٢٠١ ، ٢٠٢ /٣ من تفسير المنار .

وحرص الشيخ رشيد رحمه الله على أن المسلمين يجتمعون ، فيظهر كما اتضح من كلامه أنه يريد من الجميع نبذ التعصب ، والتجرد للحق فإذاهم فعلوا هذا ، بان للجميع صحة مذهب السلف ، وآمن به الكل يدل على ذلك آخر كلامه السابق ، وأيضاً قوله بعد ما سبق بأسطر :

« وإنني أنقل في هذا المقام جملة من كلام أهل الأثر وتابعي السلف في معنى ما تقدم من عدم التفرقة بين صفات الله تعالى ، ليعلم الجامدون على ما في كتب الكلام والتفسير التي ألفها الأشاعرة ، أنهم [١] كتبوا بعقل ، وهم أجود الناس فهماً للنقل . . . . . ثم سرد عدة نقول عن شرح عقيدة السفاريني ومن كلام شيخ الإسلام وتلميذه الواسطي وختم بكلام الغزالي في « إلجام العوام عن علم الكلام » [٢] .

وبنفس الروح ، وبنفس قوة الألفاظ ، ودقة العبارة قال في تعليقه على رسالة « تفصيل الإجمال فيما يجب لله من صفات الكمال ، والفصل فيما اتفق عليه وما اختلف فيه أهل الملل والنحل والمذاهب منها باختلاف الدلائل العقلية والنقلية فيها » لشيخ الإسلام ابن تيمية [٣] قال معلقاً في آخرها :

« إن هذه الرسالة من أنفس ما كتبه شيخ الإسلام وامتاز به على جميع علماء الملة ، وأدلها على إتقانه لجميع العلوم العقلية ، ولاسيما المنطق والفلسفة ، وهي حجج الله تعالى على حقيقة مذهب السلف في إثبات جميع ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ص من الصفات والأفعال بدون تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل ، وخطأ نظار المتكلمين والفلاسفة

---

(١) الضمير يعود لأهل الأثر وتابعي السلف كما يظهر من السياق .

(٢) انظر ص ٢٠٢/ ٣ من التفسير .

(٣) وهي من أنفس ما كتب شيخ الإسلام وينبغي لطالب العلم أن لا تفوته ! !

الذين أنكروها أو أولوها ، وبطلان نظرياتهم التي بنوا عليها مذاهبهم ، وكونها اصطلاحات مجملة موهمة أساسها قياس الخالق على المخلوق ، . . . ، فليقرأها المخدوعون بتأويلات كتب الكلام القائلين بأن مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم ، يعلموا أنه من قال هذا فهو لا يعلم ولا يفهم فمذهب السلف هو الأسلم والأعلم والأحكم وقد رجع إليه أكبر علماء نظارهم في أواخر أعمارهم ، ولكن لم يستطع منهم لا من المتقدمين ولا من المتأخرين أن يثبته بالبراهين العقلية على الأساليب الفلسفية والقوانين المنطقية . . . . ثم ذكر أن هذا ما امتاز به كلام شيخ الإسلام [١] ولعله يتبين بضم كلامه بعضه إلى بعض ، أنه يقصد من دعوته للاجتماع بأن كلا من الفريقين أراد التنزيه أراد به دعوة مرحلية لئلا ينفر أهل الكلام فإذا اجتمعوا مع أهل الأثر فإن الحق لا بد أن يفرض نفسه ، وعندئذ يرجع إليه المخلصون ، ويرعوي الناقدون [٢].

كان ما سبق هو نظرة السيد رشيد رضا للموضوع (الأسماء والصفات بصفة عامة ، ولا تختلف نظرته الخاصة إلى الصفات عن الأولى ، فهو يثبت ما ورد منها تفصيلياً [٣] ، وفيما يلي بيان ذلك :

صفة القرب

قال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** ﴾ [البقرة ١٨٦] ، قال الشيخ في تفسيرها :

---

(١) انظر ص ٨٠ من مجموعة الرسائل والمسائل (المجموعة الثانية) .

(٢) وهذا المنهج نفسه الذي فعله السيد رشيد رضا مع الشيعة . كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله .

(٣) بل ويأمر بذلك انظر ص ١١٤٥/ ٣ من فتاويه حيث نصر قول شيخ الإسلام في الفتوى الحموية وهو قول الأئمة والسلف في أن الله سبحانه فوق العرش .

« وأما معنى قرب الله تعالى فقد قالوا : إنه القرب بالعلم بمعنى أن علمه محيط بكل شيء فهو يسمع أقوال العباد ويرى أعمالهم ، وعبارة البيضاوي : هو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم ا . هـ

وإنما جعلوا الكلام تمثيلاً لأن القرب والبعد الحقيقي إنما يكونان باعتبار المكان ، وهو منزه عن الانحصار في المكان وقال الأستاذ الإمام : يصح أن يكون من قرب الوجود ، فإن الذي لا يتحيز ولا يتحدد تكون نسبة الأمكنة وما فيها إليه واحدة ، فهو تعالى قريب بذاته من كل شيء إذ منه كل شيء إيجاداً وإمداداً وإليه المصير . ا . هـ

وهذا الذي قال من الحقائق العالية ، وعليه السادة الصوفية ، فقد قال أحد العلماء في قوله تعالى ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ [الواقعة : ٨٥] أي إذا بلغت روحه الحلقوم إنه القرب بالعلم ، وكان أحد كبار الصوفية حاضراً فقال : لو كان هذا هو المراد لقال في تتمة الآية ، ولكن لا تعلمون ، ولكنه لم ينف العلم عنهم وإنما قال ولكن « لا تبصرون » وليس من شأن العلم أن يبصر فينفي هنا إبصاره ، وإنما ذلك شأن الذات ، اهـ . بالمعنى وهو مذكور بنصه في كتاب اليواقيت والجواهر للشعراني .

وعلى كل حال لازم القرب مقصود وهو عدم الحاجة إلى رفع الصوت ، ولا إلى الواسطة بينه وبين عباده في الدعاء وطلب الحاجات كما كان عليه المشركون في التوسل بالشفعاء والوسطاء إلى الله تعالى كأنه قال : فأخبرهم بأنني قريب منهم وأنني أقرب إليهم من حبل الوريد « كما في سورة ق» .

هذا ما كتبته من التعليق على كلمة شيخنا في قرب الوجود ، وطبع أولاً

واطلع هو عليه ، ثم استشكله بعض إخواننا السلفيين بأنه مخالف لمذهب السلف فإنهم يتأولون أو يفسرون القرب بالعلم كالمتكلمين ويقولون إن الله تعالى فوق عباده بائن من خلقه ، مستو على عرشة وعبارة الأستاذ على إجمالها أقرب إلى مذهب السلف من تأويل المتكلمين ، ومن وافقهم من السلفيين ، فإن البائن من كل شيء الذي لا يتحيز ولا يتحدد هو الذي تكون نسبة جميع الأمكنة ، ومن فيها إليه واحدة وهي البينونة المطلقة التي يقتضيها العلو المطلق فوق كل شيء والإحاطة بكل شيء وقرب الصفات لا يعقل بدون قرب الذات ، إذ لا انفصال بينهما ولا انفكاك ، والتحقيق أن مذهب السلف إمرار النصوص في الصفات على ظاهرها من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، والله تعالى قد أسند القرب في هذه الآية ، وآيتي سورة الواقعة وسورة ق إلى ذاته ، فنأخذ هذا الإسناد على ظاهره مع إثبات تنزيهه عن مماثلة خلقه ، وإثبات صفات الكمال له التي يفهم بها المراد من هذا القرب في كل سباق بحسبه ، والجامع فيه ما ذكره الأستاذ من الإيجاد للعباد والإمداد لهم في أثناء وجودهم ومصيرهم إليه بعد انتهاء آجالهم ، فالقرب في سورة « ق » يناسب الإيجاد والإمداد بالعلم والحفظ على قولهم إن قوله ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ متعلق بقوله ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ [ق : ١٦] ، والقرب في سورة الواقعة يناسب المصير إليه تعالى كما يعلم مما بعده ، وقربه في الآية التي تفسرها يناسب الإمداد بسمع الدعاء ، وإجابته وهي من متعلقات القدرة والرحمة ، والغرض منه تقرير توحيد العبادة »[1] . اهـ

هذا الذي قرره السيد رشيد رضا ، ولعله لا يبعد في الجملة عن مذهب

---

(١) انظر ص ١٦٩/ ٢ من تفسير المنار .

السلف قال شيخ الإسلام في كلامه عن مذاهب الناس في القرب :

« وإذا كان قرب عباده منه نفسه وقربه منهم ، ليس ممتنعاً عند الجماهير من السلف وأتباعهم من أهل الحديث ، والفقهاء ، والصوفية ، وأهل الكلام ، لم يجب أن يتأول كل نص فيه ذكر قربه من جهة امتناع القرب يراد قربه بنفسه ، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة ، وينظر في النص الوارد ، فإن دل على هذا حمل عليه ، وإن دل على هذا حمل عليه وهذا كما تقدم في لفظ الإتيان والمجيء .

وإن كان في موضع قد دل عندهم على أنه هو يأتي ففي موضع آخر دل على أنه يأتي بعذابه ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾ [النحل - ٢٦] وقوله تعالى : ﴿ **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾[1] [الحشر - ٢ -] . اهـ .

وقال أيضا في الكلام على قوله تعالى : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ [ق - ١٦]

« وتحقيق الجواب هو أن يقال : إما أن يكون قربه بنفسه القرب اللازم ممكناً أو لا يكون، فإن كان ممكنًا، لم تحتج الآية إلى تأويل، وإن لم يكن ممكنًا حملت الآية على ما دل عليه سياقها ، وهو بعلمه ، وعلى هذا القول فإما أن يكون هذا هو ظاهر الخطاب فلا كلام إذ لا تأويل حينئذ .

وإن لم يكن ظاهر الخطاب ، فإنما حمل على ذلك لأن الله تعالى قد بين في غير موضع من كتابه أنه على العرش وأنه فوقه ، فكان ما ذكره في كتابه في غير موضع أنه فوق العرش مع ما قرنه بهذه الآية من العلم دليلاً على أنه أراد

---

(١) انظر ص ١٤ ، ١٥ / ٦ من مجموع الفتاوى .

قرب العلم ، إذ مقتضى تلك الآيات ينافي ظاهر هذه الآية على هذا التقدير والتصريح يقضي على الظاهر ويبين معناه .

ويجوز باتفاق المسلمين أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى ويصرف الكلام عن ظاهره ، إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة ، وإن سمي تأويلاً وصرفاً عن الظاهر ، فذلك لدلالة القرآن عليه ، ولموافقة السنة والسلف عليه ، لأنه تفسير للقرآن بالقرآن ، ليس تفسيراً له بالرأي والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغير دلالة من الله ورسوله والسابقين كما تقدم[1] اهـ كلام شيخ الإسلام

وإنما أطلت في هذه القضية لأنها كانت مما انتقد على الشيخ رشيد في حياته، من بعض « السلفيين » كما أشار هو إلى ذلك في كلامه الآنف الذكر .

ولكننا نجد أن السيد رشيد رضا استحسن أن الآية على ظاهرها من القرب لا بمعنى العلم ، وهو من هو ، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن يقال : إن النصوص الثابتة عن السياق فلا تأويل حينئذ كما سبق في كلام شيخ الإسلام المار قريباً ، وهذا هو الصواب والله أعلم .

وفيما يلي أحاول أن أستعرض باقي عقيدة الشيخ في باقي الأسماء والصفات من خلال مواضع في تفسير المنار مع التعليق اليسير على ما يحتاجه منه .

---

(١) انظر ص ٢١/ ٦ من مجموع الفتاوى ، وانظر ص ٢٢٦/ - ٢٤٦/ ٥ من مجموع الفتاوى أيضاً ، ففيه تحقيق أوسع للمسألة .

كلامه في استواء الرب جل وعلا :

يقول السيد رشيد في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ [يونس -٣-]

« لم يشتبه أحد من الصحابة في معنى استواء الرب تعالى على العرش على علمهم بتنزهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق إذ كانوا يفهمون أن استواءه تعالى على عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السموات والأرض له ، وانفراده هو بتدبيره وأن الإيمان بذلك لا يتوقف على معرفة كنه ذلك التدبير وصفته ، وكيف يكون ، بل لا يتوقف على وجود عرش ولكن ورد في الكتاب والسنة أن لله عرشاً خلقه قبل خلق السموات والأرض وأن له جملة من الملائكة فهو كما تدل اللغة مركز تدبير العالم كله قال تعالى في سورة هود : ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء** ﴾ [هود - ٧ -]

ولكن عقيدة التنزيه القطعية الثابتة بالنقل والعقل كانت مانعة لكل منهم أن يتوهم أن في التعبير بالاستواء على العرش شبهة تشبيه الخالق بالمخلوق كيف وأن بعض القرائن الضعيفة لفظية أو معنوية تمنع في لغتهم حمل اللفظ على معناه البشري فكيف إذا كان لا يعقل ، فكيف والاستواء على الشيء مستعمل في البشر استعمالاً مجازياً وكنائياً كما تقدم والقاعدة التي كانوا عليها في كل ما أسنده الرب تعالى إلى نفسه من الصفات والأفعال التي وردت اللغة في استعمالها في الخلق أن يؤمنوا بما تدل عليه من معنى الكمال والتصرف مع التنزيه عن تشبيه الرب بخلقه فيقولون إنه اتصف بالرحمة والمحبة واستوى على عرشه بالمعنى الذي يليق به لا بمعنى الانفعال الحادث الذي نجده للحب والرحمة في أنفسنا ولا ما نعهده من الاستواء والتدبير هي ملوكنا وحسبنا أن

نستفيد من وصفه بهاتين الصفتين أثرهما في خلقه وأن نطلب رحمته ونعمل ما يكسبنا محبته وما يترتب عليهما من مثوبته وإحسانه ونستفيد من الاستواء على عرشه كون الملك والتدبير له وحده فلا نعبد غيره ولذلك قرنه في آخر آية يونس بقوله : ﴿ **ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾ [يونس - ٣ -] وفي سورة ألم السجدة ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون** ﴾ [السجدة - ٢-]

وهذا يؤيد ما صدرنا به تفسير الآية من أنها كأمثالها تقرر وحدانية الربوبية على أنها حجة لوحدانية الألوهية وإبطال عبادة غيره تعالى معه بمعنى ما كانوا يدعون من الشفاعة .

ثم أخذ يسرد ما ورد عن أم سلمة وربيعة الرأي والإمام مالك (في الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) ثم نقل كلام ابن كثير في إثبات الاستواء [١] .

إثباته لفوقية الله تعالى :

وقد أثبت السيد رشيد فوقية الله تعالى ذاتاً وقهراً ورد على المتكلمين الذين تأولوا فوقية الذات فقال عند قوله تعالى ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** . . . ﴾ [الأنعام - ١٨ -] وذهبت المعتزلة والأشاعرة إلى أن قوله تعالى : ﴿ **فوق عباده** ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر صرح بذلك الزمخشري وتبعه بعض الأشاعرة كالبيضاوي فنقل عبارته بنصها وبعضهم كالرازي ينقلها ويطيل الدلائل النظرية لإثبات مضمونها ومنع إرادة فوقية الذات ، وإطلاق صفة العلو على الله إذ جعلوا ذلك قولاً بتحيز الباري في جهة معينة ، وأطال في سرد

---

(١) راجع تفسير المنار ص ٤٥١ : ٤٥٣ / ج ٨ .

الدلائل النظرية على استحالة ذلك ولفظ الآية لا يأبى مافسره به الزمخشري وأمثاله لأن له نظيراً ، ذكروه في تفسيرها وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ **وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ [الأعراف - ١٢٧ -] وبديهي أنه يعني فوقية المكان المعنوية لا المكان ولو اكتفوا بهذا لكان حسنا لأنه في معنى ما نقل عن مفسري السلف كابن جرير ولكن منهم من شن على السلف الصالحين وسماهم الحشوية لعدم تأويلهم الآيات والأحاديث الصحيحة الناطقة بإثبات صفة العلو المطلق لله تعالى .

فسلف الأمة يمرون هذه الآيات بغير تأويل ويقولون إن الله مستو على عرشة فوق السموات وفوق العالم كله وإنه بائن من خلقه وإنه مع ذلك ليس كمثله شيء فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز فهذه اللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلامذتهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق والقديم على المحدث ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والإرادة فإنما وضع أصل اللغة لصفات البشر وهي مباينة لصفات الله تعالى فلماذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض فالحق الذي مضى عليه سلف الأمة أن الله تعالى يوصف بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله وأن جميع تلك الصفات تطلق عليه مع تنزيهه عن مشابهة من تطلق عليهم ألفاظها من الخلق فعلم الله وقدرته وكلامه ، وعلوه وسائر صفاته شؤون تليق به لا تشبه علم المخلوقين وقدرتهم وكلامهم وعلو بعضهم على بعض وقد انتهى سخف بعض المتكلمين في التأويل إلى جعل صفات الباري تعالى سلبية . . . »[1] ا.هـ إلى آخر ما كتبه رحمه الله .

---

(١) تفسير المنار ص ٣٣٧ - ٧/٣٣٨ .

إثباته لكلام الله سبحانه وتعالى :

أثبت السيد رشيد رضا كلام الله سبحانه وتعالى على مذهب السلف رحمهم الله في بحث طويل ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه** ﴾ [الأعراف - ١٤٣ -] وشنع بالمتكلمين الذين تركوا ظاهر الكتاب والسنة واشتغلوا بتأويلاتهم وتحريفاتهم ، وكعادته في الأخذ بيد الضال محاولة لاكتسابه لصفوف أهل الهدى ، ينقل السيد رشيد رجوع بعض كبار النظار إلى مذهب السلف كما فعل أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين فقد نقل السيد رشيد رجوعه وتأليفه كتاب النصيحة عند بحثه في مسألة الكلام ثم أعقب ذلك بمقدمة لتقريب صفة الكلام من الأفهام مدارها على أن جميع ما ثبت من النصوص من صفات الله تعالى وشؤونه فالتعبير عنه مستعار مما وضعه الناس في اللغة لأنفسهم فتفهم بهذه المراد من تلك بقدر الطاقة البشرية ، ونسوق بدليل العقل والنقل الفرق بينهما وأن النسبة بينهما المباينة في الحقيقة .

ثم يذكر في تقريب مسألة الكلام بعض المخترعات الحديثة من وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية ، وكذلك أجهزة التسجيل وغيرها .

ثم ذكر بعد ذلك خلاصة البحث بقوله : قد علمت أن للكلام حقيقة ، ولك مع أمن اللبس أن تقول صورة هي مظهر العلم في النفس ومبدأ إظهار ما شاء العالم المتكلم أن يظهره من علمه لغيره وأن له صورا أخرى في أنفس ما ألقى إليهم شيء منه على اختلاف منه على اختلاف أحوال أنفسهم من ملكية وبشرية ، وصوراً أخرى في الهواء وفي الخط على الكاغد وفي النقش على ألواح الفوتغراف ، وهذه الصور على ما بينها من التباين التام مظاهر لحقيقة واحدة هي ما أراد العالم المتكلم إظهاره من علمه بكلامه كبيت لبيد الشاعر وكقوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له**

كفواً أحـــد ﴾ [الصمد ١-٣] فمن تلقى هذه السورة من لسان القارىء أو من الصورة التي كتبت بها السورة بحرف من الخط الكوفي أو النسخي أو الفارسي أو غيرها ، علم بها من كلام الله عين ما علمه جبريل وموسى ومحمد وغيرهم من الرسل في التلقي عن الله تعالى بلا واسطه أو التلقي عن جبريل عليهم السلام وهو عين كلام الله تعالى القائم بنفسه من حيث إنه هو المظهر لمعاني هذه السورة من علمه ومن حيث لا عمل ولا كسب لأحد من المبلغين لها في تأليف عبارتها لا جبريل ولا محمد عليهم السلام ولا الصحابة الذين بلغوها للتابعين قولاً وكتابةً ولا يقتضي هذا تأويل الكلام الإلهي ، ولا تعطيله ولا حدوثه ولا تشبيهه بكلام خلقه كما أن علمه تعالى لا يشبه علم خلقه ولا يقتضي أيضاً أن نكون قد أدركنا كنه هذه الصفة بفهمنا لما بلغنا تعالى إياه من علمه بها ، كما أن إطلاعه إيانا على ما علمه في الأزل ، وفي ما لا يزال من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لا يقتضي إدراك كنه علمه بذلك ، بل نحن لم ندرك كنه كلامنا في أنفسنا ، ولا في الهواء ولا في غيره مما ذكر آنفاً (١)

---

(١) تفسير المنار ص ١٨٨ - ١٨٩/١ ، وانظر البحث من ص ١٧٨ - ١٩٢/٧ من التفسير وهو الذي أشار إليه الشيخ رشيد رضا من (صور الكلام) قد بينه من قبله شيخ الإسلام عند رده على طوائف الاتحادية (٢/ ١٤٥ - الفتاوى) وفيه يقول ابن القيم وهو يرد على ابن حزم في جعله القرآن أربعاً : المتلو والثابت في المصحف والمحفوظ في الصدور والمعنى القديم قال :

وأظنه قد رام شيئاً لـــم يجد ... عنه عبارة ناطق ببيان
أن المعين ذو مراتب أربـــع ... عقلت فلا تخفى على إنســان
في العين ثم الذهن ثم اللفظ ثـ ... ـم الرسم حين تخطه ببنان
وعلى الجميع الاسم يطلق لكن ... الأولى به الموجود في الأعيان
بخلاف قول ابن الخطيـب فإنه ... قد قال إن الوضع للأذهـــان
فالشيء شيء واحـــد لا أربع ... فدهى ابن حزم قلة الفرقان

إثباته رحمة الله سبحانه :

نقل السيد رشيد كلام محمد عبده في رحمة الله عند تفسير البسملة وهو تأويل الرحمة بما يوافق المتكلمين ولم يرتض هذا المنهج بل رد على شيخه وأثبت صفة الرحمة على مذهب السلف من غير تكييف ولا تمثيل يقول : « ما نقلناه عن شيخنا في معنى الرحمة تبع فيه متكلمي الأشاعرة والمعتزلة ومفسريهم كالزمخشري والبيضاوي ذهولاً ومحصله أن الرحمة ليست من صفات الذات أو من صفات المعاني القائمة بذاته تعالى لا ستحالة معناها عليه فيجب تأويلها بلازمها وهوالإحسان فتكون من صفات الأفعال كالخالق والرازق ، وقال بعضهم : يمكن تأويلها بإرادة الإحسان فترجع إلى صفة الإرادة فتكون صفة مستقلة ، وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدي السلف الصالح .

والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والإرادة والقدرة وسائر ما يسميه الأشاعرة صفات المعاني ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافاً للمعتزلة فإن معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي واستعمالها في البشر محال على الله تعالى : إذ العلم بحسب مدلوله اللغوي ، هو صورة المعلومات في الذهن التي استفادها من إدراك الحواس أو من الفكر وهي بهذا المعنى محال على الله تعالى فإن علمه تعالى قديم بقدمه غير عرض منتزع من صور المعلومات وكذلك يقال في سمعه تعالى وبصره ، وقد عدّوهما من صفات المعاني القائمة بنفسه والرحمة مثلها في هذا .

فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات خلقه

الثابتة عقلاً بقوله عز وجل : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ . فنقول : إن لله علماً حقيقياً هو وصف له لا يشبه سمعنا وإن له رحمة هي صفة لا تشبه رحمتنا التي هي انفعال النفس ، وهكذا نقول في سائر صفاته تعالى ، فتجمع بذلك بين النقل والعقل ، وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل إطلاقها من مجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية ، كما قالوا في الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكم في صفات الله وإلحاد فيها فإما أن تجعل كلها من باب الحقيقة مع الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه هذه الحقيقة والاكتفاء بالإيمان بمعنى الصفة العام مع التنزيه عن التشبيه وإما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الألفاظ لصفات المخلوقين فاستعملها الشرع في الصفات الإلهية المناسبة لها مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز » (١) . ا. هـ

إثباته لصفة الحياء لله على وجه الكمال :

وقد أثبت السيد رشيد صفة الحياء لله على وجه الكمال وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾ [البقرة ٢٦] فقد ذكر كلام محمد عبده وفيه « فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لا يعرض له ذلك الانكسار والانفعال ولا يعتريه ذلك التأثر والضعف فيمتنع من ضرب المثل بل هو يضرب من الأمثال الهادية المطابقة لحال الممثل به ما يعلم أنه يجلي الحقائق ويؤثر في القلوب ولكن صاحب الكشاف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلاً على اتصاف الله بالحياء فقالوا : إن النفي خاص ومثله إذا ورد على شيء يدل على أن ذلك الشيء قابل للاتصاف بالنفي فمن لا قدرة له

---

(١) تفسير المنار ص ٧٦ - ٧٧ / ١ .

على شيء لا ينفى عنه لا تقولوا : إن عينه لا تسمع وأذنه لا ترى وقالوا : إن معنى نفي الاستحياء هو أن الله تعالى لا يرى من النقص أن يضرب مثلاً بعوضة فما دونها لأنه خالق كل شيء وقد ورد في الحديث نسبة الحياء إلى الله تعالى (١) والنافون له يؤولون ما ورد بأثره وغايته .

أقول : هذا مؤدى ما قال الأستاذ في الدرس والحديث في وصفه تعالى بالحياء مروي عن يعلى بن أبي أمية وعن سلمان الفارسي أخرجهما أحمد وأبو داود والأول : النسائي والثاني : الترمذي وابن ماجة والحاكم ، وحسنوهما . والتحقيق : إن الحياء انفعال النفس وتألمها من النقص والقبيح بالغريزة الفضلى غريزة حسب الكمال ، فهوكمال لها خلافاً لأولي الوقاحة الذين يعدونه ضعفاً ونقصاً وإنما النقص الإفراط في هذه الصفة ، بحيث تضعف عن الإقدام على الشيء الحسن النافع اتقاء لذم من لا يعرف حسنه أولا يعترف به » (٢) اهـ .

إثباته لصفة النفس :

أثبت السيد رشيد لله تعالى نفساً مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة نفسه لنفس خلقه واستجهل من استشكل ذلك يعني من أهل الكلام ومن وافقهم فقال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ [المائدة - ١١٦ -] قال

« . . . تعلم ما أسره ، وأخفيه في نفسي ، فكيف لاتعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعلمه مني غيري ؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات وقال : حسن غريب ، ص ٥/٥٥٦ . وابن ماجه في الدعاء الباب ١٣ . ولفظه (إن الله حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يده ثم يردها صفراً) .

(٢) تفسير المنار ، ص ٢٣٥ - ١/٢٣٦ .

تهديني إليها بنظر واستدلال كسبي . إلا ما تظهره عليه بوحي وهبي . قيل إن إضافة كلمة نفس إلى الله تعالى من باب المشاكلة ، على أنها وردت بغير مقابل يسوغ ذلك كقوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام - ٥٤ -] ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [آل عمران - ٣٠ -] وقيل : إنها بمعنى الذات .

والمهم فهم المعنى من هذا الإطلاق ، تنزيه الله تعالى عن مشابهة نفسه لأنفس خلقه معروف بالنقل والعقل فاستشكال إطلاق الوحي للأسماء مع هذا ضرب من الجهل » أ هـ

إثباته لصفة الوجه :

يقول السيد رشيد عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ [الأنعام - ٥٢ -] وقول تعالى ﴿ يريدون وجهه ﴾ حال من ضمير يدعون أي يدعون ربهم بالغداة والعشي مريدين بهذا الدعاء وجهه سبحانه وتعالى مبتغين مرضاته أي يتوجهون به إليه وحده مخلصين له الدين فلا يشركون معه أحدا ولا يرجون من غيره عليه ثوابا ولا يتوقعون به من أحد مدحاً ، ولا نفعاً فهذا التعبير يدل على الإخلاص لله تعالى في العمل وابتغاء مرضاته به وحده ، وعدم الرياء فيه ، إلى أن قال : ولا يغرنك ما تخيله بعض الصوفية من جعل ابتغاء ثواب الله تعالى منافياً لا بتغاء مرضاته ، أو ابتغاء وجهه فالحق أن لا منافاة وأن الكمال في الجمع بين الأمرين وأن العمل لأجل الذات التي يفسرون بها الوجه مع عدم قصد الرضا ولا الثواب من النظريات التي لا يسهل إثبات إمكانها ولا مشروعيتها ولا ينكر ما يعرض لبعض الناس من الأحوال النفسية تحصل تخيلهم فيها حتى يظنوا أنها

---

(١) تفسير المنار : ٧/٢٦٦ .

حقيقة ثابتة في نفسها وصاحب تلك الحال لا يعرف حقيقة الذات ، ولا يعقل معنى كون العمل لها ، نعم إن من الواقع الذي لا ينكر أن يقصد العامل بعمله النجاة من عقاب النار أو الفوز بنعيم الجنة ، وأن هذا حسن ومحمود شرعاً ولكنه دون مرتبة الكمال الذي هدى إليه القرآن ، وهو أن يقصد المؤمن بالعمل الصالح تزكية نفسه وتكميلها لتكون أهلاً للقاء الله ، ومحلاً لمرضاته وثوابه في دار كرامته وأعلى الثواب رضوان الله تعالى وكمال العرفان والعلم به المعبر عنه في الأحاديث الشريفة برؤية وجهه الكريم بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل (١) وعند قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة - ١١٥ -]

قال الشيخ رشيد : « ذهب المفسر الجلال إلى أن المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها لأنهما ناحيتاها ، وقال في قوله : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أي أى مكان تستقبلونه في صلاتكم فهناك وجه القبلة التي أمر الله بأن يتوجه إليه ، ووجه الأستاذ الإمام هذا بقوله :

إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان سبحانه منزهاً عن المادة والجهة . واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً شرع للناس مكانًا مخصوصًا يستقبلونه في عبادتهم إياه وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى .

وقد استدرك الدكتور المعزاوي ذلك على السيد رشيد فقال : ماذكره الشيخ رشيد رضا عن شيخه في تفسير قوله تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه

---

(١) تفسير المنار ص ٤٣٧/ ٧ .

(٢) تفسير المنار ص ٤٣٤/ ١ .

الله ﴾ غير سديد والصواب أن المصلي في استقباله يستقبل وجهه تبارك وتعالى ، وأما الشيخ رشيد رضا فإن الظاهر من عبارته في هذا المبحث التي مثل فيها بعضه عمل العامل على وجه الملك بالذي يعمل العمل فيقصد به وجه الله وما ختم به البحث بدل على إثباته لصفة الوجه) (١) أهـ

وهذا الذي استدركه الدكتور المغراوي بناء على أن آية البقرة هذه هي من آيات الصفات ، والواقع أن هذه الآية مما تنازع فيها الناس هل هي من آيات الصفات أو لا .

وقد قرر شيخ الإسلام أنها ليست من آيات الصفات فقال رحمه الله عنها (ومن عدها في الصفات فقد غلط ، كما فعل طائفة ، فإن سياق الكلام يدل على المراد حيث قال : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة – ١١٥ –] والمشرق والمغرب الجهات

والوجه هو الجهة ، يقال أي وجه تريده ؟ أي أي جهة ، وأنا أريد هذا الوجه أي هذه ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ [البقرة ١٤٨] ولهذا قال تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أي تستقبلوا وتتوجهوا

والله أعلم وصلى الله على محمد) (٢) أهـ

حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه :

---

(١) انظر المفسرون للمعزاوي ١/ ٢٦٠ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٣/ ١٩٣) ، ونحوه بأطول منه في (٦/ ١٥ – ١٧)

أثبت السيد رشيد رضا هذه الصفات لله على وجه الكما ل على ما عليه السلف الصالح وأئمة هذه الأمة وهذا تكرر منه في غير ما موضع

يقول : ومذهب السلف الصالح إثبات ماأثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، فيقولون : إن حب الله تعالى وكرهه ورضاه وغضبه صفات تليق به تترتب عليها آثارها وهي لا تمثل ما سمي باسمها من صفات البشر كما أن ذاته ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق . . . .) (١)

ويقول أيضاً في بحثه في المتشابه وفيه رد أيضاً على المفوضة .

« ومثل هذه الصفات التي هي في الحادث انفعالات نفسية كالمحبة والرحمة والرضا والغضب والكراهة فالسلف يمرونها على ظاهرها مع تنزيه الله تعالى عن انفعالات المخلوقين فيقولون إن لله تعالى محبة تليق بشأنه ليست انفعالاً نفسياً كمحبة الخلق ، والخلف يؤلون ما ورد من النصوص في ذلك فيرجعونه إلي القدرة أو إلى الإرادة فيقولون إن الرحمة هي الإحسان بالفعل أو إرادة الإحسان ومنهم من لا يسمي هذا تأويلًا بل يقولون إن الرحمة تدل على الانفعال الذي هو رقة القلب المخصوصة على الفعل الذي يترتب على ذلك الانفعال . وقالوا : إن هذه الألفاظ إذا أطلقت على الباري تعالى بها غايتها التي هي أفعال دون مبادئها التي هي انفعالات وإنما يردون هذه الصفات إلى القدرة والإرادة بناءً على أن إطلاق لفظ القدرة والإرادة وكذا العلم على صفات الله إطلاق حقيقي لا مجازي والحق أن جميع ما أطلق على الله تعالى فهو منقول مما أطلق على البشر ولما كان العقل والنقل متفقين على تنزيه الله

---

(١)انظر التفسير ١١/ ١٠٠ .

تعالى عن مشابهة البشر ، تعين أن نجمع بين النصوص فنقول : إن لله تعالى قدرة حقيقية ولكنها ليست كقدرة البشر وإن له رحمة ليست كرحمة البشر وهكذا نقول في جميع ما أطلق عليه تعالى جمعاً بين النصوص ولا ندعي أن إطلاق بعضها حقيقي وأن إطلاق الآخر مجازي فكما أن القدرة شأن من شؤونه لا يعرف كنهه ولا يخفى أثره وهذا هو مذهب السلف . فهم لا يقولون : إن هذه الألفاظ لا يفهم لها معنى بالمرة ، ولا أنها على ظاهرها بمعنى ، إن رحمة الله كرحمة الإنسان ويده كيده ، وإن ظن ذلك في الحنابلة بعض الجاهلين) (١) ا.هـ .

صفة الاستهزاء :

فسر السيد رشيد رضا قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [البقرة : ١٥] بقوله :

أصل الاستهزاء الاستخفاف وعدم العناية بالشيء في النفس وإن أظهر المستخف الاستحسان والرضا تهكماً ، وهذا المعنى محال على الله تعالى والمحال بذاته يصح إطلاق لازمه ، والمستهزىء بإنسان في نحو مدح لعلمه واستحسان لعلمه مع اعتقاد قبحه غير مبال به ولا معتنٍ بعلمه ولا بعمله حيث لم يرجعه عنه ولم يكرهه عليه ويلزمه استرسال المستهزىء في عمله القبيح .

فمعنى ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ أنه يمهلهم فتطول عليهم نعمته وتبطأ عنهم نقمته ثم سقط من أقدارهم ويستدرجهم بما كانوا يعملون . إلى أن قال : وأشهر الأقوال أن معناه يجازيهم بالعقاب على استهزائهم أو يعاملهم معاملة

---

(١) انظر المنار ص ١٩٨ - ١٩٩/ ٣ .

المستهزىء بهم ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ [الحديد : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ إلى قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ﴾ [المطففون : ٣٥] .

وقيل : إن استهزاءه تعالى بهم إجراؤه أحكام المسلمين عليهم في الدنيا كما في خداعه لهم] (١) ا.هـ .

ويلاحظ على كلامه رحمه الله أنه لما عرف الاستهزاء في أول كلامه قال : هو الاستخفاف وعدم العناية بالشيء في النفس ثم قال هذا المعنى محال على الله .

وعليه يمكن أن يقال إن ما أثبته هو الاستهزاء عند المخلوقين ، فلا يلزم أن يكون هو الاستهزاء المذكور في الآية ، بل نقطع أنه غيره ، كما فعل ذلك هو نفسه عند كلامه على صفة (الحياء) .

وعليه فيكون الصواب إثبات هذه الصفة لله على ما يليق به دون التعرض لكيفيتها وإن كان لوازمها التي ذكرها من إمهال الكفار وعقابهم ونحو ذلك كلها صحيحة ولكن ليست هذه اللوازم هي نفس الصفة ، وكلام الشيخ رشيد لا يدل على أنه ينفي هذه الصفة عن الله سبحانه بل أراد أن يفسر المراد من الآية بهذا السياق ، وهو حسن إلا أنه كان ينبغي أن يذكر عقيدة السلف في إثباتها بخصوصيتها ثم يستطرد ما شاء في إبراز لوازمها . والله أعلم (٢) .

---

(١) تفسير المنار ص ١٦٣ - ١/١٦٤ .

(٢) علق المغراوي على كلام رشيد رضا بقوله : والصواب إثبات صفة المكر والاستهزاء والخداع لله تعالى على ما يليق به على جهة العدل ، فهو تعالى أفعاله كلها عدل ولا يشتق له من هذه الصفات اسم فلا يقال : مستهزىء وماكر ، ومخادع ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . انظر المفسرون : (١/ ٢٦٢) .

صفة العين :

فسر الشيخ رشيد رضا العين بلوازمها كما فعل في صفة الاستهزاء حيث قال في قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ [هود : ٣٧] .

أي فاصنع الفلك الذي سينجيك ومن آمن معك فيه حال كونك ملحوظاً ومراقباً بأعيننا من كل ناحية وما يلزمه من حفظنا في كل آن وحالة فلا يمنعك منه مانع وملهماً أو معلماً بوحينا لك فلا يعرض لك في صفته خطأ وجمع الأعين هنا لإفادة شدة العناية بالمراقبة والحفظ . وإن قال مجاهد أي بعيني ووحيي فإن العرب تعبر برؤية العين الواحدة عن العناية وبالأعين عن المبالغة فيها قال تعالى لموسى : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ [طه : ٣٩] وقال لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : ٤٩] وفي الأساس وتقول لمن بعثته واستعجلته بعيني ما رأيتك أي لا تلوي على شيء فكأني أنظر إليك . وقال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهذا التفسير هو الظاهر بل المتبادر من هذا التعبير وليس تأويلاً صرف به عن الظاهر لإهاق التشبيه فإنما مرادفهم بالتأويل حمل اللفظ على المعنى المرجوح من معنييه أو معانيه لمانع من حمله على المعنى الراجح وهو ينحصر في

الحقيقة اللغوية » (١) اهـ .

وهذا الذي قاله السيد رشيد بأنه معنى الآية لا ينفي العين ، بل هي ثابتة بالآية ، وأما إثبات العينين فقد صرح بإثباتها جمع من أهل السنة كابن خزيمة وغيره أخذاً من قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدجال « إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور » (٢) .

ويقول أبو يعلى : « والدلالة على كونهما صفتين ؛ قوله تعالى : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ ، وقوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ : بمرأى ومشهد مني ، وقوله : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بحفظنا وكلاءتنا ، لأن الله تعالى كان رائياً له مشاهداً له قبل هذه الحالة ، كذلك كان حفظه وكلاءته له قبل وجود الجريان ومنه قوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ [الأنبياء : ٤٢] اهـ .

ومما يدل على أن العين صفة لله حقيقة ، إشارة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى عينه لما ذكر أن الله ليس بأعور ، ففي البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينه ، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » (٤) .

---

(١) انظر تفسير المنار ، ص ٧٣/ ١٢ .

(٢) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٤٢ ، ٤٤ ، والحديث أخرجه البخاري (١٣/ ٣٨٩) ، ومسلم (٤/ ٢٢٤٨) .

وانظر مختصر الصواعق لابن القيم ١/ ٣٥ .

(٣) انظر المعتمد في أصول الدين لأبي يعلى ص ٥١ عن (ابن حزم وموقفه من الإلهيات) .

(٤) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٨٩) وتقدم قريباً .

فهذه الإشارة فيها تقرير للصفة ، أي أنها صفة حقيقية ، قال الحافظ بعد أن حكى قول البيهقي في إثبات العين وإشارته لمن تأولها بالقدرة أو الرؤية ، قال : « ومال - أي البيهقي - إلى ترجيح الأول - أي أن العين صفة ذات - لأنه مذهب السلف ، ويتأيد بما وقع في الحديث (وأشار بيده) فإن فيه إيماء إلى الرد على من يقول معناها القدرة ، صرح بذلك من قال إنها صفة ذات) (١) اهـ .

ومثل هذا ما رواه أبو داود من رواية أبي يونس عن أبي هريرة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها ، يعني قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ [النساء : ٥٨] ويضع أصبعيه ، قال أبو يونس : وضع أبو هريرة إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه (٢) .

قال الحافظ : « قال البيهقي : وأراد بهذه الإشارة تحقيق إثبات السمع والبصر لله ببيان محلها من الإنسان ، يريد أن له سمعاً وبصراً لا أن المراد به العلم ، فلو كان كذلك لأشار إلى القلب لأنه محل العلم ، ولم يرد بذلك الجارحة ، فإن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقين ، ثم ذكر لحديث أبي هريرة شاهداً من حديث عقبة بن عامر : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير ، وأشار إلى عينيه » وسنده حسن (٣) اهـ .

---

(١) انظر فتح الباري (١٣/ ٣٩٠) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٣) باب في الجهمية [ط دار إحياء التراث] وفي الفتح [١٣/ ٣٧٣](أخرجه أبو داود بسند قوي على شرط مسلم)

(٣) انظر الفتح (١٣/ ٣٧٣) .

وقال الحافظ أيضاً في التعليق على حديث الدجال المتقدم ذكره : (وقال ابن المنير : وجه الاستدلال على إثبات العين لله من حديث الدجال من قوله : « إن الله ليس بأعور » من جهة أن العور عرفاً عدم العين ، وضد العور ثبوت العين ، فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها ، وهو وجود العين ، وهو على سبيل التمثيل والتقريب للفهم لا على معنى إثبات الجارحة ، قال : ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ثلاثة أقوال : أحدها : أنها صفة ذات أثبتها السمع ولا يهتدي إليها العقل ، والثاني : أن العين كناية عن صفة البصر ، واليد كناية عن صفة القدرة ، والوجه كناية عن صفة الوجود ، والثالث : إمرارها على ما جاءت مفوضاً معناها إلى الله تعالى ، وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له ، أخبر الله تعالى في كتابه وثبت عن رسوله : الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى ، قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح ، وقال غيره : لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا من ذلك ، ولا المنع من ذكره ، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وينزل عليه ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [المائدة : ٣] ، ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز مع حضه على التبليغ عنه بقوله : « ليبلغ الشاهد الغائب » (١) حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته ، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده الله منها ، ووجب تنزيهه من مشابهة المخلوقات بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم

(١)رواه البخاري في مواضع أولها في العلم (٩/ ١٠) ، مسلم في الحج ٤٤٦ ، وغيرهما .

وبالله التوفيق . وقد سئلت : هل يجوز لقارىء هذا الحديث أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، (يعني الإشارة إلى عينه) ، فأجبت وبالله التوفيق أنه إذا حضر عنده من يوافقه على معتقده وكان يعتقد تنزيه الله تعالى عن صفات الحدوث وأراد التأسي محضاً جاز ، والأولى به الترك خشية أن يدخل على من يراه شبهة التشبيه تعالى الله عن ذلك » (١) اهـ

مما تقدم يتبين لنا أن إثبات صفة العين على وجه يليق بكمال الله هو مذهب السلف ، والشيخ رشيد وإن لم يصرح بنفيها أو تأويلها ، إلا أنه ذكر لازم معناها من الحفظ والعناية ، وكان ينبغي له أن يصرح بإثباتها على مذهب السلف والذي عهدناه يصدع به دائماً رحمه الله .

صفة اليد :

تكلم الشيخ رشيد عن صفة اليد في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ﴾ [المائدة : ٦٤]

« ثم رد عليهم تعالى في قوله : ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ أي بل صاحب الجود الكامل والعطاء الشامل عبر عن ذلك ببسط اليدين لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته يعطي بكلتا يديه . وصفوه بغاية البخل والإمساك فأبطل قولهم وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء ولا غرو فكل ما يتقلب فيه العالم كله من الخير والنعيم هو سجل من ذلك الجود والكرم في قوله : ﴿ كيف يشاء ﴾ بيان أن تقتير الرزق على بعض

---

(١) انظر الفتح (١٣/ ٣٩٠) .

العباد الجاري على وفق الحكمة وسنن الله تعالى في الاجتماع لا ينافي سعة الجود وسريانه في كل الوجود ، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق .

والعجب من الإمام الجليل أبي جعفر بن جرير الطبري كيف صور استعمال اليد هنا أحسن تصوير ثم خفيت عنه نكتة تثنيته فجعلها حجة المفوضة على أهل التأويل ونحن معه إثبات الصفات ننعي على المؤولين النفاة ولا يمنعنا ذلك أن نفهم نكتة تثنية اليد من استعمال لفظها المفرد ، قال ابن جرير بعد تفسير غل اليد بالإمساك : وحسب العطاء عن الاتساع ما نصه ثم نقل كلام ابن جرير في إثبات اليد من تثنيتها ، ثم قال ، نعم إن التثنية ليست بمعنى الجمع واليد واليدين لم يقصد بلفظهما النعمة ولا القوة ولا الملك وإنما الاستعمال في الموضعين من الكناية ونكتة التثنية إفادة سعة العطاء ومنتهى الجود والكرم وليس في هذا القول المروي عن ابن عباس تأويل ولا نفي لما أثبته الباري لنفسه من صفة اليد واليدين والأيدي في آيات أخرى ، وما سبب ذهول الذي كانوا قد انتحلوه في تأويل الصفات ومتى وجه الإنسان همه إلى شيء يكون له منه حجاب ما عن غيره . وتقرير الحقيقة لذاتها غير الرد على من يعدون من خصومها ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [الأحزاب : ٤] ولهذا غلط كثير من أنصار مذهب السلف في مسائل خالفوا فيها المذهب من حيث يريدون تأييده وهذه آفة من آفات عصبية المذاهب لا تنفك عنها »(١) اهـ .

---

(١) انظر تفسير المنار ص ٦/٤٥٦ ، وانظر تفسير الطبري .

رحم الله الشيخ رشيد ، فإن ما أنكره على ابن جرير الطبري (١) مما لا ينكر ، لأن الاستدلال على ثبوت (اليد) بكونها مذكورة بصيغة التثنية هو من أقوى أدلة السلف في إثباتها ، والشيخ رشيد لا ينفي صفة اليد ، بل يثبتها فإنه قال : (ليس في هذا المنقول عن ابن عباس تأويل ولا نفي لما أثبته الباري لنفسه من صفة اليد واليدين والأيدي في آيات أخرى) (٢) .

والمقصود هنا هو الرد عليه في إنكاره على ابن جرير الاستدلال بالتثنية على تقرير الصفة وكذلك التثنية على إشارته إلى أن (الأيدي) بالجمع من الصفات ، وبيان مجيء الآية بصيغة الجمع :

يقول شيخ الإسلام في مناظرته لرجل في إثبات هذه الصفة من قوله ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ وقوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ [ص : ٧٥] « . . إن لفظ اليدين بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة ، لأن من لغة القوم استعمال الواحد في الجمع كقوله : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ [العصر : ٢] ولفظ الجمع في الواحد كقوله : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس . . . ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، ولفظ الجمع في الاثنين كقوله : ﴿ صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : ٤] ، أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين ، أو الاثنين في الواحد فلا أصل له ؛ لأن هذه الألفاظ عدد ، وهي نصوص في معناها لا يتجوز بها ، ولا يجوز أن يقال : عندي رجل ويعني رجلين ، ولا عندي رجلان ويعني به الجنس ، لأن اسم الواحد يدل على الجنس ، والجنس فيه شياع ، وكذلك اسم

---

(١) وكلام ابن جرير أورده في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾ ص (٣٠٢،٣٠) جزء ٦

(٢) انظر التفسير ٦/ ٤٥٦ .

الجمع فيه معنى الجنس ، والجنس يحصل بحصول الواحد .

فقوله : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ [ص : ٧٥] لا يجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد .

ولا يجوز أن يراد به النعمة لأن نعم الله لا تحصى ، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية .

ولا يجوز أن يكون (لما خلقت أنا) لأنهم إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد ، فتكون إضافته إلى اليد إضافة إلى الفعل ، كقوله : ﴿ بما قدمت يداك ﴾ ، [الحج : ١٠] و ﴿ قدمت أيديكم ﴾ [الأنفال : ٥١] ومنه قوله : ﴿ مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ [يس : ٧١] أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل ، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله: ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ [ص: ٧٥] فإنه نصٌّ في أنه فعل الفعل بيديه ، ويقال : هذا فعلته يداك ، لأن مجرد قوله : فعلت : كاف في الإضافة إلى الفاعل ، فلو لم يرد أنه فعل باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة ولست تجد في كلام العرب ، ولا العجم - إن شاء الله تعالى - أن فصيحاً يقول : فعلت هذا بيدي أو فلان فعل هذا بيديه إلا ويكون فعله بيديه حقيقة ، ولا يجوز أن يكون لا يد له ، أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها .

وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ، ومواضع الحقيقة ، ويتبين أن الآيات لا تقبل المجاز البتة من جهة نفس اللغة . .) (١) اهـ . محل الغرض منه . ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله :

« . . إن لفظ اليد جاء في القرآن ثلاثة أنواع : مفرداً ، ومثنى ، ومجموعاً

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦٥ ، ٣٦٦) (الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز في الصفات) .

فالمفرد كقوله : ﴿ بيده الملك ﴾ ﴿الملك : ١] ، والمثنى كقوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ ﴿ص : ٧٥] ، والمجموع ﴿ عملت أيدينا ﴾ [يس : ٧١] .

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدى الفعل بالباء إليهما ، فقال : ﴿ خلقت بيدي ﴾ [ص : ٧٥] ، وحيث ذكرهما مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء . فهذه ثلاثة فروق ، فلا يحتمل ﴿ عملت أيدينا ﴾ ما يفهمه من قوله عملنا ، وخلقنا ، كما يفهم ذلك من قوله : ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ وأما قوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى ، فكيف وقد دخلت عليها الباء فكيف إذا ثنيت ؟ . . » (١) اهـ .

وقد بوب البخاري في صحيحه : (باب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾)[ص : ٧٥] .

قال الحافظ : (قال ابن بطال : في هذه الآية إثبات يدين لله ، وهما صفتان من صفات ذاته ، وليس بجارحتين خلافاً للمشبهة من المثبتة ، وللجهمية من المعطلة ، ويكفي في الرد على من زعم أنهما بمعنى القدرة ، أنهم أجمعوا على أن له قدرة واحدة في قول المثبتة ، ولا قدرة له في قول النفاة ، لأنهم يقولون : إنه قادر لذاته ، ويدل على أن اليدين ليستا بمعنى القدرة أن في قوله تعالى لإبليس : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ [ص : ٧٥] إشارة إلى المعنى الذي أوجب السجود، فلو كانت اليد بمعنى القدرة لم يكن بين آدم وإبليس فرق لتشاركهما فيما خلق كل منهما وهي قدرته ، ولقال إبليس :

---

(١) انظر مختصر الصواعق ص ٣٨ .

وأي فضيلة له عليّ وأنا خلقتني بقدرتك كما خلقته بقدرتك ، فلما قال : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [ص : ٧٦] دل على اختصاص آدم بأن الله خلقه بيده ، قال : ولا جائز أن يراد باليدين النعمتان ، لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق ، لأن النعم مخلوقة ، ولا يلزم من كونها صفتي ذات أن يكونا جارحتين) (١) اهـ .]

مما سبق من تقرير شيخي الإسلام (ابن تيمية وابن القيم) ، وما نقله الحافظ في الفتح ، يتبين أن الشيخ رشيد لم يوفق في تعقبه على ابن جرير ، ولا في إطلاقه إثبات الأيدي ، والله سبحانه أعلم .

صفة المجيء والإتيان :

أورد الشيخ رشيد في تفسيره كلاماً على صفة المجيء والإتيان أنقله بحرفه ثم أتعقب ما أراه مخالفاً قال عند قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ [البقرة : ٢١٠] الاستفهام في الآية بمعنى النفي وينظرون بمعنى ينتظرون وهي كثيرة الاستعمال بهذا المعنى في الكتاب العزيز ولا سيما في الأمور الآخرة كقوله : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ [محمد - ١٨] ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة] ﴾يس : ٤٩] .

وإتيان الله تعالى فسره الجلال وآخرون بإتيان أمره أي عذابه كقوله في آية أخرى ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ﴾ [النحل : ٣٣]

أي فهو بمعنى ما جاء من التخويف بعذاب الآخرة في الآيات الكثيرة الموافقة لهذه الآيات في أسلوبها وأقر الأستاذ الإمام الجلال على ذلك وبين في

---

(١)انظر فتح الباري (١٣/ ٣٩٣ ، ٣٩٤) .

الدرس أن هذا الاستعمال من أساليب العرب المعروفة من حذف المضاف وإسناد الفعل إلى المضاف إليه مجازاً وأوضحه أتم الإيضاح فهو على حد ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] ومن المفسرين من قال إن الإسناد حقيقي وإنما حذف المفعول للعلم به من الوعيد السابق ، أي هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب وعده آخرون من المتشابهات فقالوا : إن الله تعالى يأتي بذاته ولكن لا كإتيان البشر ، بل إتيانه من صفاته التي لا نبحث عن كيفيتها اتباعاً للسلف وأما تأويل الإتيان بما نقله البيهقي عن الأشعري فلا نذكره لأنه مما يزيد المعنى بعداً عن الفهم وقد يقال إنه ليس من مقتضى مذهب السلف أن يجعل كل ما يسند إلى الله تعالى من المتشابهات التي لا تفهم بحال ولا تفسر ولو بإجمال فحسبنا أن نقول على رأي من فسر إتيان الله هنا بإتيان أمره وما وعد به من العذاب أو إتيانه بما وعد به .

إننا نفوض إليه تعالى كيفية ذلك وبذلك نكون على طريقة السلف في التفويض مع العلم بأن الله تعالى ينذر الذين زلوا عن صراطه وفرقوا دينه بأمر معروف في الجملة لا بشيء مجهول مطلق ، ومما يدلنا على أن المراد بالآية ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان - ٢٥] مع الآيات الكثيرة الناطقة إلى أن قال : وذكر الأستاذ الإمام في تفسير الآية وجهًا آخر يعد بياناً للقول بأن الإتيان مسند إلى الله تعالى على أنه هو الذي يأتي على ظاهر مذهب السلف لا عذابه ولا يومه الموعود وهو من الآيات الكبرى وأسرار المعارف العليا . إلى أن قال : وإما أن يكون هذا الإتيان في ظلل من الغمام فهو من الأمور الأخروية الغيبية التي قلنا مراراً إننا لا نبحث عن حقيقتها ، فكون معرفة الله تعالى واليقين به مما يحصل للجاهلين والغافلين بحصول ظلل من الغمام نفوض سره إلى الله وما يدرينا أن في ذلك الغمام آيات بينات وحججًا باهرات، وإتيان الله والملائكة على هذا التأويل أظهر منه

في التأويل لأن المقام مقام تمثيل ظهور سلطان الله تعالى وعظمته واستغراق القلوب في الخضوع لجلاله عندما يغشاها نور المعرفة ولا ريب أن حضور الملك في جنده الأكبر هو أبين لكمال العظمة وأظهر ولذلك قال في سورة الفجر : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [٢٢] [وفي سورة النبأ : ٣٨] : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ والمراد بهذا المعنى الذي قرره الأستاذ الإمام تقريب هذا المذهب من الأفهام ولا يعني أن هذا بيان لكيفية الإتيان في الغمام . . . إلى أن قال : « هذا وأنت ترى أن الوجه الأول في تفسير الآية ، هو المتبادر والمنطبق على الآيات الأخرى إلا ظلماً ورجساً إلى رجسهم لأنهم محجوبون في حسهم حتى عن أنفسهم ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون : ٥٣] (١) اهـ .

هذا هو كلام الشيخ رشيد بنصه ، وهو عجيب منه ، إلا أنه يقال : قد ذكر الله سبحانه الإتيان في القرآن في مواضع دلت على أنه صفة له ، وذكره في أخرى دلت على أن المراد عذابه .

فالأول كآيات البقرة والفجر والنبأ ، والثاني كآية النحل (آية ٢٦) ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ ولا بد من أن يُفَرق بين المعنيين ، وكأنه اختلط ذلك على الشيخ رشيد رضا .

يقول شيخ الإسلام عن صفة الإتيان والمجيء .

(وإن كان في موضع قد دل عندهم على أنه هو يأتي ، ففي موضع آخر دل على أنه يأتي بعذابه ، كما في قوله تعالى : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد

(١) انظر تفسير المنار ص ٢٦٢ - ٢/٢٦٧ .

﴾ [النحل : ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ [الحشر : ٢] ، فتدبر هذا فإنه كثيراً ما يغلط الناس في هذا الموضع إذ تنازع النفاة والمثبتة في صفة ودلالة نص عليها ؟ ، يريد المريد أن يجعل ذلك اللفظ حيث ورد دالاً على الصفة وظاهراً فيها ، ثم يقول النافي : وهناك لم تدل على الصفة فلا تدل هنا وقد يقول بعض المثبتة : دلت هنا على الصفة فتكون دالة هناك .

بل لما رأوا بعض النصوص تدل على الصفة ، جعلوا كل آية فيها ما يتوهمون أنه يضاف إلى الله تعالى - إضافة صفة - من آيات الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ فرطت في جنب الله ﴾ [الزمر : ٥٦] ، وهذا يقع فيه طوائف من المثبتة والنفاة ، وهذا من أكبر الغلط ، فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه ، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية ، وهذا موجود في أمر المخلوقين ، يراد بألفاظ الصفات منهم في مواضع كثيرة غير الصفات . . .] (١) ثم ذكر مثالين لذلك في آيات الوجه (٢) ، والأمر ، ثم قال :

[فمن تدبر ما ورد في باب أسماء الله وصفاته ، وأن دلالة ذلك في بعض المواضع على ذات الله أو بعض صفاته ، لا يوجب أن يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد ، حتى يكون ذلك طرداً للمثبت ونقضاً للنافي ، بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه ، وما يبين معناه من القرآن والدلالات ،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٦/ ١٤ ، ١٥) وقد بين ابن القيم في الصواعق أنه لم يثبت أحد لله جنباً واحداً وأن الآية لا تدل على إثبات صفة الجنب لأن التفريط المذكور فيها فعل أو ترك فعل وهذا لا يكون قائماً بذات الله لا بجنب ولا غيره بل لا يكون إلا منفصلاً عن الله (راجع مختصر الصواعق ١/ ٣٣)

(٢) ونقلت معناها عند الكلام على إثبات السيد رشيد لصفة الوجه .

فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال لهما مطلقاً . . .](١)اهـ . محل الغرض منه .

فمما تقدم نعرف أنه لا بد لكي نجعل الإتيان المراد به إتيان العذاب من أدلة وقرائن تقتضي هذا ، فإن نوزع في آية البقرة فماذا يقولون في قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . . . ﴾[الأنعام ١٥٨] .

فقد عطف سبحانه مجيء بعض الآيات (ومنها العذاب) على مجيئه تعالى وتقدس .

وعليه فالصواب والحق أن المجيء والإتيان ثابت لله على وجه يليق به سبحانه كما هو مذهب السلف رحمهم الله تعالى .

تفسير الكرسي :

قال الشيخ رشيد عند قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ [البقرة : ٥٥] .

قال الشيخ الأستاذ الإمام : السياق يدل على أن الكرسي هو العلم الإلهي ، وبذلك قال بعض المفسرين وأهل اللغة . ويقال كرسي الرجل كفرح أي كثر علمه وازدحم على قلبه أي أن علمه تعالى محيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وبما لا يعلمون من شؤون سائر الكائنات . فماذا يمكن أن يعلمه الشفعاء ؟ وقيل : هو العرش واختاره مفسرنا الجلال .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٦/ ١٨) .

وهو إنما يثبت بخبر المعصوم وقيل : إنه تمثيل لملك الله تعالى واختاره القفال والزمخشري ، والآية تدل على أنه شيء يضبط السموات والأرض ولا يتوقف التسليم بها على تعينه والقول بأنه علم أو ملك أو جسم كثيف أو لطيف ، أي فإن كان العلم الإلهي فالأمر ظاهر وإن كان خلقاً آخر فهو من عالم الغيب ، ولا نبحث عن حقيقته ولا نتكلم فيه بالرأي كما قال كثير إنه هو الفلك الثامن المكوكب من الأفلاك التسعة : التي كان يقول بها فلاسفة اليونان ومقلدوهم فذلك من القول على الله بدون علم وهو من أمهات الكبائر (١) اهـ .

هذاهو كلام الشيخ رشيد ، وهو إن كان يثبته في الجملة ، إلا أنه تردد في كونه العلم أو غيره ، والصحيح أن الكرسي غير العلم رغم أن ابن جرير ذهب لذلك (٢) .

قال شيخ الإسلام : (وقد نقل عن بعضهم أن «كرسيه» علمه . وهو قول ضعيف فإن علم الله وسع كل شيء كما قال : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ . [غافر : ٧] والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن ، فلو قيل : وسع علمه السموات والأرض ، لم يكن هذا المعنى مناسباً ، لا سيما وقد قال تعالى : ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ [البقرة : ٢٢٥] أي لا يثقله ولا يكثره . وهذا يناسب القدرة لا العلم ، والآثار المأثورة تقتضي ذلك ، وهي صريحة متواترة .

وقال بعضهم : إن « الكرسي » هو العرش ، لكن الأكثرون على أنهما شيئان . » (٣) اهـ .

---

(١) انظر تفسير المنار (٢/ ٣٣) .

(٢) انظر تفسير ابن جرير في تأويل آية الكرسي (ج٣/ ص٩) .

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٦/ ٤٥٨ ، ٥٨٥) .

فالكرسي غير العلم ، وأما كونه جسماً كثيفاً أو لطيفاً فهذا مما لم يأت به خبر ، وقد جاء الأثر على أن الكرسي هو موضع القدمين كما ثبت ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه .

قال شارح الطحاوية : « وأما الكرسي فقال تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقد قيل : هو العرش ، والصحيح أنه غيره ، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره ، روى ابن أبي شيبة في كتاب « صفة العرش » ، والحاكم في « مستدركه » ، وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ [البقرة : ٢٥٥] : أنه قال : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى .) وقد روي مرفوعاً ، والصواب أنه موقوف على ابن عباس ، (١)

وقال السدي : السموات والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش .

وقال ابن جرير : قال أبو ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض » (٢)

وقيل : كرسيه علمه ، وينسب إلى ابن عباس ، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم .

ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن ، والظاهر أنه من جراب

---

(١) وصححه المحقق الألباني موقوفاً كما بالهامش (شرح الطحاوية ص ٣١٢ هامش ١) .

(٢) وصححه كذلك الألباني (السابق هامش ٢) .

الكلام المذموم ، كما قيل في العرش ، وإنما هو - كما قال غير واحد من السلف - : [بين يدي العرش كالمرقاة إليه] (١) اهـ .

إثباته معية الله على الوجه اللائق به سبحانه (٢) :

قال في تفسير سورة براءة :

في هذه السورة من المعية العليا قوله تعالى في آية الغار عن رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [التوبة : ٤٠] وهي معية النصر والمعونة والحفظ والعصمة والتأييد والرحمة . . . ثم ذكر بعض آيات المعية ثم قال :

ويقال في كل منها مع العلم بمعناها : إنها معية تليق به تعالى (٣) اهـ .

يقول شيخ الإسلام في كلام له على المعية وأنها لا تنافي الفوقية :

(. . وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت ، فليس ظاهرها - في اللغة - إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعاني ، دلت على المقارنة في ذلك المعنى . فإنه يقال : ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجاورته لك ، وإن كان فوق رأسك . فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب مواردها . . . إلى أن قال :

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ٣١٢ ، وانظر كذلك مجموع الفتاوى (٥/ ٧٥) .

(٢) وهذه الصفة (صفة المعية) وكذلك ما تقدم من (صفة القرب) ، مما فات الدكتور المغراوي نقلها في رسالته المفسرون .

(٣) انظر التفسير ١١/ .

ولما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لصاحبه في الغار : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع ، والنصر ، والتأييد . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل : ١٢٨] وكذلك قوله لموسى وهارون : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٦] هنا المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد (١) .

وقد يدخل على صبي من يخيفه فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول : لا تخف أنا معك أو أنا هنا ، أو أنا حاضر ونحو ذلك . ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ، ففرق بين المعية وبين مقتضاها ، وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع . فلفظ (المعية) قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع ، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر ، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع ، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها - وإن امتاز كل موضع بخاصيته - فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق حتى يقال : قد صرفت عن ظاهرها !) (٢) اهـ .

وكلام شيخ الإسلام هنا يكشف عن غلط كثير من الناس الذين ينفون فوقية الله مستدلين بمعيته سبحانه ، ولنفاسة كلامه هذا ودقته ، نقلته مؤيداً به ما ذهب إليه الشيخ رشيد رحمه الله .

بقي أن تدرك أن السيد محمد رشيد رضا كان سلفياً في باب الأسماء والصفات حتى في انتقاء ألفاظه ، فلم يدخل في تفسيره لآيات الصفات ، أو

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣) .

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٤) .

في بحوثه عن الإلهيات ألفاظ العرض والجسم ونحو ذلك بل أعرض عنها قصداً فيقول مثلاً : « أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات » ويعلق في الهامش قائلاً : « كان الأصل أنه تعالى ليس بجسم ولا يشبه الأجسام - وهو قاصر » (١) اهـ .

رحمه الله ما أشد تمسكه بمذهب السلف !

إثباته رؤية الله في الآخرة :

من المباحث القوية التي تعرض لها السيد رشيد في مناره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

بحث رؤية الله في الآخرة ، وقد أطال فيه وأتى (٢) فيه بالأدلة وناقش شبه الخصم ، ثم ذكر خلاصة بحثه هذا فقال (٣) : (خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان وإنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى في كتابه المجيد : ﴿ فلاتعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (٤) .

وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

---

(١) انظر ص ٢٥٢/ ١ من تفسير المنار .

(٢) بلغ هذا البحث من ص ١٣٤ - ١٧٨ من الجزء السابع من التفسير .

(٣) انظر تفسير المنار ص ١٧٧ -إلى ١٧٨/ ٧ .

(٤) سورة السجدة ، الآية : ١٧ .

خطر على قلب بشر » (١) وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذي عبر عنه بعضهم بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم وهي أنها رؤية بلا كيف ويؤكد بذلك اضطراب جميع أصناف العلماء في النصوص الواردة في نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة وأساطين البيان ونظار الفلسفة وعلم الكلام ورواة الأحاديث والآثار ومرتادو الصوفية وأولو الكشف والإلهام فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعي تضع به بقية الطوائف بدليلها اللغوي أو الأصولي أو العقلي أو فهم النص النقلي أو تسليم إلهامها الكشف ولكن من نظر في جميع من قالوا نظرة استقلال وإنصاف يجزم بأن ما كان عليه عامة السلف من إثبات كل ما صح به النقل وتفويض تأويله الذي يكون عليه في الآخرة إلى الله عز وجل هوالحق الذي يطمئن به القلب ويؤيد العلم والعقل وهو الأسلم والأحكم والأعلم والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

عقيدته في الإيمان :

ذكر الله الإيمان في القرآن ومدح أهله ورتب الثواب عليه والعقاب على مخالفه ، وبين أركانه وشروطه فقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . . . ﴾ [البقرة : ٢٨٥] وقال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . . . ﴾ الآيات [المؤمنون ١ ومابعدها]

وقال تعالى : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ [طه ٧٤ ،

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في التوحيد وبدء الخلق ، ومسلم في الإيمان حديث : ٣١٢ .

[٧٥] .

وغير ذلك من الآيات كثيرة وبهذه الآيات وغيرها اتجه المسلمون إلى البحث عن حقيقة الإيمان الذي ينجي صاحبه في الآخرة ، وافترقت الطرق بالناس لاختلاف العقول والأهواء فضل قوم في مسمى الإيمان وإطلاقه ودخول العمل فيه وزيادته ونقصانه ونحو ذلك وأورد هنا ما سطره السيد رشيد في مناره من عقيدته في الإيمان وهي بحمد الله تعالى معتقد السلف الصالح ، لم يدخل في شيء مما ضل به الناس ، ولم يتأول كما تأولوا .

إطلاق لفظ الإيمان :

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة . . . ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

(والمراد بالذين كفروا هنا من لا يؤمنون بالحقوق المشروعة لله وللناس إيمان إذعان وانقياد ، بل يؤثرون الحياة الدنيا على ما عند الله تعالى من النعيم المقيم ، لا المشركون أو الكافرون في عرف بعض الناس كالذين لا يسمون مسلمين ، كما أن القرآن لا يعني بالمؤمنين الناجين طائفة يسمون أنفسهم أو يصفونها بالإيمان أو الإسلام ، وإنما يعني بهم أولئك الموقنين لما عند الله ، الذين يؤثرون الحق على كل ما يعارضه من شهواتهم ولذاتهم ، وإذا عثر أحدهم وعمل السوء بجهالة يتوب من قريب) (١) ويقول بعد ذلك . . . (وذلك أن للإيمان إطلاقين فيطلق على المؤمن الموقن المذعن للعمل والاتباع ، ويطلق على من يصدق تقليداً بأن للعالم إلهًا أرسل رسلاً وينتسب إلى بعضهم وإن لم يكن على يقين في إيمانه ، وبصيرة في دينه ، وحسن اتباع لنبيه ، بل هو

---

(١) انظر التفسير ص ٢٧٢/ ٢ .

على خلاف ذلك كما تقدم ، وهؤلاء قد يكونون في عرف القرآن كافرين . (١)
إلى أن قال :

فالله يرشدنا إلى أنه لا اعتداد بالإيمان في الآخرة إلا إذا صحبته التقوى ، وكانت أثراً له في النفس والعمل الصالح - ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ [مريم : ٦٣] ﴿ أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مااتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ [المائدة ٩٣] والآيات في هذا كثيرة ولكن الذين يزعمون أن النجاة في الآخرة والدرجات العلى فيها تحصل بمجرد اللقب والجنسية ، أو بعض التقاليد التي لا أثر لها في النفس لا يلتفتون إلى مثلها ، وإذا قيل لعظمائهم فيها ، واحتج عليهم بها ، طفقوا يحرفون ويؤولون ، ويدعون أنها نزلت في الكافرين وهم مسلمون ، أو يقولون هكذا قال شيوخنا وإنما نحن مقلدون وهؤلاء الداعون إلى الكتاب ضالون مضلون لأنهم يدعون الاجتهاد في الدين . وقد أقفل علماؤنا بابه منذ مئتين من السنين وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران : ٨٥] أورد السيد رشيد بحثاً للرازي في الفرق بين مسمى الإسلام والإيمان فيه انحراف عن عقيدة أهل السنة وتخبط في إيجاد الفرق ، ثم تعقبه بما أظهر منه عقيدته جلياً وتبين من كلامه رسوخه في علوم الشريعة ولنفاسته أنقله بطوله قال رحمه الله :

وأنت ترى أن في كلامه اضطراباً وسببه تزاحم الاصطلاحات الكلامية والإطلاقات اللغوية في ذهنه . والصواب أن مفهومي الإسلام والإيمان في

---

(١) انظر التفسير ص ٢٧٢/ ٢ .

اللغة متباينان فالإسلام الدخول في السلم وهو يطلق على ضد الحرب وعلى السلامة والخلوص وعلى الانقياد كما تقدم في أوائل السورة والإيمان والتصديق ويكون بالقلب كأن يقول امرؤ قولاً فنعتقد صدقه . ويكون باللسان كأن تقول له صدقت وقد أطلق كل من الإيمان والإسلام في القرآن على إيمان خاص جعل هو المنجي عند الله تعالى وإسلام خاص هو دينه المقبول عنده . أما الأول فهو التصديق اليقيني بوحدانية الله وكماله وبالوحي والرسل واليوم الآخر بحيث يكون له السلطان على الإرادة والوجدان فيترتب عليه العمل الصالح . ولذلك قال بعد نفي دخول الإيمان في قلوب أولئك الأعراب : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات : ١٥] وأما الثاني فهو الإخلاص له تعالى في التوحيد والعبادة والانقياد لما هدى إليه على ألسنة رسله . وهو بهذا المعنى دين جميع النبيين الذين أرسلهم لهداية عباده فالإيمان والإسلام على هذا يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل واحد منه باعتبار ولذلك عدا شيئاً واحداً في الآيات التي ذكرت آنفاً وفي قوله بعد ما ذكر عن إيمان الأعراب وإسلامهم ، ثم بيان حقيقة الإيمان الصادق ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ، يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ [الحجرات : ١٧] فهذا هو الإيمان الصادق والإسلام الصحيح وهما المطلوبان لأجل السعادة (١) .

وقد يطلق كل من الإيمان والإسلام على ما يكون منهما ظاهراً سواء كان ذلك عن يقين أو عن جهل أو نفاق . فمن الأول الشق الأول من قوله تعالى :

---

(١) انظر التفسير ص ٢٧٣/ ٢ .

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ [البقرة : ٦٢] الآية فالمراد بالذين آمنوا في أول الآية الذين صدقوا بهذا الدين في الظاهر . وقوله : ﴿ من آمن منهم بالله ﴾ إلخ هو الإيمان الحقيقي الذي عليه مدار النجاة وقد تقدم شرحه آنفاً . ومن الثاني قوله : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي دخلنا في السلم الذي هو مسالمة المؤمنين بعد أن كنا حرباً لهم وليس معناه الإخلاص والانقياد مع الإذعان وإلا لما نفى إيمان القلب . هذا هو التحقيق في المسألة ولله الحمد .

أما إطلاق الإسلام بمعنى ما عليه هؤلاء الأقوام المعروفون بالمسلمين من عقائد وتقاليد وأعمال فهو اصطلاح حادث مبني على قاعدة « الدين ما عليه المتدينون » فالبوذية ما عليه الناس المعروفون بالبوذية واليهودية ما عليه الشعب الذي يطلق عليه اسم اليهود والنصرانية ما عليه الأقوام الذين يقولون إنا نصارى وهكذا . وهذا هو الدين بمعنى الجنسية (*) وقد يكون له أصل سماوي أو وضعي فيطرأ عليه التغيير والتبديل حتى يكون بعيداً عن أصله في قواعده ومقاصده وتكون العبرة بما عليه أهله لا بذلك الأصل المجهول أو المعلوم . (١)

ويتضح مما سبق من نقول أن مذهب السيد رشيد في الإيمان هو التصديق اليقيني بوحدانية الله وكماله وبالوحي والرسل وباليوم الآخر وهو الإخلاص بالعبادة لله سبحانه ، فهو تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان .

(*) ولعل الشيخ سيد قطب استوحى هذه الفكرة من المنار حين عقد في كتابه (معالم في الطريق ، (فصلاً عن جنسية المسلم) عقيدته .

(١) انظر التفسير ٣/ ٣٠٩ - ٣١١ .

وأحب أن أشير هنا إلى أن اختلاف مذاهب الناس في الإيمان كان في تحديد ماهيته وهل هو قول القلب أو اللسان فقط أو القلب واللسان فقط ولا أطيل هنا بذكر مذاهب الفرق في ذلك (١) .

---

(١) ولمزيد الاستفادة والتوضيح أنقل هنا جدولاً يبين أصل اختلاف الناس في الإيمان نقلته بتصرف عن رسالة الإرجاء للدكتور سفر الحوالي ص ٢٨٤ رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى

زيادة الإيمان ونقصه ودخول العمل فيه .

ومن الأمور التي زل فيها المرجئة مخالفين عقيدة أهل السنة والجماعة هو قولهم بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وتأولوا كل ما جاء في الكتاب والسنة مما هو دال على زيادة الإيمان ونقصانه ، وقد بين السيد رشيد رضا معتقد أهل السنة في ذلك بما لا يترك شبهة لأحد في ذلك .

قال عند قوله تعالى : ﴿ فزادهم إيماناً ﴾ [آل عمران - ١٧٣] « أي فزادهم قول الناس لهم إيماناً بالله وثقة به من حيث خشوه ولم يخشو الناس فالزيادة كانت في الإذعان النفسي والشعور القلبي وتبعتها الزيادة في العمل . . .

إلى أن قال : ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذي يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التي يترتب عليها ترك المنكر المنهي عنه وفعل المعروف المأمور به ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة في إصلاح حال البشر وهل يقول عاقل إن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التي لا تقبل الزيادة والنقصان ؟ أما إنه لو كان إذعان جميع المؤمنين في درجة واحدة لتساووا في الأعمال ولكنهم متفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً كما هو ثابت بالمشاهدة فثبت أنهم متفاوتون في منشئها من النفس وهو الإذعان ، الذي يقوى ويضعف بالتبع للإيمان وهذا عين قبول الزيادة والنقصان ومن هنا تفهم معنى إدخال السلف الصالح الأعمال في مفهوم الإيمان فإن كل اعتقاد له أثر في النفس يتبعه عمل من الأعمال .

ثم تكلم عن زيادة الإيمان بتدبر الآيات التي يتلقاها المؤمن شيئاً فشيئاً ثم قال :

وليس هذا النوع من زيادة الإيمان هو المراد من الآية التي نحن بصدد تفسيرها وإنما المراد بعد النوع الأول وهو الزيادة في أصل اليقين والإذعان المؤثر

في الوجدان فهي من قبيل قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ (١) اهـ ،

وقد كرر السيد رشيد في غير موضع ما سبق في كلامه من دخول العمل في الإيمان واقتضاء الإيمان له ، وأنا أنقل هنا بعضاً من ذلك .

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر . . . ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

والآية تدل على أن الإيمان الصحيح يقتضي العمل وقد غفل عن هذا الأكثرون ، وقرر الأئمة المحققون كحجة الإسلام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية والمحقق الشاطبي والأستاذ الإمام رحمهم الله تعالى . قال شيخنا هنا : كأنه يقول : من كان مؤمناً فلا شك أنه يتعظ بهذا . يشير إلى أن من لم يتعظ ويعمل بها فليس بمؤمن . وتدل على أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغي أن تساق إلى الناس مساق الوعظ المحرك للقلوب ، لا أن تسرد سرداً جافاً كما ترى في كتب الفقه . (٢) اهـ .

وفي موضع آخر ينعي السيد رشيد على الذين يفرقون بين العلم والعمل فيقول عند تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ [البقرة : ٢٠٨] الإيمان هو التصديق الجازم مع إذعان النفس فمن صدق بالشيء وأذعن له فقد دخل في أعماله وانقاد لأحكامه لا محالة .

---

(١) انظر التفسير ٤/ ٢٤٠ .

(٢) انظر التفسير ص ٤٠٥/ ٢ .

وأما قول الجماهير إن العلم لا يوجب العمل فهو على إطلاقه خطأ ، فالعلم التقديري الإذعاني المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل به ما لم يعارضه في موضوعه علم أقوى معه ، وأما العلم التصديقي والعلم التصوري المعارض بعلم ضروري أو نظري أقوى منه فلا يوجبان العمل .

وقد صرح حجة الإسلام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة الشاطبي صاحب الموافقات بأن العلم الصحيح يستلزم العمل ، والحق التفصيلي الذي أشرنا إليه آنفاً وآيات الكتاب العزيز دالة عليه ومعززة له) (١)

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ للذين اتقوا ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ [آل عمران : ١١٥ وما بعدها] (على أنه لو لم يكن الكلام في المؤمن المتيقن ولو لم يوصفوا بعد الدعاء بما يأتي من الصفات بأن قيل : للذين آمنوا عند ربهم إلخ الدعاء فقط لكان لنا أن نقول : إن المراد بالإيمان الإيمان الصحيح الذي تصدر عنه آثاره من ترك المعاصي وعمل الصالحات لتتفق الآية مع سائر آيات القرآن الموافقة للعقل والعلم بطبيعة البشر والإجماع والسلف على أن الإيمان قول واعتقاد وعمل ولكن القوم غفلوا عن هذا وحجبوا عنه بالتماس ما يؤيدون به مذاهبهم ويفندون بها ما خالفها وقد قررنا هذه الحقيقة في الإيمان والعمل من قبل ولا نزال نبدىء القول فيها ونعيده لعل التكرار في المقامات المختلفة يؤثر في صخرة التقليد الصماء فيفتتها أو ينسفها نسفاً فيعود المسلمون إلى إيمان القرآن الذي كان عليه السلف وصفوة علماء الخلف كحجة الإسلام الغزالي في المشرق وشيخ الإسلام ابن تيمية في الوسط والعلامة الشاطبي صاحب الموافقات في المغرب كل هؤلاء من القرون الوسطى وحسبك بالأستاذ الإمام من المتأخرين) (٢) .

---

(١) انظر التفسير ص ٢٥٨/ ٢ .

(٢) انظر التفسير ص ٢٥٠ - ٢٥١/ ٣ .

وبعد ما أوردته من نقل تتضح عقيدة الشيخ رشيد في الإيمان وأنها موافقة لمعتقد السلف رحمهم الله تعالى .

بقي أن نشير إلى كلام له في أركان الإيمان :

أما التوحيد والإيمان بالآخرة فإنه يجعلهما أساسا الدين وركنا الإيمان .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ [النساء : ٨٧] يقول : (التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة هما الركنان الأولان للدين وإنما الرسل يبلغون الناس ما يجب من إقامتهما ودعمهما بالأعمال الصالحة فلا غرو أن يصرح القرآن بهما معاً تارة وبالأول منهما تارة أخرى في أثناء سرد الأحكام فإن ذكرها هو العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل . . .) (١) .

وأما الإيمان بالكتب والرسل فيقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥] (والمراد بالإيمان بالكتب والرسل جنسها أي يؤمنون بذلك إيماناً إجمالياً فيما أجمله القرآن وتفصيلياً فيما فصله لا يزيدون على ذلك شيئاً ويقولون لا نفرق بين أحد من رسله) (٢) .

وأما كلامه على الإيمان بالملائكة والقدر فأسرد لكل منهما بحثاً إن شاء الله تعالى .

عقيدته في الملائكة :

---

(١) انظر التفسير ٥/ ٣١٧ .

(٢) انظر التفسير ٤/ ١٤٤ .

لا يتم إيمان العبد حتى يؤمن بالملائكة الكرام كما قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .... ﴾ الآية [البقرة : ٢٨٥] .

ولا يشك إنسان في أن كل مسلم يؤمن بالملائكة ، ولذا فما الداعي إلى إفراد مطلب خاص في هذه الرسالة لتوضيح عقيدة السيد رشيد في الإيمان بالملائكة . والجواب أنه قد وردت شبهات حول عقيدة السيد رشيد في الملائكة بأنه جعلها القوى الطبيعية التي أودعها الله في المخلوقات ، وقد أثار الديجوي هذه الشبهة على السيد رشيد فانبرى الأخير للدفاع عن عقيدته بل وعقيدة شيخه محمد عبده في ذلك ويقول (١) : « من كان لا يؤمن بالملائكة فهو لا يؤمن بوحي الله أي رسله ولا يكون مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً ولا ملياً وثنياً ، فإن كان صاحب المنار من هذا الصنف فلماذا سكت على كفره هذا علماء الأزهر الأعلام وغيرهم من علماء الإسلام مدة ٣٥ سنة وهو يطالبهم في كل مجلد من مجلته كما يطالب جميع من يطلع عليها بأن يكتبوا إليه بما يرونه باطلاً أو منتقداً فيها مع بيان دليله لينشره لهم فيطلع عليه سائر قرائه كيلا يضلوا بما ضل هو به » .

ثم بين أن سبب ذلك هو كلام لمحمد عبده قاله في درس فاستشكله البعض فبين مراده في درس آخر ومما جاء في كلام محمد عبده (ص ٢٦٧/ ١)

« ذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة وهي أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيحاء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو

---

(١) المنار والأزهر ص ٨ البهتية الأولى المقام الخامس .

أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والإنسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمتد به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية . . . » .

وقال بعدها : [وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها . . . وماذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب . وقد اعترف ، بما غيب عنه لو قال أصدق بغيب أعرف أثره وإن كنت لا أقدر قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ويخطىء بما يخطىء به المؤمنون] .

وقد بين الشيخ رشيد إيمانه بالملائكة في غير موضع من تفسيره منها في ص ١٢٧/ ١ يقول :

[ولا شك أن الإيمان بالله وملائكته - وهي جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها الله سبحانه وتعالى - وباليوم الآخر إيمان بالغيب] .

ويقول في تفسير آية البر (١٢٣ ، ١٢٤ من البقرة)

إن الإيمان بالملائكة أصل الإيمان بالوحي لأن ملك الوحي روح عاقل عالم لم يقيضه العلم بإذن الله على روح النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما هو موضوع الدين ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب والنبيين فهم الذين يؤتون النبيين الكتاب ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ [القدر : ٤] .

﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾

[الشعراء : ١٩٣-١٩٥] فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحي والنبوة .

إلى أن قال : والملائكة خلق روحاني عاقل قائم بنفسه ، وهو من عالم الغيب فلا نبحث عن حقيقتهم كما تقدم غير مرة) اهـ .

وكذلك من عقيدته في أماكن أخرى منها (ص ٤٥٩/ ٥) ، (ص ٣١٦/ ٧) ، (ص ٥٥٨/ ٩) وغيره بل قد ذهب الشيخ رشيد إلى أبعد من هذا فقد رد في مجلة المنار (١٨/ ٦٠٣) على الدكتور محمد توفيق صدقي في كتابه (دروس سنن الكائنات) وفيما يزعم الدكتور في أن الملك هو ما يرسله الله إلى هذا العالم من المادة أو قواها وأن أنواع الميكروبات الخفية المؤثرة في تغيير بعض الأشياء وتحولها وفي الأمراض كلها من قبيل الملائكة والجن .

فانبرى الشيخ رشيد رادًّا عليه قائلاً : (ما قاله الكاتب في هذا البحث ضعيف لغة وشرعاً إلا أنه مذهب له واصطلاح خالف فيه الناس كما قيل . . .

إلى أن قال والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان والأول هو الإيمان بالله تعالى فهل يدخل في مفهومه هذه الميكروبات التي يصفها هؤلاء الكتاب بالدنيئة والحقيرة كلا .

وفي إدخالها في مفهوم كلمة الجن فليس ببعيد لغة ولا ممنوع شرعاً فقد ورد أن الجن أنواع ومنه ما هو خشاش الأرض (١) ولا مانع في العقل ولا العلم من كون بعض عوالم الغيب من الملائكة موكلاً ببعض شؤون الكون وسبباً له .

وفي ص ٢٥٥ من مجلة المنار الخامس سنة ١٣٢٠هـ بين سبب ورود مثل هذه الألفاظ في تفسيره فيقول سأل سائل إذا كانت الملائكة عبارة عن القوى

---

(١) انظر التعليق ص ٣٣٩ على كلام المحدث الألباني .

المعنوية ، والنواميس التي بها نظام العوالم الحية فما معنى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ وأمثاله .

والجواب : إن الذي تقدم في التفسير هو أن الملائكة عالم مستقل مستتر عنا وإنما كان ذكر القوى والنواميس الطبيعية جذباً لمنكري الملائكة إلى التصديق لأن بعض ما ورد يوافق ما يعتقدونه فكيف يكفرون لاختلاف الألفاظ .

لا أن الكلام كان إرجاعاً لنصوص الدين إلى أقوالهم) اهـ .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . . ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

قال المفسرون ليس المراد بالإيمان بالملائكة الإيمان بذواتهم بل الإيمان بسفارتهم في الوحي كما يفهم من النظم والترتيب ولذلك عطف عليهم الإيمان بحقية كتبه وصدق رسله لكن ما يفيده الترتيب والنظم من إرادة الإيمان بالملائكة من حيث الوحي هم حملة إلى الرسل لا ينافي ملاحظة الإيمان بهم من حيث هم من عالم الغيب بل يستلزمه وأما البحث عن ذواتهم ماهي وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هي فهو ما لم يأذن به الله في دينه) (١) .

وبعد فهذا اعتقاد الإمام في الملائكة قد وضح أنه على معتقد السلف ولا يخرج عنهم وما ورد من بعض التقريبات اللفظية إنما هو لجذب المنكرين له للدخول في دين الله .

---

(١) انظر التفسير ٣/ ١٤٤ .

ومراده كما يظهر عدم البحث عن كيفية أعمالهم وأما أعمالهم التي وردت في النصوص فلا شك أنه يجب الإيمان بها مجملة ومفصلة كما جاءت والله أعلم .

رحم الله رشيد رضا ما كان أحرصه على دخول الناس في دين الله !

عقيدته في القضاء والقدر :

القضاء والقدر ، ركن من أركان الإيمان الواردة في حديث جبريل عليه السلام في سؤاله النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الإيمان ففيه « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » ، وهذا الأمر ذكره الله سبحانه في كتابه الكريم حيث قال : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : ٣٠] وقال : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : ٧٩] .

والإيمان بالقدر هو الإيمان بقدرة الله ومشيئته والإيمان بعلمه واللوح المحفوظ وهذا الإيمان يوجب الإيمان بأمر الله وشرعه ولا ينافيه ، وضل أقوام في القدر فنظروا إلى جانب القدرة الإلهية وغفلوا أمر الشرع والثواب والعقاب ، وضل آخرون فنظروا إلى جانب الأمر الشرعي وأغفلوا النظر إلى عموم قدرة الله ومشيئته ، وتفرع من هذه المسألة اختلافهم في أفعال العباد .

والسيد رشيد رضا قد نقل في تفسيره المنار جواباً للشيخ محمد عبده عن القضاء والقدر ، دل هذا الجواب على حسن المعتقد في ذلك . فمما جاء فيه :

(القضاء : وقوع الشيء حسب العلم ، والعلم لا يكون إلا مطابقاً للواقع وإلا كان جهلاً أو الواقع غير واقع وهو محال ، وهنا أمران كل منهما ثابت في نفسه : أحدهما أن الله خالق كل شيء وثانيهما أن هذا النوع من المخلوقات الذي يسمى الإنسان يعمل أعماله بقصد واختيار ولكن غير تام القدرة ولا الإرادة ولا العلم فقد يعزم على العمل ثم تنفسخ عزيمته لتغير علمه بالمصلحة أو لعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه مع بقاء علمه بأنه هو الموافق للمصلحة وذلك لمرض يلم به . . . .

ويؤخذ من هذا كله أمران (أحدهما) أن الشيء متى وقع يعلم بعد وقوعه أنه لم يكن منه بد و(ثانيهما) أن الإنسان إذا كان يؤمن بأن لله تعالى عناية به وقد يلهمه إذا هو توجه إليه علم ما يجهل من أسباب سعادته ويوفقه إلى ما يعجز عنه من الأسباب بمحض طوله وقوته فإنه بهذا الإيمان يكون في أخذه بالأسباب أنشط في العمل عن عجزه عنها بعد اليأس والكسل) (١) اهـ .

وهذا الذي قرره السيد رشيد نقلاً عن محمد عبده هو معتقد سليم (٢) لأنه فيه إثبات مراتب القدر الأربعة (القدرة - المشيئة - العلم - والكتابة التابعة له)

وهو بهذا التوجيه لا ينافي الأمر الشرعي فهو يدعو للعمل والكسب .

ويزيد هذا الأمر وضوحاً جواب آخر للشيخ محمد عبده نقله عنه في المنار يبين أن الاحتجاج بالقدر على ترك العمل من الأمور المذمومة .

قال : (سأل سائل في الدرس إذا كان الرزق مقدراً فعلام السؤال ؟ فقال الأستاذ : إذا كانت إجابتي أو عدمها مقدراً فلِمَ السؤال ؟ هذا لا يقال وإنما ينبغي أن يقال ما الحكمة في طلب الدعاء منا في هذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث كحديث « الدعاء مخ العبادة » والله تعالى يعلم ما في أنفسنا وما تنطوي عليه سرائرنا قالت الصوفية : إن المراد بالدعاء فزع القلب إلى الله وشعوره بالحاجة إلى معونته والتجاؤه إليه .

ويحتجون بما روي في قصة إبراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أن

---

(١) انظر التفسير ص ١٩٥ / ٤ وما بعدهما .

(٢) وذكره محمد عبده كذلك في رسالة التوحيد ص ٧٦ وما بعدها ، وفي حاشيته على شرح الدواني للعضد ص ٢٦٠ ، ٢٧٥ .

جبريل سأله قبل أن يلقى في النار ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا . قال فادع الله قال حسبي من سؤالي علمه بحالي .

(أقـول) ولكن ظاهر الآيات والأحـاديث يدل على أن الدعـاء مطلوب بالقـول مع التـوجـه إلى الله بالقلـب ، ومنه الأدعيـة المأثورة في الكتـاب والسنة وذلك أن الدعاء باللسان هو أثر الشعور بالحاجة إلى الله تعالى وفزع القلب إليه فإن لم يكن أثره فهو مذكر به وهو أعظم مظاهر الإيمان ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مخ العبادة فهو يطلب لذلك وإجابة الله الدعاء وتقبله ممن أخلص له وفزع إليه بروحه ورضاه عنه سواء أوصل إليه ما طلبه في ظاهر الأمـر أم لـم يصل . والحـديث رواه التـرمـذي من حـديث أنس رضي الله عنه وسنده ضعيف ومتنه صحيح فهو بمعنى حديث « الدعـاء هو العبـادة » بصيغة الحصر وهو صحيح رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه) . (١) اهـ .

واستدراك السيد رشيد في محله لأن ظاهر كلام محمد عبده أنه يكفي التوجه بالقلب دون اللسان في الدعاء على أن الحديث الذي احتج به في ذلك لا يصح . (٢) .

وقد بحث السيد رشيد بتوسع وتفصيل ما أجمله عنه الأستاذ الإمام وتقدم نقله .

---

(١) انظر التفسير ص١٧١ ، ٢/١٧٢ .

(٢) انظر السلسلة الضعيفة حديث رقم (٢١) - الجزء الأول العجيب أن السيد رشيد لم يتعقب هذا الحديث بالتضعيف رغم سعة علمه بالحديث حتى أن هذا يظهر من باقي استدراكه في تضعيفه لحديث أنس وتصحيحه معناه لحديث النعمان .

وذلك عند قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ... ﴾ [الأنعام ١٢٥] يقول (واعلم أيها القارئ أن هذه الآية كانت معترك أهل الكلام من القدرية الجبرية والمعتزلة والأشعرية فالقدرية الذين ينكرون أن خلق الخلق وقع بتقدير سابق من الله تعالى ونظام ثابت بسنن حكيمة يقولون إن الآية ظاهرة في أن الله تعالى إذا أراد هداية امرىء يخلق في صدره انشراحاً للإسلام فيكون قبوله له بخلق الله ، وهذا الخلق يحصل أنفاً أي جديداً غير مرتب على تقدير سابق ، والجبري منهم ومن غيرهم يقول إذا كان الأمر كذلك فإسلام المرء ليس باختياره ولا كسبه بل بفعل الله تعالى وحده ومن الأشعرية من يقول له فيه كسب ينسب إليه ولكنه مخلوق لله لا تأثير له في نفسه .

وحاصل القولين واحد ويقولون مثل هذا فيمن يريد أن يضله فيخلق له من ضيق الصدر والحرج ما يثبت به على كفره ويمتنع من قبول الإيمان ، وللمعتزلة تأويلات في الآية حاولوا فيها تطبيقها على مذهبهم في كون إيمان المرء وكفره من فعله المستقل فجعلها بعضهم خاصة بهداية المؤمن في الآخرة إلى طريق الجنة وضلال الكافر عنه وبعضهم من قبيل ما يعبرون عنه بمنح الألطاف والتوفيق المسهل لمن أراد الله هدايته أن يهتدي بفعله وكسبه ، وعدم منح ذلك لمن لا يريد منه ذلك فيبقى على كفره بإرادته واختياره ، وهذا أقرب ما قالوه إلى مذهب أهل السنة .

وإنما وقع حذاق النظار في أمثال هذا الخلاف لاتخاذ مذاهبهم أصولاً مسلمة ومحاولة حمل نصوص كتاب الله تعالى وأخبار رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليها لتصحيحها وإبطال مذاهب خصومهم المخالفة لها ، فهم ينظرون في كل آية تتعلق بقواعد هذه المذاهب مفردة على حدتها ولا يعرضونها على سائر الآيات التي في موضوعها ليكونوا مؤمنين وعاملين بالكتاب كله غير جاعليه عضين . ومن استعرض عقله عند تحقيق كل عقيدة أو مسألة مجموع ما

ورد فيها يتجلى له الحق وأنه لا مجال للاختلاف في كتاب الله سبحانه ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : ٨٢] ففي الكتاب أن الله تعالى خلق كل شيء بقدر لا أنفاً جديداً غير مرتبط بنظام سابق ، وفيه أن كل شيء بإرادته ومشيئته ، وأن مشيئته مقرونة بحكمته التي اقتضت النظام والتقدير ، وتنزه بها عن الأنف والجزاف والتفاوت والخلل ، وفيه أن إيمان العبد المكلف يقع بفعله واختياره وأن الله تعالى هو الذي خلقه فاعلاً بالإرادة والاختيار وبهذا لا يكون فعله وكسبه منافياً لخلق الله ومشيئته ولا جاعلاً له مستقلاً دونه تعالى مستغنياً عن توفيقه وإمداده في كل حين حتى يقال إنه جعل خالقاً لعمله ، فالفرق بين الفعلين عظيم ، وبهذا الجمع بين نصوص الوحي ، تظهر حجة الله البالغة على الخلق .

والتوفيق عناية خاصة من الله تعالى يتفضل بها على بعض عباده وهو أعلم حيث يضع توفيقه كما هو أعلم حيث يجعل رسالته فيجمع لمن تفضل عليه به بين ما جعله في مقدوره وتناول كسبه ، وبين ما ليس كذلك مما فيه الخير والمصلحة له ، فيتفق له الأمران ، والخذلان ضده أو عدمه فهو أمر سلبي ولا يظلم الله العبد المخذول شيئاً ، وقد يفسر الشيء تفسيراً سلبياً تكون حقيقته إيجابية ، وتفسيراً إيجابياً تكون حقيقته سلبية ، قال المحقق ابن القيم في بيان مشهد التوفيق والخذلان من كتابه (مدارج السالكين) :

وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو أن لا يكلك الله إلى نفسك ، والخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك اهـ .

وهذا تعريف بالرسم واضح المعنى فيما قلناه ، فمعنى أن لا يكلك إلى نفسك هو أن يمنحك فوق كل ما في قدرتك وما تتوجه إليه إرادتك مما تعلم من الخير لنفسك - ما يتوقف عليه النجاح وإصابة الخير مما ليس في مقدورك ولا

يصل إليه اجتهادك وحدك وبعض ذلك نفسي وبعضه خارجي . فمعناه التوفيق إيجابي . وقولهم في تفسير الخذلان « أن يكلك إلى نفسك » معناه أن لا يمنحك شيئاً من العناية الخاصة فيما يصل إليه كسبك ولا تسخير ما لا يصل إليه ، فلا تنال من الخير إلا بقدر قدرتك على ما تعلم وتريد من أسبابه .

وقدرتك لا تصل إلى كل ما تعلم أن فيه الخير لك ، وعلمك غير محيط بما فيه ذلك الخير فأنت تجهل كثيراً . وما أوتيت من العلم إلا قليلاً ، وكثيراً ما تظن الجهل علماً والشر خيراً .

وقد جاء ابن القيم بعد ذلك بتفسير إيجابي فقال : والتوفيق إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه مريداً له محباً له ، مؤثراً له على غيره ، ويبغض إليه ما يسخطه ويكرهه إليه ، وهذا مجرد فعله والعبد محل له قال الله تعالى [الحجرات : ٧-٨] ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله - إلى آخر ما قال وأجاد) (١) هـ .

ثم قال بعد ذلك السيد رشيد : (فصل في الرد على الجبرية والقدرية بسنن الله وآياته) وأخذ ينقل كلاماً للرازي في تفسير هذه الآية في الرد على المعتزلة ، ثم تعقبه في بحث لطيف فليراجع فإنه مفيد (١) .

ثم قال بعد ذلك : (كلمة الاعتدال الوسطى في الخلاف بين القدرية والجبرية . قال المحقق ابن القيم في شفاء العليل « اعلم أن الرب سبحانه فاعل

---

(١) انظر التفسير ص ٤٤ - ٨/٤٦ .

غير منفعل بوجه . فالجبرية شهدت كونه منفعلاً يجري عليه الحكم بمنزلة الآلهة والمحل وجعلوا حركته بمنزلة حركات الأشجار ، ولم يجعلوه فاعلاً إلا على سبيل المجاز فقام وقعد وأكل وشرب وصلى وصام عندهم بمنزلة : مرض وألم ومات ونحو ذلك مما هو فيه منفعل محض . والقدرية شهدت كونه فاعلاً محضاً غير منفعل في فعله . وكل من الطائفتين نظربعين عوراء . وأهل العلم والاعتدال أعطوا كلا المقامين حقه ولم يبطلوا أحد الأمرين بالآخر فاستقام لهم نظرهم ومناظرتهم واستقر عندهم الشرع والقدر في نصاب . وشهدوا وقوع الثواب والعقاب على من هو أولى به ، وأفاض في تفصيل ذلك والشواهد عليه من آيات القرآن الحكيم .

وما ذكر من نوط خطأ الغلاة بنظر بعضهم إلى أحد وجهي الشيء أو جزئه ونظر الآخرين إلى الآخر يرجع إلى ما قلناه من الأخذ ببعض النصوص والغلو فيه وترك البعض الآخر في الحقيقة الواحدة غلت القدرية في مسألة الحكمة في الخلق والتكوين والأمر ، والتشريع ، وغلت الجبرية في مسألة المشيئة والإرادة فهؤلاء جوزوا أن تخلو المشيئة عن الحكمة وأولئك قيدوا مشيئة الرب بما تصل إليه أفهامهم من الحكمة وإن كان كل منهما يؤمن بالصفتين كلتيهما .) (١) اهـ

---

(١) وانظر أيضاً رده على الرازي في هذه المسألة في ص ٦٦٩/ ٧ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم . . . . ﴾ .

وقال أيضاً :

(وجملة القول أن الله تعالى خالق كل شيء وأنه يخلق بقدر ونظام وحكمة وسنن لا أنفاً ولا جزافاً ولا عبثاً ، وأنه حكيم في خلقه وأمره لم يشرع لعباده شيئاً عبثاً كما أنه لم يخلقهم عبثاً ، وأنه خلق الإنسان قادراً مريداً فاعلاً بالاختيار يرجح بحسب علمه النظري وشعوره الوجداني بعض الأعمال على بعض ويحكم على نفسه فيقدر على تكلف ما يؤلمه ولا يلائم هواه ولذته وأن أفعاله تسند إليه ويوصف بها لأنها تقوم به وتصدر عنه باختيار لأنه محله ، وتنسب إلى مشيئة الله تعالى من حيث إنه الخالق له بهذه الصفات والمعطي له هذا التصرف والاختيار ، والهادي له إلى السنن والأسباب ، والخالق لما يتعلق به عمله من الأشياء ، ولكنه تعالى لا يوصف بتلك الأعمال الاختيارية ولا تسند إليه إسناد الفعل إلى من قام به بحيث يشتق له الوصف منه فيقال أكل زيد فهو آكل وصلى عمر فهو مصل وسرق بكر فهو سارق ، ولا يقال شيء من ذلك في البارىء تعالى .) (٢) اهـ .

وخلاصة القول أن :

الذين يعرضون عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ويحتجون بالقدر هم مشابهون للمشركين في قولهم : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا . . . ﴾ [النحل : ٣٥] .

وكذلك يشابهون إبليس في احتجاجه بالقدر في رد الأمر الإلهي .

وفي المقابل من يكذب بالقدر وينظر للأمر والنهي فقط فهو مجوسي وجاء

---

(١) انظر التفسير ص ٨/٥٤ .

(٢) انظر التفسير ص ٨/٥٦ .

فيهم الآتي :

(القدرية مجوس هذه الأمة) (١) ، فصار الناس بذلك ثلاثة أصناف .

قال شيخ الإسلام : (أهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق : مجوسية ومشركية . وإبليسية .

فالمجوسية : الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه ، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب ، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم .

والفرقة الثانية : المشركية الذين أقروا بالقضاء والقدر وأنكروا الأمر والنهي ، قال تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء وهذا كثر فيمن يدعي الحقيقة من المتصوفة .

والفرقة الثالثة : وهم الإبليسية الذين أقروا بالأمرين لكن جعلوا هذا متناقضاً من الرب سبحانه وتعالى - وطعنوا في حكمته وعدله ، كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم ، كما نقله أهل المقالات ، ونقل عن أهل الكتاب) (٢) اهـ

ونظرة السيد رشيد إلى الأمر الإلهي هي نفس نظرة أهل السنة (١) بالتفريق بين الأمر القدري الكوني ، والأمر الشرعي الطلبي ، فالله سبحانه أمر إبليس

---

(١) رواه أبو داود وانظر كلام الحافظ عليه في تحسينه له عند كلامه على بعض أحاديث المشكاة ج٣ ص ١٩٧٩ ، وقواه الألباني بطرقه في تخريجه للطحاوية ص ٣٠٤ .

(٢) انظر الفتاوى ص ٣/١١١ ، وقد وردت آية الأنعام فيه هكذا ﴿ وقال الذين أشركوا . . . ﴾ . وصححتها من المصحف .

بالسجود وهو سبحانه يعلم أن إبليس لا يطيع وأمر آدم بالتوبة وهو سبحانه يعلم أن آدم سيطيع ، فقد شاء كوناً وقدراً من إبليس عدم السجود ، وشاء من المؤمنين الإيمان وأحبه لهم شرعاً كما قال تعالى ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ [الحجرات : ٧] وقال تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ [الزمر : ٧] .

يقول السيد رشيد عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [البقرة : ١١٧] وأقول : (إن الأمر بكلمة كن هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين ، ويقابله أمر التكليف ، فالأول متعلق صفة الإرادة ، والثاني متعلق صفة الكلام وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف ، ولا يخاطب به غيره فضلاً عن المعدوم ، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود إذ المراد به جعله موجوداً وإنما يوجه إليه لأنه معلوم فالله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد في وقت كذا ، فتتعلق بإرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه الأمر الكوني ويسمي مقابله الأمر الشرعي . قرأ الجمهور (يكون) في كل موضع بضم النون على تقدير فهو يكون كما أراد وقرأه ابن عامر بفتحها في كل موضع إلا في آل عمران والأنعام بناء على أن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً ذلك

---

(١) ويمكن أن نستدرك هنا على السيد رشيد أنه جعل في كثير من الآيات الأمر أمر تكوين وهو أمر تشريع وفي بعضها حكاه عن الشيخ محمد عبده ، فمما أخذ عليه في ذلك جعله (الأوامر في قصة آدم للتكوين ١/ ٢٨١) وقول الله لبني إسرائيل ﴿ موتوا ثم أحياهم . ﴾ (٢/ ٤٥٨) وقول السموات والأرض ﴿أتينا طائعين ﴾ ٣/ ٣٥٥ .

وهذا وإن كان قال به بعض أهل السنة كابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ فاهبط منها ﴾ من سورة الأعراف [٣/ ١٥٠ من تفسير ابن كثير] ، وكذلك آية الميثاق [٣/ ٢٤٩] . ط دار الفكر ، إلا أن الأخذ بظواهر النصوص الأولى .

شأنه تعالى في الإيجاد والتكوين وهو أغمض أسرار الألوهية فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول ، وذلك ما لا مطمع فيه . وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذي يقربه من الفهم ، بما لا يتشعب فيه الوهم ، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير : يقول للشيء « كن فيكون » (١) اهـ .

وقد رأيت أن أثبت هنا مجمل اعتقاد السلف في الأمر والقدر موجزاً من كلام شيخ الإسلام رحمه الله قال : (وجماع ذلك أنه لا بد له في الأمر من أصلين ، ولا بد له في القدر من أصلين . ففي «الأمر» عليه الاجتهاد في الامتثال علماً وعملاً ، فلا تزال تجتهد في العلم بما أمر الله به والعمل بذلك .

ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في المأمور وتعديه الحدود .

ولهذا كان من المشروع أن يختم جميع الأعمال بالاستغفار ، فكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران ١٧] فقاموا بالليل وختموه بالاستغفار وآخر سورة نزلت قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ [النصر] وفي الصحيح أنه كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن .

وأما في القدر فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به ؛ ويتوكل عليه ويدعوه ، ويرغب إليه ويستعيذ به ويكون مفتقراً إليه في طلب الخير وترك الشر

---

(١) انظر التفسير ص ٤٣٨/ ٤٣٩/ ١ .

وعليه أن يصبر على المقدور ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وإذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر عليه) (١) اهـ .

وسئل شيخ الإسلام عن الخير والشر والقدر الكوني والأمر والنهي الشرعي . فأجاب (الحمد لله . اعلم أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله منهي عن معصية الله ومعصية رسوله فإن أطاع كان ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه وكان له الأجر والثواب بفضل الله ورحمته ، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب وكان لله عليه الحجة البالغة ولا حجة لأحد على الله وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته لكنه يحب الطاعة ويأمر بها ويُثيب أهلها عليها ويكرمهم ، ويبغض المعصية وينهى عنها ، ويعاقب أهلها عليها ويهينهم

وما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه ، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه . كما قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى ٣٠] وقال تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : ٧٩] أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك ، وما أصابك من جذب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك ؛ وكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره : وأن يؤمن بشرع الله وأمره .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ص ١٢١ - ٣/١٢٢ .

فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهاً للمشركين ، ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهاً للمجوسيين ومن آمن بهذا وهذا وإذا أحسن حمد الله ، وإذا أساء استغفر الله ، وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين . فإن آدم عليه السلام - لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وإبليس أصر واحتج واستكبر واحتج بالقدر ، فلعنه وأقصاه فمن تاب كان آدمياً ، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسياً ، فالسعداء يتبعون أباهم آدم ، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس .

فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . والله أعلم (١) .

فناء النار :

تكلم السيد رشيد عن أبدية النار عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

فأورد كلام ابن القيم في الروح بطوله ثم قال :

« إنما أوردناه (أي كلام ابن القيم) بنصه على طوله لما تضمنه من الحقائق التي نوهنا بها ولأمر آخر أهم ، وهو أننا نعلم أن أقوى شبهات الناس من جميع الأمم على الدين قول أهل كل دين من الأديان المشهورة أنهم هم الناجون وحدهم ، وأكثر البشر يعذبون عذاباً شديداً دائماً لا ينتهي أبداً بل تمر ألوف الألوف المكررة من الأحقاب والقرون ولا يزداد إلا شدة وقوة وهذا مع قولهم

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ص ٢٤٢ - ٨/٢٤٣ . وقد تكررت نفسها في ص ٦٣ من نفس الجزء !!!

(٢) انظر التفسير ٦٩ - ٨/٩٩ .

ولا سيما المسلمين منهم إن الله أرحم الراحمين . . . .

فما أعظم ثواب ابن القيم على اجتهاده في شرح هذا القول المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهذا التفصيل قد ينفع من ذكرنا من المارقين ولا يضر المؤمنين بقول الجمهور مستدلين أو مقلدين . . . . (٢) .

وهذا الذي قاله رشيد رحمه الله هو موافق لما عهدناه عنه في رحمة الناس ومحاولة جذبهم لنور الإسلام لعلهم ينجون ، ولعمر الله لقد كان حريصاً على ذلك أيما حرص !! (١) .

وأما حكم المسألة ، فننتهي فيها إلى ما قال ربنا : ﴿ إن ربك فعال لما يريد﴾

---

(١) علق محدث الشام الألباني على كلام رشيد رضا المنقول هنا بقوله : (هذا الكلام خيال لا حقيقة له في الواقع لأن الأصل في هذه المسألة وغيرها من المسائل الاعتقادية الغيبية إنما هو الإيمان بما جاءنا عن الرحمن الرحيم ، العليم الحكيم كما قال في القرآن الكريم : ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : ٢] ، وهو الإيمان بكل ما غاب عن عقلك فمن لم يؤمن بما أخبر به تعالى من خلود الكافرين في النار أبد الآبدين ، لأن عقله لم يقبله ، فلن يؤمن بعقاب يبلغ مئات السنين ، أخبر به رب العالمين في مثل آية : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ ، ولو على افتراض أن له أمداً منتهياً (لا يعلمون قدره) إذ إن لبثهم هذه المدة الطويلة التي تزيد على مدة عمرهم الذي قضوه كافرين أضعافاً مضاعفة ، فلو أراد أحد أن يقنعهم بها وأنها عدل من الله فلن يصل إلى نتيجة معهم أبداً ، اللهم إلا من طريق الإيمان بالله ورسوله .

(وإذا كان الأمر كذلك فمن العبث بل من الضلال أن يحاول أحد إقناع الشاكين في أصل الدين ببعض ما جاء فيه من العقائد ، عن طريق العقل المجرد عن الإيمان . . .) الخ كلامه انظر ص ٤٥ ، ٤٦ من رفع الأستار للصنعاني تحقيق الألباني .

أحكام عصاة الموحدين :

من الأمور التي تعرض لها السيد رشيد رضا في تفسيره مبحث عصاة الموحدين وحكمهم في الآخرة وهي من الأمور التي اختلف فيها الناس قديماً فذهبت الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة كافر في النار ، وذهبت المعتزلة إلى أنه ليس بكافر ولكنه مخلد في النار أيضاً وأما أهل السنة فهم يدورون مع الأدلة من كتاب وسنة فيحكمون بها لا بالأهواء والعقول الردية ، وعليه فيجعلون مرتكب الكبيرة ليس كافراً ولا يخلدونه في النار على مقتضى الدليل من الكتاب والسنة .

والشيخ رشيد رحمه الله نقل في تفسيره محاولة محمد عبده أن يعقد صلحاً بين المعتزلة وأهل السنة بأن يجعل الخلاف لفظياً ، وأنقل هنا كلامه ثم أتعقبه بما بدا لي والله الموفق .

قال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها** . . . ﴾ [النساء : ١٤] .

قال : قال (أي محمد عبده) ما مثاله وإذا تأملتم في هذا الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة نجده لفظياً فإن الكلام في المصر على الذنب مع العلم بأنه ذنب لأنه تعالى قال في الناجية المسارعين إلى الجنة : ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] فإن من يعمل الذنب ولا يخطر في باله عند ارتكابه أنه منهي عنه لا يعد مصراً عالماً وقد بينا من قبل أن للمذنب حالتين وإننا نعيد ذلك ولا نزال نلح في تعزيزه إلى أن نموت .

(الحالة الأولى) غلبة الباعث النفسي من الشهوة أو الغضب على الإنسان حتى يغيب عن ذهنه الأمر الإلهي فيقع في الذنب وقلبه غائب عن الوعيد غير متذكر له وإذا تذكره يكون ضعيفاً كنور ضئيل . . . وصاحبه جدير بالنجاة في يوم المآب .(١)

---

(١) لا سيما وهو داخل في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال آية : ٢٤] .

(والحالة الثانية) أن يقدم المرء على الذنب جريئاً متعمداً ارتكابه عالماً بتحريمه مؤثراً له على الطاعة بتركه لا يصرفه عنه تذكر النهي والوعيد عليه فهذا هو الذي قد أحاطت به خطيئته حتى آثر شهوته على طاعة الله ورسوله فصدق عليه قوله تعالى : ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

إلى أن قال : (إن من يصر على معصيته تعالى عامداً عالماً بنهيه ووعيده لا يكون مؤمناً بصدق خبره ولا مذعنًا لشرعه الذي تنال رحمته ورضاه بالتزامه ، وعذابه وبأسه باعتداء حدوده فيكون إذاً مستهزءاً فالإصرار على العصيان مع عدم استشعار الخوف والندم لا يجتمع مع الإيمان الصحيح لعظمة الله وصدقه في وعده ووعيده وبهذاالذي قررته يكون الخلاف لفظياً لا حقيقياً . [1] أهـ .

وقال في موضع آخر بعد أن تكلم على من يعمل السوء وهو لا يعلم كونه سوءاً .

« وأما من يعمل السوء وهو يعتقد أنه سوء ويصر على المعصية وهو يعلم أنها معصية لله عز وجل ولكنه يتبع هوى نفسه ويؤثر إرضاء شهواتها وغضبها على رضوان الله ومنفعة عباده كذلك الذي تعزي نفسه بالشر وتأنس بالسوء ويصير ذلك ملكة لها تصرفه لإرادتها في أعماله حتى تصل إلى الدركة التي تتعذر معها التوبة ، وهي التي عبر عنها القرآن الحكيم بالختم على القلوب والرين عليها والطبع عليها وإحاطة الخطيئة بها وضرب لها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثل النكتة السوداء . . .) [2] اهـ .

---

(١) انظر التفسير ص ٤٣٢/ ٤ .

(٢) انظر التفسير ص ٤٤٤/ ٤ .

فهذه النقول عن الشيخ رشيد يفهم منها أنه يرى أن المصر على المعصية العامد لارتكابها . . .

إلى آخر الشروط التي شرطها يجعله بهذا كله مستحقاً للوعيد وإن كان لم يصرح بكفره أو بخلوده المطلق في النار ، وكلامه يدور على الأخير غالباً .

والصحيح أن الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة ليس لفظياً كما ذهب إليه محمد عبده بل هو خلاف حقيقي ، والأدلة دلت على أن الله سبحانه يغفر ذنوباً وإن مات أصحابها مصرين عليها غير تائبين فمن ذلك قول الله تعالى : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء ١١٦] قال شيخ الإسلام : فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء ولا يجوز أن يراد بذلك التائب ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة لأن الشرك يغفره الله لمن تاب ، وما دون الشرك يغفره الله أيضاً للتائب فلا تعلق بالمشيئة ، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾ فهنا عمم المغفرة وأطلقها فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه ، فمن تاب من الشرك غفر الله له ، ومن تاب من الكبائر غفر الله له ، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له ففي آية التوبة عمم وأطلق ، وفي تلك الآية خصص وعلق ، فخص الشرك بأنه لا يغفره ، وعلق ما سواه على المشيئة . . .)[1] .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ [غافر ٣] فإنه سبحانه قد فرق بين ذنوب يقبل توبة عبده منها وبين ذنوب يغفرها بإطلاق ،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ص ١٨٤ ، ١٨٥/ ١١ .

والواو في الأصل تقتضي المغايرة وهو واضح بحمد الله (١) كما جاء في حديث صحيح (٢) « أن رجلاً قتل نفسه بمشاقص (جمع مشقص وهو السهم العريض) فرآه الطفيل بن عمرو في الجنة بعيب في يده ، غفر له بهجرته ، فقص رؤياه على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : اللهم وليديه فاغفر » (٣) فهذا مات على معصية وهو من أهل الجنة بإخبار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فكيف يقال إن من أصر على معصية دخل النار !!

ولم يتنازع السلف في مثل هذه المسألة إلا في مسألة قتل النفس ففي الصحيحين عن سعيد بن جبير قال : أمرني عبد الرحمن بن أبزى أن أسأل ابن عباس عن هاتين الآيتين : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ فسألته فقال : لم ينسخها شيء، وعن ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر**﴾ [الفرقان: ٦٨] قال نزلت في أهل الشرك (٣) قال الحافظ (وقد حمل جمهور السلف وجميع أهل السنة ما ورد من ذلك على التغليظ ، وصححوا توبة القاتل كغيره ، وقالوا : معنى قوله : ﴿ **فجزاؤه جهنم** ﴾ أي إن شاء الله يجازيه تمسكاً بقوله تعالى في سورة النساء أيضاً : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ [١١٦] ومن الحجة في ذلك حديث الإسرائيلي الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أتى تمام المائة (فقال له : لا توبة فقتله فأكمل به مائة ثم جاء آخر فقال ومن يحول بينك وبين التوبة) الحديث وهو مشهور . . . وإذا ثبت ذلك لمن قبل هذه

---

(١) وكان هذا الدليل مما استدللت به على الشيخ أحمد الخليلي مفتي عمان عندما صرح بأن الذي يموت على المعصية مخلد في النار ، ولم يأت بجواب له .

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٠٨ - ١٠٩ - محمد فؤاد عبد الباقي) وقد ترجم له بـ (باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر) .

(٣) رواه البخاري ٨/٤٩٥ ونحوه في مختصر مسلم ص ٥٦٦ (تحقيق الألباني)

الأمة فمثله لهم ، أولا لما خفف الله عنهم من الأثقال التي كانت على من قبلهم) (١) ويقول الطحاوي رحمه الله : (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) .

قال الشارح : (وقوله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله إلى آخر كلامه رد على المرجئة فإنهم يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف ، فإنهم يقولون نكفر المسلم بكل ذنب ، أو بكل ذنب كبير ، كذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط إيمانه كله بالكبيرة ، فلا يبقى معه شيء من الإيمان لكن الخوارج يقولون : يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر ، والمعتزلة يقولون يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين ! ! وبقولهم خروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار ! . . .

ثم تكلم عن من يكفر بالاعتقادات البدعية ثم قال : وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات أمور عظيمة فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها أولئك) (٢) اهـ .

ويقول شيخ الإسلام : ومن العجب أن المعتزلة يفتخرون بأنهم أهل (التوحيد) و (العدل) وهم في توحيدهم نفوا الصفات نفياً يستلزم التعطيل والإشراق ، وأما (العدل) الذي وصف الله به نفسه فهو أن لا يظلم مثقال ذرة وأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره وهم يجعلون جميع محسنات العبد وإيمانه حابطاً بذنب واحد من الكبائر وهذا من الظلم

---

(١) انظر الفتح ص ٨/٤٦٦ .

(٢) انظر شرح الطحاوية ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

الذي نزه الله نفسه عنه فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه أولاً من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله) (١) اهـ .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عشرة أسباب موجبة لزوال عقوبة الذنب وهي التوبة والاستغفار والحسنات الماحية ودعاء المؤمنين للمؤمن وشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة ، والمصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا ، وما يحصل في القبر من الفتنة ، وأهوال يوم القيامة ، ورحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد .

وقد أفاض في شرحها في كتاب الإيمان (٢) ونقلها باختصار شارح الطحاوية (٣) وزاد عليها ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة ونحو ذلك .

فهذه النقول عن أهل العلم يتبين منها أمور

(الأول) أن الخلاف مع المعتزلة خلاف حقيقي لأنهم يجعلون إيمان العبد يزول بذنب يرتكبه وأما أهل السنة فلا يرون زوال الإيمان إلا بالكفر المحبط للعمل والإيمان .

(الثاني) أن نصوص الوعد لم تفرق بين عاص تائب وعاص غير تائب فهي تشمل المصر على الذنب كما تشمل غير المصر .

(الثالث) أن المصر على الذنب قد يقع ذنبه مغفوراً بسبب غير التوبة من الأسباب الماحية كما وقع ذنب ابن أبي بلتعة مغفوراً بسبب حسناته العظيمة

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ص ٤٩٣/ ٧ .

(٢) انظر الفتاوى ص ٤٨٧ - ٥٠١ / الجزء السابع .

(٣) انظر شرح الطحاوية ٣٦٧ - ٣٧١ .

لشهوده بدراً .

وأما الجواب عن دليله الذي أشار إليه وهو قوله تعالى : ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ (١) [البقرة : ٨١] .

فيقال إن السيئة لا تحيط بالعبد إحاطة لا يسعه الفكاك منها إلا إذا كانت الشرك ، لأن ما سواه مغفور بنص القرآن أو قابل للمغفرة فهو تحت المشيئة ، ويدل عليه الآيات قبلها في بني إسرائيل يقول شيخ الإسلام في الكلام على هذه الآية .

(وذكر أن المشهور أن (السيئ) الشرك ، وقيل الكبيرة يموت عليها قاله عكرمة ، قال مجاهد هي الذنوب تحيط بالقلب . . . .

وقول مجاهد صحيح ، كما في الحديث الصحيح : إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء » إلخ والذي يغشى القلب يسمى « ريناً » و« طبعاً » و « ختماً » و « قفلاً » ونحو ذلك ، فهذا ما أصر عليه و « إحاطة الخطيئة » إحداقها به فلا يمكنه الخروج ، وهذا هو البسل بما كسبت نفسه ، أي : تحبس عما فيه نجاتها في الدارين ؛ فإن المعاصي قيد وحبس لصاحبها عن الجولان في فضاء التوحيد ، وعن جني ثمار الأعمال الصالحة .

ومن المنتسبين إلى السنة من يقول : إن صاحب الكبيرة يعذب مطلقاً والأكثرون على خلافه ، وأن الله سبحانه يزن الحسنات والسيئات وعلى هذا دل الكتاب والسنة وهو معنى الوزن لكن تفسير السيئة بالشرك هو الأظهر ،

---

(١) من قوله تعالى ﴿ **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ [البقرة ٦٧] .

لأنه سبحانه غاير بين المكسوب والمحيط ، فلو كان واحداً لم يغاير ، والمشرك له خطايا غير الشرك أحاطت به لأنه لم يتب منها .

و « أيضاً » قوله (سيئة) نكرة ، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق (أيضاً) لفظ (السيئة) قد جاء في غير موضع مراداً به الشرك وقوله : (سيئة) أي حال سيئة أو مكان سيئة ونحو ذلك ، كما في قوله : ﴿ **ربنا آتنا في الدنيا حسنة** ﴾ أي حالاً محسنة تعم الخير كله ، وهذا اللفظ يكون صفة ، وقد ينقل من الوصفية إلى الاسمية يستعمل لازماً أو متعدياً يقال : ساء هذا الأمر أي قبح ، ويقال : ساءني هذا ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها** ﴾ عمل الشرك ، لأنه وصفهم بهذا فقط ، ولو آمنوا لكان لهم حسنات ، وكذلك لما قال : ﴿ **كسب سيئة** ﴾ لم يذكر حسناً كقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى** ﴾ [يونس : ٢٦] أي فعلوا الحسنة وهو ما أمروا به ، كذلك (السيئ) تتناول المحظور فيدخل فيها الشرك) «(١) اهـ .

ولعل الشبهة تكون قد انجلت بعد هذا التقرير من هذا الحبر العظيم رحمه الله . بقي أن يقال :

إن بعض الذنوب تدل على كفر صاحبها بلا تأويل ولا شبهة ، وهذا فيما يكون من الذنوب التي يمتنع معها وجود إيمان بالقلب .

يقول شيخ الإسلام : « ولا يتصور في العادة أن رجلاً يكون مؤمناً بقلبه ، مقراً بأن الله أوجب عليه الصلاة ، ملتزماً لشريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما جاء به ، يأمره ولي الأمر بالصلاة ، فيمتنع حتى يقتل ، ويكون

---

(١) انظر الفتاوى ص ٤٨ - ٥٠/ ١٤ . والشيخ رشيد نقل عن محمد عبده في تفسير آية البقرة هذه أنها في غير الشرك وأنه أنكر أن يكون المقصود بالخلود طول المكث لأنه باب تأويل ، وهذا ليس بمستغرب بعد ما نقلته من كلام في حكم المصرين .

مع ذلك مؤمناً في الباطن قط ، لا يكون إلا كافراً ، ولو قال : أنا مقر بوجوبها غير أني لا أفعلها كان هذا القول مع هذه الحال كذباً منه كما لو أخذ يلقي المصحف في الحش ويقول : أشهد أن ما فيه من كلام الله ، أو جعل يقتل نبياً ويقول أشهد أنه رسول الله ونحو ذلك من الأفعال التي تنافي إيمان القلب ، فإذا قال أنا مؤمن بقلبي مع هذه الحالة كان كاذباً فيما أظهره من القول » (١) اهـ .

ولعل الشيخ رشيد كان يقصد هذا النوع من الأعمال التي تدل على كفر صاحبها ويكون مصيباً في ذلك ومجانباً للصواب في جعل الخلاف لفظياً ، (٢) غفر الله لنا وله .

التحسين والتقبيح :

من المسائل التي أثيرت قديماً وحديثاً مسألة التحسين والتقبيح ويقصد بها ما الذي يحدد حسن الأشياء وقبحها هل هو الشرع أو العقل .

فالمعتزلة يجعلون التحسين والتقبيح عقلياً فهم يرون أن العقل يستقل بمعرفة حسن الشيء وقبحه وأخذوا يقيسون على ذلك فذهبوا يوجبون على الله تعالى فعل الأصلح في عقولهم ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد (٣) وفي حق البشر يحكمون ثواب وعقاب من وافق أو خالف حكم العقل وإن كان قبل ورود الشرع وكنتيجة لذلك ظهر رد فعل معاكس من الأشاعرة فذهبوا إلى أن التحسين والتقبيح شرعي محض ، فالله سبحانه

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ص ٦١٥ - ٦١٦/ ٧ .

(٢) وهو يشابه شارح الطحاوية في ذلك لما جعل الخلاف بين أهل السنة ومرجئة الفقهاء في الإيمان لفظياً لا حقيقياً حرصاً على عدم الفرقة (انظر الطحاوية ص ٣٧٩) .

(٣) انظر ٩/ ٩١ من مجموع الفتاوى .

يتصرف في ملكه كيف يشاء ولو عذب المطيع وأثاب العاصي لكان حسناً وكذلك أفعال البشر لا توصف بالحسن والقبح بأدلة عقلية فلا فرق بين الزنا والزواج من ناحية العقل إلا أن الله سبحانه حرم هذا فصار قبيحاً وأحل هذا فصار حسناً .

وأهل السنة والجماعة وسط بين هذين القولين ، فلا هم يعطون للعقل أكبر من مجاله كما لا ينفون ثواب وعقاب الشارع ولا يوجبون على الله سبحانه شيئاً ولا يحرمون عليه شيئاً ويثبتون ما ورد في النصوص أن الله حرمه على نفسه كالظلم وأوجبه على نفسه كحق العباد عليه والسيد رشيد رضا على مذهب أهل السُنة في ذلك والحمد لله .

يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء . . .** ﴾ [المائدة ٤٠] .

« واستدل الرازي وأمثاله بالآية على مذهب الأشاعرة القائلين بأنه يحسن من الله تعالى أن يعذب التائبين المصلحين والنبيين الصديقين ، ولو بتخليدهم في النار ويرحم المفسدين الظالمين ولو بتخليدهم في الجنة ، ووجه الدلالة عندهم أنه تعالى ناط التعذيب والرحمة بالمشيئة ورتبه على كونه مالك الملك والمالك يتصرف في ملكه كما يشاء ، وما حسن لهم هذا القول واستنباط مثل هذا الدليل له إلا توجه ذكائهم وفهمهم إلى الرد على من نقلوا عنهم من المعتزلة أنه يجب عليه تعالى أن يفعل ما هو الأصلح لعباده .

فإن كان قد قال هذا القول أحد فهو مخطىء وقليل الأدب ، لأنه يوهم أن هناك سلطاناً فوق سلطان الله يوجب عليه وإن كان لا يريد ذلك .

ولكن الأشاعرة لا يستطيعون أن ينكروا ولا أن يتأولوا ما ثبت في الكتاب والسنة من أن الله تعالى يوجب على نفسه ما يشاء مثلاً يكون ذلك نافياً لكونه

صاحب الملك والتدبير ولا لتقييد مشيئته بسلطة سواء ولا هم ينكرون أن مشيئته لا تكون إلا على حسب علمه و حكمته و أنه لا يمكن أن تكون معطلة لصفة من صفاته .

فإذا لا وجه للقول بأن مقتضى الملك أن يكون كل عمل يعمله المالك حسنا من حيث إنه المالك ، إذ الأمر في الشرع و العقل و العرف ليس كذلك ، فالذي يملك عدة عبيد فيظلم المحسن منهم بالضرب و الإهانة بغير ذنب منه ، ويحسن إلى الكافر المسيء المفسد في داره و ملكه يعد ظالما مذموما شرعاً وعقلا ولغة وعرفا .

وأماكون ما يفعله الله تعالى فهو حق وحسن وليس سببه أنه المالك وكون المالك يحسن منه كل تصرف في ملكه من حيث إنه المالك ، بل لأنه تعالى منزه عن الظلم والنقص متصف بالحكمة والعدل والرحمة والفضل فتقديسه وتنزيهه وكماله يتجلى في أسمائه الحسنى كلها لا في اسم الملك والمالك والمريد فحسب . . . .)(١) اهـ .

وقال في تفسير قوله تعالى : **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** [الأنعام : ١٢٥] .

ونزاعهم الطويل العريض في مسألة الحسن والقبح والتحسين والتقبيح مبني على ذلك فالغلاة في إثباتها قالوا إن في كل فعل يقع التكليف به فعلاً أو تركاً حسناً أو قبحاً ذاتياً يعرف بالعقل ويأتي الشرع بالأمر كاشفاً لحسن المأمور به وبالنهي كاشفاً لقبح المنهي عنه ولا يكون شيء حسناً بمجرد الأمر ولا قبيحاً بمجرد النهي ، والغلاة في نفيها قالوا لا حسن ولا قبح ذاتياً في شيء من الأشياء

---

(١) انظر المنار ٦/ ٣٨٣٤ .

يكون مناط التكليف وسببه وسبب ما يترتب عليه من الثواب والعقاب وإنما ذلك بالشرع وحده ، فالعدل والصدق والصلاة والصيام لا حسن فيها لذاتها بل الأمر بها هو الذي جعلها حسنة ، وكذلك الظلم والكذب والسكر لا قبح فيها لذاتها بهذا المعنى بل عرف قبحها بالشرع وأنه يجوز أن يأمر الرب بما نهى عنه وينهى عما أمر به ولو فعل ذلك لكان الجور والكذب حسناً والعدل والصدق قبيحاً وكذلك العبادات كلها لأنه يفعل مايشاء ويحكم بما يريد والقول الأول أقرب إلى المعقول والمنقول ولكن وقع كثير من القائلين به في الإفراط والغلو . فالقول الوسط الذي عليه المعتدلون الجامع بين النصوص أن صفات الله تعالى لاتعارض بينها فلا تتعلق مشيئته تعالى بما ينافي حكمته وعدله ورحمته ، وحكمته لا تقتضي تقييد مشيئته بما نفهمه ونعقله نحن منها بحيث نوجب عليه بعض الأوامر والأفعال ونحظر عليه بعضها ، وإنما نعتقد أن كل ما يأمر به فهو حسن وأنه لايأمر إلا بما هو حسن ولا ينهى إلا عما هو قبيح كما قال : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ [النحل : ٩٠] وقال : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ [الأعراف : ٢٨] وهذا احتجاج على المشركين والمراد فيه بالفحشاء والفاحشة معناه اللغوي وهو ما عظم قبحه ، ولأجله نهى عنه وحسن العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى متفق عليه بين العقلاء ولأجله أمر به ولكن الأمر بالشيء قد يكون لما في نفس ذلك الشيء من الحسن والمنفعة وقد يكون ابتلاء للعبد لأجل القيام به لمحض الامتثال والطاعة وهذه مصلحة ومنفعة حسنة لكن حسنها ليس في ذاتها بل في شيء خارج عنها ، ومنه أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح

(١) انظر المنار ٦/ ٣٨٣٤ .

ولده وجميع الأفعال التي يسميها الفقهاء تعبدية ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى في تعليل الأمر بإقامتها فحسنها ذاتي لها لأنها سبب لذلك من حيث هي مناجاة لله تعالى وذكر ومراقبة له ولكن فيها ما لا يدرك العقل حسنه في ذلك كعدد الركعات والركوع .والسجود فيها ، وإن جوز أن يكون له حكمة عند الله تعالى فوق مجرد تعبدنا به . وقد شبه الغزالي هذه الحكمة بحكمة الطبيب في تفاوت مقادير أجزاء الدواء المركب من عدة أجزاء وما ينبغي للمريض من التسليم له بذلك وإن لم يعرفه . والخمر والميسر فيهما إثم كبير وأكبره أنهما يسهلان للشيطان إيقاع العداوة والبغضاء بين السكارى والمقامرين بعضهم مع بعض ومع غيرهم ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة وهذه قبائح ذاتية فيهما)(١) اهـ .

وهو كلام سديد يدل على حسن معتقد وفهم جيد ، وأود أن أثبت هنا بعض التفصيل في المسألة ، فإن من الدوافع التي أدت بالمتكلمين إلى ذلك هو اختلافهم في الظلم الذي حرمه الله على نفسه ، فبعضهم وهم المعتزلة جعلوا الظلم منه نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوا أفعاله بأفعال عباده ولم يجعلوا له المثل الأعلى وقالوا إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالماً ، وأنه إذا أمر العبد ولم يعنه بما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالماً له فالتزموا أنه لا يقدر على أن يهدي ضالاً كما قالوا إنه لا يقدر أن يضل مهتدياً والفريق الآخر ذهب إلى أن الظلم منه ليس حقيقة لها وجود بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدوراً ولا أن يقال إنه تارك له باختياره ومشيئته .

---

(١) انظر التفسير ٨/ ٥٤ - ٥٦ ، وهو قريب من كلام محمد عبده في رسالة التوحيد ص ٧٨ - ٨٨ .

ويقول في هذا ابن القيم في نونيته

والظلم عندهم المحال لذاته أنى ينزه عنه ذو السلطان

ويكون مدحاً ذلك التنزيه ما هذا بمعقول لذي الأذهان

وأما أهل السنة والجماعة فقولهم وسط بين طرفين كما أن أمة الإسلام وسطاً بين الأمم فلم يوجبوا على الله بعقولهم شيئاً ويقولون إن الظلم ليس بممتنع على الله سبحانه وإنما تنزه عنه سبحانه لكمال عدله ودقيق لطفه واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً** ﴾ [طه : ١١٢] .

قال المفسرون : لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير ولا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات ، فهذا لا يتصور خوفه ، ومثل ذلك يقال في الآيات ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ [الكهف : ٤٩] ، ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [النساء : ٤٠] ، وكذلك استدلوا بقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما يرويه عن ربه : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي . . . . »(١)

فهو يدل على أن الله سبحانه حرم الظلم على نفسه وليس ذلك بممتنع عليه سبحانه وهو نظير قوله تعالى : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وأهل السنة كذلك في أفعال العباد يرون أن التحسين والتقبيح ليس كما

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه (مختصر المنذري ص ٤٨٣ برقم ١٨٢٨) .

تقول المعتزلة عقلياً محضاً وهو ليس كما يقول الأشاعرة شرعياً محضاً بل إن العقل قد يدرك حسن وقبح بعض الأشياء ، ولكن ترتب الثواب والعقاب إنما يكون من الشرع لا من العقل . وبذلك فهم وسط أيضاً بين طرفين .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

قال المفسرون (١) إن الفحشاء المذكوره لأنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ويزعمون أنه لا يطوف الإنسان في ملابس عصى الله فيها فسمى الله ذلك فاحشة .

والدلالة في قوله : ﴿ **إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ لأن الأشاعرة تقول لما نهى الله عنها صارت فاحشة ، وظاهر الآية أن الله لم ينه عنها لأنها فحشاء عند المخاطبين فعلم أن كونها فحشاء معروفة بالفطرة والعقل ولا يتوقف على مجيء الشرع فقط قال شيخ الإسلام :

(فإن الله نزه نفسه عن الفحشاء . فقال : ﴿ **إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ كما نزه نفسه عن التسوية بين الخير والشر فقال : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ [الجاثية : ٢١] وقال : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟** ﴾ وقال : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ [ص : ٢٨] وعلى قول النفاة : لا فرق في

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٠) ط دار الفكر .

التسوية بين هؤلاء وهؤلاء ، وبين تفضيل بعضهم على بعض ، ليس تنزيهه عن أحدهما بأولى من تنزيهه عن الآخر ، وهذا خلاف المنصوص والمعقول)(١) أهـ

وكذلك أخبر الله سبحانه عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول أي قبل ورود الشرع كقوله لموسى : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ [النازعات - ١٧ - ١٩] وأما الآيات والأدلة الناطقة على أن الله لا يعذب إلا بذنب وبعد بلوغ الحجة فكثيرة كقوله تعالى : ﴿ **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا** ﴾ [القصص - ٥٩ -] وقوله : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [النساء- ١٦٥] وقوله : ﴿ **كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير** ﴾ [الملك - ٩ -] قال شيخ الإسلام :

(وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئاً وقبحاً وشراً ، ولكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسل : هذا قول الجمهور .

وقيل : إنه لا يكون قبيحاً إلا بالنهي ، وهو قول من لا يثبت حسناً ولا قبيحاً إلا في الأمر والنهي ، كقول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة وأصحاب مالك والشافعي وأحمد كالقاضي أبو يعلى وأبي الوليد الباجي ، وأبي المعالي الجويني وغيرهم ، والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسل من الشرك والجاهلية شيئاً قبيحاً وكان شراً ، لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول . ولهذا كان للناس في الشرك

---

(١) انظر الفتاوى ٨/ ٤٣ .

والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك « ثلاثة أقوال »

قيل : إن قبحها معلوم بالعقل ، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك في الآخرة ، وإن لم يأتهم الرسول ، كما يقوله المعتزلة ، وكثير من أصحاب أبي حنيفة ، وحكوه عن أبي حنيفة نفسه ، وهو قول أبي الخطاب ، وغيره .

و « قيل » : لا قبح ، ولا حسن ، ولا شر فيهما قبل الخطاب ، وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل ، والحسن ما قيل فيه افعل ، أو ما أذن في فعله كما تقوله الأشعرية ، ومن وافقهم ، من الطوائف الثلاثة .

وقيل: إن ذلك سيء ، وشر ، وقبيح قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لكن العقوبة إنما تستحق بمجيء الرسول . وعلى هذا عامة السلف ، وأكثر المسلمين ، وعليه يدل الكتاب والسنة فإن فيهما بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح ، وسيء قبل الرسول وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم) (١)

وقال أيضا : (وقد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع (أحدها) : أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة ، ولو لم يرد الشرع بذلك ، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم ، والظلم يشتمل على فسادهم ، فهذا النوع هو حسن وقبيح ، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن، لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة ، إذ لم يرد شرع بذلك وهذا مما غلط فيه غلاة

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١١/ ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، وانظر المسألة أيضا ٨/ ٩٠ ، ٩١ من مجموع الفتاوى ، ٣/ ١١٤ - ١١٦ مجموع الفتاوى ، شرح النونية لابن عيسى (ص ٥٨ - ٦٤/ ١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٣ وما بعدها مدارج السالكين ١/ ٢٣١ ، ٢٣٧ .

القائلين بالتحسين والتقبيح ، فإنهم قالوا : إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ، ولو لم يبعث إليهم رسولاً . وهذا خلاف النص قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ [الإسراء - ٢٥ -] وقال تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [النساء - ١٦٥ -] وقال تعالى : ﴿ **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ، يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ [القصص - ٥٩ -] .

وقال تعالى ﴿ **كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ ! قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** ﴾ [الملك: ٨-١٠] .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : « ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » والنصوص الدالة على أن الله لا يعُذب إلا بعد الرسالة كثيرة ترد على من قال من أهل التحسين والتقبيح : أن الخلق يعذبون في الأرض بدون رسول أرسل إليهم .

(النوع الثاني) : أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً ، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً ، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع .

و (النوع الثالث) : أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد ، هل يطيعه أم يعصيه ! ولا يكون المراد فعل المأمور به كما أمر إبراهيم بذبح ابنه ، فلما أسلما وتله للجبين حصل المقصود ففداه بالذبح ، وكذلك حديث أبرص وأقرع وأعمى ، لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة ، فلما أجاب الأعمى قال الملك : أمسك عليك مالك ، فإنما ابتليتم ، فرضي عنك ، وسخط على صاحبيك .

فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به ، وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه المعتزلة ، وزعمت أن الحسن والقبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك ، بدون أمر الشارع ، والأشعرية ادعوا : أن جميع الشريعة من قسم الامتحان ، وأن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع ، وأما الحكماء والجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة ، وهو الصواب) (١) أهـ

دار الحرب ودار الإسلام : (*)

من المسائل الشائكة التي تعرض لها الشيخ رشيد رضا في مناره مسألة دار الحرب ودار السلام وحدود كل منهما لا سيما مع اختلاف الموازين والمعايير في هذا العصر . وأنقل هنا كلامه ثم أتعقبه ببعض التوضيح ففي تفسير سورةالتوبة آية (٢٩) : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾ الآية

عقد فصلاً عن دار الإسلام والعدل ودار الحرب والبغي وحقوق الأديان والأقوام في عصره جاء فيه :

(جرى اصطلاح فقهاء المسلمين على تسمية البلاد التي تنظم في سلك دولتهم وتنفذ فيها شريعتهم باسم (دار الإسلام ودار العدل) لأن العدل واجب فيها في جميع أهلها بالمساواة ، ويسمون ما يقابلها (دار الحرب) ولكل منهما أحكام مبسوطة في كتبهم ، ويسمى أهل دار الحرب « الحربيين » إن كانوا معادين مقاتلين للمسلمين ، « والمعاهدين » إن كان بين الفريقين عهد وميثاق على السلم وحرية المعاملة في التجارة وغيرها وإن خرج على إمام المسلمين

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٨/ ٤٣٤ - ٤٣٦ .

(*) سيأتي في نهاية هذا المبحث سبب إيراده خلال مباحث الكلام على عقيدته .

طائفة منهم سموا البغاة ، فإن أسسوا حكومة تغلبوا بها على بعض البلاد سموا المتغلبين أو المتغلبة وتسمى دار الإسلام في مقابلة ذلك بدار العدل ، ولكل دار أحكام ، فأين دار الإسلام ؟ تقدم آنفاً أن الحربيين إذا هاجموا دار الإسلام واستولوا على شيء منها صار القتال فرضاً عينياً على المسلمين فإذا أعلن الإمام النفير العام وجب على كل فرد منهم أن يطيعه بما يقدر عليه من الجهاد بنفسه وبماله ، ويجب طاعته فيما دون ذلك بالأولى كأن يستنفر بعضهم دون بعض ، ويفرض المال الناطق والصامت على بعض الناس دون بعض ، على ما يجب عليه في هذا وغيره من مراعاة العدل . وهذا الحكم هو الذي يجري عليه الدول الأوربية وغيرها في هذا العصر ، وإنما أعدنا ذكره لنذكر المسلمين وغير المسلمين من العارفين بأحكام الإسلام بأن السكوت عن هذه المسألة لا يمكن أن يطول بعد أن استيقظ العالم الإسلامي كغيره من شعوب الشرق من رقاده الطويل وطفق يبحث في ماضيه وحاضره ، وما ينبغي أن يكون عليه الأمر في مستقبله ، وهاتف الإيمان يهتف في أعماق سريرته مذكراً إياه بما أوجبه الله عليه من إعادة تلك الدار الواسعة ، أو الممالك الشاسعة وإقامة تلك الشريعة العادلة ، وإحياء تلك الهداية الشاملة لتضيء للبشر الطريق للخروج من ظلمات هذا الاضطراب النفسي ، والفوضى الاجتماعية والسرف الشهواني ، التي أحدثتها الأفكار المادية ونزعات الإلحاد والحكم البلشفي الذي هو شر نتائجها ، فقد عجزت بقايا هداية النصرانية عن صد غشيان هذه الظلمات لأعظم ممالكها . بعد أن ثارت سحبها من أفق مدارسها . فكيف تقوى على تقشيع هذه السحب بعد تكاثفها وقد كانت هي نفسها من أسباب حدوثها (١)

---

(١) انظر التفسير ١٠/ ٣٦٨ - ٤٦٩ .

ثم أخذ يتكلم عن الخلافة العثمانية وصرح بأن زوالها كان نافعاً لا ضاراً !!! لأنها كانت هيكلاً وهمياً خادعاً للمسلمين باتكالهم عليه .

ثم تكلم عن الجامعة الإسلامية وأنها لم تكن أمراً واقعاً بالفعل ثم تكلم عن الناحية الفقهية فقال :

وأهم المسائل الإسلامية التي تدور في هذا العهد بين كبار عقلاء المسلمين من جميع الأقطار ويتهامسون بها سراً - مسألة (دار الإسلام) التي يفترض على العالم الإسلامي كله الجهاد بالنفس والمال والعلم والعمل لإعادتها ، وأرى أنه يجوز لي أن أفشي الأن من سرها ما يعين على تمحيصها ، فأقول إن لهم فيها أربعة آراء :

(١) الرأي الأول - وهو أقرب الآراء إلى نصوص جمهور الفقهاء أن كل ما دخل من البلاد في محيط سلطان الإسلام ونفذت فيها أحكامه وأقيمت شعائره ، فقد صار من (دار الإسلام) ووجب على المسلمين عند الاعتداء عليه أن يدافعوا عنه وجوباً عينياً كانوا كلهم آثمين بتركه ، وأن استيلاء الأجانب عليه لا يرفع عنهم وجوب القتال لا سترداده وإن طال الزمان ، فعلى هذا الرأي يجب على مسلمي الأرض إزالة سلطان جميع الدول المستعمرة لشيء من الممالك الإسلامية وإرجاع حكم الإسلام إليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وعجزهم الآن عن ذلك لا يسقط عنهم وجوب توطين أنفسهم عليه ، وإعداد ما يمكن من النظام والعدة له ، وانتظار الفرص للوثوب والعمل .

وهذا الرأي يوافق القاعدة التي وضعها أحد وزراء الإنكليز للتنازع بين المسلمين والنصارى في الغلب والسلطان وهي (ما أخذ الصليب

من الهلال لا يجوز أن يعود إلى الهلال ، وما أخذ من الصليب يجب أن يعود إلى الصليب)

وعلى هذا الرأي يجري اليهود الذين يطالبون بإعادة ملك إسرائيل إلى بلاد فلسطين ، بل هم لا يكتفون بإعادة المُلك (بضم الميم) بل يطلبون جعل الملك (بالكسر) وسيلة له فهم يحاولون سلب رقبة الأرض من أهلها العرب بمساعدة الإنكليز .

ونحن معاشر المسلمين ننكر على الإنكليز واليهود ما ذكر ، ونعده غلواً وبغياً وأثرة منهم ، ومن قلة الإنصاف أن نرضى لأنفسنا ما ننكره على غيرنا . دع ما في الدعوة إلى هذا المطلب الكبير ، من الغرور والتغرير .

(٢) الرأي الثاني : أن (دار الإسلام) ما كان داخلاً في حكم الخلافة الإسلامية الصحيحة وهي خلافة الراشدين والأمويين والعباسيين جميعاً دون غيره مما فتحته دول الأعاجم ولم ينفذ فيه حكم خليفة قرشي . وهذا الرأي قريب مما قبله في بعده عن المعقول ، على نزاع في دليله من المنقول .

(٣) الرأي الثالث : أن (دارالإسلام) الحق هي ما فتح فتحاً إسلامياً روعي في حربه وسلمه دعوة الإسلام وجزيته وصلحه وتنفيذ حكم الله فيه وإعلاء كلمته وإقامة الحق والعدل في الناس كلهم ، ولا يمكن الجزم بذلك إلا فيما فتحه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ كان الغالب على من كان بعدهم طلب الملك والتمتع بالسلطان والنعيم . فالواجب على جميع المسلمين أن يسعوا لإعادة هذه البلاد إلى حكم الإسلام الحق بأن يضع عقلاؤهم لذلك

نظاماً يدعون إليه دعوة عامة ويجمعون المال الذي يمكنهم من السعي إليه .

(٤) الرأي الرابع : أن (دار الإسلام) قسمان (الأول) مهده ومشرق نوره ومصدر قوته ، وموطن قوم الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وسلم وهو من العرب (والثاني) بيئة حضارته العربية ومظهر عدالته التشريعية ، وينبوع حياته الاقتصادية وهو سورية الشاملة لفلسطين ، والعراق العربي ومصر وإفريقية وهذه الأقطار هي التي عمت فيها لغة الإسلام العربية ورسخت فنسخت ما كان فيها من لغات أخرى) . أهـ

ثم تكلم عن دارالسلام الدينية في جزيرة العرب وكيف أن من حكمة الله أن لا يبقى فيها كافر بالحرمين وهي أن تبقى دار سلام دون أن تمنح إليها الحماية الصليبية المزعومة ، ثم تكلم على السعي لإعادة دار الإسلام والحكومة الإسلامية سعياً سرياً تقوم به جمعيات دينية وسياسية وخيرية توحد جهودها كلها إلى غرض واحد لا يعرف حقيقته إلا أفراد قليلون من القائمين (١)

والأمر الجهري هو السعي من المسلمين بمختلف شعوبهم للعمل على صيانة الحجاز من النفوذ الأجنبي ، وسئل الشيخ رشيد عن أهل بلاد روسيا يوم أن كانت قيصرية ، فسئل هل هي دار حرب أو إسلام فأجاب بكلام جيد رأيت أن إثباته في هذا البحث مما يعطي تصوراً أبعد لفقه رشيد رضا وعقليته ، فهو لم يكن جامداً على نصوص الفقهاء الاجتهادية بل أوسع مجال إعمال العقل في

---

(١) ولعل هذا يوضح سبب ما ذكرته آنفاً من انضمام السيد رشيد رضا إلى كثير من الجمعيات السياسية التي اتهمت فيما بعد بإسقاط الخلافة العثمانية

متطلبات العصر فيما لانص فيه ويتجلى ذلك من فتواه هذه حيث قال : (انظر فتاوى الإمام رشيد رضا ١/ ٣٧٢) « قد اختلفت عبارات الفقهاء والمحدثين في تعريف دار الحرب ودار الإسلام فلا جرم أن الذين يأخذون العلم من الألفاظ يختلفون في تطبيق تلك الأقوال على كل دار وكل مملكة فيمكن أن يقال أن بعض البلاد التي لا يوجد فيها مسلم أصلي ، ولا حكم فيها للإسلام أنها دار إسلام بناء على قول بعضهم أن دارالإسلام هي ما يمكن المسلم إظهار دينه فيها ولا يخاف فتنة في دينه ، فأكثر بلاد أوربا وأمريكا كذلك ولكنها ليست دار إسلام، وأن كثيرا من البلاد التي حكامها مسلمون يفتن المرء فيها عن دينه فلا يقدر على إظهار جميع ما يعتقد ولا أن يعمل بكل ما يجب عليه لاسيما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانتقاد الأحكام المخالفة للشرع ، فهي على قول بعضهم دار حرب ، والذي يؤخذ من مجموع الأقوال التي يعتد بها أن العبرة بظهور الكلمة ونفوذ الحكم ، فإذا كانت الأحكام لأهل الإسلام لا معارض لهم في تنفيذ شريعتهم وإظهار دينهم وكان غيرهم آمناً في سربه بتأمينهم ، حراً في دينه بسلطتهم وحمايتهم ، فالدار التي هذا شأنها دار إسلام وإلا فهي دار كفر وحرب . . . » أهـ . محل الغرض منه (وانظر كذلك ص ٤٢ من كتابه الخلافة)

وهذه الفتاوى في الحقيقة يحتاجها كثير من المنتسبين للدعوة في هذا العصر .

ويمكن مع شيء من التعديل أضيف فأقول :

كون الدار هي دار إسلام أو دار كفر ليس فيه نص قاطع من كتاب أو سنة وإنما هي اجتهادات فقهاء موافقة لعصورهم بمعنى أن الذي قسم فقال دار إسلام أو دار كفر كان على وقته مقياس واضح لدار الإسلام فوجد عندئذ قسيمها

وهي دار الكفر، أما في هذا الزمن لا نجد هذه المقاييس السابقة واضحة، فتطبيق الأحكام المبينة على الدور السابقة على دور القرن العشرين (إن صح أن نسميها هكذا) هو ظلم للفقهاء السابقين في الواقع، وهو أيضًا عجز منا عن أن نوجد الحلول الإسلامية الصحيحة .

فما الحل إذن ؟؟

الحل هو تطبيق القواطع والأصول العامة فالمسلم يحكم بإسلامه في أي دار كان ويعطى أحكام الإسلام كذلك .

والكافر يعامل بكفره في أي دار كان ويعطى أحكامه كذلك (١) والدعوة إلى الله سبحانه وإلى شريعته واجبة في كل الدور ، وعلى المسلمين أن ينهضوا لتكون كلمتهم مسموعة في دورهم من خلال الأساليب الشرعية ، والوسائل النبوية .

ونطبق آيات الجهاد في حالة الاستضعاف كما طبق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم آيات الجهاد المكية بمكة نحو ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ [الشورى - ٤١ -]

ونطبق آيات القتال في حالة القوة كما كانت سنة النبي صلى الله عليه

---

(١) ولشيخ الإسلام فتوى بهذا المعنى ، انظر مجموع الفتاوى (٢٨ / ٢٤٠) ، حيث سئل عن حكم بلد تسمى ماردين فأجاب بجواب مختصر وفيه : « وأما كونها دار حرب أوسلم ، فهي مركبة ، : فيها المعنيان، ليست بمنزلة دار السلم التي يجري عليها أحكام الإسلام، لكون جندها غير مسلمين، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار ، بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه ، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه » أهـ

وعلى آله وسلم في المدينة وكل هذا مبني على أن الراجح أن آية السيف لم تنسخ ما قبلها وإنما خصصت (١) ، فيعمل بهدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حالة الشدة كما يعمل بها في حالة الوسع والرخاء

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) أن الأمر بالجهاد يختلف بحسب الاستطاعة فيصار إلى الآيات المكية من الموادعة والصفح في القتال حالة ضعف المسلمين ، وإلى الآيات المدنية من القتل والقتال في حالة قوة المسلمين ، يعني حسب التفصيل الذي لا يتحطم به كيانهم .

هذا ما أحببت أن أسطره في هذا البحث (٣) ، وأعرف أنه لا يوافق رأي كثيرين من الدعاة ، ولكل رأي ووجهة ، والله يجمع بين أهل الإسلام على الخير والبركة .

وقد رأيت أن أضع هذه الفتوى عند الكلام على عقيدته ، وإن كانت ليست من أصول عقيدة أهل السنة ، إلا أنني رأيت الشيخ رشيد قد بنى عليها مسألتي الحكم بغير ما أنزل الله ، ومسألة الخروج على الأئمة ، ولما تعرضت

---

(١) انظر كلام الزركشي في البرهان (٢/ ٤١ ، ٤٢) ، والسيوطي في الإتقان (٣/ ٦٦) وانظر ص ١٤٨ وما بعدها من كتاب : « أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية » .

(٢) يقول شيخ الإسلام « . . فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف ، أوفي وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الذين أوتوا الكتاب والمشركين ، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» انظر ص ٢٢١ من الصارم المسلول ، وقريب من هذا كان كلام الشوكاني في السيل الجرار .

(٣) وهذا لا يبعد كثيراً عما ارتضاه د/ القادري في كتابه « الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته » ص ٥٥٩ ود علي العليان في كتابه « أهمية الجهاد » ص ٣٦٢ ، إلا أنهما حفظهما الله لم يشيرا إلى اختلاف العصر على ما قدمته والله أعلم .

لهما في بحثي أحببت أن أقدم كلامه في أحكام الدور حتى يتضح مراده في المسألتين والله أعلم .

الحكم بغير ما أنزل الله :

من المسائل المهمة التي افترق فيها الناس قديماً وحديثاً مسألة الحكم بغير ما أنزل الله ، وقد وردت في القرآن آيات تكفر من لم يحكم بما أنزل الله ، وفسرها بعض السلف بكفر دون كفر .

وقد عقد الشيخ رشيد مبحثاً مطولاً في ذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ [المائدة - ٤٤ -] وأنقل منه نبذاً توضح مراده منها . قال :

[الكفر والظلم والفسق كلمات تتوارد في القرآن على حقيقة واحدة وترد بمعانٍ مختلفة ، كما بيناه في تفسير ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ من سورة البقرة، وقد اصطلح علماء الأصول والفروع على التعبير بلفظ الكفر عن الخروج من الملة وما ينافي دين الله الحق . دون لفظي الظلم والفسق ، ولا يسع أحداً منهم إنكار إطلاق القرآن لفظ الكفر على ماليس كفراً في عرفهم ، ولكن يقولون « كفر دون كفر» ولا إطلاقه لفظي الظلم والفسق على ما هو كفر في عرفهم ، وما كل ظلم أو فسق يعد كفراً عندهم بل لا يطلقون لفظ الكفر على شيء مما يسمونه ظلماً أو فسقاً ، لأجل هذا كان الحكم القاطع بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله محلاً للبحث والتأويل عند من يوفق بين عرفه ونصوص القرآن] (١) أهـ

وقال : (وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والأحكام نحو ما

(١) انظر التفسير ص ٤٠٣ / ٦ .

استحدث الذين من قبلهم وتركوا بالحكم بها بعض ما أنزل الله عليهم .

فالذين يتركون ما أنزل الله في كتابه من الأحكام من غير تأويل يعتقدون صحته فإنه يصدق عليهم ما قال الله تعالى في الآيات الثلاث أو في بعضها ، كل حسب حاله .

فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا غير مذعن له لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعًا ومن لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم إن كان في ذلك إضاعة الحق أو ترك العدل والمساواة فيه ، وإلا فهو فاسق فقط ، إذ لفظ الفسق أعم هذه الألفاظ فكل كافر وكل ظالم فاسق ، ولا عكس ، وحكم الله العام المطلق الشامل لما ورد فيه النص وبغيره مما يعمل بالاجتهاد والاستدلال هو العدل ، فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله - كما قال أحد الأعلام ولكن متى وجد النص القطعي الثبوت والدلالة لا يجوز العدول عنه إلى غيره إلا إذا عارضه نص آخر اقتضى ترجيحه عليه ، كنص رفع الحرج في باب الضرورات)] (١) أهـ

ثم نقل فتوى له في ذلك جواباً على مسألة الحكم بالقوانين الإنكليزية في الهند وأنا أنقلها بطولها لفائدتها الجمة ثم أعقبها ببعض النقول التي تؤيد بعض ما فيها .

قال : [إن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر ، كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم وحكم الحاكمين بها والفرق بين دار الحرب ودار الإسلام فيها . وإننا نرى كثيراً من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الأهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذاً بظاهر قوله

---

(١) انظر التفسير ص ٤١٥ / ٦ .

تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ويستلزم الحكم بتكفير القاضي الحاكم بالقانون تكفير الأمراء والسلاطين الواضعين للقوانين فإنهم وإن لم يكونوا ألفوها بمعارفهم فإنها وضعت بإذنهم وهم الذين يولون الحكام ليحكموا بها ويقول الحاكم من هؤلاء : أحكم باسم الأمير فلان لأنني نائب عنه بإذنه ويطلقون على الأمير لفظ (الشارع) .

أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين بل لم يقل به أحد قط فإن ظاهرها يتناول من لم يحكم بما أنزل الله مطلقاً سواء حكم بما أنزل الله تعالى أم لا ، وهذا لا يكفره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفرون الفساق بالمعاصي ومنها ما أنزل الله ، واختلف أهل السنة في الآية فذهب بعضهم إلى أنها خاصة باليهود وهو ما رواه سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما أنزل الله : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، والظالمون ، الفاسقون** ﴾ في اليهود خاصة ، وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : الثلاث الآيات التي في المائدة ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ إلخ ليس في أهل الإسلام منها شيء في الكفار . وذهب بعضهم إلى أن الآية الأولى التي فيها الحكم بالكفر للمسلمين والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود، والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى ، وهو ظاهر السياق وذهب آخرون إلى العموم فيها كلها ويؤيده قول حذيفة لمن قال إنها كلها في بني إسرائيل : نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن سبيلهم قد الشراك رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصححه ، وأول هذا الفريق الآية بتأويلين :

فذهب بعضهم إلى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا معناه الشرعي الذي هو الخروج من الملة واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه

والبيهقي في السنن عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال في الكفر الواقع في إحدى الآيات الثلاث إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه إنه ليس كفراً ينقل عن الملة كفر دون كفر .

وذهب بعضهم إلى أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكراً له أو راغباً عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لا يجامع الإيمان مع الإذعان .

ولعمري أن الشبهة في الأمراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر ، وهذا التأويل في حقهم لا يظهر ، وإن العقل ليعسر عليه أن يتصور أن مؤمناً مذعناً لدين الله يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكما ثم هو يغيره باختياره ويستبدل به حكماً آخر بإرادته إعراضاً عنه وتفضيلاً لغيره عليه ويعتمد مع ذلك بإيمانه وإسلامه . والظاهر أن الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم أن يلزموه بإبطال ما وضعه مخالفاً لحكم الله ، ولا يكتفوا بعدم مساعدته عليه ومشايعته فيه ، فإن لم يقدروا فالدار لا تعتبر دار إسلام فيها يظهر ، وللأحكام فيها حكم آخر ، وهنا يجيء سؤال السائل . وقبل الجواب عنه لابد من ذكر مسألة يشتبه الصواب فيها على كثير من المسلمين وهي :

إذا غلب العدو على بعض بلاد المسلمين وامتنعت عليهم الهجرة فهل الصواب أن يتركوا له جميع الأحكام ولا يتولوا له عملاً أم لا ؟ يظن بعض الناس أن العمل للكافر لا يحل بحال ، والظاهر لنا أن المسلم الذي يعتقد أن لا ينبغي أن يحكم المسلم إلا المسلم وأن جميع الأحكام يجب أن تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة ينبغي له أن يسعى في كل مكان بإقامة مايستطيع إقامته من هذه الأحكام ، وأن يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان وبهذا القصد يجوز له أو يجب عليه أن بل يكون نفعه

محصوراً في غيرهم ، ومعيناً للمتغلب على الإجهاز عليهم ، وإذا هو تولى لهم العمل وكلف الحكم بقوانينهم فماذا يفعل وهو مأمور بأن يحكم بما أنزل الله .

أقول : إن الأحكام المنزلة من الله تعالى منها ما يتعلق بالدين نفسه كأحكام العبادات وما في معناه كالنكاح والطلاق وهي لا تحل مخالفتها بحال ، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود والمعاملات المدنية والمنزل من الله تعالى في أكثرها قيل وأكثرها موكول إلى الاجتهاد . وأهم المنزل وآكده الحدود في العقوبات ، وسائر العقوبات تعزير مفوض إلى اجتهاد الحاكم ، والربا في الأحكام المدنية ، وقد ورد في السنة اجتهاد النهي عن إقامة الحدود في أرض العدو ، وأجاز بعض الأئمة الربا فيها بل مذهب أبي حنيفة أن جميع العقود الفاسدة جائزة في دار الحرب واستدل له بمناحبة (مراهنة) أبي بكر رضي الله عنه لأبي بن خلف على أن الروم يغلبون الفرس في بضع سنين وإجازة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وصرحوا بعدم إقامة الحدود فيها ، روي ذلك عن عمر وأبي الدرداء وحذيفة وغيرهم وبه قال أبو حنيفة

قال في إعلام الموقعين : « وقد نص أحمد وإسحق بن راهويه والأوزاعي وغيرهم من علماء الإسلام على أن الحدود لا تقام في أرض العدو ، وذكرها أبو القاسم الخرقي في مختصره فقال : لا يقام الحد على مسلم في أرض العدو . وقد أتى بسر بن أرطاة برجل من الغزاة قد سرق مجنة فقال : لولا أني سمعت رسول الله ص يقول « لا تقطع الأيدي في الغزو لقطعتك »(١) رواه أبو داود وقال أبو محمد المقدسي : وهو إجماع الصحابة . روى سعيد بن منصور في سننه بإسناده عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس أن لا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الحدود (١٩) .

يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار . وعن أبي الدرداء مثل ذلك ثم ذكر ترك سعد إقامة حد السكر على أبي محجن في وقعة القادسية . وذكر أنه قد يحتج به من يقول لاحد على مسلم في دار الحرب كما يقول أبو حنيفة ، ولكنه علله تعليلاً آخر ليس هذا محل ذكره وانظر تعليل عمر نجده يصح في بلاد الحرب . فعلم مما تقدم أن الأحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جداً وقد علمت ما قيل في إقامتها في دار الحرب لاسيما عن الحنفية ، فإذا كانت الحدود لا تقام هنا فقد عادت أحكام العقوبات كلها إلى التعزير الذي يفوض إلى اجتهاد الحاكم . والأحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهاد أيضاً ، والنصوص القطعية فيها عن الشارع قليلة جداً . وإذا رجعت الأحكام هناك إلى الرأي والاجتهاد في تحري العدل والمصلحة وأجزنا للمسلم أن يكون حاكما عند الحربي في بلاده لأجل مصلحة المسلمين ، فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لأجل منفعة المسلمين ومصلحتهم ، فإن كان ذلك القانون ضاراً بالمسلمين ظالماً لهم فليس له أن يحكم به ولا أن يتولى العمل لواضعه إعانة له .

وجملة القول أن دار الحرب ليست محلا لإقامة أحكام الإسلام ، ولذلك تجب الهجرة منها إلا لعذر أو مصلحة للمسلمين ، يؤمن معها من الفتنة في الدين ، وعلى من أقام أن يخدم المسلمين بقدر طاقته ، ويقوي أحكام الإسلام بقدر استطاعته ، ولا وسيلة لتقوية نفوذ الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة ولاسيما إذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل بين جميع الأمم والملل كالحكومة الإنكليزية ، والمعروف أن قوانين هذه الدولة أقرب إلى الشريعة الإسلامية من غيرها ، لأنها تفوض أكثر الأمور إلى اجتهاد القضاء، فمن كان أهلاً للقضاء في الإسلام وتولى القضاء في الهند بصحة

قصد وحسن نية يتيسر له أن يخدم المسلمين خدمة جليلة ، وظاهر أن ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثماً من العمل بقوانينها يضيع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم ودنياهم . وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين إلا بسبب الحرمان عن أعمال الحكومة . ولنا العبرة في ذلك بما يجري عليه الأوربيون في بلاد المسلمين ، إذ يتوسلون بكل وسيلة إلى تقليد الأحكام ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم حتى كان من أمرهم في بعض البلاد أن صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها ، وصار حكامها الأولون آلات في أيديهم .

والظاهر مع هذا كله أن قبول المسلم للعمل في الحكومة الإنكليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إن لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين . ذلك أن تعده من باب الضرورة التي نفذ بها حكم الإمام الذي فقد أكثر شروط الإمامة والقاضي الذي فقد أهم شروط القضاء ونحو ذلك . فجميع حكام المسلمين في أرض الإسلام اليوم حكام ضرورة .

وعلم مما تقدم أن من تقلد العمل الحربي لأجل أن يعيش براتبه فهو ليس من أهل الرخصة ، فضلا عن أن يكون من أصحاب العزيمة ، والله أعلم . .) (١) أهـ

وهذا الذي قاله الشيخ رشيد من إناطة الأمر بالمصلحة مع عدم الدخول في ظلم هؤلاء هو الذي تؤيده الأدلة الشرعية ولكن جعل هذا منوطا بدار الحرب لا

---

(١) انظر التفسير ص ٤٠٦ - ٤٠٩ / ٦ .

يتضح . وذلك لأن دار الحرب اصطلاح حادث ويختلف باختلاف الزمان والمكان كما أوضحته في كلامي على فتواه في دار الحرب ودار الإسلام ولعله أراد أن يسكن نفوس المقلدين والذين توقع ثورتهم على ما قاله (وقد كان) !!

ولم ينفرد السيد رشيد بهذا المعنى وهو جواز العمل لدى الكفار لإقامة العدل بين المسلمين فقد قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كلام طويل له في (قاعدة في تصويب المجتهدين وتخطئتهم وتأثيمهم) حيث يقول :

(وكذلك الكفار : من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر ، وعلم أنه رسول الله ﷺ فآمن به وآمن بما أنزل عليه ، واتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشي وغيره ، ولم تمكنه الهجرة إلى دار الإسلام ولا التزام جميع شرائع الإسلام ، لكونه ممنوعاً من الهجرة وممنوعاً من إظهار دينه ، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام : فهذا مؤمن من أهل الجنة . كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون وكما كانت امرأة فرعون ، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر ، فإنهم كانوا كفاراً ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام ، فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه قال تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا** ﴾ [غافر - ٣٤ -] .

وكذلك النجاشي هو وإن كان ملك النصارى فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام بل إنما دخل معه نفر منهم ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه ، فصلى عليه النبي ﷺ بالمدينة خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفهم صفوفاً وصلى عليه ، وأخبرهم بموته يوم مات وقال : « إن أخا لكم صالحا من أهل الحبشة مات » وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك فلم يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت ، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات

الخمس ولا يصوم شهر رمضان ، ولا يؤدي الزكاة الشرعية لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم . ونحن نعلم قطعاً أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن ، والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذاجاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه ، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه

وهذا مثل الحكم في الزنا للمحصن بحد الرجم ، وفي الديات بالعدل والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع النفس بالنفس والعين بالعين وغير ذلك .

والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن ، فإن قومه لا يقرونه على ذلك ، وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً بل وإماماً وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك ، بل هناك من يمنعه ذلك ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وعمر بن عبد العزيز عودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل ، وقيل أنه سم على ذلك .

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه ، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها) (١) أهـ .

ويقول شيخ الإسلام في (جامع في تعارض الحسنات أو السيئات أو هما

---

(١) انظر الفتاوى ص ٢١٧ - ٢١٩ / ١٩ .

جميعاً إذا اجتمعا ولم يمكن التفريق بينهما بل الممكن إما فعلهما جميعاً أو تركهما جميعاً :

« ثم إن الولاية وإن كانت جائزة أو مستحبة أو واجبة فقد يكون في حق الرجل المعين غيرها أوجب من هذا الباب تولي يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر ، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض ، وكان هو وقومه كفاراً ، ومعلوم أنه مع كفرهم لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته ، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء ، وعدلهم ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريدوهو ما يراه من دين الله فإن القوم لم يستجيبوا له ، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان (١) ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكنه أن يناله بدون ذلك وهذا كله داخل في قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » أهـ.

وهذا المبحث قد لا يروق لكثيرمن المنتسبين إلى الجماعات الإسلامية اليوم ، وإن كانوا يطبقونه بحروفه ، لكنهم متناقضون بين التصور والتطبيق والله أعلم .

ثم رأيت بعد ذلك أن الأستاذ محمد قطب حفظه الله قد تسائل في (واقعنا المعاصر ص ٣٣١ - ٣٤٠) . عن حال العلماء في هذه الفترة التي كان فيها محمد عبده ورشيد رضا وهل قاموا بتوعية أمتهم في قضية الإسلام الرئيسية التوحيد ؟ والتنبيه على انحرافات الذين يدعون غير الله وتعرض بالتحديد لشخص محمد عبده ورشيد رضا فقال : « هل قام محمد عبده مثلاً وتلميذه

---

(١) انظر كلامه رحمه الله على قصة يوسف وتوليه العمل لدى كافر كما بالفتاوى ٢٠ / ص ٥٦ .

الشيخ رشيد رضا ببيان التوحيد على هذه الصورة الربانية التي عرفها السلف الصالح (١) ثم يقول :

محمد عبده يصدر الفتوى بإباحة الربا صندوق البريد (٢) . . . والشيخ رشيد يدعو المسلمين لطاعة الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله .

ثم استدرك على الشيخ رشيد الفتوى التي نقلتها آنفاً وعلق عليها عدة تعليقات رأيت أن أنقل خلاصتها مع شيء من المناقشة عليها هنا .

١- استدرك على الشيخ رشيد قوله : (فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله) وجعلها مغالطة وهذا يسلم إذا كان العدل كما قال كلمة لا ضابط لها أما إذا كان مقصد الشيخ رشيد (العدل المطلق) فصحيح لأن ما شرعه للناس من دون الله مخالفاً لأوامره ونواهيه لا يمكن أن يوصف بالعدل المطلق بل هو عدل نسبي على كل حال .

٢- استدرك على الشيخ قوله (أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين بل لم يقل به أحد قط) ، ووجه الاستدراك أن الظاهر هذا (لا يقول به أحد قط) من التجريدات الذهنية لأن من يحكم فهو مسلوب الإرادة تماماً

ولا أدري ما وجه الاستدراك إذا كان الشيخ رشيد قال بأنه لم يقل به أحد قط، ثم إنه يُتصور أن إنساناً لا يندفع في قضية تبعاً لغريزته بأن يقدم شيئاً على آخر دون أن يقصد حكماً معيناً ، وإن كان الأستاذ محمد قطب يسمي مثل هذا حكماً ! ، وقد يتجه الاستدراك إذا ما قلنا إن هذا ليس ظاهر الآية .

---

(١) لعل هذا الحديث يوضح جهود السيد رشيد في خدمة العقيدة ومن الظلم أن نهضمه حقه .

(٢) ما نقله رشيد رضا عن محمد عبده في هذه المسألة أنه أفتى بضرورة مراعاة أحكام المضاربة في استغلال النقود الموضوعة في صندوق التوفير بالبريد لكي يكون حلالاً ، ثم اجتمعت لجنة من فقهاء المذاهب وأيدت فتواه ، وانظر فتاوى الإمام رشيد رضا ص ١٣٤٠ .

٣- واستدرك عليه إطلاقه أن الحكم بغير ما أنزل الله من المعاصي ، ولم يصرح بأنه قد يكون كفراً أو خطأ مغفوراً ، وهذا صحيح ، وإن كان الشيخ رشيد نبه على ذلك في باقي الفتوى بقوله (وإن العقل ليعسر عليه أن يتصور أن مؤمناً مذعناً لدين الله يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكماً ثم هو بغيره باختياره ويستبدل به حكماً آخر بإرادته إعراضاً عنه وتفضيلاً لغيره عليه ويعتد مع ذلك بإيمانه وإسلامه) أليس هذا يدل على أن الشيخ رشيد يعرف ما نبه عليه الأستاذ قطب !!

٤- ثم يستدرك الجملة السابقة (وإن العقل ليعسر عليه . . .) فيجعل الشيخ رشيد بهذه الجملة يصحح إيمان هؤلاء الذين يشرعون شرعاً غير شرع الله ، ثم يستنتج بعد ذلك أن يلتمس العذر لهم بأنهم مكرهون على ذلك ، ولعمر الله إن الجملة لتحتمل عكس ذلك فهي تحتمل أنه يرى أن هؤلاء كفاراً لفعلهم لأنه لا يظهر لهم تأويل ، لأن الشبهة في حقهم أشد والجواب عنهم أعسر ، ولا أدري لماذ يحمل كلام الشيخ رشيد على أحد المعاني دون الآخر ، مع أن سياق الفتوى يوضح أن مراده أن هؤلاء أقرب للكفر منهم للإسلام ولذلك حكم عليهم مباشرة بأن ديارهم ليست بدار إسلام ولو كان يرى أنهم كما يقول الأستاذ محمد (مسلمون ويطالب بدليل كفرهم) لما حكم على ديارهم هذا الحكم ، وهذا واضح بحمد الله ، لما لم يكن هذا متضحاً لدى الأستاذ محمد حفظه الله لما استدرك على الشيخ رشيد أنه لم يبين متى يكون الحاكم على هذا الوصف ؟ أي ما العلامة الظاهرة التي تعرف بها الأمة بها وصفه لتقوم بواجبها الإسلامي بإلزامه بإبطال ما وضعه مخالفاً لحكم الله ولا يكتفوا بعدم مساندته عليه ومشايعته فيه !!

٥- ويستدرك أيضاً على الشيخ تقسيمه الأحكام إلى ما لا يحل مخالفته لتعلقه بأمر الدين كالعبادات والنكاح والطلاق وما يتعلق بأمور الدنيا كالحدود

والعقوبات وأن أكثرها موكول للاجتهاد ، ويتسائل الأستاذ قطب فيمن قال إن الحدود تتعلق بأمر الدنيا وحدها وهي حق الله ؟؟

وإني مع الأستاذ قطب في الاستدراك على الشيخ رشيد في الجملة إلا أنني أستدرك على الأستاذ قطب جعله الحدود كلها حق لله ، ولو كانت كذلك لما سقط بعضها بعفو المجني عليه بل هي كما هو معلوم في أصول الفقه منها ما تمحض حقاً لله كالردة ، والزنا لا يسقط بعفو المجني عليه ، ومنها ما ظهر فيه حق غالب للمخلوق ، يسقط بعفو المجني عليه أو وليه كالقتل(١) ومنها ما تركب فيه المعنيان ، وحق الله غالب ، كالقذف ، فإن المقذوف لا يملك العفو عن الجاني ، ولا يملك أن يتولى عقابه بنفسه والمسألة مشهورة في الأصول (٢)

٦ - ويستدرك على الشيخ رشيد قوله (والمنزل من الله تعالى في هذه - أي ما يتعلق بأمر الدنيا - قليل وأكثرها موكول للاجتهاد) بأن الشيخ رشيد أهمل السنة في كلامه ، وأظن أن هذا الاستدراك ليس في محله لأن السنة من المنزل من الله تعالى أيضاً لقوله تعالى : ﴿ **ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم - ٣ ، ٤ -] .

ويدل على هذا أن الشيخ رشيد بعد ذلك قال : (وأهم المنزل وآكده الحدود في العقوبات ، وسائر العقوبات . تعزير مفوض إلى اجتهاد الحاكم) ومعلوم أن التعزير وردت به السنة كحديث (لا يجلد فوق عشرة

---

(١) وفيه حق لله تعالى من جانب آخر وهو « الكفارة » فهي لا تسقط بالعفو .

(٢) انظر أصول الفقه لخلاف ص ٢١٤ .

أسواط إلا في حد من حدود الله تعالى) رواه البخاري وغيره (١) كما أن حد شارب الخمر إنما وردت به السنة لا القرآن ورشيد رحمه الله جعل الحدود من المنزل فهي إشارة إلى أن السنة عنده من المنزل أيضاً .

فهو يدخل السنة في المنزل ، ثم يقول (وقد ورد في السنة النهي عن إقامة الحدود في أرض العدو . . . إلخ فهو كذلك يحتج بالسنة لا يهملها كما يقول الأستاذ قطب حفظه الله .

٧- ويستدرك الأستاذ محمد قطب عليه نقله عن ابن قدامة ثم قوله (وانظر تعليل عمر تجده يصح في بلاد الحرب) فيقول الأستاذ قطب عن هذه العبارة (هذه أعجب المغالطات على الإطلاق فما العلاقة بين عدم إقامة الحد على المسلم المحارب في دار الحرب . . . وبين إسقاط أحكام الشريعة عن المسلمين . . . . وكيف يستدل بعدم إقامة الحد على المسلم في أثناء الغزو على عدم جواز إقامة الحدود في البلاد المشار اليها آنفا . . .) (٢)

ثم يقول (لو قلنا إن خضوع المسلمين في الهند أو غيرها للقوانين الجاهلية ضرورة ماداموا قد عجزوا عن المقاومة بعد قيامهم بالجهاد الواجب لكان هذا أمراً منطقيا معقولاً ، لأن لاحيلة للناس غير ذلك . . أما أن يقال إنه لا يجوز إقامة أحكام الشريعة في هذه الحالة بأمر الدين فقول ما أظن أن أحداً قاله في تاريخ الإسلام كله ! !) أهـ .

وأنا مع الأستاذ محمد قطب في ذلك لا أرى أنه قال هذا القول أحد ،

---

(١) انظر (١٢/ ١٧٦ - الفتح) .

(٢) ليست العبرة بترك إقامة الحد على المسلم أنه في حالة الغزو بل العبرة لأنه في دار حرب بدليل ما ورد من أثر عمر رضي الله عنه في النهي وتعليله بخشيته أن تأخذه حمية الشيطان فيلحق بالمشركين ولكن إذا رجع إلى دار الإسلام أقيم عليه الحد والله أعلم ؟

وكذلك لا أرى أن السيد رشيد قاله فمن أين للأستاذ قطب ذلك !!؟

أين في كلام السيد رشيد أنه لا يجوز إقامة الشريعة في هذه الحالة ؟ وما تعرض هو لعدم الجواز مطلقاً إنما كان كلامه في جواز ترك بعض الحدود لا في عدم جواز تطبيق الحدود وبينهما فرق واضح كالشمس ثم الأمر المنطقي الذي بينه وقرره ، بين السيد رشيد أفضل منه في أول الفتوى من قوله (والظاهر أن المسلم . . . ينبغي له أن يسعى في كل مكان بإقامة ما يستطيع إقامته من هذه الأحكام وأن يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان وبهذا القصد يجوز له أو يجب عليه أن يقبل العمل في دار الحرب إلا إذا علم أنه عمل لغير المسلمين ولا ينفعهم ، بل يكون نفعه محصوراً في غيرهم ومعيناً في غيرهم ومعيناً للمتغلب على الإجهاز عليهم !! ؟) أهـ

أليس قول الشيخ رشيد بهذه الضوابط أكثر منطقية من الخضوع مع عدم الحيلة الذي سبق في كلام الأستاذ قطب ؟ !

٨ - واستدرك كذلك على الشيخ رشيد قوله (نعلم ما تقدم أن الأحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جداً) وذكر أن هذا فيه إيحاء بأنها مادامت قليلة فلا بأس بمخالفتها) ولا أدري كيف يمكن فهم هذا من كلام السيد رشيد ، مع أن المتبادر أنه يهون على المسلم الذي يتولى الحكم في هذه البلاد لأجل مصلحة المسلمين يهون الخطب عليه أن أكثر ما يحكم فيه سيكون موافقا لحكم الله ، وعليه فلو ترك هذا المكان لجاء غيره ممن لا يتحرى حكم الله فستكون أكثر الأحكام الصادرة عنه تخالف حكم الله مع تسلطه على المسلمين فكلام السيد رشيد فيه معالجة لواقع وليس فيه تقرير حكم وعلى هذا فلا وجه لما سبق من اعتراض الأستاذ قطب كذلك لا وجه لتعليقه على قوله السيد رشيد (فإذا كانت الحدود لا تقام هناك - أي في دار الحرب) فإنه علق بقوله (أي لا يجوز إقامتها) وسبق الفرق بين جواز ترك الحدود في حالة ، وعدم جواز إقامتها !!

٩ - وامتداداً لسلسلة الاستدراكات يستدرك الأستاذ محمد قطب على الشيخ قوله (فقد عادت أحكام العقوبات كلها إلى التعزير الذي يفوض إلى اجتهاد الحاكم) أهـ . بأن كلام رشيد مغالطة لأن الحكم التعزيري يكون شرعياً إذا صدر من مسلم أما إن صدر من غير المسلم كالإنجليز فهل يصبح شرعياً أيضاً ؟

ولا وجه تغليط الشيخ رشيد في ذلك لأن في تغليطه مغالطة، لأن الشيخ رشيد لم يقل إن الحكم من الحاكم الإنجليزي هو حكم شرعي ، إنما كلامه بل وكل فتواه عن حاكم مسلم يقول الحكم في بلاد يسيطر عليها الإنجليز (ويدل عليه أيضا أنه لما ذكر الحكومة الإنكليزية قال إنها تفوض أكثر الأمور إلى اجتهاد القضاء)

١٠ - ويستدرك الأستاذ محمد أيضاً على السيد رشيد إجازته للمسلم أن يكون حاكماً عندالحربي في بلاده لأجل مصلحة المسلمين ، فإن المصلحة لابد أن تنضبط بالضوابط الشرعية ولا دليل للسيد رشيد غيرها في هذه المسألة .

وهذا غير صحيح فإن المصلحة هنا ظاهرة ، ولعل ما سبق في كلام شيخ الإسلام من استدلاله بقضية النجاشي ويوسف عليه السلام دليل على جواز ذلك .

١١ - استدرك على السيد رشيد قوله (فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه (أي الكافر) لأجل منفعة المسلمين ومصلحتهم) أهـ .

بأنه حكم بغير دليل شرعي ، قد سبق بيان الدليل وليتصور أي منا حال المسلمين في أي بلد في العالم ، ولهم من أهل الخير في المصالح والمؤسسات الحكومية أعوان وأنصار ، وحالهم وليس لهم أحد يعينهم وينصرهم ثم إذا كان التصور صحيحاً فليكن الحكم بعد ذلك .

١٢ - ومن أعجب الاستدراكات أنه لما قال الشيخ رشيد (جملة القول أن دار الحرب ليست محلاً لإقامة أحكام الإسلام) علق الأستاذ محمد بقوله (استند إلى مثل هذا المنطق السيد أحمد خان فقال إن دار الحرب (وكان

يقصد بلاد الهند بالذات ليست محلاً للجهاد) أهـ .

وإذا أكملنا كلام السيد رشيد يتضح الفرق بين القولين فإنه قال عقب هذامباشرة :

(ولذلك تجب الهجرة منها إلا لعذر أو مصلحة للمسلمين يؤمن معها الفتنة في الدين ، وعلى من أقام أن يخدم المسلمين بقدر طاقته ويقوي أحكام الإسلام بقدر استطاعته . . .) وهذا تفصيل بعد إجمال فلا يحق أن يأخذ الأستاذ قطب أول الكلام ويقارنه بكلام أحمد خان لاسيما والسيد رشيد قال في أول الفتوى (أن الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم أن يلزموه بإبطال ما وضعه مخالفاً لحكم الله) أهـ .

وهذا الإلزام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وهو نوع جهاد باللسان ولا شك وإنما الكلام في الفتوى عند عدم القدرة والاستطاعة على الجهاد الخاص ثم إن للسيد رشيد فتوى صريحة في البهائية والبابية يجرمهم فيها ويفضح مخططاتهم ومن ضمنها إبطالهم للجهاد ، ثم يبني الأستاذ قطب على كلامه السابق أن كلام الشيخ رشيد فيه تحايل لأنه (قرر أن دار الحرب ليست محلاً لإقامة أحكام الإسلام ليبرر خضوع المسلمين للأمراء الذين لا يحكمون بما أنزل الله ، ثم برر قيام المسلمين بتقلد الوظائف بأنها للتقوية على أحكام الإسلام) أهـ

ولا أدري أين هذا التحايل الذي يرمي إليه الأستاذ قطب وقد علق بعد ذلك الأستاذ قطب نفسه على كلام السيد رشيد (وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنية إلا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة) أهـ . قال :

وكانت الحكومة الإنجليزية في الهند تحرم المسلمين عمداً من تقلد وظائف

الدولة وتسندها إلى الوثنيين وهذه هي الحكومة التي قال عنها آنفاً إنها (متساهلة قريبة من العدل بين جميع الأمم) ولا أدري هل الأستاذ قطب حفظه الله يرى أن فعل الإنجليز هذا ليس من العدل بين جميع الأمم وعليه فهو يرى أن العدل تمكين المسلمين من الوظائف فهو متفق مع السيد رشيد في هذا أو كان يرى أن هذا الفعل من الإنجليز حجة على رشيد رضا في خطئه بجعله الإنجليز يعدلون بين الأمم فإن كان مقصوده الأخير فالظاهر أن السيد رشيد كان يرى أن سبب ذلك هو تقاعس المسلمين عن التوصل للوظائف فلذلك حرموها !!

١٣ - ويستدرك الأستاذ محمد علي الشيخ رشيد قوله (والظاهر مع هذا كله أن قبول المسلم للعمل في الحكومة الإنجليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين إن لم تكن عزيمة يقصد بها تأييد الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين) اهـ .

فيعلق الأستاذ قطب بقوله : (أرأيت كيف يجعل من مخالفة صريح أمر الله سبحانه (عزيمة) أهـ وأتساءل أين جعل الشيخ رشيد مخالفة أمر الله عزيمة ؟ ؟

لقد نص السيد رشيد على أن هذا من الرخص وتردد في كونه عزيمة إذا كان من أجل تأييد الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين ، أفيكون هذا التأييد مخالفة أمر الله ، حتى يقال ذلك عنه ؟ !

ثم يقول بعد ذلك (أما أن يصبح هذا الخضوع عزيمة يدعى المسلمون إليها فمن العجب العجاب في ذلك الزمان) أهـ

وهذا أيضا من العجب ، فإن كلام الشيخ رشيد لا يفهم منه هذا البتة بل قال بعد ذلك (وعلم ما تقدم من تقلد العمل للحربي لأجل أن يعيش براتبه فهو ليس من أهل هذه الرخصة فضلاً عن أن يكون من أصحاب العزيمة) أهـ .

فهل جعل بذلك الخضوع عزيمة ، أم أنه استثنى من يستطيع تأييد الإسلام ومصلحة المسلمين لا كل الناس فرخص لهم لأجل المصلحة !! ، وتردد في كونها عزيمة في حق هؤلاء فحسب .

١- ثم الاستدراك الأخير على قول رشيد رضا (دار الحرب بلاد غير المسلمين وإن لم يحاربوا) أهـ استدرك بأن الذي عليه جمهور العلماء أن الدار تأخذ وصفها من غلبة الأحكام عليها أي بصرف النظر عن عقائد أهلها) أهـ .

ولعل فيما سبق من الكلام على دار الحرب ودار الإسلام كاف في بيان ذلك والله أعلم

ونخلص مما سبق أن الأستاذ قطب لم يكن موافقاً الصواب في كل ما استدرك على السيد رشيد في هذه الفتوى وأثبت هنا بعض ما أشرت إليه من الحقائق حول هذه الفتوى :

١- أن كلام السيد رشيد كان على حالة واقعة لا أنه قرر قاعدة شرعية

٢- أن كلامه كان يدور حول المصلحة الناجمة من تولي الوظائف والمفسدة الناجمة من الحرمان منها .

٣-كلامه عن دار الحرب ودار الإسلام كان عرضاً ليبين أنه لم يخرج عن إطار الفقهاء العام فيما قرروه

٤- إنه ضبط كلامه بأن من لم يقدر على تأييد الإسلام وإقصاء الظلم عن

المسلمين وخدمتهم ورفع شأنهم فلا يجوز له الدخول في هذه الوظائف مطلقاً ، فلم يجعلها قاعدة عامة كما قد فهم منه ذلك .

٥- لم يزل كلامه رحمه الله متفقاً مع كلام أهل العلم كشيخ الإسلام وتدل عليه (١) الأدلة وأيا كان فهو اجتهاد منه قد يصيب وقد يخطىء وليس لنا أن نشنع عليه في اجتهاد استجمع أدواته ، والله أعلم .

طاعة الحكام والخروج عليهم :

هذا البحث من أكثر البحوث حرجاً في هذا العصر لأن كثيراً من نصوص الفقهاءلو طبقت على ظاهرها دون النظر للأدلة التي بنيت عليها لحكمنابكفر أكثر المتولين شؤون المسلمين في البلاد الإسلامية ثم بوجوب الخروج عليهم .

ولم يكن الأمر في عصر الشيخ رشيد مختلفاً كثيراً عن الأمر الحاصل الآن ولذلك فإنه من المفيد أن نعرف رأي هذا الإمام في هذه المسألة .

ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ [المائدة - ٣٣ وما بعدها]

قال : (وقد اختلف علماء المسلمين في مسألة الخروج على أئمة الجور وحكم من يخرج لاختلاف ظواهر النصوص التي وردت في الطاعة والجماعة والصبر وتغيير المنكر ومقاومة الظلم والبغي . ولم أر قولاً لأحد جمع بين كل

---

(١) أي التي تدل على جواز ارتكاب المحظور لأجل المصلحة وسبق في كلام رشيد رضا قاعدة أخف الضررين ثم في كلام شيخ الإسلام في قصتي يوسف والنجاشي ومن ذلك أيضاً قصة كعب بن الأشرف ونعيم بن مسعود الخزاعي في غزوة الأحزاب وقصة الحجاج من علاه في استئذان النبي في أن يقول شيئا لاستخلاص ماله وانظر في ذلك ص ٣٣ من الخلافة والمالك لابن تيمية وكذلك اقتضاء الصراط المستقيم له ١/ ٤١٨ .

ما ورد من الآيات والأحاديث في هذا الباب ، ووضع كلا منها في الموضع الذي يقتضيه سبب وروده مراعياً اختلاف الحالات في ذلك ، مبيناً مفهومات الألفاظ بحسب ما كانت تستعمل به في زمن التنزيل دون ما بعده . مثال هذا لفظ « الجماعة » إنما كان يراد به جماعة المسلمين التي تقيم أمر الإسلام بإقامة كتابه وسنة نبيه ﷺ ولكن صارت كل دولة أو إمارة من دول المسلمين تحمل كلمة الجماعة على نفسها ، وإن هدمت السنة ، وأقامت البدعة ، وعطلت الحدود ، وأباحت الفجور ، ومثال الأحوال تعدد الدول ولكل منها حاكم فإنها توجب لحاكمها طاعته والوفاء ببيعته ؟ ، وإذا قاتل أحدها الآخر فأيها يعد الباغي الذي يجب على سائر المسلمين قتاله حتى يفيء إلى أمر الله ؟ كل قوم يطبقون النصوص على أهوائهم مهما كانت ظاهرة .

ومن المسائل المجمع عليها قولاً واعتقاداً : أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق « وإنما الطاعة في المعروف » وأن الخروج على الحاكم المسلم إذا ارتد عن الإسلام واجب ، وأن إباحة المجمع على تحريمه كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به الله كفر وردة ، وأنه إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع ، وحكومة جائرة تعطله وجب على كل مسلم نصر الأولى ما استطاع .

وأنه إذا بغت طائفة من المسلمين على أخرى وجردت عليها السيف وتعذر الصلح بينهما فالواجب على المسلمين قتال الباغية المعتدية حتى تفيء إلى أمر الله . وما ورد في الصبر على أئمة الجور إلا إذا كفروا معارض بنصوص أخرى، والمراد به اتقاء الفتنة ، وتفريق الكلمة المجتمعة ، وأقواها حديث :

« وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرًا بواحا » (١) قال النووي:المراد بالكفر هنا المعصية

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة ص ٣٣١ مختصر المنذري .

ومثله كثير - وظاهر الحديث أن منازعة الإمام الحق في إمامته لنزعها منه لا يجب إلا إذا كفر كفراً ظاهراً وكذا عماله وولاته ، وأما الظلم والمعاصي فيجب إرجاعه عنها مع بقاء إمامته وطاعته في المعروفَ دون المنكر ، وإلا خلع ونصب غيره . ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين سبط الرسول ﷺ على إمام الجور والبغي ، الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمكر ، يزيد بن معاوية خذله الله وخذل من انتصرله من الكرامية والنواصب ، والذين لا يزالون يستحبون عبادة الملوك الظالمين ، على مجاهدتهم لإقامة العدل والدين ، وقد صار رأي الأمم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدين المفسدين ، وقدخرجت الأمة العثمانية على سلطانها عبد الحميد خان ، فسلبت السلطة منه وخلعته بفتوى من شيخ الإسلام وتحرير هذه المسائل لا يمكن إلا بمصنف خاص ، والسلام على من اتبع الهدى . ورجح الحق على الهوى) [1] أهـ

هذا أبان عن مشكلة جديدة وهي تحديد وضع كلام السيد رشيد الخروج في ظل التفرق من الحكومات المتعددة التي تحكم المسلمين فهو بعد أن أصل المشكلة أرجع متشابهها إلى المحكم المجمع عليه إلا أن كلامه لابد أن ينضم إلى ما سأنقله عنه في تفسيره لسورة هود حتى يتبين أنه لم يرد الخروج غير المسؤول الذي يحدث الآن في كثير من البلاد الإسلامية باسم الإسلام وهم (أي الخارجون) جاهلون بالإسلام وقواعده كما سيتضح في آخر البحث إن شاء الله تعالى .

يقول الشيخ رشيد في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار . . . .** ﴾ [هود - ١١٣ -] بعد أن ذكر كلام الشوكاني وصديق حسن خان في وجوب طاعة الأئمة والأمراء في كل ما يأمرون به .

قال : [(قلت) أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا الإشارة إليها ، ولا شك في هذا ولا ريب فكل من أمروه

---

(١) انظر التفسير ص ٣٦٦ - ٦/٣٦٨ . وراجع التعليق بهامش (١) بصفحة ٢١٥ .

ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعاً بين الأدلة ، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة ، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة ، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، ولا يخفى على الله خافية .

وبالجملة فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى والأليق به ، يامالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اجعلنا من عبادك الصالحين ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وقونا على ذلك ، ويسره لنا وأعنا عليه) (١) أهـ

ثم قال : تحقيق مسألة طاعة الأئمة والأمراء :

إن هذا البحث الذي فتح بابه وأدخله هذان المجددان في تفسيريهما (فتح القدير وفتح البيان) كان استدراكا ضرورياً لما فسر به الآية جمهور من قبلهما فاقتصروا وقصروا ولولاه لما كان إليه حاجة في فهم الآية ، على أنهما على سبقهما لم يسلما من تقصير ، ولم يأتيا بكل ما يحتاج إليه البحث من تحرير ، وأوردا الأحاديث بالمعنى بدون تخريج ولا تدقيق .

---

(١) انظر التفسير ص ١٨٠ - ١٨١ / ١٢ .

أهم ما في البحث من حاجة إلى التحرير مسألة طاعة الملوك والسلاطين والأمراء الظالمين وإن تفاقم ظلمهم فسلبوا الأموال ، وضربوا ظهور الرجال ، ماداموا لا يظهرون الكفر البواح (هو بالفتح : الظاهر المكشوف) وقد اشتهر أن هذا مذهب أهل السنة وأن وجوب الخروج عليهم مذهب الزيدية .

والصواب أن المسألة فيها نظر ، فإطلاق القول فيها يحتاج إلى تقييد وإجماله لا ينجلي إلا ببيان وتفصيل وقد سبق لنا تحريره في كتاب (الخلافة - أو الإمامة العظمى) وفي هذا التفسير .

وخلاصة القول الحق أنه لا تعارض بين الخوف وطاعة الأئمة والأمراء فيما لا معصية فيه لله تعالى من المعروف ، وبين النهي عن الركون إلى الظالمين وحظر مادون الركون إليهم مما قاله المفسرون وغيرهم وما في معنى هذا النهي من آيات الذكر الحكيم في تقبيح الظلم وبيان كونه سبباً لهلاك الأمم في الدنيا وعذابها في الآخرة ، وكذا الآيات الدالة على سلطة الأمة عليهم .

وما ورد من الأحاديث في طاعتهم يقابله ما ورد فيها من وجوب الأخذ على أيدي الظالمين عامة ، وعلى أئمة الجور والأمراء خاصة ؛ ووجوب تغيير المنكر باليد أولاً فإن لم يستطع فباللسان وكون إنكاره بالقلب عند عدم الاستطاعة لما قبله أضعف الإيمان (١)، ومن عدم الميل إليهم ولو يسيراً وهو الذي فهمه من ذكرنا من المفسرين من النهي عن الركون ، فإنكارهم له حق في نفسه ،

---

(١) ومما يحسن إيراده هنا أن الأصل في الإنكار على الأمراء أن يكون غير مدعاة لفتنة ولذلك لما أنكر بعض الناس على أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه لا ينكر على السلطان قال أسامة « قد كلمته ما دون أن أفتح بابا أكون أول من يفتحه » رواه البخاري (١٣ / ٤٨) قال في الفتح أي باب الإنكار علانية خشية أن تفترق الكلمة . . . وقال عياض : مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لما يخشى من عاقبة ذلك بل يتلطف به وينصحه سرا فذلك أجدر بالقبول ، ثم ذكر الحافظ عن الطبري اختلاف السلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشرط أن لا يلحق المنكر بلاء لاقبل له به من قتل ونحوه واستدل عليه الطبري بحديث لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه ثم فسره بأن يتعرض من البلاء لما لا يطيق ، انظر فتح الباري (١٣ ، ٥٢ ، ٥٣) .

وإنما أخطأ من أخطأفي تفسير الركون وحسبنا هنا مارواه الإمام أحمد وأصحاب السنن وغيرهم في تفسير قوله تعالى [المائدة - ١٠٥ -] : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ الآية ، ففي المسند من طريق قيس (أبي حازم) قال : قام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ياأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ **ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ - حتى أتى على آخر الآية - ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم لم يأخذوا على يديه . أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول « إن الناس . . . . وفي رواية أخرى عنه أنه خطب فقال ياأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » وهذا الحديث رواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحميدي في مسانيدهم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم .

وفي معنى هذا الحديث ما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث عبد الله بن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم ، وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض فلعنهم ﴿ **على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ قال فجلس رسول الله ﷺ وكان متمكئاً فقال « لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم أطراً » وفي رواية أبي داود قال : قال كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم

ليلعنكم الله كما لعنهم »(١) أطره على الحق وغيره عطفه وثناه ، وقصره عليه حبسه وأمسكه عليه حتى لا يتعداه (وبابهما ضرب والأصل المجمع عليه أن الطاعة الواجبة في الشرع هي لأولي الأمر من الأئمة (الخلفاء) ونوابهم من السلاطين وأمراء الجيوش والولاة وكلها مقيدة بالمعروف من الواجب والمندوب والمباح دون المحظور . وأما طاعة المتغلبين فهي للضرورة وتقدر بقدرها بحسب المصلحة ويجب إزالتها عند الإمكان من غير فتنة ترجح مفسدتها على المصلحة ، فخروج الإمام حسين السبط عليه السلام على يزيد الظالم الفاسق كان حقاً موافقاً للشرع ولكنه ما أعد له عدته الكافية ، بل خذله من عاهدوه على نصره وقد امتنع أبو حنيفة من الإجابة إلى ولاية القضاء ، وفر منها الشافعي وكان من أمر مالك ما كان حتى روي أنه ترك صلاة الجمعة مع ولاتهم .

قال الإمام أبو محمد بن حزم في كتابه (مراتب الإجماع) واتفقوا أن الإمام الواجب إمامته فإن طاعته في كل ما أمر ما لم يكن معصية فرض والقتال دونه فرض . وخدمته فيما أمر به واجبة وأحكامه وأحكام من ولى نافذة ، واختلفوا فيما بين الطرفين من إمام قرشي غير عدل أو متغلب من قريش أو مبتدع . . . . إلخ ، وأورد الشوكاني في الباب من نيل الأوطار حديث عبادة ابن الصامت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم علي السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله « إلا إن ارتكبوا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » متفق عليه . وقال الشوكاني في شرحه ما نصه قوله (عندكم فيه من الله برهان) أي نص أية أو

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير سورة ٥ ، ٦ ، ٧ ، وأبو داود في الملاحم (١٧) ، وابن ماجة في الفتن ٢٠ .

خبر صريح لا يحتمل التأويل ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم مادام فعلهم يحتمل التأويل ، قال النووي المراد بالكفر هنا المعصية ، ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولاتعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليه وقولوا بالحق حيثما كنتم انتهى . » قال في الفتح : وقال غيره إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إذا ارتكب الكفر ، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المقارنة فيما عدا الولاية فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق ، ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف ، ومحل ذلك إذا كان قادراً ، ونقل ابن التين عن الداودي قال ، الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب ، وإلا فالواجب الصبر ، وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء ، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلا فاختلفوا في جواز الخروج عليه والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه ، قال ابن بطال إن حديث ابن عباس المذكور في أول الباب حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار .

« وقال في الفتح : وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها كما في الحديث انتهى .

« وقد استدل القائلون بوجوب الخروج على الظلمة ومنابذتهم السيف ومكافحتهم بالقتال بعمومات من الكتاب والسنة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا شك ولا ريب أن الأحاديث التي ذكرها المصنف في هذا

الباب وذكرناها أخص من تلك العمومات مطلقا وهي متواترة المعنى كما يعرف ذلك من له أنسة بعلم السنة ولكنه لا ينبغي لمسلم أن يحط على من خرج من السلف الصالح من العترة وغيرهم على أئمة الجور فأنهم فعلوا باجتهاد منهم وهم أتقى لله وأطوع لسنة رسول الله ﷺ من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم ، ولقد أفرط بعض أهل العلم كالكرامية ومن وافقهم من الجمود على أحاديث الباب حتى حكموا بأن الحسين السبط (رض) وأرضاه باغ على الخمير السكير الهاتك لحرم الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية لعنهم الله (١) فيالله العجب من مقالات تقشعر منها الجلود ويتصدع من سماعها كل جلمود ، هذا وإن حديث ابن عباس الذي عزاه إلى أول الباب هو قوله ص « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية) (٢) متفق عليه .

وهذا وما في معناه من أحاديث لزوم الجماعة وإمامهم الذي بايعوه واجتمعت كلمتهم عليه أخص مما تقدم الكلام عن العلماء في أمراء الجور وقد قالوا في معنى موته ميتة جاهلية أنه يموت وليس في عنقه بيعة لإمام يلتزمها من جماعة المؤمنين كما صرح به في بعض الروايات فيكون كما كان عليه أهل الجاهلية من الفوضى لا أنه يكون كافراً) أهـ

وكل هذا في خروج بعض الأفراد أو الفئات على إمام المسلمين وجماعتهم بشق عصا الطاعة وتفريق شمل الجماعة ، وهو الفساد في الأرض ، وإن كان

---

(١) ما كان ينبغي لرشيد رضا أن ينقل هذا السباب دون تعليق ، وراجع مجموع الفتاوى (٤/ ٤٧٢ ، ٤٨١ ،) وراجع ص ١٣٠ .

(٢) رواه البخاري في الفتن (٢) ، والأحكام (٤) ، ومسلم في الإمارة (٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨) .

الإمام ظالما : فإن كف الإمام عن الظلم ولو بالعزل فهو حق أهل الحل والعقد الذين هم محل ثقة الأمة الذين يمثلون الرأي العام فيها ، الذين عناهم خليفة رسول الله ﷺ بقوله في خطبته الأولى عقب مبايعته « فإذا استقمت فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني » (١) أهـ . كلام السيد رشيد .

وقد نقلت هذا المبحث بطوله لأنه لا يخلوا من فائدة ، ولأنه قد نبتت نبتة في ديار المسلمين الآن تنادي بوجوب الخروج وإن لم يكن ثمة استطاعة ، أو بتوهمهم أن لما في أيديهم عن عدة قليلة يكونون مستطيعين للخروج .

ولعمر الله كم تسببوا بأفعالهم الصبيانية من توقف الدعوة إلى الله وتسليط الحكومات الفاجرة على دعاة الحق وهم يتسمون بأسماء « الجهاد » !!

فمن مطلع هذا القرن واستمراراً حتى نصفه الثاني توالت على البلاد الإسلامية الانتدابات الأجنبية ، ثم الثورات التحررية .

وابتلي المسلمون بكثير من الحكام أسماؤهم أسماء إسلامية وقلوبهم قلوب الذئاب وانقسم الدعاة تجاه الخطر الجديد إلى أقسام ، وتفرقوا إلى فرق ففريق رأى استمرار الدعوة الهادئة ، وآخر رأى رفع الدعوة للمرحلة المسلحة ، وآخر رأى أن المجتمع لابد من تكفيره ثم هجرته . على اختلاف وتنوع في هذه المذاهب .

والذي يهمنا في بحثنا الآن هم هؤلاء الذين رأو أن يرفع السلاح في وجه الحكومات الحالية ، ولعمر الله لقد تأخرت الدعوة وقتاً طويلاً بسبب هؤلاء الذين رفعوا الشعارات الكثيرة والتي استحلوا بها دماء بعض المسلمين وأرواحهم وإن هذه الأفكار المتعجلة لتصادم ما قد قرر أهل العلم من أن مسائل

---

(١) انظر التفسير ص ١٨١ - ١٨٥ / ١٢ .

الدماء يحتاط فيها أكثر من غيرها لأنه لا يزال الرجل في فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً** ﴾ (١) .

وفي البخاري أن جندب بن عبدالله قال : « ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كف من دم أهراقه فليفعل » (٢)

وجاء من طريق مرفوع للنبي ص عند الطبراني قال الحافظ « وهذا لو لم يرد مصرحاً برفعه لكان في حكم المرفوع لأنه لا يقال بالرأي وهو وعيد شديد لقتل المسلم بغير حق » . (٣) أهـ

وأحاول أن أصل بالبحث إلى هذه النقطة التي أصبحنا فيها الآن فأقول مستعيناًبالله : المرجع عند الاختلاف لله ولرسوله ﷺ ثم للإجماع وإذا كان الأمر دائراً بين مجمع عليه ومختلف فيه فما الذي يترجح لدى المسلم ؟؟ .

بصورة أقرب . لقد قال ﷺ : « من لم يغز أو يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » (٤) فجعل النبي ﷺ للمسلم مرتبتين :

الأولى : الغزو

الثانية : تحديث النفس بالغزو

---

(١) النساء آية (٩٣) .

(٢) رواه البخاري في الأحكام ٩ .

(٣) فتح الباري (١٣ / ١٢٩) .

(٤) رواه مسلم وقال في آخره (قال عبد الله بن المبارك : فنرى أن ذلك كان على عهد رسول الله ص) قال صديق حسن خان : والظاهر الموافق للسنة الصحيحة عموم ذلك ولا دليل على هذا التخصيص) انظر ص ٢٨٥ من مختصر المنذري برقم (١٠٧٣) والتعليق عليه .

ولنعقد مقارنة بين رجلين :

الأول : - مازال يعبد الله سبحانه وتعالى ، ويطلب العلم الذي أوجبه الله عليه ثم علم الشريعة غير الفرض العيني ويسأل الله سبحانه أن يلحقه بركب الشهداء ، ويعلم الله منه أن نفسه تحدثه بالغزو ، ولو أن وجد جهاداً لا شبهة فيه لكان أول المسارعين له دونما تردد ، فهذا باتفاق الناس سلفاً وخلفاً إن مات لا يكون آثماً في تركه الجهاد لأن الذي منعه هو أنه يرى الجماعات التي قامت في البلاد الإسلامية لم تكن على علم بما تعمل به ، ولا على علم صحيح ، بل غلب عليها أو أكثرها الجهل والهوى والجرأة على سفك الدماء واستحلال المحارم والدخول في عمليات خاسرة والخسارة منها تعم لا تخص .

الثاني : - رجل أسلم فعرف الإسلام ، والتزم به ، وعرف الجاهلية وابتعد عنها إلا أنه لم يهتم بأمر العلم ، وانساق وراء العاطفة فالتحق بإحدى هذه الجماعات وأصاب متأولاً دما حراماً فهذا مختلف في أمره ، هل يغفر له بتأويله وهو تأويل سائغ أو هل يلحقه إثم لفعله بدليل أن ذلك مما لا يتأول فيه فليس كل تأويل جاء معتبراً فقد تأول الشيطان في عدم السجود فتكبر فلم ينفعه تأويله ، ولعل الأمر قد بان ولاح لكل ذي عينين ، وبعد هذا التصور يمكن أن يوافقنا المخالف في أن الرجل الأول على خير وسلامة أقرب من الثاني

ولقائل أن يقول : إن الذي دفعهم هو ما فهموه من آيات وأحاديث الجهاد والقتال وهذه الأدلة تقطع بضرورة القيام بالجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام فإن هذه الفريضة قد غابت عن الوجود المسلم ، فوجب على كل المسلمين أن يرفعوا الراية لإعلاء كلمة الله ، ولا ينفك عنهم الحرج حتى يقيمونها .

ويقال لهذا : ما ذكرته صحيح ، ولا يخالفك إنسان في التصور النظري ، ولكن الخلاف في التطبيق على ما سيأتي : -

أولاً : – الأدلة قد قامت ودلت على أن الأوامر الشرعية (ومنها الجهاد) إنما تكون بحسب الاستطاعة والوسع كما قال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ (٢)

وقوله ﷺ (إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ماستطعتم) (٣) وغيرها من الأدلة القاضية برفع الحرج عن هذه الأمة .

ثانياً : – دلت الأدلة الشرعية على وجوب طاعة النبي ﷺ قال تعالى : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ (٤)

﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ (٥)

﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ (٦) ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ (٧) وأولو الأمر هم العلماء والأمراء على الصحيح من أقوال أهل العلم (٨)

---

(١) البقرة آية – ٢٨٦ –

(٢) الطلاقة آية – ٧–

(٣) رواه بلفظه مسلم في صحيحه (ص ١٧١ – مختصر المنذري) ، والإمام أحمد (٢/ ١٩٦) وغيرهما .

(٤) النساء آية (٦٥) .

(٥) النساء آية (٥٩) .

(٦) الحشر آية (٧) .

(٧) الأحزاب آية (٢١)

(٨) انظر فتاوي شيخ الإسلام (٣/ ٢٥٠)

وإن من اتباع هدي سيد المرسلين أن تتبع سنته في حالة الشدة والضعف كما تتبع في حالة القوة فينظر لهدي النبي ﷺ في المرحلة المكية فيطبقه ، وينظر لسنته في المرحلة المدنية فيطبقها ويقيس حاله بهاتين المرحلتين

يقول شيخ الإسلام

(فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله ﷺ من الذين أوتوا الكتاب والمشركين وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١)

فالصحيح أن آيات القتال ليست ناسخة لآيات الصفح لأن السلف كثيراً ما يطلقون النسخ على التخصيص ورجحه الزركشي قال الدكتور علي العليان (٢):

والحقيقة أن الخلاف بين الزركشي وعلماء السلف هو في مسمى النسخ لا في العمل بمراحل الجهاد وإلا فالسلف لا يكلفون المستضعف من المسلمين الذي حاله مشابهة لحال الرسول ﷺ في مكة بالقتال وإنما الواجب عليه أن يجتهد لكي يصل إلى حال قوة يجاهد فيها الكفار لأن الحال التي توفي عليها النبي ﷺ هي تمام الدين التي يجب على المسلمين بذل قصارى الجهد لتحقيقها في الواقع البشري » (٣) ويقول الأستاذ سيد قطب « أن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لايجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد

(١) انظر الصارم المسلول لابن تيمية ص ٢٢١ .

(٢) أهمية الجهاد د. علي بن نفيع العليان ص ١٥١ .

(٣) انظر فقه الدعوة لسيد قطب اختيار أحمد حسن (ص ٢١٧ ، ٢٢٢) .

نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة ذلك أن الحركة والواقع الذي نواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد عن طريق الاجتهاد المطلق أي الأحكام هو أنسب للأخذ به . . . .

إلى أن قال :

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام - فهم للحظة ومؤقتا غير مكلفين بتحقيقها « ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة) أهـ .

وهذا الكلام يدل على سعة أفقه رحمه الله ، وعلى فقهه الصحيح في هذه المسألة الخطيرة ويقول الدكتور عبد الله القادري (فالمسلمون القادرون على الدعوة سراً فقط لا يجوز تكليفهم الجهر بها كما هو الحال في الدول الشيوعية وغيرها من الدول الكافرة التي لا تأذن بالدعوة إلى الله بل تنزل العقاب بمن تصدى لذلك .

وإذا كانت بعض الدول تأذن بتبليغ بعض أمور الإسلام كالعبادات الظاهرة مثل الصلاة والصيام والحج وتحظر غيرها كالزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الجهاد ، وعدم موالاة الكافرين وتحكيم شرع الله ، فيجب على الدعاة إلى الله أن يدعوا جهراً إلى الأمور المأذون فيها ، ويدعوا إلى غيرها سراً .

فإذا آذاهم أعداء الله وامتحنوهم بسبب دينهم ، فإن كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بدون إلحاق الضرر القاضي عليهم وعلى أهليهم فعليهم أن يدافعوا وإذا لم يكونوا قادرين ، لقلة عددهم وسيطرة عدوهم على أجهزة

الدولة فعليهم أن يصبروا حتى يحكم الله بينهم وبين عدوهم (١) فإذا أصبحوا قادرين على قتال الكافرين وإخضاعهم لكلمة الله تعالى ، بأن قامت لهم دولة أوما يشبهها فيجب أن يبدأوا أعداء الله بالقتال وهكذا . . . كل مرحلة يحتاج المسلمون إلى تطبيقها جاز لهم ذلك ولكن يجب عليهم السعي المتواصل لتطبيق المرحلة الأخيرة . . .) (٢) أهـ

ويمكن أن يصاغ ما تقدم بصورة أصولية ، وأحاول فيها أن أجمع بين مختلف الاتجاهات فأقول :

هناك فرق بين الفتوى والحكم ، فالحكم هو قول رسول الله ص أوما أوضحه أهل العلم من أحكام الدين ، وأما الفتوى فهي تطبيق لأحكام الدين على الناس بمختلف ظروفهم وأحوالهم (٣) ، وقد يتفق كل من الحكم والفتوى، وقد يفترقا .

ومثال الأول : حكم شارب الخمر الجلد فإن شربها مسلم غير مستحل لها في بلد إسلامي عالماً مختاراً كانت الفتوى حينئذ موافقة للحكم ، وإن شربها وهو لا يعلم حرمتها ، أو كان يظنها ليست خمراً ، أو أكره على شربها أو ما إلى ذلك من الأعذار المعروفة الشرعية فحينئذ لم يتغير حكم شرب الخمر في حقيقته ، وإنما تغير الحكم بالنسبة للشخص المعين وعندئذ جاز أن نقول المفتى به

---

(١) ويكاد يتفق أهل العلم في شرط الإمكان والقدرة للخروج على الحاكم انظر ص (٢٨٣) من المشروعية الإسلامية العليا للدكتور علي جريشة .

(٢) الجهاد في سبيل الله - حقيقته وغايته - د/ عبد الله بن أحمد القادري (١/ ١٨٩) - دار المناد جدة -

(٣) والتطبيق المقصود هنا ليس العمل بالفتوى أو لا بل المراد تحديد حكم الشرع الموافق لهذه الظروف المتغيرة .

في حالته عدم الحد وعندئذ يفترق الحكم عن الفتوى من جهة تطبيقه .

ويمكن أن نصوغ ما تقدم بلغة العصر فنقول : الحكم هو النظرية والفتوى هي التطبيق مع بعض التحفظ في الإطلاق فعليه يمكن القول بأن الجهاد حكمه الفرض الكفائي إلا أن هذا الحكم قد يتغير بسبب قرائن تحف به فيرتقي إلى فرضية العين ، وربما ينزل حتى يصل للاستحباب ، وقد يكون هناك قتال محرم لو ترتبت عليه مفسدة أعظم من مضرة تركه كما لو تسلط الكفار على المسلمين واجتاحوهم بسبب هذا القتال .

ومن هذا المنطلق كانت هذه هي نقطة الوفاق والخلاف بين الجماعات الإسلامية التي تعيش اليوم في البلاد المسماة بالبلاد الإسلامية فمنهم من يجتهد برأيه فيرى أن ترك هذا القتال مفسدة أشد من التي تقع بفعله .

وآخرون يرون أن الانتفاضات التي قام بها كثيرون ، وتلك التي تسمى (بالأعمال الصبيانية) هي أكبر شيء قد أعاق الدعوة إلى الله مع ما اقترن بذلك من استباحة حرمات المسلمين ودمائهم (١) .

فالفريق الأول يستدل بعموم الآيات القاضية بالجهاد وبأن آيات سورة التوبة (آيات السيف) (٢) ناسخة لما قبلها .

---

(١) ومن جميل التشبيه قول الدكتور علي جريشة في كتاب المشروعية ص ٢٨٤ ، « وكما لا يسمح لأي إنسان أن يباشر عملية جراحية في جسم إنسان حتى لا يؤدي الأمر إلى إنهاء حياته بدلاً من إنقاذ جسمه ببتر جزء منه - كذلك لا ينبغي لأي إنسان أن يباشر عملية الخروج لما قد يترتب عليها معه إنهاء حياة الأمة والدولة جميعاً) أهـ .

(٢) كقوله تعالى ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة ٥٠] وقوله ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ [التوبة -٢-]

وقالوا قد نص أئمة العلم على وجوب جهاد من أظهر الكفر ومنع شريعة الله .

قال الحافظ في الفتح - ثم قال - أي ابن التين - « وقد أجمعوا على أنه (أي الخليفة) إذا دعا إلى كفر أو بدعة أنه يقام عليه واختلفوا إذا غصب الأموال وسفك الدماء وانتهك هل يقام عليه أولا انتهى ، . وما ادعاه من الإجماع على القيام فيما دعا الخليفة إلى البدعة مردود إلا إن حمل على بدعة تؤدي إلى الكفر الصريح . . . .) (١) أهـ

وأيضاً قال في الفتح (وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن للدماء وتسكين الدهماء . . . . . ، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح ، فلا يجوز طاعته في ذلك بل تجب مجاهدته لمن قدرعليها . . . .)

قالوا : وفي الفتح أيضاً : (وينعزل الأمير بالكفر إجماعاً ، فيجب على كل مسلم القيام في ذلك فمن قوي على ذلك فله الثواب ، ومن داهن فعليه الإثم ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض) (٢) .

قالوا : « وقد أجمع المفسرون والمحدثون على عدم طاعة أولي الأمر في المعصية كما أجمعوا على وجوب الخروج عليهم بكفرهم وبفسقهم . . . . (٣)
قالوا : وأي مسلم يرى أن مجتمعه لايحكم بشرع الله فعليه أن يسعى جاداً ،

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١١٦/ ١٥) .

(٢) فتح الباري (١٣/ ٧) .

(٣) كلمة حق للدكتور عمر عبد الرحمن (٣٤) وليس هناك أجماع في الخروج على الكافر كما سبق

وأن يجاهد في سبيل الله لتمكين شرع الله ولا يشترط حينئذ أن يكون مجتهداً . . . .)

قال لهم الفريق الآخر : -

إن ما نقلتموه هو حق ولكن الخلاف في تطبيقه .

فأما كلام الحافظ فقد قيده بمن قدر على ذلك .

وقوله (فيجب على كل مسلم القيام في ذلك) قد بين انقسامه فيما بعد فقال .

(فمن قوي على ذلك فله الثواب ، ومن داهن فعليه الإثم ، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض) أهـ

ونقول لكم أرأيتم إن عجز ولم يستطع الهجرة فماذا يفعل ، أرأيتم إن استطاع الهجرة فأي بلد ينزله وقدتساوت الآن البلاد من هذه الناحية ، وأرأيتم إن استطاع الهجرة ولكنه استطاع المقام مع الجهاد باللسان فكيف يفعل (١) ثم إن القتال لا بد أن يكون له إمام حاكم ودولة وليس هذا للأفراد فإنه لما قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان قصاصاً وثأرًالمقتل أبيه بعدما عرف اشتراكه في قتل عمر ، أشار بعض الصحابة إلى قتل عبيدالله ، وانفصل الآخرون أن الخليفة لم يكن قد بويع حتى يكون في الصورة معتدياً على سلطة الدولة (٢)

ولعل الذي يترجح لدي في هذا المقام الشائك هو إبراء الذمة والسلامة من

(١) علماً أن الصحيح في الهجرة أنها تجب على من يتأثر بالمنكر ولا يؤثر بالمعروف أو من تساويا في حقه التأثير والتأثر ، أما من استطاع أن يؤثر ولا يتأثر فالمقام له هو الأفضل ، وتحقيقه ليس هذا مقامه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٥٤) ، شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر للبهنساوي ص ٤٢

الولوغ في دماء المسلمين فهو خير من شبه الخروج ، وبدع القتال (١) .

إلا أن الجهاد باللسان وتربية الناس على الدين والعقيدة الصحيحة هو فرض أيضاً وهو السبيل ولعله الوحيد الآن لإقامة علم الجهاد الذي لا شبهة فيه والله أعلم (٢)

والمرجع في الخروج هو ما تقدم في كلام الشيخ رشيد من وجود الكفر البواح والقدرة على الخروج المتيقنة لا المتوهمة (٣) وتكون من أهل الحل والعقد

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله عن جماعة تستحل دماء بعض المسلمين بحجة أنهم من أعوان الطاغوت ، وترى أن الخروج على الحكام بالقوة هو السبيل لإقامة شرع الله في الأرض .

---

(١) الحكم ببدعية هذا الأمر فرع عن اعتقاد أصحابه أنه من الدين ويتقربون به إلى الله تعالى وبذلك يكونون على بدعة هي في الأصل مأخوذة عن الخوارج والمعتزلة في أصولهم التي منها الأمربالمعروف والنهي عن المنكر ويقصدون بذلك الخروج على الظالم سواء حكموا بكفره كالخوارج أو لا كالمعتزلة ، وقد قرر أهل العلم ذلك عند تقريرهم أصول العقيدة ، ومن ألصق ما رأيت بهذه المسألة ما كتبه علامة الشام بل الدنيا الشيخ الألباني تعليقاً على قول الطحاوي رحمه الله (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا . .) فذكر في بيان طريق الخلاص وأنه التوبة وتصحيح العقيدة وتربية الناس على الإسلام ثم عقب قائلاً : « وليس طريق الخلاص ما يتوهم بعض الناس وهو الثورة بالسلاح على الحكام بواسطة الانقلابات العسكرية فإنها مع كونها من بدع العصر الحاضر فهي مخالفة لنصوص الشريعة . . . » انظر شرح وتعليق الألباني على العقيدة الطحاوية ص ٤٧ ط : المكتب الإسلامي سنة ١٩٧٨ .

(١) وقد وقع نقاش بيني وبين رجل ممن يتقدم جماعة الجهاد ويصدرون عن رأيه فكان من جملة ما ألزمته به أن من بقي وجاهد باللسان فحسب دون رفع السلاح لا يجوز لأحد أن ينكر عليه ويقول لقد خالف الشرع والدين ، فأقر بذلك وقتها على مجمع من الشباب .

(٣) انظر التفسير ص ١٨١ - ١٨٥/ ١٢ .

ولعمر الله كم توقفت الدعوة بسببهم ، وملئت السجون بالشباب بسبب أفعالهم .

(ثم ذكر السائل عدم تكفير هذه الجماعة للرافضة بقولهم بعصمة الأئمة وغير ذلك وأنهم يرون التعاون معهم لمصلحة شرعية أو نصيحة مرضية ، أفتونا مأجورين جزاكم الله خيراً . .

فأجاب حفظه الله :

إذا كان الواقع كما ذكره السائل فالقوم إما جهال ليس عندهم بصيرة بقواعد الشرع ولا بالمكفرات ونواقض الإسلام ، وإما ملاحدة مغرضون ليس قصدهم إلا إيذاء أهل السنة وتحطيم الدعوة ، وإدخال الشر على المسلمين كالرافضة وأشباههم ، فإنهم أعداء لأهل السنة أشد من اليهود والنصارى .

فهؤلاء بين أمرين : إما أنهم إخوان للرافضة وأشباههم من الملاحدة ، وإما أنهم جهال لا يعرفون ما يقولون ، ولا يهتدون لما يقولون ، إن كنت صادقاً فيما نقلت عنهم

ولا يجوز الخروج على الأئمة إذا كان بهذه الصفة ، والخروج ليس له فائدة ، إلا إيذاء المسلمين ، وإيذاء الدعاة وملء السجون بهم من دون فائدة ، وإنما الخروج يكون لولاة الأمر أهل الحل والعقد ، إذا رأوامن و لي الأمر كفراً بواحاً نصحوه ، ووجهوه إلى الخير ، فإن استقام فالحمد لله وإلا عزلوه ، وولوا غيره من أهل الحق أما هؤلاء فليس في أيديهم حل ولا عقد إنما في أيديهم إقامة الفتنة والشر على المسلمين ، وتسليط الدول على دعاة الحق بسبب أسبابهم ، فهؤلاء لا يتعاون معهم ، ولايسلم عليهم ، بل يهجرون إذا لم يقبلوا النصيحة ويحذر الناس من شرهم ، لأنهم فتنة وضرر على المسلمين ،

ومن إخوان الشياطين ، وإخوان اليهود والنصارى والرافضة وأشباههم نسأل الله العافية » (١)

ثم سئل الشيخ عمن يناصر هذه الجماعة وإن لم يكن على رأيهم فأجاب بأنه منهم ، يعني له حكمهم المتقدم (٢)

والحاصل أن الأصل في الخروج وعزل الحاكم هو لأهل الحل والعقد ، ومن يقوم مقامهم عند فقدهم ، وما نراه اليوم من بعض هؤلاء الذين ينادون بالخروج يجعلنا نقطع بعدم جواز فعلهم في الجملة ، وإن كان بعضهم ما دفعه لذلك إلا الإخلاص وحب الخير ولكن كم مريد للخير لم يبلغه .

ولعل بهذا تتضح هذه المسألة الخطيرة التي لها أثر بالغ في حياة المسلمين اليوم ، اللهم اهدنا للحق وارزقنا اتباعه ، ويسر لنا سبل الخير والهدى على صراطك المستقيم .

(تكميل)

تعرض السيد رشيد فيما سبق النقل عنه إلى مسألة خروج الحسين رضي الله عنه على يزيد بن معاوية ، ولما كان ذلك الخروج مشتبهاً جداً أحببت أن

---

(١) مسجلة على شريط رقم ١١ في حج عام ١٤٠٨ هـ من تسجيلات التوعية الإسلامية في الحج في مكة المكرمة .

(٢) وقد أعدت السؤال على سماحة الشيخ عبد العزيز مصرحاً باسم الجماعة واسم الدكتور الذي يتصدرها وطلبت منه أن يوجه نصيحة للشباب المسلم في هذا الأمر فذكر بأنه ينصحهم بعدم الخروج والاستمرار على الدعوة ، وذكر أن لا يدخل الشباب مع هذه الجماعة بل يتركوا ويحذر من الدخول معهم وهو مسجل في شريط عندي ، وذكر فيه أيضاً أنه يعرف هذا الدكتور ونصحه مراراً ولم يستجب ؟!

أشير إلى نبذة من أقوال أهل العلم فيه تحقيقاً للمقام ، وتوضيحاً لهذا الأمر الذي زلت فيه عقول كثيرين ، والكلام هنا على مقامين :

فمن الناحية التاريخية أولا وردت بعض الروايات تفيد أن الحسين رضي الله عنه لم يبايع ليزيد بن معاوية (١) ، وعليه - إن صح الخبر - فلا يكون خروجه خروجاً على إمام عدل بالمعنى المشهور في كتب الفقه .

الأمر الثاني : أن الحسين رضي الله عنه لما ذهب إلى العراق كان بسبب أن (أهل الكوفة كاتبوه بأنهم في طاعته ، فخرج الحسين إليهم ، فسبقه عبيد الله ابن زياد إلى الكوفة فخذل غالب الناس عنه ، فتأخروا رغبة ورهبة ، وقتل ابن عمه مسلم بن عقيل ، وكان الحسين قد قدمه ليبايع له الناس)(٢) ، (فلما قتلوا مسلماً وغدروا به وبايعوا ابن زياد أراد الرجوع ، فأدركته السرية الظالمة ، فطلب أن يذهب إلى يزيد ، أو يذهب إلى الثغر ، أو يرجع إلى بلده ، فلم يمكنوه من شيء من ذلك حتى يستأسر لهم فامتنع ، فقاتلوه حتى قتل شهيداً مظلوماً رضي الله عنه)(٣) فإذا كان الحسين رضي الله عنه أراد الرجوع لما رأى العدة والقدرة قد تصدعت ، دل ذلك على أن قتاله الذي قتل فيه لم يكن قتال خروج ، إنما كان دفعاً للصائل ، فقد ظلموه بعد إجابتهم لمطلبه وطلبهم إياه الاستئسار ، ومعلوم أنه لا يلزمه ذلك ، وعليه فقتاله كان جرماً وقتله كان من المصائب ولا شك .

ويتبين من ذلك أنه لا حجة لأهل الخروج في قصة الحسين

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ١٥ ، العبر للذهبي ١/ ٤٨ .

(٢) انظر فتح الباري (٧/ ٩٥) .

(٣) انظر منهاج السنة (ص ٤٧٢/ جزء ٤) ، (٨/ ١٤٧) ، (٢/ ٦٧) .

وأما ابتداء خروجه إلى العراق فإنه كان باجتهاد منه ، لأنه كان يرى أن ذلك هو الخير ، وقد أشار عليه البعض بذلك كابن الزبير (١) ، وبعض الصحابة نهاه عن ذلك منهم ابن عمر رضي الله عنهما ، وآخرون (٢) ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى ذلك بقوله « فقد تبين لك خطأ الحسين إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه ، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ، ولقد عذله ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في سيره إلى الكوفة . . . .) أهـ (٣)

وما تقدم من أن ابن الزبير أشار عليه بالذهاب هو الثابت في أول الأمر والله أعلم .

فمما سبق يتضح عذر الحسين في خروجه ، وإن كان ترك القتال في الفتنة أفضل عند الله تعالى من القتال ، ولذلك صوب أئمة الإسلام موقف الحسن وفضلوه على موقف أخيه الحسين ، وهما سيدا شباب أهل الجنة .

يقول شيخ الإسلام :

« وسائر الأحاديث الصحيحة تدل على أن القعود عن القتال والإمساك عن الفتنة كان أحب إلى الله ورسوله ﷺ وهذا قول أئمة السنة ، وأكثر أئمة الإسلام وهذا ظاهر في الاعتبار ، فإن محبة الله ورسوله للعمل بظهور ثمرته ، فما كان أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم كان أحب إلى الله ورسوله ﷺ وقد

---

(١) انظر البداية والنهاية ٨/ ١٦٠ .

(٢) السابق ٨/ ١٥٩ .

(٣) انظر ص ١٢٩ من المقدمة لابن خلدون ، وعذله : لامه والعذل اللوم انظر لسان العرب ١١/ ٤٣٧ .

دل الواقع أن رأي الحسن كان أنفع للمسلمين لما ظهر من العاقبة في هذا وفي هذا (١) .

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان يقول للحسن وأسامة : « اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » (٢)

. وكلاهما كان يكره الدخول في القتال ، أما أسامة فإنه اعتزل القتال ، فطلبه علي ومعاوية فلم يقاتل مع واحد من هؤلاء ، كما اعتزل أكثر فضلاء الصحابة رضي الله عنهم ، مثل سعد بن أبي وقاص وابن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وزيد بن ثابت ، وأبي هريرة ، وعمران بن حصين ، وأبي بكرة ، وغيرهم .

وكان ما فعله الحسن أفضل عند الله مما فعله الحسين ، فإنه وأخاه سيدا شباب أهل الجنة ، فقتل الحسين شهيداً مظلوماً . . . .) (٣) أهـ

ويقول في موضع آخر

« . . والنبي ﷺ جعل الحسن في الصلح سيداً محموداً ، ولم يجعله عاجزاً معذوراً ، ولم يكن الحسن أعجز عن القتال من الحسين ، بل كان أقدر على القتال من الحسين ، والحسين قاتل حتى قتل فإن كان ما فعله الحسين هو الأفضل الواجب ، كان ما فعله الحسن تركاً للواجب أو عجزاً عنه ، وإن كان ما فعله الحسن هو الأفضل الأصلح ، دل على أن ترك القتال هو الأفضل الأصلح، وأن الذي فعله الحسن أحب إلى الله ورسوله ﷺ مما فعله غيره،

(١) لو تعي هذه المقالة النبتة التي خرجت الآن في ديار المسلمين لرجعوا عن رأيهم !!

(٢) ليس في البخاري (وأحب من يحبهما) وانظر ص ٨٨ ، ص ٩٤ / جزء ٧ من الفتح .

(٣) انظر منهاج السنة (٨/ ١٤٦) .

والله يرفع درجات المؤمنين المتقين بعضهم على بعض وكلهم في الجنة رضي الله عنهم أجمعين . . .) (١) أهـ

ويقول شيخ الإسلام أيضاً

« . . . لما أراد الحسين رضي الله عنه أن يخرج إلى أهل العراق لما كاتبوه كتباً كثيرة ، وأشار عليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر ، وابن عباس ، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن لا يخرج وغلب على ظنهم أنه يقتل ، حتى إن بعضهم قال : أستودعك الله من قتيل ، وقال بعضهم : لولا الشفاعة لأمسكتك ومنعتك من الخروج ، وهم في ذلك قاصدون نصيحته طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين ، والله ورسوله ﷺ إنما يأمر بالصلاح لا بالفساد ، لكن الرأي يصيب تارة ويخطئ أخرى .

فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك ، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن حصل لو قعد في بلده ، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء ، بل زاد الشر بخروجه وقتله ، ونقص الخير بذلك ، وصار ذلك سبباً لشر عظيم ، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن ، كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن .

وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد ، وأن من خالف ذلك متعمداً أو مخطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد ، ولهذا أثنى

---

(١) انظر منهاج السنة (٤/ ٤٠ ، ٤١) .

النبي ﷺ على الحسن بقوله :

« إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (١) ، ولم يثن على أحد لا بقتال في فتنة ، ولا بخروج على الأئمة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا مفارقة للجماعة » (٢) أهـ

ويقول أيضاً :

« وكذلك الحسن كان دائماً يشير على أبيه وأخيه بترك القتال ، ولما صار الأمر إليه ترك القتال ، وأصلح الله به بين الطائفتين المقتتلتين .

وعلي رضي الله عنه في آخر الأمر تبين له أن المصلحة في ترك القتال أعظم منها في فعله .

وكذلك الحسين رضي الله عنه لم يقتل إلا مظلوماً شهيداً ، تاركا لطلب الإمارة ، طالباً للرجوع : إما إلى بلده ، أو إلى الثغر ، أو إلى المتولي على الناس وإذا قال قائل : إن علياً والحسين إنما تركا القتال في آخر الأمر للعجز ، لأنه لم يكن لهما أنصار ، فكان في المقاتلة قتل النفوس بلا حصول المصلحة المطلوبة .

قيل له : وهذا بعينه هو الحكمة التي راعاها الشارع ﷺ في النهي عن الخروج على الأمراء وندب إلى ترك القتال في الفتنة ، وإن كان الفاعلون لذلك يرون أن مقصودهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كالذين خرجوا بالحرة وبدير الجماجم على يزيد والحجاج وغيرهما .

(١) رواه البخاري وغيره (١٣/ ٦١- فتح) .

(٢) انظر منهاج السنة ٤/ ٥٣٠ - ٥٣١ .

لكن إذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه ، صار إزالته على هذا الوجه منكراً وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك على هذا المعروف ، كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه منكراً .

وبهذا الوجه صارت الخوارج تستحل السيف على أهل القبلة ، حتى قاتلت علياً وغيره من المسلمين وكذلك من وافقهم في الخروج على الأئمة بالسيف في الجملة من المعتزلة والزيدية والفقهاء وغيرهم ، كالذين خرجوا مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين ، وأخيه إبراهيم عبد الله بن حسن بن حسين وغير هؤلاء ، فإن أهل الديانة من هؤلاء يقصدون تحصيل ما يرونه ديناً ، لكن قد يخطئون من وجهين .

(أحدهما) : أن يكون مارأوه ديناً ليس بدين ، كرأي الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء فإنهم يعتقدون رأياً هو خطأ وبدعة ، ويقاتلون الناس عليه ، بل يكفرون من خالفهم فيصيرون مخطئين في رأيهم ، وفي قتال من خالفهم ، أو تكفيرهم ولعنهم . . . . إلى أن قال (الوجه الثاني) من يقاتل على اعتقاد رأي يدعوا إليه مخالف للسنة والجماعة ، كأهل الجمل وصفين والحرة والجماجم وغيرهم ، لكن يظن أنه بالقتال تحصل المصلحة المطلوبة .

فلا يحصل بالقتال ذلك ، بل تعظم المفسدة أكثر مما كانت ، فيتبين لهم في آخر الأمر ما كان الشارع دل عليه من أول الأمر .

وفيهم من لم تبلغه نصوص الشارع ، أو لم تثبت عنده ، وفيهم من يظنها

منسوخة كابن حزم ، وفيهم من يتأولها ، كما جرى لكثير من المجتهدين في كثير من النصوص . . .)(١) أهـ

أما مقتل الحسين رضي الله عنه فقد اختلف الناس في الحكم يقول شيخ الإسلام :

« وصار الناس في قتله ثلاثة أحزاب »

حزب يرون أنه قتل بحق ، ويحتجون بما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : من جاءكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق بين جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان)(٢) قالوا : وهو جاء والناس على رجل واحد فأراد أن يفرق جماعتهم .

وحزب يرون أن الذين قاتلوه كفار ، بل يرون أن من لم يعتقد إمامته كافر

والحزب الثالث وهم أهل السنة والجماعة - يرون أنه قتل مظلوماً شهيداً ، والحديث المذكور لا يتناوله بوجه ، فإنه رضي الله عنه لما بعث ابن عمه عقيلا ، فبلغه أنه قتل بعد أن بايعه طائفة فطلب الرجوع إلى بلده ، فخرجت إليه السرية التي قتلته ، فطلب منهم أن يذهبوا به إلى يزيد ، أو يتركوه يذهب إلى الثغر للجهاد ، فامتنعوا من هذا وهذا ، وطلبوا أن يستأسر لهم ليأخذوه أسيراً .

ومعلوم باتفاق المسلمين أن هذا لم يكن واجباً عليه ، وأنه كان يجب تمكينه

---

(١) انظر منهاج السنة (٤/ ٥٣٩ - ٥٣٨) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة . انظر مختار المنذري ص ٣٣٤ برقم (١٢٣٤) ولفظه مقارب .

(١) انظر منهاج السنة (٨/ ١٤٦ - ١٤٧) ، (٤/ ٥٥٣) .

مما طلب فقاتلوه ظالمين له ، ولم يكن حينئذ مريداً لتفريق الجماعة ، ولا طالباً للخلافة ، ولا قاتل على طلب خلافة ، بل قاتل دفعاً عن نفسه لمن صال عليه وطلب أسره . . . .)(١)

فتبين مما سبق أسباب مقتل الحسين ، وبقي أن يقال إن يزيد بن معاوية لم يأمر بقتله ، ولا رضي عن ذلك .

يقول شيخ الإسلام :

« إن يزيد لم يأمر بقتل الحسين باتفاق أهل النقل ، ولكن كتب كتاب إلى ابن زياد أنه يمنعه عن ولاية العراق . . . . إلى أن قال :

ولما بلغ ذلك (أي مقتل الحسين) يزيد ، أظهر التوجع على ذلك ، وظهر البكاء في داره . . . إلى أن قال : . . . . وقداتفق الناس على أن معاوية رضي الله عنه وصى يزيد برعاية حق الحسين وتعظيم قدره »(٢)

ويقول أيضاً « والذي نقله غير واحد أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ، ولا كان له غرض في ذلك بل كان يختار أن يكرمه ويعظمه(٣) ، كما أمره بذلك معاوية رضي الله عنه ، ولكن كان يختار أن يمتنع من الولاية والخروج عليه ، فلما قدم الحسين وعلم أن أهل العراق يخذلونه ويسلمونه ، طلب أن يرجع إلى يزيد ، أو يرجع إلى وطنه ، أو يذهب إلى الثغر ، فمنعوه من ذلك حتى يستأسر ، فقاتلوه حتى قتل مظلوماً شهيداً رضي الله عنه ، وأن خبر قتله لما بلغ يزيد وأهله ساءهم ذلك ، وبكوا على قتله ، وقال يزيد : لعن الله ابن مرجانة - يعني عبيد الله بن زياد ، أما والله لو كان بينه وبين الحسين رحم لما قتله ،

---

(١) انظر منهاج السنة (٤/ ٥٥٧ ، ٥٥٨) ، الفتاوى (٤/ ٥٠٦) .
(٢) السابق (٤/ ٤٧٢ ، ٥٥٣) .
(٣) وانظر البداية والنهاية ٨/ ١٥٩ وما بعدها ، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٢١ - ٢٤

وقال : قد كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين ، وأنه جهز أهله بأحسن الجهاز وأرسلهم إلى المدينة ، لكنه مع ذلك ما انتصر للحسين ، ولا أمر بقتل قاتله ، ولا أخذ بثأره . . .) (١) أهـ

وفي قول أهل السنة في يزيد ، يقول شيخ الإسلام عنه (٢) :

« إنه كان ملكاً من المسلمين له حسنات وسيئات ، ولم يولد إلا في خلافة عثمان ، ولم يكن كافراً ، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين وفعل ما فعل بأهل الحرة ولم يكن صاحباً ولا من أولياء الله الصالحين ، وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة ثم شرع في بيان مآخذ العلماء في ترك محبته ، أو في لعنه ، واختار عدم سبه وعدم حبه فليراجع فإنه نفيس (٣)

ومماسبق يتضح للقارئ عدم توفيق الإمام الشوكاني في لعنه ليزيد ، وخطأ الشيخ رشيد في ذلك وإنما أطلت في هذه المسألة قليلاً (٤) لأن كثيراً من أهل

---

(١) انظر ص ٤٦٨ - ٥٥٣ من جزء ٢٨ من الفتاوى .

(٢) الفتاوى ٤/ ٤٨٣ .

(٣) الفتاوى ٤/ ٤٨٥ - ٤٨٨ .

(٤) وتتمة البحث يكون في تحقيق موقف ابن الزبير ، وخلاصة الأخبار تدل على أنه امتنع في حياة يزيد على مبايعته أولاً ، ثم بذل له المبايعة ، فلم يرض يزيد إلا بأن يأتيه أسيراً فجرت بينهما فتنة ، وأرسل إليه يزيد من حاصره بمكة فمات يزيد وهو محصور ، ، فلما مات يزيد بايع ابن الزبير طائفة من أهل الشام والعراق وتسمى بأمير المؤمنين ، وتولى بعد يزيد ابنه معاوية بن يزيد أربعين يوماً فتأمر مروان ابن الحكم ، ثم هم أن يتوجه إلى ابن الزبير ليبايعه ويستأمن لبني أمية فأدركه عبيد الله بن زياد فثنى رأيه وجمع بني أمية وتوجهوا لدمشق ثم مات مروان وعهد لعبد الملك فوجه الحجاج إلى ابن الزبير فقتله واستوثق الأمر لعبد الملك وانظر منهاج السنة ٤/ ٥٢٣) ، فتح الباري ١٣/ ٧٠، ٧٢ ، البداية والنهاية (٨/ ٣٢٩) فدلت القصة على أنه ليس في شأن ابن الزبير خروج يعتمد عليه هؤلاء الذين يلهجون بالخروج والقتال والله أعلم .

العلم يعتمد عليها في بيان حكم الخروج ، وكثير من المتأخرين يجعلونها أساساً لما يفعلونه ويلامون عليه !!

(تتمة)

تحقيق مذهب شيخ الإسلام في الخروج :

اضطرب الباحثون في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، فصار بعضهم يستدل بكلامه على الخروج وآخرون يستدلون بكلام آخر له على المنع من الخروج مطلقاً ، وإذا ضم كلامه رحمه الله بعضه إلى بعض عرفنا وجه الخطأ في كلام كل فريق ، وأحاول هنا جمع نبذ من كلامه في اختصار

ومجمل القول أن شيخ الإسلام يفرق بين قتال أهل البغي ، والقتال في الفتنة ، ونحو ذلك وأما الأوضاع الحالية من تحكم بعض الناس على المسلمين، وإهدار شرائع الإسلام من حياة المسلمين فهي وضع جديد لم يتكلم عليه الفقهاء الأقدمون بتفصيل ينطبق على واقعنا ومن هنا نشأ الاشتباه ، وصار الغلط .

فشيخ الإسلام يوجب قتل الطائفة الممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام كالصلاة ، وينقل اتفاق أهل العلم على ذلك (١)

وفي نفس الوقت يجعل المصلحة والإصلاح وتحصيل الخير هو الأساس الذي ينبي عليه أمر الخروج على الولاة الظلمة والفسقة (٢)

---

(١) انظر الفتاوى (٢٨/ ٥٣٩)
(٢) منهاج السنة (٤/ ٥٣٠) .

فأما إذا كان الولاة من الطائفة الممتنعة ، وكان في الخروج عليهم مظنة مفسدة وإثارة لفتنة وشر عظيم فإن هذا وضع ثالث يشبه كلا من الوضعين السابقين من وجه ويختلف عنه من وجه ، فمن يرى وجوب قتالهم ، يستند إلى كونهم طائفة ممتنعة ، ومن يرى وجوب الصبر يستند إلى أحاديث الصبر على الجور

هذا هو موضع النزاع ، ومحل الاشتباه

والذي ترجح لدي أن هذا الوضع الجديد ألصق بالوضع الثاني وأشبه به ومعروف أن شيخ الإسلام يميل للمصلحة في الباب ، فينبغي الصبر حتى يتمكن المسلمون من قوة تزيل حكم هذه الطائفة الممتنعة وأنقل من كلامه ما يؤيد هذا،يقول رحمه الله في فتواه في الطائفة الممتنعة :

« . . إذا كان المكره على القتال في الفتنة ليس له أن يقاتل ، بل عليه إفساد سلاحه ، وأن يصبر حتى يقتل مظلوماً ، فكيف بالمكره على قتال المسلمين مع الطائفة الخارجة عن شرائع الإسلام ؟ كمانعي الزكاة والمرتدين ونحوهم ، فلا ريب أن هذا يجب عليه إذا أكره على الحضور أن لا يقاتل ، وإن قتله المسلمون ، كما لو أكرهه الكفار على حضور صفهم ليقاتل المسلمين » أهـ(١)
فشيخ الإسلام يأمر هذا المكره الموجود بين الطائفة الممتنعة بترك قتال المسلمين ولم يأمره بمحاولة الخروج على الطائفة الممتنعة أو بقتالهم لأنه ليس له استطاعة في ذلك .

وأصرح من ذلك ما يذكره شيخ الإسلام في شرط القدرة والإمكان عند قتال البغاة حيث يقول :

---

(١) انظر ص ٤٤٢ ، ٢٤٣ من جزء ٢٨ من الفتاوى .

« . . الأمر بقتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان ، إذ ليس قتالهم بأولى من قتال المشركين والكفار ، ومعلوم أن ذلك مشروط بالقدرة والإمكان ، فقد تكون المصلحة المشروعة أحياناً هي التألف بالمال والمسالمة والمعاهدة ، كما فعل النبي ﷺ غير مرة ، والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تكن حاصلة ، كان الترك في نفس الأمر أصلح .

ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته ، علم أنه قتال فتنة ، فلا يجب طاعة الإمام فيه ، إذ طاعته إنما تجب في ما لم يعلم المأمور أنه معصية بالنص ، فمن علم أن هذا قتال الفتنة - الذي تركه خير من فعله - لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص إلى نص عام مطلق في طاعة أولي الأمر ، ولاسيما وقد أمر الله تعالى عند التنازع بالرد إلى الله والرسول ﷺ .

ويشهد لذلك أن الرسول ﷺ أخبر بظلم الأمراء بعده وبغيهم ، ونهى عن قتالهم لأن ذلك غير مقدور ، إذ مفسدته أعظم من مصلحته ، كما نهي المسلمون في أول الإسلام عن القتال ، كما ذكره بقوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم** ﴾ [النساء ٧٧] وكما كان النبي ﷺ وأصحابه مأمورين بالصبر على أذى المشركين والمنافقين والعفو والصفح عنهم حتى يأتي الله بأمره . . » أهـ (١) .

فهنا شيخ الإسلام بعد أن بين شرط القدرة والإمكان وأن الترك للقتال هو الأصلح حتى لو اعتقد الإمام وجود القدرة ولم تكن حاصلة فعلاً ، وأن القتال الذي مفسدته أكثر من مصلحته هو قتال فتنة بعد ذلك يستدل بصبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أذى المشركين ومعلوم أنه يدخل في ذلك المرحلة

---

(١) انظر ص ٢٢١ من الصارم المسلول ، وسبق هذا النقل في ص ١٢٥ م ٢٢٠ وهامش ص ١٨٧ .

المكية ، وفيها كانت الدولة للمشركين ولم يقاتلهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقتها ، وكانوا مأمورين بكف اليد وإقامة الصلاة .

وأصرح من ذلك أيضا كلام شيخ الإسلام :

« فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف ، أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والعفو عمن يؤذي الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الذين أوتوا الكتاب والمشركين ، وأما أهل القوة إنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين ، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » أهـ (١) .

بل يذهب شيخ الإسلام إلى أبعد من ذلك فيجيز العمل لدى التتار بالرغم من أنه أفتى بقتالهم لأنهم طائفة ممتنعة خارجة ، ولكن لما ظهرت المصلحة في التولي للقضاء والإمامة عندهم ذكر جواز ذلك كما سبق النقل عنه (٢) في كلام طويل له وفيه « . . وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً بل وإماماً ، وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها ، فلا يمكنه ذلك ، بل هناك من يمنعه ذلك ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٣) أهـ .

وحاصل الأمر أن شيخ الإسلام أراد في فتواه بقتال التتار أن يبين أن قتالهم مشروع ، أما الإقدام عليه ، أو الإحجام عنه ، فهو يرجع للمصلحة المقررة لا المتوهمة ، وإلا صار قتال فتنة وتركه هو الصلاح والإصلاح ، والله سبحانه أعلم .

---

(٢) انظر ص ١١١ من هذا البحث .

(٣) انظر الفتاوى (ص ١٢٨ / جزء ١٩) .

وهذا هو ما اختاره السيد رشيد أيضاً في مسألة الخروج إذ يقول بعد بحث له :

« وقد تقدم التحقيق في المسألة ، ونصوص المحققين فيها وملخصه أن أهل الحل والعقد يجب عليهم مقاومة الظلم والجور والإنكار على أهله بالفعل ، وإزالة سلطانهم الجائر ولو بالقتال إذا ثبت عندهم أن المصلحة في ذلك هي الراجحة ، والمفسدة هي المرجوحة » أهـ (١) .

خاتمة لهذا المبحث

في نهاية المطاف بين هذه الأفكار المتباينة ، والآراء المتشعبة ، أضع بين يدي القارىء بعض النقول ، وخلاصة للرأي في هذا الموضوع

فالخروج إما يكون شرعياً وهو الخروج إذا استجمع الشروط ، وتحققت فيه المصالح وإما بدعياً وهو بخلاف الأول .

وقد تبين المقصود بالخروج الشرعي مما سبق وأنه لا بد أن تتوفر فيه عدة شروط منها :

- وجود الكفر البواح من الحاكم
- القدرة والاستطاعة المتيقنة لا المتوهمة
- أن يقوم به أهل الحل والعقد
- ألا يؤدي إلى منكر أشد منه وإلا كان قتال فتنة

(١) انظر ص ٤١ من كتاب الخلافة لرشيد رضا وللجويني إمام الحرمين كتاب الغياثي تعرض فيه لهذه المسألة واشترط للخروج ألا تخرج في الجملة عما سطرته هنا كيف وهذا الأمر يكاد يكون محل اتفاق بين أهل العلم .

- أن يكون إمام الخارجين ممن يصلح أن يكون خليفة (١)

وهذا الشرط الأخير لم يصرح به كثير ممن كتب في هذه المسألة إما لوضوحه ، وإما لاعتبارات أخر ، وقد رأيت للحافظ ابن كثير كلاماً يؤكد ما سبق فهو يعيب على الخارجين في فتنة ابن الأشعث لأنه ليس بقرشي ، والقرشية شرط للإمامة عند الجمهور أو هو إجماع (٢) .

يقول ابن كثير :

(والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه « أي ابن الأشعث » بالإمارة وليس من قريش وإنما هو كندي من اليمن ، وقد أجمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين فأبى الصديق عليهم ذلك ، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً ثم رجع عنه كما قررنا ذلك فيما تقدم ، فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع بالإمارة على المسلمين من سنين ، فيعزلونه وهو من صليبة قريش ، ويبايعون لرجل كندي لم يتفق عليها أهل الحل والعقد ؟ !!

ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير فإنا

---

(١) وذكر الفقهاء شروطاً للخليفة لخصها الشيخ رشيد في سبعة : العدالة ، والعلم ، والاجتهاد ، سلامة الحواس ، سلامة الأعضاء ، حسن الرأي ، الشجاعة ، القرشية في النسب ، انظر ص ١٨ من الخلافة .

(٢) انظر البداية والنهاية (٩/ ٥٤) ، فتح الباري (١٣/ ١١٨ ، ١١٩) ، الخلافة ص ١٩ .

لله وإنا إليه راجعون » (١) .

والمقصود بأهل الحل والعقد هم الرؤساء الذين تتبعهم الأمة في أمورها العامة ، فهم زعماء الأمة وأولو المكانة وموضع الثقة من سوادها الأعظم ، بحيث تتبعهم في طاعة من يولونه عليها فينتظم به أمرها ، ويكون بمأمن من عصيانها وخروجها عليه (٢) .

واشترطوا فيهم أموراً هي : العدالة ، والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة بشروطها والرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح (٣) . ، فلا تولية ولا عزل ولا خروج بدونهم (٤) فهذه نبذة يسيرة في تحديد شروط الخروج الشرعي .

وأكثر ما في أيامنا هذه مما يحدث في بلاد المسلمين مما يسمى بالانقلابات العسكرية ، هي أنواع من الخروج البدعي سواء كان القائمون به ممن ينتسب للسنة ، أو ممن هو رقيق الدين ، وقد تبين عقب كل منها أن الحالة التي كان عليها الناس قبل هذا الخروج أفضل مما انتهوا إليه بعده ولا داعي لذكر الأمثلة فهي أشهر من أن يعلق عليها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٥٤ .

(٢) انظر الخلافة ص ١١ ص ١٧

(٣) السابق ص ١٦ واستدل عليها .

(٤) ذكر السيد رشيد في كتابه الخلافة مباحث متعددة حول وحدة الخليفة وتعدده وعلى تعيين أهل الحل والعقد في هذا الزمان وغير ذلك مما هو موافق لعصره ، ومفيد لنا في الجملة فليراجع فإنه مهم !

مع الشيعة :

إن الحديث عن عقيدة السيد رشيد رضا لابد أن يحوي نبذاً ، وفصولاً من مواقفه تجاه الشيعة ، لأنه قد اشتهر بين الناس، نظرته التي تجمع السنة والشيعة غير الغلاة ، ونادى بالوحدة مراراً وتكراراً ولذا لزم أن يقف الإنسان على حقيقة الأمر ، ويتناوله بالدراسة والتحليل فإن السيد رشيد رضا كان يكرر مراراً أنه يجب على المسلمين في كل العالم أن يتحدوا في وجه أعداء الإسلام ويبين أن من الشيعة من يجب على أهل السنة أن يدعوهم إلى الوحدة ، كما أن منهم من يجب محاربته ، ولذا فدعوة السيد رشيد لم تكن دعوة سطحية لا يُدرى أين أصولها كما كانت دعوات غيره ، بل إن الناظر فيما سطره الشيخ ليجده على علم دقيق بمذاهب الشيعة ، ولكنه حاول أن يأخذ بيد مريضهم وينتشله من أوحال التشيع إلى نور السنة ، ولكن وللأسف ظهرت أباطيل الشيعة مانعاً وجسراً حال دون هذه الغاية ، وإذا بدأنا رحلة رشيد رضا مع التشيع ، وقرأنا فيما كتبه حول الموضوع نجده قد تدرج في خلال دعوته ، فبدأ ببيان أنه ليس كل الشيعة غلاة ، وأن منهم المخدوعين ، ومَنْ بدعته يسيرة بالنسبة إلى غيره ، ثم دعاهم إلى الوحدة والتعاون ونبذ الخلاف ثم المرحلة الثالثة بالتجرد للحق ، وكان يظن أن هولاء إن جاءوا إلى أهل السنة مادين أيديهم ، مفتوحة صدورهم ، أن الحق لابد أن يعلوهم . وينضموا تحت لواء السنة تماماً كما تدرج بالمتكلمين بأن ذكر في تفسيره بعض تأويلاتهم ثم دعاهم إلى التنزيه على منهج السلف ومر ذكر ذلك . ولنبدأ باستقراء ما كتبه الشيخ في مراحله الثلاثة . . .

كتب السيد رشيد عدة مقالات استدراجية ، سطر فيها اختلاف الشيعة ، ومدى قربهم أو بعدهم من السنة ، ولم يكن ما يسطره باطلاً ، وإنما كان حقاً

أراد به استمالة الشيعة ومتعصبة السنة إلى خطته التي رمى إليها .

فكان من ذلك قوله :

« وقد انقسم الشيعة الذين يحافظون على أركان الإسلام إلى غلاة أطلق عليهم اسم الرافضة ، وإلى معتدلين وهم الذين خص أكثرهم باسم الزيدية لاتباعهم للإمام زيد بن علي (رضي الله عنهما) الذي أبى على الغلاة البراءة من أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ، فرفضوه ، ويوجد معتدلون في غيرهم أيضاً » (١) .

فالسيد رشيد رضا بدأ كلامه بتقييد الشيعة بالذين يحافظون على أركان الإسلام ، وبالطبع يدخل في هذا الشرط الذين لا يشركون ، ويخرج منه كل من دعا غير الله منهم . وقال ياعلي أو ياحسين كما هو مشهور عن أكثرهم .

ثم ترضي السيد رشيد عن الإمام زيد وعن الراشدين أبي بكر وعمر وعلي ، فيه إشارة منه لهؤلاء الشيعة أنه ليس عند أهل السنة حقد على أحد من أئمة الطرفين كما كان عند هؤلاء الشيعة الغلاة ويصرح عنهم بذلك فيقول :

« لا يطيق أحد من الشيعة المتعصبين أن يرى في كتاب أو مجلة ثناء عظيماً على أبي بكر وعمر (رض) » (٢) ثم في إشارته إلى التقسيم إلى غلاة ومعتدلين ، خطوة مرحليه ليقطع ثقة الشيعة باجتماعهم واتحادهم ، ويشير لأهل السنة إلى العدل في الحكم على هؤلاء .

---

(١) انظر ص ١٠ من السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة ط ٢ سنة ١٣٦٦هـ / سنة ١٩٤٧م .

(٢) انظر ص ١٢٠/ ١ من السنة والشيعة .

ويستطرد السيد رشيد فيقول :

« والشيعةالإمامية منهم معتدلون قريبون من الزيدية ، ومنهم غلاة قريبون من الباطنية ، وهم الذين ألحقوا ببعض تعاليمهم الإلحادية كالقول بتحريف القرآن وكتمان بعض آياته ، وأغربها في زعمهم سورة خاصة بأهل البيت يتناقلونها بينهم . . . فهؤلاء الإمامية الإثنى عشرية ، يلقبون بالجعفرية درجات وينقسم جمهورهم إلى أصوليين وأخباريين ، فالأصوليون هم الذين يعرضون ما يروى من أخبار الأئمة على أصول وضعها المتقدمون ، فيقبلون منها ما وافقها ، ويردون ما خالفها .

والأخباريون هم الذين يتلقون جميع تلك الأخبار بالقبول وإن خالفت المعقول وما عند أهل السنة والجماعة من النقول ، وهدمت الفروع مع الأصول .

وحدث في المتأخرين منهم مذاهب أخرى كالكشفية ، ولهم في الدين فلسفة غريبة ، ويرد عليهم الشهاب الألوسي في تفسيره (روح المعاني) .

ولهذا الاستعداد في الإمامية للغلو ، وقرب الكثيرين منهم زندقة الباطنية ظهرت منهم وراجت بدعة البابية ، ثم البهائية الذين يقولون بألوهية البهاء ونسخه لدين الإسلام ، وإبطاله لجميع مذاهبه ، وقد نقل الإمام (المقبلي) في العلم الشامخ عن بعض العلماء أنه قال : « ائتني بزيدي صغير أخرج لك منه رافضياً كبيراً وائتني برافضي صغير أخرج لك منه زنديقًا كبيرًا».

(قال) : يريد أن مذهب الزيدية يجر إلى الرفض والرفض يجر إلى الزندقة أهـ .

« والمقبلي سلّم هذا في أفراد من الزيدية رد عليهم ، لا في جملتهم . »(١)

---

(١) انظر ص ١١ ، ١٢/ ١ من السنة والشيعة .

وفي المرحلة الثانية دعاهم الشيخ رشيد للاتحاد على قاعدة المنار الذهبية قال :

« وقد اشتهرت قاعدته الذهبية التي دعا إليها علماء المذاهب كلها وهي نتعاون فيما نتفق عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه ، وندعو علماء كل طائفة وأهل كل مذهب لمقاومة البدع الفاشية فيهم ، لتكون دعوتهم أقرب إلى القبول » (١) .

إلا أن دعوته هذه لم تجد أنصاراً كثيرة من الشيعة فيقول :

« وقد وافقنا على دعوتنا هذه كثير من أهل السنة المستقلين والمقلدين للمذاهب ، ولكننا لم نر أحداً من علماء الشيعة نصرنا عليها بكتاب » (٢) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك الموقف السلبي من الشيعة ، بل قام بعضهم بمواقف إيجابية لكنها معادية ، فقام العاملي بالرد على كتابات رشيد رضا وأقذع في السب ، ودعا إلى الشرك مما حدا بالسيد رشيد رضا إلى أن ينبري له فيرد عليه فألف في الرد على دعايةالرفض والخرافات والتفريق بين المسلمين ، رداً على موقد نارها الشيخ محسن الأمين العاملي .

والذي دعاه إلى الرد عليهم ، ورأى أن ذلك من أوجب الواجبات أن الكتاب الذي وضعه العاملي فيه من الشرك والضلال ما يضل به أهل السنة والشيعة على السواء .

وفيه أيضا كل فريق على حدة ، كما بينه بقوله :

---

(١) انظر ص ٣٠ ، ١/٣١ من السنة والشيعة .

(٢) انظر ص ٣٠ ، ١/٣١ من السنة والشيعة .

« ومثال ما يضر أهل السنة وحدهم ، ما صوره الرافضي المتعصب في رسالته وكتابه لهم من أن أصول الدين والفقه عند الشيعة وأهل السنة واحدة ، وإنما الفرق الوحيد بينهما مسألة حب آل بيت الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وموالاتهم ، والاحتجاج بما رواه أئمتهم عنه ، وما اجتهدوا فيه »(١) .

ولقد اجتمع على السيد رشيد رضا أهل التشيع ورموه بسهام التعصب ، ولكن أنى لهم أن يؤثروا في هذا الطود ، ولم يكن حرص رشيد رضا على تجميع الكلمة مانعاً له من أن يصدع بالحق في وجوه هؤلاء أو يدفعه حرصه أن يسكت على منكر أو شرك يراه ، وما كان ينتهي من رد إلا رأى مقالات وكتباً أخرى خرجت تحتاج إلى الرد والإبطال ، فلربما نشر رده عليهم وحده ، وربما جمع إلى ذلك ما ألفه غيره كما نشر رسالة الألوسي في الرد على العاملي كاملة ، ولم يسلم السلاح ، ويهرب من الميدان مهما تكالب عليه أهل الضلال قال « وإنا قبل أن نتم الرد على ذلك الكتاب اطلعنا على كتاب آخر لأحد كبرائهم العاملين (هو الشيخ الكبير السيد عبد الحسين الشهيد) جعله الكلمة الأولى ، من ثلاث كلمات رافضية شعوبية ، هي كما يظهر من أولها - أضر على دين الإسلام ، والأمة العربية من دعاة الثالوث الهندوسي وثالوث النصرانية وأما المؤلف فإنه لم يراع قاعدة مذهبهم في التقية ، أو في مراعاة ، بل صرح فيها بتضليل أصحاب رسول الله صلى لله عليه وعلى آله وسلم من المهاجرين والأنصار ، والطعن في دينهم وطاعتهم لله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) انظر ص ٢٩-٤٠/ ١ من السنة والشيعة والمراد من كلام العاملي الاتفاق بين الشيعة والسنة في عبادة غير الله ودعاء الأموات والمقبورين ، ولذلك أنبرى المرد عليه السيد رشيد رضا .

وسلم وجهادهم في سبيله ، وبالطعن في حفاظ السنة ومدونيها ، وفي الأمة العربية برمتها من صدر الإسلام إلى اليوم أقبح الطعن وأكذبه وأصرحه ، لأن عصبيته الرافضية سولت له أن الغلو الممقوت في علي رضي الله عنه وكرم وجهه ، لا يتم إلا بذلك كله ، فهو قد كشف قناع الرفض ، بل ألقى رداء الحياء وإزاره ، لاقناعَهُ فحسب ، حتى ظهر عرياناً بادي السوأتين ، أعمى العينين ، ليس دونه شيء من ستار لقب الوهابية ولا من شفوف التقية » (١) أهـ .

ثم شرع في الرد عليه بأسلوب علمي عالي المستوى بدأ بذكر شبهات الشيعة مع مسألة إمارة أبي بكر على الحج سنة ٩ هـ ، وتلاوة علي أوائل سورة براءة يوم الحج الأكبر من الموسم فذكر فضائل أبي بكر الصديق ثم فند مراء الروافض وتحريفهم وتبديلهم لهذه المناقب . . .

ولكن السيد رشيد واجه ما لم يكن يحتسب ، فإذا بعض الذين يرون أن الوحدة أهم من هذه الخلافات (في زعمهم) ، فبدأوا يكتبون له طالبين منه الكف عن الرد على الشيعة ، ولكن كيف لرجل العقيدة أن يترك نصر الإسلام ! ؟ ولم يتركه ، وإذا لم يجب عليه ، فعلى من يجب إذن ؟ !

ويصور لنا السيد رشيد هذا فيقول في ضرورة اتفاق السنة والشيعة :

« بلغنا عن بعض إخواننا من مسلمي بيروت أنهم غير راضين عن رد المنار على الشيعة في هذا العهد الذي اشتدت فيه حاجة المسلمين إلى الاتفاق والاتحاد ، ولاسيما مسلمي سورية ولبنان والعراق والذين اشتد عليهم ضغط المستعمرين في دينهم ودنياهم ، وإني أقسم بالله وآياته ، لشديد الحرص على

---

(١) انظر ص ٥ / ٢ من السنة والشيعة .

هذا الاتفاق ، وقد جاهدت في سبيله أكثر من ثلث قرن ، ولا أعرف أحداً في المسلمين أعتقد أو أظن أنه أشد مني رغبة وحرصاً على ذلك ، وقد ظهر لي باختباري الطويل ، وبما اطلعت عليه من اختبار العقلاء وأهل الرأي أن أكثر علماء الشيعة يأبون هذا الاتفاق أشد الإباء إذ يعتقدون أنه ينافي منافعهم الشخصية من مال وجاه . . . (١) ثم أخذ يسرد قصة كتابة بعض الشيعة الكتب ضد السنة وفيها من التحريف ، والكذب والشرك الأكبر الشيء الكثير ثم قال « فهل يريد المستنكر من إخواننا أن نسكت لهؤلاء على كل هذا الطعن ، فيكون سكوتنا حجة على أهل السنة كافة ، ومعصية يأثمون بها كلهم ، ولا يزيد الشيعة إلا يقيناً بضلالهم وبعداً عن الاتفاق معهم ؟ ! » (٢)

واستمر السيد رشيد من خلال المنار يرد على غلاة الشيعة وقد ذكر في المنار (ج٨/ م٣١) مناظرة بين السنة والشيعة كخطوة على طريق توضيح المنهج ، ومحاولة لجذب الشيعة للمعرفة والحق ، وقرباً من المرحلة الثالثة ، وكرر دائماً ضرورة اتحاد الشيعة والسنة ، وهو يعرف طبعاً أن دعوته هذه إن استجاب لها من الشيعة أحد فسيستجيب غير الغلاة والمتعصبين ، وبالتالي يمكن لنور الحق أن يشملهم ولاسيما وقد اشترط في قاعدته الذهبية أن يتاح الأمر للعلماء للرد على كل منكر من إحدى الطائفتين . إذ يقول : « بيد أنني أرى أن ما نسعى إليه من جمع الكلمة ووحدة الأمة ، لايرجى نجاحه من طريق الدين إلا بسعي علماء الطائفتين له على القاعدتين اللتين رفعت بنيانهما في المنار .

---

(١) انظر ص ١٠٩/ ٢ من السنة والشيعة .

(٢) انظر ص ١١٦/ ٢ من السنة والشيعة .

(الأولى) نتعاون على ما نتفق عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه(١) .

(الثانية) من اقترف سيئة من التفريق والعداء من إحدى الطائفتين بقول أو كتابة فالواجب أن يتولى الرد عليه العلماء والكتاب من طائفته »(٢) أهـ .

ولقد حاول السيد رشيد الاقتراب من الشيعة ، ووضع أسس الاتفاق والخلاف لعلهم يسمعون أو يعقلون فيقول : « وأما رأيي في الاتفاق ، فهو قاعدة المنار الذهبية التي بيناها مراراً وهي أن نتعاون على ما نتفق عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه .

فأهل السنة متفقون مع الشيعة : على أركان الإسلام الخمسة ، وعلى تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعلى محبة آل البيت عليهم السلام وتعظيمهم ، وعلى جميع المصالح العرضية من سياسية واقتصادية وفي البلاد

---

(١) علق فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز على هذه الكلمة قائلاً : « نعم يجب علينا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه من نصر الحق والدعوة إليه والتحذير مما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فليس على إطلاقه بل هو محل تفصيل فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها فالواجب الإنكار على من خالف النص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة ٢] وقوله سبحانه ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [التوبة ٧١] إلخ (ما ذكره من آيات وأحاديث (ص ١٤ ، ١٥ من تنبيهات الشيخ في الرد على الصابوني) والظاهر أن هذا التفصيل في عذر المخالف يأخذ به رشيد رضا ولذلك إذ هو لا يوافق على عذر العاملي لما صرح بالشرك كالوثنية كما سبق قريباً . وسيأتي في كلامه على ما يمكن الاتفاق فيه والعذر ما يدل على ذلك في الجملة والله أعلم .

(٢) انظر ص ٢٠٨/ ٢ من السنة والشيعة .

العربية على إعلاء شأن الأمة العربية ولغتها . . . . إلخ واستغلال بلادها وعمرانها ، فيجب أن يتعاونوا على ذلك كله .

وهم يختلفون في مسألة الإمامة (وقد مضى وانقضى الزمن الذي كان فيه هذا الخلاف عميقاً) ، وفي المفاضلة بين الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وفي عامة الأئمة الإثنى عشر مع مسائل أخرى تتعلق بصفات الله تعالى وفيما دون ذلك من الفروع العملية .

فلكل من الفريقين أن يعتقد ما يطمئن إليه قلبه ، ويعمل بما يقوم عنده الدليل على ترجيحه أو يقلد فيه من يثق بهم من العلماء ، ويبين ذلك قولاً وكتابة من غير طعن في عقيدة الآخر ، ولا في الصحابة وأئمة العلماء المجتهدين والمحدثين » (١)

ويلاحظ على كلام رشيد رضا هنا عدة أمور

(الأول) أن ذكره لأوجه الاتفاق أدخل فيها (أركان الإسلام الخمسة) وهذا يقتضي أنه إنما يقصد التنبيه على التوحيد الذي دلت عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فهو يخرج من وقع في الشرك الأكبر من الغلاة من الطرفين .

(الثاني) أن تركيزه على المصالح السياسية والاقتصادية يدل على أن كلامه كان في وقت حرج ، مشوب بالاضطرابات السياسية ، ولذا فإن الوحدة آنذاك ولو ظاهراً كانت ضرورة لردع المستعمر (بل المستخرب) الأجنبي ولكن بتغير الأوضاع السياسية الآن ، يمكن أن تزاد شروط في شأن هذه الوحدة يجتمع

---

(١) انظر ص ٢٠٨/ ٢ من السنة والشيعة .

عليها كل من الطرفين .

(الثالث) لعل مستند رشيد رضا في المسائل الخلافية التي ذكرها ، أن ليس فيها ما يكفر ، أما مسألة التفضيل فقد نقل شيخَ الإسلام عن إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله عدم تكفير من فضل علياً على أبي بكر ، قال في كلام له « وكذلك الشيعة المفضلون لعلي على أبي بكر ، لا يختلف قوله (يعني أحمد) إنهم لا يكفرون فإن ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً ، وإن كانوا يبدعون » (١) وكذلك في قوله « مع مسائل أخرى تتعلق بصفات الله تعالى » فإنه من المعلوم أن كثيراً من الشيعة معتزلة في باب الصفات ، ولم يطلق أهل السنة تكفير جميع المعتزلة ، وإنما المشهور عنهم تكفير الجهمية .

قال شيخ الإسلام (المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن ، فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت بن الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع ، ففيه جحود الرب ، وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله (٢) . . . .

ويقول أيضاً : « والكفر هو من الأحكام الشرعية ، وليس كل من خالف شيئاً علم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون هوله كفراً في الشريعة ، وأما من خالف ما علم أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء به فهو كافر بلا نزاع (٣) .

فيتبين من كلام شيخ الإسلام أن ضابط الكفر هو أن يكون هذا القول ، أو

---

(١) انظر ص ٤٨٦/ ١٢ من الفتاوى .

(٢) انظر ص ٤٨٥/ ١٢ من الفتاوى .

(٣) انظر ص ٥٢٥/ ١٢ من مجموع الفتاوى .

المذهب كفراً في الشريعة ، ويكون صاحبه علم أنه مخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأما من تأول بعض صفات الله قصد التنزيه ، فهو ليس كافراً ، وإنما هو مبتدع له حكم أمثاله ، لاسيما إذا أقيمت عليه الحجة الرسالية فتأولها .

وأما الفروع العملية ، فهي دون ذلك بكثير فلا تحتمل تكفيراً ، ومن أقصى ما عندهم فيه مخالفة لأهل السنة هو نكاح المتعة ، والمشهور من مذهب ابن عباس رضي الله عنه أنه لا يباح إلا للضرورة ، ولذلك شبهه بالميتة يعني لا يتعاطاه الإنسان إلا إذا لم يجد نكاحاً وخاف على نفسه الزنا وإليه أشار ابن القيم رحمه الله في الزاد(١) ، وقيل أن ابن عباس رجع عنه والله أعلم .

وعليه فالخلاف بين السنة والشيعة فيها إنما هو في حلها بغير حاجة أو ضرورة ، أو حرمتها مطلقاً ، ولا تكفير في ذلك .

(الثالث) أما الأمر الذي يحتاج إلى تأمل ووقفة هو قوله : « فلكل من الفريقين أن يعتقد ما يطمئن إليه قلبه ، ويعمل بما يقوم عنده الدليل على ترجيحه ، أو يقلد فيه من يثق بهم من العلماء ، وأن يبين ذلك قولاً وكتابة ، من غير طعن في عقيدة الآخر ، ولا في الصحابة وأئمة العلماء المجتهدين والمحدثين » فقد وضع السيد رشيد هنا عدة مقامات : « الأول » : قد جعل لكل من الفريقين اعتقاد ما يطمئن إليه القلب والعمل بالدليل ، ولكن هذا الضابط غير دقيق ، بمعنى أن ما يطمئن إليه قلب هذا قد لا يكون موافقاً للحق ، ثم هو لم يذكر عند قوله الدليل مصدر التلقي « الكتاب والسنة » ، فإن الشيعة

---

(١) انظر ص ٤٦١ ، ٤٦٢ / ٣ من زاد المعاد لابن القيم تحقيق الأرناؤوطيين طبعة مؤسسة الرسالة ط ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .

لا يعترفون بهما ، أما الكتاب فرأيهم أنه محرف وأما السنة ، فلا يأخذون ما رواه أئمة أهل السنة ، وكثير منهم يعطل الكثير من الدين حتى يظهر الإمام المعصوم (في زعمهم) .

والمقام الثاني : مقام التقليد وهو أخطر من سابقه لأن مجتهدي الشيعة يحظرون على العوام النظر ، ويبثون سمومهم فيهم بنوع من الإرهاب الفكري ، إن صلح هذا التعبير وغالب الظن أن السيد رشيد إنما مهد بذلك الكلام إلى المرحلة الثالثة وهي جذب الشيعة إلى نور السنة والهدى بدليل أنه أطلق في آخر كلامه أن يكتب كل من الفريقين عقيدته ، وهو يريد أن يتوصل بهذا إلى أن يقرأ الشيعة ما يكتبه السنة ، وبذلك يمكن نزع الخلاف إذا تمسكت الشيعة بعدم الطعن في الصحابة وأئمة العلماء والمجتهدين والمحدثين .

وقد ذهب السيد رشيد إلى أبعد من هذا في خطوات الاتفاق فأفتى بجواز تزوج الشيعي الإمامي بالمسلمة يقول : « واستدللت بأن الخاطب من الشيعة الإمامية وهم مسلمون لا من البابية ولا البهائية المارقين من الإسلام ، وإنما يمتنع تزويج هؤلاء والتزوج منهم » (١) أهـ .

ولكن هل يرى أهل السنة أن يُنكح الرجل ابنته إلى « مبتدع » على بدعة مثل الرفض ولو سُلّم أنه « مسلم »؟؟

---

(١) انظر ص ١١٦/ ٢ من السنة والشيعة وانظر فتوى شبيهة بذلك في ص ١٩٩/ ١ من فتاوى الإمام محمد رشيد رضا والجدير بالذكر أن كلام السيد رشيد في البابية والبهائية ، إنما كان عن قرب ، واطلاع على معتقداتهم ولذلك نجده يناظر محمد عبده في ذلك بل قال له (إن كلامكم السابق واللاحق عين ما يحتج به البابية، و لم تخالفوهم إلا في شيء واحد– (وهو كل شيء في المعنى)– وهو أنكم حققتم أنه لا يمكن تغيير شيء من أصول الإسلام وشريعته » انظر ص ٩٣١/ الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام وانظر فتواه في البهائية في فتاوى رشيد رضا ٣/ ١٢٩ وما بعدها .

الأظهر من أقوال العلماء المنع وهو ما أفتى به شيخ الإسلام ابن تيمية فقد سئل عن « الرافضة » هل تزوج ؟ فأجاب « الرافضة المحضة هم أهل أهواء وبدع وضلال ، ولا ينبغي للمسلم أن يزوج موليته من رافضي ، وإن تزوج هو رافضية صح النكاح ، إن كان يرجو أن تتوب ، وإلا فترك نكاحها أفضل لئلا تفسد عليه ولده والله أعلم (١)

وفي فتوى أخرى قال : « لا يجوز لأحد أن يُنكح موليته رافضياً » (٢) ويظهر من كلام شيخ الإسلام أنه يتكلم عن رافضة من أهل الأهواء هم مسلمون لم تكفرهم بدعتهم بدليل تصحيحه نكاح الرافضية ، ولو كانت مرتدة لما صح النكاح ولكنه فرق بين إنكاح الرافضي فمنعه لبدعته ، وبين نكاح الرافضية فكرهه وصحح وقوعه . بشرط رجاء التوبة ، وهذا القول أقرب من قول السيد رشيد لروح الشرع والإسلام .

من خلال ما تقدم يمكن تلخيص رأي السيد رشيد في الشيعة والتشيع على النحو الآتي :

١ - ينقسم الشيعة إلى معتدلين وهم الزيدية وبعض الإمامية ، وإلى غلاة، وهم الرافضة

٢ - ظهرت البدع الكفرية في الشيعة الغلاة كأمثال بدع البهائية والبابية .

٣ - الشيعة الغلاة ليسوا محل البحث في الاتفاق معهم لعقائدهم الباطنية والشركية .

---

(١) انظر ص ٣٢/٦١ من مجموع الفتاوى .

(٢) المصدر السابق .

٤ - عوام الشيعة ومعتدلوهم يمكن الاتفاق معهم بشروط فيهم وبشروط في الاتفاق .

أما التي فيهم فهي : أن يكونوا مسلمين متمسكين بشعائر الإسلام وأركانه وبالبعد عن المحرمات الظاهرة وتحريم الفواحش ، وأما التي في الاتفاق . . فهي أن يكون الاتفاق مشروطاً بعدم الطعن في الصحابة وأئمة السنة ، وأن يباح لعلماء الطرفين توضيح المعتقد والمنهج .

وألا يتعدى الخلاف المسائل التي في الإمامة والمفاضلة ونحوها إلى مسائل تتعلق بالإيمان والكفر كدعاء غير الله ، وتكفير عامة الصحابة ونحو ذلك .

وبهذه الشروط ، وتلك النقاط كان موقف السيد رشيد من الشيعة ، ولكن هل استجاب له أحد ، .

الذي حدث هو أنه لم يستجب له أحد بكتاب أو مقال ، وهو المتوقع من هؤلاء الزنادقة ، ولذا ولاغرو أن نجد رجل عقيدة مثل محمد حامد الفقي يعلق على كلام السيد رشيد بأن الشيعة قد فُضحت مخططاتها ، وانتشرت سمومها بحيث لوعاش رشيد رضا إلى الآن لغير رأيه في هؤلاء .

والعجب أن في عصر السيد رشيد كانت الاتجاهات متباينة حول هذا الأمر فبينما كون عبد الوهاب عزام وطنطاوي جوهري ومصطفى عبد الرازق جماعة الإخوة الإسلامية ونشطوا في هذا التقريب (١) .

---

(١) انظر ص ٥٠٩ من رسالة ماجستير في فكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة لناصر بن عبد الله بن علي القفازي - إشراف د. الفوزان - كليه أصول الدين جامعة الإمام سنة ١٤٠٢م .

نجد أن الأستاذ محمد عبده كما نقل عن السيد رشيد كان يرى في مذهب الشيعة رأياً أشد من رأي ابن تيمية ، وإن كان ظاهره لا يفصح عن ذلك (١) .

ولكن الآن بعد رحيل السيد رشيد ، وضحت الصورة لكل ذي عينين ، وأنقل مقتطفات تعليق الشيخ محمد حامد الفقي على ماكتبه السيد رشيد ، يقول بعد أن ذكر علم رشيد رضا وحبه للإسلام والاجتماع :

« لقد كان شيخنا حكيم الإسلام مخلصاً صادقاً أن تجد دعوته من الشيعة آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، لتفيء إلى الرشد والجماعة ، ولا تتمادى في ضلالها القديم وغيها البعيد . . .

ولقد كشفت الأيام عن حقيقة ما تنطوي عليه الشيعة من شديد الضغن على الإسلام وعناصره القوية التي قام عليها مجده الغابر . . .

فلقد كان هذا الستر والإخفاء الشديد لكتبهم ، والظهور أمام العالم الإسلامي بغير حقيقتهم سبباً في أن كثيراً من العلماء المسلمين الصادقين في مختلف العصور حسبوا الشيعة فرقة من المسلمين ضلوا بعض الضلال ، فخاطبوهم بلسان الإخوة الإسلامية ، ودعوهم بذلك إلى أن يفيئوا إلى ظل الوحدة الإسلامية تحت راية الكتاب . . . . » ثم أخذ الشيخ حامد يسرد بعض فضائح الشيعة وكتبهم الإلحادية ، ومنشوراتهم الباطنية ثم قال « ورحم الله أستاذنا حكيم الإسلام السيد رشيد ، وأسكنه فسيح جناته ، فلقد بذل كل

---

(١) انظر ص ٩٣٤/ الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام حيث قال حاكياً كلام محمد عبده : « وفي الحقيقة أن مذهب الشيعة » . . .

(وذكر ما لم يأذن لي بنقله عنه في حياته وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته وإنما أقول إن حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الإسلام ابن تيمية) أهـ بلفظه .

عناصر حياته في البحث والمعرفة ، وقضى عمره في الصدع بما عرف من الحق ، والحرب العنيفة لكل ما عرف من الباطل ، ولو أنه وقف على ما وقفنا عليه ، وعرف عن الشيعة من كتبهم ما عرفناه لقال أكثر مما نقول ، وأعلن بأشد مما نعلن من التحذير من القرب منهم ، ومن تغريبهم ، لكنه رحمه الله عرفنا الطريق ، وأناره لنا ، ودفعنا إليه بكلتا يديه فسرنا على هذا في البحث والتمحيص ، ونطقنا بلسانه في الحق نمحصه ، ونجلوه من جميع جوانبه ، ونؤمن به وندعو إليه في صراحة وقوة . . . . ونقول ذلك بعد أن خرجت كتب الشيعة من وثاق التقية والكتمان ، ووقعت في أيدي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وعرفوا منها حقيقة هذه الحية الخبيثة (الشيعة) .

ولعلك تسأل متعجباً : ما هو السر الذي حمل هؤلاء الشيعة أن يستهينوا في هذه الأعصر الأخيرة بأصل دينهم ورأس أمرهم (التقية) حتى فكوا عقل كتبهم وبعثوا بها أوعية ملئت بعصارة سموم الحية الخبيثة حتى أطلقوها تسعى مشرقة ومغربة ، وهم آمنون أن تنالها نعال المسلمين فتسحقها ، وتهريق سمومها في مجرى القاذورات .

أجيبك عن ذلك فتدبر ما أقول لك جيداً ، إنهم توهموا أو تحققوا أن سمومهم التي طالما نفثوها في استخفاء على ألسنة الصوفية ، وغير الصوفية من الذين تسمع الأمة لنعيقهم بدون وعي ولا تعقل ، قد بلغت غايتها في الأمة فمزقتها بالوثنية والتقاليد الخرافية والأوهام والأماني الكاذبة ، وأن الأمة قد انحلت عنها عرى الدين والحق ، وتقطعت من أيديها كل أسباب الحياة . . . .
» أهـ ثم أخذ يدلل على رأيه ولنا وقفة ختام : هل صحيح أن رشيد رضا كان يحسن الظن بالشيعة ولم يكن يعلم حقيقة قولهم كما ظهر ذلك من كلام الشيخ محمد حامد الفقي ؟ !!!

الذي يترجح لي أن السيد رشيد كان يعلم كثيراً عن الشيعة إلا أنه أخذهم في مراحل وقسمهم إلى المعتدلين والغلاة كما مر قريباً ، ولكنه كان يريد استمالتهم تحت جناح الإسلام الصحيح فيذوبون وتنتهي هذه المشكلة القائمة على مر العصور أي مشكلة (الشيعة) .

ولكن ليس بمستبعد أيضاً أن تخفى بعض الوثائق المتعلقة بالشيعة عن السيد رشيد وربما لو اطلع عليها لعدل في خطته أو وجهها ، ولا ريب أن تلميذه الشيخ محمد حامد الفقي أعلم به وبعصره فلذا أرى أن رأيه كذلك في محل الاحترام ، مقدم على غيره في الجملة والله أعلم .

وفي نهاية الحديث عن الشيعة أنقل كلاماً هاماً للشيخ محمد رشاد سالم رحمه الله عن مسألة التقريب بين الشيعة سطره في مقدمته لكتاب شيخ الإسلام (منهاج السنة) وهو نفيس على طول فيه أنقله بهوامشه .

يقول :

« ولقد قامت جماعة تقول بوجوب التقريب بين « المذاهب » الإسلامية وعدم جواز التعرض للخلافات بين الفرق الإسلامية المختلفة ، حتى نحافظ بذلك على وحدة الصف بين جميع المسلمين وعلى هذا الرأي يكون نشر كتاب مثل « منهاج السنة » فيه نقد لمذهب الشيعة والمعتزلة مما يزيد الخلاف ويشيع الفرقة ، وهو ما يجب أن نعمل على تلافيه وتجنبه .

ولا ريب أن اتحاد المسلمين واجتماع كلمتهم هو ما يجب أن يسعى إليه جاهداً كل مسلم غيور على دينه مخلص لعقيدته ، على أن هذا الاتحاد يجب أن يكون على الحق لا على الباطل وعلى أساس التمسك بالكتاب والسنة كما أمرنا الله تعالى بذلك في قوله :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٣]

وحبل الله هو كتاب الله (١) .

وكما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم في خطبة حجة الوداع : « إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه » (٢)

وعلى الرغم من هذا الأمر فإن طوائف من المسلمين أبت إلا أن تفعل فعل اليهود والنصارى من قبل فتخرج على الجماعة وتشق عصا الطاعة وهم الذين حدثنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عنهم وحذرنا منهم وأمرنا بمخالفتهم كما في حديث معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار ، وواحد في الجنة وهي الجماعة » وكما في وصيته صلى الله عليه وعلى آله وسلم التي رواها العرباض بن سارية رضي الله عنه : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (٣) .

---

(١) انظر وجوه تفسير الآية في : تفسير الطبري ٧/ ٧٠ - ٧٦ (ط المعارف) . وانظر إشارة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله (في تعليقات ص ٧٣) إلى حديث زيد بن أرقم في المسند والترمذي ومسلم وابن حبان وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : «كتاب الله هو حبل الله».

(٢) قال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٤٤ (ط . القاهرة ١٣٥٢/ ١٩٣٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٤١ -٤٣ ، وقال : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وإذا بحثنا أسباب الخلاف بيننا - معشر أهل السنة والجماعة - وبين الشيعة وجدنا أننا نعظم علياً رضي الله عنه ونحب أهل البيت ونقول إن علياً من أفضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإنه الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين المهديين ، ونحن إلى جانب ذلك نحب كل صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونترضى عليهم ونلتمس العذر للمخطىء منهم . أما الشيعة فهم يرفعون عليا والأئمة إلى مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء فيقولون بعصمتهم ويغلون فيهم غلواً شديداً ، وإليك ما ينقله دونالدسن عن أحد أئمتهم وهو المجلسي في كتابه « حياة القلوب » حيث يقول : « وتدل بعض الأخبار المتيسرة التي سنذكرها فيما بعد إن شاء الله أن مرتبة الإمامة أعلى حتى من مرتبة النبوة فإن الله تعالى بعد أن أعطى النبوة لإبراهيم خاطبه بقوله : ﴿ **إني جاعلك للناس إماماً** ﴾ [سورة البقرة ١٢٤](١) ثم ينقل المجلسي عن : «ابن بابويه (الصدوق) في « المجالس » وفي « إكمال الدين » أن الإمام زين العابدين (ع) كان يقول : نحن أئمة المسلمين وحجج الله على سادات المؤمنين وقادته الغر المحجلين وموالي المؤمنين وسادتهم ونحن أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة وتخرج بركات الأرض ، ولو لا ما في الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو

---

(١) قال في الهامش انظر الترجمة العربية لكتاب عقيدة الشيعة لدونالدسن حيث ينقل نص كلام المجلسي الذي أوردناه هنا ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، ط .

الخانجي ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ . وهذا الكلام منقول عن حياة القلوب للمجلسي ج ٣ ، ص ١ ٢٣ .

غائب مستور ، ولا تخلوا إلى أن تقوم الساعة عن حجة لله ولولا ذلك لم يعبد الله » (١)

ويتصل بالكلام عن الأئمة عند الشيعة الإمامية كلامهم عن المهدي وهو الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري وهم يروون عنه أعجب الأساطير فيزعمون أنه عندما ولد كان ساجداً لوجهه رافعاً سبابتيه للشهادة ثم عطس وقال : « الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد وآله ، زعمت الظلمة أن حجة الله داحضة ، لو أذن لنا في الكلام لزال الشك » ويزعم الإمامية أيضا أنه بعد أن ولد المهدي كلم أباه الحسن العسكري بلسان عربي فصيح وشهد الشهادتين وصلى على الأئمة ، ثم هبطت طيور من السماء وخفقت بأجنحتها عند رأسه ، فنادى الإمام العسكري واحد منها ودفع إليه المولود وقال : خذوه وأرضعوه وردوه إلينا كل أربعين يوماً ، فأخذه الطائر وصعد به إلى السماء ، ثم أمر الإمام باقي الطيور بمثل ذلك فطاروا وراءه ، وقال : استودعتك الذي استودعت أم موسى وقالت حليمة - عمة الطفل - إنها ذهبت بعد مرور أربعين يوماً لزيارة ابن أخيها فإذا بالصبي من الأئمة كلما أتى عليه شهر كان كمن أتت عليه سنة ، وأنه يتكلم في بطن أمه ويقرأ القرآن ويعبد ربه عز وجل وتعلمه الملائكة وتنزل عليه صباحاً ومساءً (١)

---

(١) عقيدة الشيعة ، ص ٣٠٧ .

(١) قال في الهامش : عقيدة الشيعة (الترجمة العربية) ص ٢٣٤ - ٢٣٥ . وينقل دونالدسن هذه الأخبار عن : بحار الأنوار للمجلسي ج ١٣ ، ص ٢-٤ (الترجمة الفارسية) ، حق اليقين للمجلسي أيضاً ، ص ١٤٦ ، كمال الدين لابن بابويه القمي ، ص ٢٤٠ ، كتاب إثبات الوصية للمسعودي ص ١٩٥ - ٢٠٠ .

وهذا هو ثواب زيارة قبر علي عند الإمامية : روي عن الإمام جعفر الصادق أنه قال : « من زار أمير المؤمنين عارفاً بحقه غير متجبر ولا متكبر كتب الله له أجر مائة ألف شهيد وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وأتى رجل الإمام الصادق وأخبره أنه لم يزر أمير المؤمنين فقال له : « بئس ما صنعت لولا أنك من شيعتنا ما نظرت إليك ، ألا تزور من يزوره الله مع الملائكة ويزوره الأنبياء ويزوره المؤمنون » (١) .

ومن أصول الشيعة الهامة القول بالتقية ومعناها أن يظهر الشيعي إذا اجتمع بمخالفيه غير ما يبطن ، وأن يتظاهر بموافقتهم حتى يتمكن من كتمان أمره عنهم واتقاء شرهم . وقد أصبحت التقية عند الشيعة صفة مميزة لهم وخلقا من أخلاقهم ووسيلة لتفسير كل أحداث التاريخ ، فسكوت علي على أبي بكر وعمر وعثمان كان تقية ، وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية كان تقية وبعض أئمة الشيعة إنما يختفون ويتسترون تقية وقد روى الكليني عن أبي عبد الله أنه قال : تسعة أعشار الدين في التقية ، ولا دين لمن لا تقية له ، والتقية في كل شيء إلا في النبيذ والمسح على الخفين . وينسب الشيعة إلى بعض أئمة أهل البيت أنه قال : من صلى وراء سني تقية فكأنما صلى وراء نبي » (٢)

ويصف جولد تسيهر التقية فيقول : « من اليسير أن نتصور أي مدرسة للمخاتلة والغدر تنطوي عليها تعاليم مبدأ التقية الذي أصبح ركنا من أركان المذهب الشيعي » (٣) .

---

(١) عقيدة الشيعة ، ص ٧٩ نقلاً عن تحفة الزائرين للمجلسي ، ص ٥٠ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ٣/ ٢٤٧ - ٢٤٨ (ط . القاهرة ، ١٣٦٨ / ١٩٤٩) .

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص ١٨١ .

والتقية فوق ذلك تمثل النظام السري الذي التجأ إليه الشيعة في حربهم لخصومهم « فإذا أراد إمام الخروج والثورة على الخليفة وضع لذلك نظاماً وتدابير وأعلم أصحابه بذلك فتكتموه وأظهروا الطاعة حتى تتم الخطط المرسومة »(١) . وفي مثل هذه الأنظمة السرية يكون المجال واسعاً لكل مدع محتال إذ يستطيع عن طريقها أن يبتدع ما شاء له هواه من الآراء والمذاهب ثم ينسبها إلى الإمام المختص حتى تشيع وتنتشر ويؤمن بها العوام وهي محض اختلاق وكذب .

ومن الأمور التي يؤمن بها الشيعة الإمامية الاعتقاد بالرجعة ، فهم يزعمون أنه في اليوم الذي سيظهر فيه المهدي سيرجع إلى الدنيا كل من أخلص في الإيمان وكل من أمعن في الكفر .

والقصد من هذه الرجعة كما قال المجلسي أن ينتقم المهدي من أعدائه الذين يشاهدون من ظهور كلمة الحق وعلو كلمة أهل البيت ما أنكروه عليهم .

وسيرجع مثلاً الحسين بن علي ومن استشهد معه كما سيرجع يزيد بن معاوية وأنصاره فينتقم منهم الحسين وجيشه انتقاماً سريعاً وسيرجع علي رضي الله عنه ومعه عصا موسى وخاتم سليمان فيلتقي بأصحابه قرب الكوفه ثم يذهب معهم لقتال الشيطان وجميع أتباعه الذين تمكن من إغوائهم ويستمر القتال بين الجيشين حتى يأتي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم على رأس الملائكة فيقتل الشيطان ويغني جيشه(٢) . ويقول الشريف المرتضي : إن أبا بكر

---

(١) ضحى الإسلام ٣/ ٢٤٧ .

(٢) انظر : عقيدة الشيعة ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ (نقلاً عن حق اليقين ،ص ١٦٠ ، بحار الأنوار (الترجمة الفارسية) . ج ١٣ ، ص ٣٣٥ ، ٣٤١) .

وعمر يصلبان على شجرة في زمن المهدي » (١) .

والشيعة الإمامية يجيزون سب أكثر صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، بل يتقربون إلى الله بلعنهم ، وينصون على ضرورة تكفير الصحابة مثل أبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين .

على أن الإمامية يتفاوتون في التصريح برأيهم أو التلميح به ، فمحمد مهدي الكاظمي القزويني في كتاب (منهاج الشريعة في الرد على ابن تيمية) وهو الكتاب الذي ألفه رداً على كتاب (منهاج السنة) يبدأ بالنص على تجويز سب الشيخين - رضي الله عنهما - فيقول إن من يسبهما معذور لكونهما قد تآمرا على العترة وتقدما عليهم فضلاً عن وجود خبر : « ستة لعنتهم » وخبر « ليس يضل بعدي عنها الهالك » . ثم يقول : « فهذه بعض أدلة الساب ، وهي أدلة ثابتة الصحة عند من تابعهما ، وليس لها معارض ، بل لها ما يعضدها مما صدر منها من المخالفات للشريعة والمشاقات لله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حسبما يأتي البيان ، فمن فسق من سبهم فهو على خطر عظيم لدخوله في خبر : وقاض قضى بجور وهو يعلم فهو في النار ، لعلم المفسق بأنهم مستحقون للسب بالسنن المشار إليها » (٢) على أنه مايلبث أن يصرح بكفر أهل الجمل وصفين لمحاربتهم إمام زمانهم ويستدل على ذلك بخبر : « وانصر من نصره واخذل من خذله » ففيه « دليل على نفاق حتى من لم يحارب معه ولم يحاربه ، فإن من خذله الله ليس بمسلم ، فعلم مخالفتهم وتركهم لهذه

---

(١) ضحى الإسلام ٣/ ٢٤٦ .

(٢) منهاج الشريعة في الرد على ابن تيمية ، ص ٥٠ - ٥١ .

السنن جميعا في حكمهم بأن من حارب عليا مسلم » (١) .

ويذكر الأستاذ أحمد أمين أن الإمامية : يروون عن الصادق : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : من ادعى إمامة ليست له ، ومن جحد إماما من عند الله ومن زعم أن أبا بكر وعمر لهما نصيب في الإسلام » . ثم يقول أحمد أمين : « وأكثروا من لعن أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وغيرهم ، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا لعنهم قربة إلى الله ولهم أدعية مأثورة في لعن هؤلاء وأمثالهم » (٢)

ويفسر الشريف المرتضي الآية الكريمة : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ [سورة الفتح : ١٦] فيقول : « فأما الوجه الذي نسلم فيه أن الداعي لهؤلاء المخلفين هو غير النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فبين أيضا ، لأنه لا يمتنع أن يعني بهذا الداعي أمير المؤمنين عليه السلام لأنه قد قاتل بعده أهل الجمل وصفين وأهل النهروان وبشره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه يقاتلهم ، وقد كانوا أولي بأس شديد بلا شبهة وليس لهم أن يقولوا إن ذلك لا يمكن حمله على من قاتله عليه السلام من حيث قال : (تقاتلونهم أو يسلمون) والذين حاربوه كانوا على الإسلام ولم يكونوا على الكفر .

وذلك أن أول ما فيه أنهم غير مسلمين عند جمع من خالفنا من المعتزلة لأن عندهم أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا مسلم لأن الإيمان والإسلام عندهم شيء واحد .

---

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣) ضحى الإسلام ٣/ ٢٥٠ ويشير المؤلف إلى رجوعه إلى كتاب (الكافي) للكليني ٣/ ٣٩١ .

وأما مذهبنا في محاربي أمير المؤمنين عليه السلام فمعروف لأنهم عندنا كفار بحربه لوجوه نذكر منها طرفاً هاهنا ولاستقصائها موضع آخر » (١) .

وأبو بكر وعمر كفرا عند الشريف المرتضي لأنهما خالفا نص النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خلافة علي . وإذا قال أهل السنة : كيف يعظم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبا بكر مع علمه بكفره ؟ يرد الشريف المرتضي بقوله : إن الأخبار التي وردت في ذلك غير صحيحة ، ثم يقول :

« وما في تعظيمه ومدحه لو ثبت فما يدل على صلاحه للإمامة ، أوكل معظم ممدوح يصلح لها ؟ وهذا مما لا يقولونه ولا يقوله أحد . فإن قالوا : نفينا بتعظيمه ومدحه كونه كافراً ليثبت به إيمانه ، قيل لهم : إنما يمنع تعظيمه ومدحه إياه من كونه مظهراً للكفر ولا يمنع من كونه مبطناً له ، إذ كان لا يعلم باطنه ، فمن أين أن المدح والتعظيم يدلان على الإيمان الباطن : فإن قالوا : كيف تسلمون أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يعظمه على الظاهر ، وعندكم أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يعلم أنه سيدفع النص ، وذلك عندكم كفر وردة ، والكفر الذي يوافي به صاحبه على مذاهبكم لا يجوز أن يتقدمه إيمان ، فكيف يجوز على هذا أن يعظمه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يعلم من باطنه ما يقتضي خلاف التعظيم ؟ قيل لهم : ليس يمتنع أن يكون النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم غير عالم بأنه سيدفع النص ، لأن هذا لا طريق له إلا بإعلام الله تعالى له ، وفي الجائز ألا يعلم ذلك » (٢)

---

(١) كتاب الشافي في الإمامة لعلي بن الحسين بن موسى المعروف بالشريف المرتضي (م . سنة ٤٣٦ هـ) ٤٠٥ . ط ١٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٧

ولا عجب بعد ذلك كله أن نقبل ما يرويه لنا شاه عبد العزيز الدهلوي من أن الإمامية يجعلون اليوم الذي قتل فيه أبو لؤلؤة المجوسي (ويسمونه بابا شجاع الدين) عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أيام أعيادهم ويسمونه يوم العيد الأكبر ويوم المفاخرة ويوم التبجيل . . . إلخ (١) فكيف نتحد - معشر أهل السنة - مع من يكفر الصديق والفاروق وأم المؤمنين وأحب نسائه إليه وطلحة والزبير وغيرهم من أجل الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى عن سبهم ؟

فعن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

وكيف تتم الوحدة مع من يغلون في دينهم وأئمتهم غلوا شديداً ويحرفون الكلم عن مواضعه ويحدثون في شريعة الله ما لم يأذن به الله ؟

إن مناقشة الشيعة ونقد أصولهم وآرائهم نقداً علمياً هو الكفيل بتصحيح الأوهام وتقويم الانحرافات ورد الصف إلى الالتئام والاجتماع ، وإذا كان الخلاف يراد به البحث عن الحقيقة والتماس الصواب بدون عصبية أو حقد ، فهو ولا شك أفضل من كل وحدة زائفة تخفي وراءها ضغينة وعداوة وتظاهرا بمالا تنطوي عليه القلوب » (٣) .

---

(١) مختصر التحفة الإثنى عشرية ، اختصار السيد محمود شكري الألوسي ، نشر وتحقيق أستاذنا (والكلام لرشاد سالم) السيد محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٧٣ .

(٢) الحديث في البخاري ٥/ ٨ ، مسلم ٧/ ١٨٨ ، سنن أبي داود ٤/ ٢٨٧ .

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم من ص ١٢٦ : ص ١٣٦ .

الباب الثالث

الاتجاهات المعادية والاتجاهات الموافقة

خصوم ، وأصدقاء

أولاً : الخصوم والأعداء (الاتجاهات المعادية)

لقد كان من الطبيعي أن يكون لكل مصلح ، ولكل مرشد عالم ، خصوم وأعداء ، لايذهبون لرأيه ، ولا ينتهجون منهجه ، وقد يدفع الحسد بعضهم فيكيل الاتهامات ، يُبرز العداء ، ولا يألو جهداً في الطعن والتشهير وقد ابتلي السيد رشيد بعدة طوائف ناصبته العداء وحالت دون استمراره في الإصلاح الذي نشده منذ أن وطئت قدماه أرض مصر .

ومن العجب أن كثيرًا ممن ناصبوه العداء كانوا على طرفي نقيض ، فنجد على سبيل المثال أن من مخالفيه متبعي مدرسة المنهج العقلي ، وأيضا خصوم هذا المنهج ،

وسأحاول في هذه السطور أن أوجز خصومات السيد رشيد مع التعليق عليها كلما احتاج الأمر إلى ذلك:

أ - الخصومة بينه وبين أتباع المدرسة العقلية الحديثة (*)

لقد كانت هذه الخصومة نابعة من منهج السيد رشيد ذاته ، إذ تحول منهج السيد رشيد كلما امتد به العمر عن منهج عبده والأفغاني وازداد سلفية وترك

(*) هذا بالاصطلاح الدارج ، والأدق القول أنها المدرسة التي تزعم أنها عقلية وإلا فمخالفة نصوص الكتاب والسنة دليل على فساد العقل .

كثيراً مما كان عليه يوم جاء إلى مصر في أول عهده في الطلب والإصلاح ، حتى لقد منع من الدخول من الماسونية (١) رغم أنه يعلم أن عبده والأفغاني دخلاها وقد أدرك أتباع المدرسة العقلية من تلاميذ الشيخ محمد عبده تحوله من منهج شيخه ، وجرت بينه وبينهم مناقشات حادة في الصحف . وكثيراً ما هاجموه وهاجموا آراءه الجديدة ، ومن هؤلاء الأستاذ محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة المصرية ، فقد فتح مجلته للهجوم على السيد رشيد رضا ، ويذكر السيد رشيد أن السبب في ذلك هو وقوفه ضد علي عبد الرازق وكتاب « الإسلام وأصول الحكم » الذي أنكر فيه التشريع

---

(١) والماسونية كانت تظهر نفسها كمذهب اجتماعي يذيب الفوارق بين الاتجاهات المختلفة لمصلحة الوطن إلا أن السيد رشيد كان على علم بحقيقتها التي ربما لم يعلم بها سلفاه، يقول السيد رشيد عنها : « فلم يكن لها ثمرة إلا إعداد النفوس لفصل السياسة والحكومة عن الدين والاستغناء عن الشرع بالقوانين والمؤاخاة بين المسلمين وغيرهم وموالاتهم لهم » انظر فتاوى السيد رشيد ج ٣ ص ١١٢٢ .

وأما دخول الأفغاني ومحمد عبده الماسونية فقد اعتذر لهم الكثيرون بأنهما دخلاها ولم يعلما حقيقتها ، وكان غرضهم من الدخول محاولة إيصال حكم الإسلام لهؤلاء والاستعانة بهم لمقاومة الحكام المستبدين انظر فصل (١ انظام الأفغاني المماسونية) من كتاب جمال الدين الأفغاني (د. علي عبد الحليم محمود واستدل لذلك) .

يحسن هنا أن ألخص موقف رشيد رضا من الماسونية فهو يراها :

١- جمعية سياسية لإزالة استبداد الملوك وسلطة البابوات .

٢- الواضع لأساسها الأول هم اليهود وغرضهم إعادة ملك سليمان .

٣- هم السبب في هدم الحكومة التركية الإسلامية .

٤- يمنع من الدخول فيها وذلك لأنه بعد ذكره لحقيقتها وغرضها قال لسائليه (إذ قد عرفتم حقيقتها وغرضها فقد عرفتم حكم الدخول فيها) وانظر فتاويه في ذلك في مجموع فتاوى رشيد رضا (ص ٩٧٧ ، ١١٢١ ، ٢٠٦٢) .

الإسلامي من أساسه (١) ومن هؤلاء الخصوم أيضاً : الشيخ عبد العزيز جاويش والأستاذ محمد فريد وجدي ، فقد حاربوه على صفحات مجلتهم (العلم) الناطقة باسم الحزب الوطني ، ووصفوا جمعية الدعوة والإرشاد ومدرستها التي يقوم السيد رشيد رضا برئاستها بأنها تعمل لإسقاط الخلافة العثمانية وإنشاء خلافة عربية وهم يقصدون بهذا أن تقطع الدولة العثمانية عنها معونتها وتغلق أبوابها ، ويخسر السيد رشيد باباً من أبواب الإصلاح التي افتتحها ، فبادر رشيد رضا إلى إعلان نظام جمعية الدعوة والإرشاد بكل وضوح (٢) .

ولم يقف السيد رشيد مكتوف اليدين أمام هذه الادعاءات ، بل كان يرد بالحجج والبراهين وربما نسب هؤلاء لعدم العلم ويتبين ذلك من كلامه على حديث جابر في أول الخلق (نور نبيك ياجابر) قال بعد أن ضعفه بالصناعة الحديثية : « ولا عبرة بكلام مثل الشيخ عبد العزيز جاويش في إنكار حديث ولا في إثباته ، فإنه ليس من علم الحديث في شيء وهو جريء على القول في الدين بالهوى والرأي حتى إنه أنكر بعض أحاديث الصحيحين بغير علم ، فهو ينكر مالا يوافق عقله ورأية) (٣) أهـ .

ولم تطل الخصومة بين رشيد والشيخ الجاويش وهيكل ، فقد انتهت بالمصالحة والتراضي ، وإنما يرجع هذا إلى سماحة السيد رشيد ولين جانبه

---

(١) انظر ص ١٨٤/ ١ من المدرسة العقلية عن المنار ص ٢٤٠/ ٢٨ ، والعبارة فيها تجوز لأن علياً لم ينكر في كتابه التشريع من أساسه ، وإنما تكلم عن عدم وجوب الحكم بما أنزل الله وبينهما فرق .

(٢) انظر ص ١٨٤/ ١ من المدرسة العقلية نقلاً عنه ص ٩٢٥/ ١٥ ، ٤٦٥/ ١٣ من المنار .

(٣) انظر فتاوى السيد رشيد ج٣ ص ١٢٥٨ .

وتناسيه لأخطائهم ، بل كان سريع التأثر إذا ذكروا بعد موتهم ، ولما مات جاويش كتب عنه السيد رشيد رضا في المنار ومدحه ورثاه (١) وقد امتدت الخصومة لغير هؤلاء أيضا فشملت علي عبد الرازق عندما هاجم السيد رشيد كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وفند مزاعمه الجاهلية (٣) ، كما مرّ قريباً

وكذلك فعل مع كتاب (الشعر الجاهلي) لطه حسين ، ولم يزل هذا في قلب طه حسين بعد وفاة رشيد رضا (٣)

ب - الخصومة بينه وبين أعداء الوهابية (٤) والخرافيين

نشط السيد رشيد في نشر عقائد السلف ، وتبيين حقيقة الدين ولاسيما في توحيد العبادة ، وكان في عصره قد غلب الشرك على كثير من الناس في مصر وغيرها (ولا يزال الوضع متدهوراً حتى الآن) ، وصار التمسح بالقبور مع طلب الحاجات ، والمعونات من المقبورين هو الدين ، وما خالفه هو الشرك ، وصار المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، فثار السيد رشيد على هذه الأوضاع المتردية ، وجرد قلمه ولسانه ضد الخرافيين ، ولم يقّنع (لأجل وحدة الكلمة)

---

(١) انظر ص ١٨٥ / ١ من المدرسة العقلية ، وانظر شكيب أرسلان في كتابه رشيد رضا أو إخاء أربعين عاماً ص ١٥٠ ، ٤٦٦ ،

(٢) انظر ص ١٧٢ من كتاب الشرباصي .

(٣) المصدر السابق .

(٤) من المعلوم أن لفظ الوهابية أطلقه خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أتباع دعوته ، ولا يصح نسبه للرجل ، وإلا قيل (محمدي) وفيها ما يخالف ما يرمي إليه هؤلاء الخصوم ، فلذا عدلوا عنه إلى الوهابية ، وقد أثبته هنا موافقة للشيخ رشيد في كتابه الوهابيون والحجاز ، وغيره ، وإن كنت أرى أن غيره أولى ، وانظر ص ٧٦ من رد شبهات حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور عميرة ضمن الجزء (١) .

بالسكوت لأن الأساس (كلمة التوحيد ثم توحيد الكلمة)(١)

ولما كانت هذه المظاهر الوثنية يستفيد منها شيوخ ، وكان لكلام رشيد رضا وأمثاله ، ما سبب سحب البساط من تحتهم ، كان لابد لهؤلاء أن يثوروا في وجه السيد رشيد معلنين الحرب عليه ، وللأسف حمل لواء هذه الحرب الأزهر متمثلاً في رجليه : يوسف الديجوي وعبد الباقي سرور (٢) وقد أكثر الكلام في رشيد رضا ولاسيما الديجوي الذي أخذ يبحث في تفسير السيد رشيد وفي فتاويه في مجلة المنار حتى ظفر بعدة أمور جعلها محل انتقاد بل ربما مال في كلماته إلى التكفير (٣) ، وحاولت مشيخة الأزهر التدخل للإصلاح وطلبت من السيد رشيد أن يكف عما انتواه وصرح به من أنه سيهاجم ويرد وينافح عن معتقده على الجرائد الرسمية ، ولكن السيد رشيد اعتذر بأنه لا يمكن أن يكف هو ويبقى الجانب الآخر ينشر ما يطعن في رشيد ومعتقده ، وكان مما أخذه

---

(١) أي لا قناعة بالوحدة إذا كانت مع من يناقض كلمة التوحيد .

(٢) انظر ص ٤٢ ، ٤٣ من المنار والأزهر لرشيد رضا .

(٣) وقد ذكر لي العلامة عبد الرزاق عفيفي سبب حملة الأزهر على السيد رشيد رضا وحاصل القصة أنه لما هاجم القصيمي الشيخ الديجوي، ذهب هذا الأخير إلى رئيس الوزراء (إسماعيل صدقي) وطلب منه إبعاد القصيمي عن البلاد لأنه كتب كتاباً سماه « البروق النجدية في اكتساح الظلمات الديجوية » انحرف فيه عن منهج الأزهر وعلومه، ولم يكن إسماعيل من المنتسبين للعلم، فلم يكن يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء ، ولكنه خشي من التبعات السياسية مع حكومة المملكة إذا أبعد أحد رعاياها من البلاد ، فطلب من الشيخ الأزهري أن يكتفى بالرد على القصيمي إن رأى أن كتابه به أخطاء علمية .

وأنف الديجوي أن يرد على أحد طلابه ، بعد أن صار شيخاً في الأزهر ذا مكانة رفيعة فلذا اتجه إلى صاحب مطبعة المنار (رشيد رضا) الذي قام بطبع كتاب القصيمي ، فوجه النقد له ، ثم وجدت مصداق ذلك من كلام السيد رشيد في المنار والأزهر ص ٩٣ .

الديجوي على السيد رشيد ما سطره من آراء له أو لأستاذه في المنار عن الملائكة ، والجن ، وسجود الشمس والسحر ، حديث آية الرجم حيث زعم أن السيد رشيد ينفي كل هذا وأيضاً في الكلام عن أبوة آدم وعن الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد الأذان ، فكانت سلسلة مقالات كتبها السيد رشيد وجمعها فيما بعد في كتاب أسماه (المنار والأزهر) أبانت هذه المقالات عن صلابة الشيخ في الحق ، وقوة حجته ، وسعة علمه لاسيما بالحديث ، وهو في أثنائها يعرض بخصومه وبضاعتهم المزجاة في الحديث ، ويصرح بتحديه لشيخ الأزهر ثم شيوخه بالمناظرة في التوحيد والتفسير والحديث وقد بدأ كتابه هذا بمقدمات قال في أحدها :

مقدمة تاريخية للرد على مجلة مشيخة الأزهر في تصدي المنار للإصلاح ومقاومة الشيوخ له . . .

إن هذا الكتاب والتخاصم بين مجلة المنار ومجلة مشيخة الأزهر هو تنازع في مسائل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وطريق فهمها ، ودفع ما يرد عليهما من الشبهات العصرية ، وماعارضهما من شوائب البدع ، فمن حق الأمة أن تعرفه وأن يكون لها حق الحكم فيه . . . (١)

وقد ذكر في آخر الكتاب أثارة من تاريخ دعوة المنار إلى إصلاح الأزهر وهي شاهد عصر على تاريخ الإصلاح . وإنه من المفيد جداً قراءة هذه المقالات فإن بعضها مما يحتاجه المسلم الذي على نهج السلف وعقيدتهم في هذا العصر ، وتدور عجلة التاريخ وإذا بشبهات الديجوي تصاغ في صورة جديدة ، لكن الله يقيد للمسلمين علماء أعلام ، وطلاب علم نجباء ، يماثلون رشيداً أو

---

(١) انظر ص ٤٢ من المنار والأزهر .

يقاربونه يدحضون شبه الملحدين ، ويوضحوا الحق للمسلمين ، ويحي الله بهم ما اندرس من الدين .

وإن من أوضح الأمثلة على صلابة الشيخ رشيد في مواجهة الخرافيين أنه كان لا يمل من نقد المتصوفة وأهل البدع نقداً علمياً منصفاً ، فهو يدلل على ما يقوله من آراء بأدلة واضحة من الكتاب والسنة ، ولا يهضم حقاً ، أو يخفي منقبة ، بل كان عادلاً في حكمه حتى يظن به من لا يعرفه أنه ناله من غبار التصوف شيء ، علق به حتى مات !!

والواقع خلاف ذلك ، وأنقل هنا ما يؤكد فهم السيد رشيد للتصوف وحقيقته ، وخصومته الشديدة للصوفية الذين أفسدوا الدين والدنيا .

يقول في معرض كلامه عن نشأة التصوف في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . . . ﴾ الآية [سورة البقرة - ١٦٥ -] .

« اشتبه على بعض الباحثين السبب في سقوط المسلمين في الجهل العميم . . . وكان من أهم المسائل التي عُرضت لهم في ذلك مسألة التصوف ، وظنوا أن التصوف من أعظم الأسباب لسقوط المسلمين في الجهل بدينهم وبعدهم عن التوحيد الذي هو أساس عقائدهم ، وليس الأمر عندنا كما ظنوا ، وليس من غرضنا ذكر تاريخه وبيان أحكامه وطرقه ، وإنما نذكر الغرض منه بالإجمال ، وما كان له بعد ذلك من آثار . . . » (١)

ثم أخذ يسرد تاريخ التصوف وأن نشأته كانت في أول الأمر لتهذيب

(١) انظر التفسير ٢/ ٧٢ وما بعدها .

الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين وأن الصوفية ابتلوا بالفقهاء الجامدين فحصلت بينهم النفرة حتى اضطرتهم إلى إخفاء أمرهم ومن هنا جاءت رموزهم واصطلاحاتهم التي بقيت مع مرور الزمن وتلاشى الأصل الصحيح الذي هو أساس طريقتهم وغالوا في شيوخهم حتى أنزلوهم منزلة الآلهة ثم جعلوا الشريعة شيئًا والحقيقة شيئًا فلا ينكر على أهل الحقيقة ولو خالفوا ظاهر الشرع (كأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين وأنه يحاسبهم بوجهين ويعاملهم معاملتين حاش لله) ثم يذكر أنه (بعد ما فسد التصوف وانقلب من حال إلى حال مناقضة لها وضعف الفقه فصار مناقشة لفظية في عبارات كتب المتأخرين اتفق المتفقهة الجامدون والمتصوفة الجاهلون . . . فصرت ترى العالم الذي قرأ الكتاب والسنة والفقه يأخذ العهد من رجل جاهل أمي ويرى أنه يوصل لله تعالى .

ثم ذكر سيرة المتصوفة في هذا الزمان وبدعهم ومعاصيهم لاسيما (الموالد) التي يكثر بها الخنا والفسق (١) وفي موضع آخر (٢) يذكر السيد رشيد غلو الصوفية في كرامات أوليائهم الدجالية ففي تفسير قوله تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ الآيات يونس [٦٢ ، وما بعدها] يذكر الآثار والأخبار في الأولياء ثم عقد فصلاً طيباً عن أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان ، ونقل من طبقات الشعراني حال الأقطاب الأربعة وأنه باستثناء الجيلاني لم يكن أحد منهم ينفع الناس بعلوم الشرع وأن الدسوقي كان يكتب بألفاظ غير مفهومة .

وأن الرفاعي كان يوبخه علماء عصره ويخاطبونه بالدجال ويرمونه بالجمع

---

(١) انظر التفسير ٢/ ٧٢ - ٧٦ .

(٢) انظر التفسير ١١/ ٤١٥ .

بين النساء والرجال وكذلك كرامات ولي شيطاني يقرر ألوهية إبليس وذلك في الخطب لما خطبها ، قال (وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام) (وأن الشيخ علي وحيش كان قوادا للعاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته ويأتي الحمير في الشارع)

وأن الشيخ شعبان المجذوب يقرأ قرآناً غير القرآن وهو دائما عرياناً ثم قال : (أقول إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه يعد هذا المجنون من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره وإن تكرر ذكره في سطر واحد وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الإلهية ويعتمد على كشفه فهل نكون مخطئين إذا قلنا أن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله . . .)

ثم قال (كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وجد في المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني صار له طريقة من أشهر الطرق . . .

ثم تكلم عنه وأفاض في فضح ضلالاته ومنكراته وأوراده المبتدعة

ثم تكلم عنه تقليد الباب والبهاء لغلاة الصوفية في دعوى الوحي والنبوة والألوهية ثم ختم الكلام بنقول عن كتاب الفرقان لابن تيمية (١) وهكذا لا يجد السيد رشيد بابًا للرد على هؤلاء إلا فتحه ولا يقتصر الأمر عنده على ما كان خطيراً بل يمتد إلى أن يشمل إنكارهُ حتى ألفاظهم وبدعهم في العبادات . نفس معرض كلامه مثلاً على صفات ذات الله والأسماء والأفعال قال : (فإن تأمل هذه الأسماء في مواضعها من بيان شئونه تعالى في العباد أقوى تفقيها في الدين

(١) وينبغي أن يعاد طبع هذا الجزء من تفسير المنار مع التعليق عليه ونشره في الناس .

وتكميلاً للعرفان من تكرار الاسم الواحد مراراً كثيراً كما يفعل المتصوفة المرتاضون ومقلدتهم المرتزقون وهو غير مشروع خلافاً لما زعمه المتأولون لقوله تعالى : ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ [الأنعام ٩١] فاسم الجلالة هنا مبتدأ لجملة جواب سؤال حذف خبره لدلالة ما قبله عليه وهو قول تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ إلخ والمعنى : قل الله هو الذي أنزله فهو ليس اسماً مفرداً يكرر تعبداً ومثله تأولهم لحديث (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس ولفظ الجلالة فيه مرفوع على أنه مبتدأ حذف خبره للعلم به من القرينة والمعنى حتى لايقال : الله فعل كذا ، والله أمات وأحيا مثلاً لذهاب الإيمان به تعالى والاسم المفرد في ذكرهم يكررونه بالسكون لا يقصد به معنى جملة ، وإنما يقصد به حصر التوجه وجمع الهمة مما جربه الرياضيون وجهلة المقلدون » (١) أ . هـ

وقد بحث السيد رشيد في تفسير قوله تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . .) الآية [التوبة ٣١] ، بحث مشابهة الصوفية للنصارى في غلوهم بشيوخهم ومتبوعيهم (٢) ، واشتد نكيره على أساطينهم كابن عربي وغيره من أصحاب الوحدة والاتحاد (٣) .

وفيما يلي أنقل بعضًا من فتاويه لمحاربة بدع المتصوفة(١) مع شيء من الدراسة والتحليل .

---

(١) انظر التفسير ١٢/ ٢٠١ .

(٢) انظر التفسير ١٠/ ٤٢٥ - ٤٤٥ .

(٣) انظر التفسير ١٠/ ٢٨٧ وذكر هناك أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد أجاد في الرد عليهم ، وانظر تاريخ الأستاذ الإمام .

نماذج من فتاويه في محاربة الصوفية والمخرفين :

أنقل هنا بعضاً من فتاوى الشيخ رشيد في بعض البدع التي حاربها بكل قوة لاعتقاده أنها من جملة الأسباب التي تعوق طريق الإصلاح والنهوض بالمسلمين ، ولأنني أجد أثر هذه المخالفات في بلادنا حتى اليوم ، لذا أحببت أن أنقل كلامه فيها (على طول في بعضها) ، كي تعم الفائدة ، ونظراً لأن هذه المخالفات ترجع لمعنى (البدعة) رأيت أنه من المناسب أن أنقل فتواه في البدعة أولاً ثم أثني بعدها بعدة فتاوى في بدع ، ومخالفات ، ويُلاحظ على ذلك أمرانٍ :

(الأول) أن السيد رشيد على حرصه الشديد على جمع شمل الأمة وتوحيد كلمتها لم يمنعه ذلك من بيان الحق في الأمور التي استُفتي فيها ، وهذا المنهج هو الصحيح بخلاف من يرى عدم التعرض لمثل هذه المسائل ابتداءً لأنها تثير الفتنة كما زعموا ، ولعمر الله كم هدم ادعاؤهم هذا صرحاً للحق وكم غيّر وأضلّ قوماً بعد هدى كانوا عليه .

ويقول الشيخ العلامة ابن باز في جوابه على من قال إن الوقت ليس وقت مهاجمة (اتباع المذاهب ولا للأشاعرة ولا للإخوان حتى ولا للصوفيين) .

فقال الشيخ رداً عليه :

« لا ريب أنه يجب على المسلمين توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم على الحق وتعاونهم على البر والتقوى ضد أعداء الإسلام كما أمرهم الله سبحانه

---

(١) ويدخل في هذا بدعة تأويل الصفات ، فقد وصف السيد رشيد تأويل الصفات بالبدعة كما في المنار (١٠/ ١٤١ التفسير) ولكن لا أتعرض لذلك هنا اكتفاء بما سبق والله الموفق .

بذلك بقوله عزوجل : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران ١٠٣] وحذرهم من التفرق بقوله سبحانه : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات ﴾ الآية [آل عمران ١٠٥] ولكن لا يلزم من وجوب اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق واعتصامهم بحبل الله ألا ينكروا المنكر على من فعله أو اعتقده من الصوفية أو غيرهم ، بل مقتضى الأمر بالاعتصام بحبل الله أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويبينوا الحق لمن ضل عنه أو ظن ضده صواباً بالأدلة الشرعية حتى يجتمعوا على الحق وينبذوا مخالفه ، وهذا هو مقتضى قوله سبحانه : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة ٢] وقوله سبحانه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران ١٠٤] .

ومتى سكت أهل الحق عن بيان أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين لم يحصل منهم ما أمرهم الله به من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعلوم ما يترتب على ذلك من إثم الساكت عن إنكار المنكر وبقاء الغالط على غلطه ، والمخالف للحق على خطئه ، وذلك على خلاف ما شرعه الله سبحانه من النصيحة والتعاون على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والله ولي التوفيق » (١) أهـ .

هو كلام سديد ظاهر الحق أبلجه .

(الثاني) أن مسائل العقيدة ليست كغيرها من المسائل ، ولذا فما يتعلق بها فضلاً عن وجوب بيانه كما سبق في الملاحظة الأولى يجب كذلك المفاصلة

(١) انظر ص ٣١ ، ٣٢ من التنبيهات في الرد على الصابوني .

عليها ولذلك نجد أن السيد رشيد لم يرض أن يسكت عن غلاة الشيعة الذين أظهروا الشرك ودعوا له ، وفاصلهم على ذلك وقد مر بيان ذلك كله ومنه عندما رفض أن يسكت عما افتراه العاملي من كذب وزور على أهل السنة .

وهذه المفاصلة بالطبع في الأمور الواضحة لا الخفية ، أو الاجتهادية التي يعذر فيها المخالف باجتهاده وربما أجر فيه أيضاً ، وإنما قدمت هذا بين يدي بعض الفتاوى لأنه يوجد في بعضها ما يتعلق بالتوحيد وفيه كلام شديد على أهل الشرك والضلال ، ومما يحسن نقله في هذا المجال كلاماً جيداً للشيخ صالح الفوزان ، وهو يرد على البعض قوله بترك مناقشة الصوفية أصحاب الطرق المعروفة ونوفر الطاقات لحرب الملاحدة والشيوعية :

قال : « لا يمكن أن نقف صفاً واحداً في وجه أعداء الإسلام إلا إذا صلحت العقيدة من الشركيات والبدع والخرافات والإلحاد في أسماء الله وصفاته .

قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران ١٠٣] والاعتصام بحبل الله يعني الرجوع إلى الحق وترك الباطل وإذا كانت المعاصي العملية تخل بصف المسلمين أمام أعدائهم (١) فكيف بالمعاصي الاعتقادية إنه لا يبقى في وجه الأعداء إلا أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على

(١) ومن ذلك ما عاتب الله سبحانه وبعضهم بقوله (منكم من يريد الدنيا) قال بعض أهل العلم : سفر الحوالي وجود شرك الإرادة عند البعض مانع من الانتصار على الأعداء ، فما ظننا بما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر .

ذلك » (١) أهـ .

وختاماً أذكر في هذا المقام أن الصحابة رضي الله عنهم اتفقوا على قتال الخوارج ومحاربتهم رغم أن كفر الخوارج محل نزاع ويرجح الكثيرون أنهم ليسوا بكفار ، ومع ذلك اتفقت كلمة الصحابة على قتالهم لخطورة بدعتهم ، وشوكتهم ، فمن الذي يخلص بلاد الإسلام من حكم الباطنية والشيوعية وأذنابهم وأخرابهم . . . ونشرع الآن في سرد بعض هذه الفتاوى المفيدة .

البدعة اللغوية والبدعة الشرعية :

ورد سؤال للسيد رشيد رضا عن البدعة ، وذكر السائل أن في قريتهم فريقين :

الأول يقول بعموم الآيات والأحاديث في النهي عن البدع قال وعلى رأسها حديث كل بدعة ضلالة ، ثم ذكر الفريق الثاني وهم الذين يقولون بقول (الزرقاني في شرح الموطأ) بأن للبدعة أحكاماً خمسة : الواجب كتعلم النحو وما يتعلق عليه فهم الشريعة ، والمحرم كمذهب القدرية ، والمندوب كإحداث الربط والمدارس ، وكل إحسان لم يعد في العصر الأول ، والمكروهة كزخرفة المساجد والمباحة كالسلام خلف الأذان ، والقرآن خلف الجنائز كما قال ابن عبد السلام .

قال السائل عن الفريق الثاني « ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ ، وقوله عليه السلام « ما استحسنه المسلمون فهو حسن » و « من

---

(١) انظر ص ٨٩ ، ٩٠ من تنبيهات الشيخ صالح الفوزان على مقالات الصابوني في الصفات ط . الإفتاء .

سن سنة حسنة . . . . » إلخ .

وقول عمر رضي الله عنه في الموطأ بشأن جماعة التراويح « نعمت البدعة » ، ثم سأل عن الكتب التي تراجع في مثل هذا فأجاب السيد رشيد رضا بما يلي . . . (١)

« إن لكلمة البدعة إطلاقين :

- إطلاقاً لغوياً : بمعنى الشيء الجديد الذي لم يسبق له مثل ، وبهذا المعنى يصح قولهم إنها تعتريها الأحكام الخمسة ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح : نعمت البدعة (٢)

- وإطلاقاً شرعياً دينياً بمعنى لم يكن في عصر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولم يجيء به ، من أمر الدين (٣) كالعقائد والعبادات ، والتحريم الديني ، وهو الذي ورد فيه حديث « فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وهو لا يكون إلا ضلالة لأن الله تعالى قد أكمل دينه وأتم به النعمة على خلقه ، فليس لأحد بعد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يزيد في الدين عقيدة ، ولاعبادة ، ولاشعاراً دينياً ، ولا أن ينقص منه ولا أن يغير صفته ، كجعل الصلاة الجهرية سرية وعكسية ، ولا جعل المطلق مقيداً بزمان أو مكان أو

---

(١) انظر فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ج ٥ ص ١٨٨٣ : ص ١٨٨٦ .

(٢) رواه البخاري وغيره انظر الفتح ٤/٢٥٠ .

(٣) يعني (مع قيام المقتضي لفعله أيام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وهذا القيد وإن لم يذكره هنا السيد رشيد إلا أن أمثلته التي ضربها تبين أنه يقول به ، ولتوضيحه نأخذ مثلاً بدعة رفع المؤذن صوته بالسلام بعد الأذان ، هل كان يمكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يأمر بلالاً بذلك ، الجواب : نعم ، فيكون فعل ذلك قد قام المقتضي لفعله ، ثم تركه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيكون بدعة ، والله أعلم .

اجتماع أو انفراد لم يرد عن الشارع ، ولا أن يحرم على أحد شيئاً تحريماً دينياً تعبدياً ، بخلاف التحريم غير التعبدي كالمتعلق بمصالح الحرب ، أو المعاش كالزراعة . . . إلخ

وفي هذا النوع ورد حديث « من سن سنة حسنة (١) » إلخ وهو حديث صحيح معروف (٢) وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه : « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » فلا حجة فيه ، لا لكونه غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقط ، بل لأنه في معنى الإجماع ، وهو لا يكون إلا عن دليل (٣) ، وليس معناه أن الابتداع في الدين مشروع لكل أحد أو كل جماعة . . . . »

---

(١) وهومن رواية جرير بن عبد الله وله قصة حاصلها أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رغب في الصدقة لما رأى قوماً من مضر فقراء فجاء أنصاري بصرة فتتابع الناس لما رأوه) وانظرها بتمامها في مختصر المنذري لمسلم تحقيق الألباني ص ١٤٥ .

(٢) علق محدث الشام بل الدنيا العلامة الألباني على هذا الحديث بقوله :

« يعني فتح طريق في المسلمين ، أدى بهم إلى أن يفعلوا (سنة حسنة) ورد بها الدين . هذا هو المعنى الصحيح الذي تقتضيه اللغة وسياق الحديث وأما تفسيره بـ (من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة) كما شاع عند المتأخرين ، وعليه خصصوا به عموم قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المتقدم (وكل ضلالة في النار) فهو من أقبح ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من المعنى ، فإن كل ما فعله الأنصاري في هذا الحديث إنما هو ابتداؤه الصدقة وهي مشروعة من قبل بالنص وتلاه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في نفس القصة فأين البدعة في فعل الأنصاري حتى يقال إنه فعل بدعة حسنة ويحمل عليها الحديث ؟! أهـ .

انظرهامش مختصر صحيح مسلم للمنذري ص ١٤٥ بتعليق وتحقيق الألباني .

(٣) تعني أن [اتفاق المسلمين هو إجماع ، وقد شرطوا أن يكون الإجماع مستنداً إلى دليل من كتاب أو سنة ، وعليه فلا مجال للبدعة مع ورود الدليل] . وأثر ابن مسعود هذا رواه أبو داود الطيالسي ص ٣٣ ط . الهند

وانظر في استناد الإجماع لدليل شرح الكوكب المنير (ابن النجار) ٢/ ٢٦١ ، ٢٦٢ .

ثم قال بعد ذلك :

« فما ذكر في السؤال عن الزرقاني من أمثلة البدعة اللغوية صحيح ، إلا جعله السلام خلف الأذان ، والقرآن خلف الجنازة من المباحات نقلاً عن ابن عبد السلام .

فالأذان عبادة من شرائع الإسلام ، ورد بألفاظ معدودة جرى عليها العمل في عصر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخلفائه الراشدين ، فلو جاز أن يزاد فيه سلام لجاز أن يزاد فيه غيره من الأذكار كسبحان الله والحمد الله وبعض آيات القرآن ، ومقتضى هذا أنه يجوز لكل أحد أن يغير شعائر الإسلام بما استحسن من زيادة أو نقصان ، ولم يقل بجواز هذا أحد من أئمة المسلمين المجتهدين ، ولو جرى المسلمون على هذه البدعة فعلاً لما بقي شيء من شعائر الإسلام على ما جاءنا به الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الله تعالى ، ولصرنا في أديان جديدة كل طائفة أو جماعة أو فرد يخالف فيها سائر المسلمين .

ولو جاز أن يزاد في عبادة الأذان (١) لجاز أن يزاد في غيرها .

---

(١) مما يحتج به أهل البدعة هذه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي » رواه مسلم (مختصر المنذري ص ٦١) قالوا : والمؤذن داخل في الأمر فيستحب له الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهذا خطأ من وجهين الأول : ما سبق قريبًا أن المقتضي لفعل ذلك كان قائماً على عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولم يفعله فهو بدعة لحديث « من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » .

والوجه الثاني : أن من أهل العلم من صرح أن المؤذن لا يشرع له الصلاة على النبي ﷺ كما لا يشرع له أن يجيب نفسه وظاهر الحديث التفرقة بين المؤذن والسامع ، والله أعلم .

كجعل الصلاة الثلاثية رباعية والرباعية خماسية ، وجعل الركوع في ركعة مرتين أو أكثر ، والسجود ثلاثاً أو أكثر وهلم جراً .

وقلما يوجد أحد شم رائحة العلم الديني والعقل يجيز هذه الفوضى في دين الله . . .

ثم يستطرد الشيخ رشيد في الكلام فينقل ما يوافق كلامه من كتاب الفقيه ابن حجر الهيتمي ولعله اختاره لكونه معظماً عند أكثر المتصوفة فهم يعتقدون في علمه ما لا يعتقدونه في غيره .

ثم قال عنه وصرح (أي الهيتمي) بمثل ما قلناه من أن قول عمر في التراويح : نعمت البدعة هي ، أراد به البدعة اللغوية وهو ما فعل على غير مثال ، كما قال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ [الأحقاف ٩] وليست بدعة شرعاً ، فإن البدعة الشرعية ضلالة كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم فمعناه البدعة الشرعية أهـ .

ثم قال السيد رشيد معقباً على كلامه : « وذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بعض ليالي رمضان صلاة القيام واقتدى به بعض الصحابة، ولم يستمر على ذلك لئلا تفرض أو تعد فرضاً ، ثم صار الناس بعده يعقدون لها عدة جماعات حتى جمعهم عمر رضي الله عنه على إمام واحد كراهية التفرق المذموم شرعاً ، فجماعتها مأثورة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا بدعة شرعية .

وأما استدلال محبي البدع وأنصارها بآية رهبانية النصارى ، فلا دليل لهم فيه ، لأن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ، ولأن الآية ليست نصاً في موضع النزاع إذ قيل : إن الاستثناء فيها متصل وقيل منقطع وقد فصل الشاطبي الكلام

بما يدحض شبه المبتدعة ، فليراجع في كتاب الاعتصام ، وهو أوسع الكتب في هذا الشأن » أهـ كلام السيد رشيد .

وإنما أطلت قليلاً في نقل هذه الفتوى لأنها مما يحتاج إليه في هذا العصر لعدم وضوح معنى البدعة عند الكثيرين ، وأعقبها إن شاء الله ببحث إضافي عن دلالة الترك ، ثم بعض فتاوى الشيخ رشيد في بدع وضلالات انتشرت في العالم الإسلامي ، ومازالت حتى اليوم ، ومازالت الحاجة لبيان الحق فيها قائمة . . .

دلالة الترك في أفعال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (١):

مما استدل به المانعون للبدعة - كما سبق - أن كل ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتركه مع قيام المقتضي لفعله فهو بدعة ، ولذا فقد خالف كثيرون من أهل البدع فيها ، فأحببت أن أشير لبعض ما قالوه وأتعقبه بما يليق بهذا المقام تتميماً لبحث البدعة ، وهو منقول عمن يحتج لجواز المولد ، ولذا رأيت أن أبدأ به قبل الكلام على المولد ، بوب عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد في كتابهما (التحذير من الاغترار) ص ٥٩ بـ : الترك لا يدل على التحريم وقال فيه نقلًا عن غيره فإذا ترك الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم شيئًا فإن ذلك يحتمل وجوهًا غير التحريم ، فقد يكون تركه عادة ، كتركه الأكل من الضب ، وقد يكون تركه نسياناً كالسهو في الصلاة ، وقد يكون تركه مخافة أن يفرض على أمته كتركه صلاة التراويح ، وقد يكون تركه لعدم تفكيره فيه ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) وانظر المسألة في الاعتصام (١/ ٤٢) ، والإبداع (ص ٣٥ - ٦٠) ، وانظر ص ٣٧٣ من هذا البحث.

وسلم يخطب على جذع ولم يفكر في اتخاذ كرسي حتى اقترح عليه الصحابة عمل منبر ففعل ، أو يكون تركه خشية تغير قلوب الصحابة أو بعضهم كقوله لعائشة لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم بنيته على أساس إبراهيم عليه السلام كما في الصحيحين فالترك وحده إن لم يصحبه نص على أن المتروك محظور لا يكون حجة في ذلك، بل غايته أن يفيد أن ذلك الفعل مشروع ، وإما أن ذلك الفعل المتروك يكون محظوراً فهذا لا يستفاد من الترك وحده ، وإنما يستفاد من دليل يدل عليه أهـ .

هذا غاية ما في الكتاب وهو ظاهر البطلان من وجوه :

(الأول) : أن القائل ببدعية المولد وغيره يحتج بأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ولأمر به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأنه ما ترك خيراً يقربنا إلى الجنة ويباعدنا عن النار إلا وأمرنا به ، ولاترك شراً يقربنا من النار ويباعدنا عن الجنة إلا ونهانا عنه ، وهذا كله فيما تركه ولم يتبين لنا علة الترك ، وأما ما تبين لنا علية الترك فيه فهو خارج عن محل النزاع ، ويمكن أن يقال أنه لو لم يتبين علة تركه لألحق بالممنوع فلو لم يقر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنبر لكان اتخاذه ممنوعاً ، وهذا واضح بحمد الله .

(الثاني) : أن قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وقوله « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » دليل على أن ما تركه ولم يتبين من طريق صحيح صريح وجه الترك وجب تركه ، وهذا في العبادة لا غيرها

(الثالث) : أن في ما استدل به المخالف رد عليه

فإن الصحابة لما ترك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأكل من

الضب تركوا الأكل حتى تبين لهم وجه الترك ، أي حملوا الترك على المنع وكذلك لما ترك من الصلاة نسياناً بادروا فسألوا : « هل قصرت الصلاة أو نسيت » فلم يجعلوا تركه لا يدل على المنع ، بل سؤالهم دل على أنهم فهموا من الترك المنع من إتمام الصلاة لإمكان النسخ وقتئذ وقدموه على النسيان ، وإنما سألوا عن النسيان لما رأوه مهتماً مغتماً صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما قام للسارية فتأكد أن يكون للنسيان احتمال قائم ، وأما صلاة التراويح وبناءالكعبة ، فقد بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم علة الترك ، ولذا فعله الصحابة بعد موته فجمع عمر رضي الله عنه الناس في التراويح ، وبنى ابن الزبير الكعبة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولذا بادر الحجاج بتغيير البناء لما لم يبلغه الأثر ، فلما حج عبد الملك بن مروان وسمع الحديث ندم على ما فعل (١) » ، وبعد ذلك استشير الإمام مالك في إرجاع البيت إلى القواعد فمنع خشية تلاعب الخلفاء به ، والقصة مشهورة .

ويستدل أيضاً صاحب (التحذير من الاغترار) بقول ابن حزم (لوصح) (أي أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا لا يصلون ركعتين قبل المغرب) لما كانت فيه حجة ، لأنه ليس فيه أنهم نهوا عنهما) أهـ .

وهذا أيضا استدلال عجيب لأن الركعتين قبل المغرب مما ثبت في الشرع فلذا قال ابن حزم ما قال ، ومحل النزاع فيما لم يثبت فيه دليل شرعي ثم ذكر بعد ذلك كلام الغماري في أن الترك لا يفيد التحريم من وجوه أربعة :

الأول : قول الله تعالى ﴿ وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قال : ولم يقل وما تركه فانتهوا .

---

(١) أخرج مسلم القصة بتمامها ، انظر مختصر المنذري (ص ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

الثاني : قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه ولم يقل وما تركته فاجتنبوه فكيف دل الترك على التحريم .

الثالث : أن الأصوليين عرفوا السنة بأنها قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وفعله وتقريره ولم يقولوا وتركه لأنه ليس بدليل .

الرابع : الترك يحتمل أنواعاً غير التحريم والقاعدة الأصولية أن ما دخله الاحتمال سقط به الاستدلال ثم أورد عن الشافعي أنه قال : كل ماله مستند من الشرع فليس ببدعة ولو لم يعمل به السلف » أهـ ملخصاً

وهذا الاستدلال ليس بشيء والجواب في اختصار

* عن الوجهين الأولين : أنه قد ثبت النهي في السنة عن الإحداث في الدين فهو داخل في « وما نهاكم عنه فانتهوا » [الحشر ٧] وفي (وما نهيتكم عنه فاجتبنوه)

وعن الثالث : أن محققي الأصوليين يجعلون الترك فعلاً (١) قال في شرح الكوكب المنير « وإذا نقل عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه ترك كذا كان أيضا من السنة الفعلية كما ورد وساق حديث الضب ثم قال : ولكن هذا النوع مقيد بتصريح الراوي بأنه ترك ، أوقيام القرائن عند الراوي

---

(١) ومما استدلوا به قوله تعالى ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ آية ٧٩ المائدة ، قالوا : ووجه الدلالة أن الله سبحانه عاب عليهم أنهم لا يتناهون عن المنكر ، وهو ترك ، أي ترك للإنكار ، ثم قال : « لبئس ما كانوا يفعلون » فجعله فعلاً . وانظر مذكرة أصول الفقة للشنقيطي ص ٣٨ ، ٣٩ .

الذي يروي عنه أنه ترك » ٢/ ١٦٥ وقال الأشخر في شرح الذريعة « وفعله ومنه تقريره لأنه كف عن الإنكار والكف فعل على الصحيح (١) .

وقال الشوكاني في إرشاد الفحول « تركه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كفعله له في التأسي به فيه » ص ٤٢ .

وانظر كذلك كلام الشاطبي في الاعتصام حيث بحث الترك من حيث تعلق العبد به ص ٤٢، ٤٤ /١ .

* وعن الرابع : ما تقدم من أن هذه الاحتمالات ورد بيانها في الأحاديث فهي خارج محل النزاع وما سواها باق على الأصل وهو من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم ، وكلام الشافعي فيما فيه دليل شرعي ، وهو خارج محل النزاع ، ويضاف لذلك أن المتكلم في الترك لا يذكر كل ماتركه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبان لنا وجهه بل يذكر ما احتمل الجواز فقط وإلا فقد ترك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يعمله المشركون من عبادة غير الله ، وأعيادهم ، ودينهم وبان لنا وجهه أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ترك ذلك لتحقيق التوحيد الخالص ، وترك كذلك إسدال الشعر ، وفرق رأسه بعد الفتح وبان وجهه وهو مخالفة اليهود وترك قتل عبد الله بن أبي وبان وجهه وهو تجنب الفتنة لمن معه ، وللناس بعيداً عنه ، ونحو ذلك وكل هذا خارج عن صورة البحث فليس في محل النزاع إنما النزاع فيما لا يدري وجه الترك فيه بنص صحيح صريح وإنما أطلت بعض الشيء في المبحث لئلا يدعي أن رشيد رضا خالف السنة في استناده إلى دليل الترك بقوله عن البدعة أنها (ما لم يكن في عصر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولم يجيء به من أمر

---

(١) ص ٨٧ الجزء الأول من رسالة ماجستير من أم القرى سنة ١٤٠٧ هـ » تحقيق أحمد فرحان دبوان الإدريسي) .

الدين) وما كنت أحب التوسع في مثل هذا لولا مشورة بعض الإخوان في ذلك والله الهادي للسبيل .

* الكلام على بدعة المولد .

المولد والاحتفال به مسألة شغل العبيديون (١) والقرامطة والصوفية الناس بها زماناً طويلاً ومازال الكثيرون يصرون على إقامة حفلات المولد كل عام ، ويعتقدونه من الأمور المهمة ، والقرب المعظمة ، بل وينظرون لمن يخالفهم نظرة إزدراء لأنه في زعمهم الباطل ، لا يحب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولعمر الله إن المخالف لهذه البدعة بل للبدع كلها أشد حباً للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من هؤلاء كما قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فمدار المحبة الاتباع لا الابتداع ، والتلقي بالتسليم لا الزيادة في الدين بل ذهب كثير من هؤلاء المبتدعة إلى تكفير من لم يحضر كما يتضح من السؤال الموجه للشيخ رشيد ، وهذا كله مع علم هؤلاء بالأمور المنكرة التي تحدث في هذه التجمعات التي يسود كثيرًا منها الاختلاط بين النساء والرجال ، وربما وقعت فواحش ، مما حدا بالكثيرين من أهل السنة يطلق أنه لا يحضر المولد إلا جاهل أو فاجر ، أي إما جاهل بحكم الشرع في البدع أو

---

(١) العبيديون هم الذين حكموا مصر باسم الفاطميين نسبة إلى فاطمة الزهراء زعموا ، وقد حقق كثير من الناس زيف نسبهم هذا وألف ابن الجوازي كتاباً أسماه (النصر على مصر) دعا الناس إلى إخراج هذه الحثالة من مصر ، ولهم منازعات كثيرة وكان الحاكم بأمر الله أحد خلفائهم يدعي الألوهية كما ذكروا عنه ويأمر الناس بالسجود له إذا رأوه ، في خرافات لهم كثيرة كما بالبداية والنهاية لابن كثير (١١/ ٢٤٥) ، وغيرها من الكتب التي أرخت لتلك الفترة المظلمة والعجيب أن بعض الناس اليوم يشيدون بمآثر الفاطميين ويثنون عليهم، ونقول لهم: المرء مع من أحب !!.

وانظر كذلك مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣٥) ، (٣٥/ ١٢ - ١٤٤) .

جاهل بكون المولدبدعة ومتأول لحضوره هذا ، أو فاجر ينتفع من وراء هذه الاحتفالات ما يروي شهوته من مال أو طعام أو تعرض للنساء !! ، فإن خلت الموالد من هذه الأمور المحرمة ، والألفاظ الشركية ، ونحو ذلك ، يكون حضورها وعدمه متوقف على وجود قصد القربة وجعلها من شعائر الدين ، فهي بدعة محرمة وإن لم يخالطها شيء من المساوىء وقد أحسن القائل .

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

والسؤال الذي قدم للشيخ رشيد به نوع طول وخلاصته أن السائل سأل :

« هل يجوز للإنسان حضور مولد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟

وإذا لم يحضر هل يعد كافراً ، وإن لم يقم أثناء قراءة المولد أي عند سماع قوله (مرحباً بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلخ) هل يعد كافراً أيضاً ، لأن العلويين في جاوة يعقدون كل سنة حفلات كثيرة . . . إلخ السؤال » .

وبدأ الشيخ جوابه (١) بنقل عن الحافظ ابن حجر أنه سئل عن الاحتفال بالمولد هل هو بدعة أم له أصل فأجاب بقوله ، « أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ، لكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها ، فمن جرد عمله في المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة ومن لا . . . »

ثم أخذ الشيخ رشيد يعلق على كلام الحافظ مبيناً أنه حجة في النقل يعني نقله عدم الاحتفال بالمولد في القرون المفضلة ثم بين أن كلامه الأخيريصح إذا

(١) انظر فتاوى الإمام محمد رشيد ص ٢١١١ : ٢١١٥ الجزء الخامس .

حمل على البدعة اللغوية يعني إذا لم يشتمل المولد على قصد القربة قال : « وأما قول الحافظ إن من عمل فيه المحاسن وتجنب ضدها ، كان عمله بدعة حسنة ومن لافلا ، ففيه نظر ، ويعني بالمحاسن قراءة القرآن وشيء من سيرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في بدء أمره من ولادته وتربيته وبعثته والصدقات ، وهي مشروعة لا تعد من البدع ، وإنما البدعة فيها جعل هذا الاجتماع المخصوص بالهيئة المخصوصة والوقت المخصوص ، وجعله من قبيل شعائر الإسلام التي لا تثبت إلا بنص الشارع بحيث يظن العوام والجاهلون بالسنة أنه من أعمال القرب المطلوبة شرعاً ، وهو بهذه القيود بدعة سيئة وجناية على دين الله تعالى ، وزيادة فيه تعد من شرع ما لم يأذن به الله ومن الافتراء على الله والقول في دينه بغير علم . . .

إلى أن قال : « وإنما يصح قول الحافظ ابن حجر في كون حفلة المولد بدعة حسنة بشرط خلوها من المساوىء والمعاصي المعتادة فيها إذا كان القائمون بها لا يعدونها من القرب الثابتة في الشرع ، بحيث يكفر تاركها أو يأثم أو يعد مرتكباً للكراهية الشرعية ، فإن البدعة التي تعتريها الأحكام الخمسة ويقال أن منها حسنة وسيئة هي البدع في العادات ، وأما البدع في الدين فلا تكون إلا سيئة كما صرح به المحققون وذكر ذلك الفقيه ابن حجر الهيتمي المكي في موضعين من الفتاوى الحديثة (١)

---

(١) أولهما في سؤال له عن الموالد فأجاب « بأن أكثرها مشتمل على خير وعلى شر بل شرور وإن ما كان هكذا يجب منعه عملاً بقاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

وثانيهما في جواب من مسألة عن أصحاب البدع الذين ورد في الحديث الترغيب في الإعراض عنهم وانتهارهم وسبق في فتوى البدعة نقله .

وتكلم السيد رشيد عن بدعة القيام قال .

« وأما القيام عند ذكر وضع أمه له صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإنشاد بعض الشعر أو الأغاني في ذلك فهو من جملة هذه البدع وقد صرح بذلك الفقيه ابن حجر المكي الشافعي الذي يعتمد هؤلاء العلويون على كتبه في دينهم ، فقال عند ذكر الإنكار على من يقوم عند قراءة ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل ١] لما ورد في ذلك بسبب زال ، ما نصه : « ونظير ذلك فعل كثير عند ذكر مولده صلى الله عليه وعلى آله وسلم ووضع أمه له من القيام ، وهو أيضاً بدعة لم يرد فيه شيء ، على أن العوام إنما يفعلون ذلك تعظيماً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فالعوام معذورون لذلك بخلاف الخواص أهـ من الفتاوى الحديثية ص ٦٠» أهـ من كلام السيد رشيد .

وهذا القيام ابتلي به بعض المتأخرين ممن صنف في المولد فذكر وجوه استحسان القيام عند ذكر مولده صلى الله عليه وعلى آله وسلم (١) ، فجعل منها أربعة في إثبات مشروعية القيام للداخل وهذا ليس في محل النزاع أصالة ولا يتكلف له رد (٢) ، فإن النزاع في تصور هؤلاء هو مجيء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند ذكر المولد ولما استشعر المؤلف ذلك قال : « الوجه الخامس : قد يقال إن ذلك (أي القيام) في حياته وحضوره صلى الله عليه

---

(١) انظر ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من كتاب « حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف » لمحمد علوي مالكي . ط الأولى ١٤٠٢ هـ .

(٢) وقد أجاب الشيخ ابن منيع عن هذه الوجوه بحاصل كلام أهل العلم وذلك في كتابه (حوار مع المالكي) ، وقد بحث الحافظ المسألة بحثاً طيباً في الفتح وفرق بين القيام للإكرام والقيام للتعظيم فراجعه في الفتح ١١/ ٤٩ وما بعدها .

وعلى آله وسلم وهو في حالة المولد غير حاضر فالجواب عن ذلك أن قارىء المولد الشريف مستحضر له صلى الله عليه وسلم بتشخيص ذاته الشريفة فهو عليه الصلاة والسلام قادم في العالم الجسماني من العالم النوراني من قبل هذا الوقت بزمن الولادة الشريفة ، وحاضر عند قول التالي : فولد صلى الله عليه وسلم بحضور ظلي هو أقرب من حضوره الأصلي ويؤيد هذا الاستحضار التشخيصي والحضور الروحاني أنه عليه الصلاة والسلام متخلق بأخلاق ربه وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي أنا جليس من ذكرني ، وفي رواية أنا مع من ذكرني (١) فكان مقتضى تأسيه بربه وتخلقه بأخلاقه (٢) أن يكون صلى الله عليه وعلى آله وسلم حاضراً مع ذاكره في كل مقام يذكر فيه بروحه الشريفة ويكون استحضار الذاكر ذلك موجباً لزيادة تعظيمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم من كلام المالكي بلفظه وهو كلام عجيب غريب ، ولولا أنني اطلعت عليه بنفسي لداخلني الشك في النقل عنه وفيه من الخلط الشيء الكثير وقد أجاد الشيخ عبد الله بن منيع في رده (٣) وقد رده من وجهين :

(الأول) : أن الروايات الثابتة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما رواه أنس وأبو أمامة ومعاوية كلها تنهى عن القيام وكان الصحابة لا

---

(١) العبارة مضطربة لأنه يفهم منها أن قوله «أنا جليس من ذكرني» هو إخبار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن نفسه . والحديث القدسي فيه هذه العبارة منسوبة لله سبحانه

(٢) صفات الله سبحانه لا يقال لها أخلاق بهذا الإطلاق ، وما ورد (تخلقوا بأخلاق الله) موضوع كما ذكره شيخ الإسلام في نقض أساس التقديس للرازي . انظر النقل عنه في ص ٨٩ عقيدة أهل الإيمان للتويجري .

(٣) انظر حوار المالكي ص ١٨٤ : ١٨٧ .

يقومون له لما عرفوا كراهيته للقيام (١) .

(الثاني) : أن في قوله (مقتضى تأسيه بربه أن يكون حاضراً مع من ذكره في كل مقام) ما يشعر بأن المؤلف أعطى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقاماً من مقامات الألوهية والربوبية ، واستدل الشيخ منيع على ذلك بما قرأه في كتاب الذخائر المحمدية للمالكي .

ويمكن أن يضاف لهذه الوجوه أيضا وجهان :

الأول : بمنع الحرام بحضوره صلى الله عليه وعلى آله وسلم الحضور الذي أسماه (بحضور ظلي) لأن هذا مما لم يرد به نص من كتاب ولا سنة ولم يقل به أحد من سلف الأمة ، وما كان الصحابة في حياتهم والصعوبات التي واجهتهم ما كان أحدهم يستحضر هذا الحضور الظلي ولايذكره ، ولو كان هذا الحضور الظلي في كل وقت وفي كل مكان يذكر فيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما خفي عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم من ما أحدث بعض الأمة بعده وهو غير الواقع كما في حديث الحوض أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : عندما يرى من يؤخذ بهم ذات الشمال : أصحابي أصحابي فيقال له إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك (٢)

الثاني : التسليم على وجه الإلزام ، لأن قوله (فكان مقتضى تأسيه بربه وتخلقه بأخلاقه أن يكون صلى الله عليه وعلى آله وسلم حاضرًا مع ذكراه في

---

(١) ووجهه أنه لو ثبت هذا الحضور الظلي لما ثبت معه القيام ، لأن الصحابة تركوا القيام مع الحضور الجسماني لما عرفوا كراهيته لذلك والله أعلم .

(٢) رواه البخاري ١١/ ٤٦٣ من الفتح .

كل مقام يذكر فيه بروحه الشريفة . . .) إلخ فقوله هذا يلزم منه أن يكون ما يدعيه من القيام تعظيماً للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كل الأوقات التي يذكر فيها ، في خطبة الجمع والأعياد وعند قراءة القرآن والحديث ، وفي مطالعة كتب الفقه والتفسير و . . . . . إلخ .

لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم يذكر في كل ما سبق ، فما وجه تخصيصه بالمولد عند قراءة القارىء فولد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فمقتضى الاستدلال أن يظل المسلم قائماً مع كل ذكر للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتصور مثل هذا يقضي بفساده كما لايخفى .

وإنما أطلت قليلاً في مسألة المولد هذه لحاجتنا في هذا العصر لها فقد صنفت في ذلك فتاوى ورسائل من الجانبين(١) والحق فيها ما قدمته والله أعلم.

حديث شد الرحال ومخالفة المسلمين له (٢)

من الأمور المنكرة التي شاعت في المتأخرين شدهم الرحال ابتغاء فضيلة أماكن لم يشهد لها الشرع بذلك كقبور الأنبياء والصالحين وقد استفتي الإمام رشيد رضا في ذلك فأجاب وأجاد ولنفاسة كلامه أنقله بلفظه ههنا ، سئل عن الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «

---

(١) فمن ذلك كتاب محمد علوي في الاحتفال بالمولد وردكل من الشيخ ابن منيع والشيخ الجزائري والشيخ التويجري والشيخ صالح آل الشيخ عليه وانتصار بعض المنتسبين للعلم للمالكي منهم الرفاعي بالكويت والبحريني وعبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد من المغرب في كتابهما منع الاغترار بما جاء في كتاب الحوار وغير ذلك .

(٣) هذه العناوين من أصل الفتوى بمجموع فتاوى الإمام رشيد رضا

لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » ما معناه ويقول السائل أرى الناس يسافرون لزيارة أضرحة الصالحين وكذا أناسًا يسافرون لحفلات تقام في بعض عواصم المدن ، وأناساً يسافرون للخارج لحضور حفلات تقام هناك هل يصح منهم قصر الصلاة ، أفتونا مأجورين وابسطوا لنا القول جزاكم الله خير الجزاء .

فأجاب رحمه الله

« الحديث رواه الجماعة كلهم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر ومعناه أن السفر إلى هذه المساجد الثلاثة مشروع ، وأنه غير مشروع إلى غيرها ، أما سبب ما أثبته من كونه مشروعاً إليها ، فلما ورد في أحاديث أخرى من فضلها ومضاعفة ثواب الصلاة فيها وكذا غيرها من العبادات (١) .

وأما كونه غير مشروع إلى غيرها فلأن العبادات لا تشرع إلا بنص ، وقد جاء النص هنا بالمنع ، وأما سببه وحكمته فلأن غير الثلاثة من المساجد متساوية في الفضل الديني فالسفر إلى بعضها عبث ، والذين يسافرون إلى أضرحة الصالحين سواء كانت في المساجد أم لا لإقامة الاحتفالات هنالك لهم وبأسمائهم يعتقدون أن أضرحتهم والصلاة لديها أو في المساجد التي بنيت عليها لها مزية فضل وثواب ، وهذا كذب وافتراء على الله ، وشيء لم يأذن

---

(١) أما مضاعفة الصلاة فثابت في عدة أحاديث كحديث البخاري عن أبي هريرة رفعه (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) الفتح ١١/ ٦٣ وأما غير ذلك من العبادات فهو من باب زيادة الفضل العام في الأوقات والأماكن الفاضلة ، وقد وردت آثار أن الصيام يضاعف كمضاعفة الصلاة إلا أنها لا تقوم بها حجة .

به الله والحق خلافه .

بل يعتقدون أنهم ينفعون من يزورها ويدعوهم لديها ويدفعون عنه المضار ، وفي ذلك من الشرك والخرافات ما فيه وأما استباحة رخص السفر من تيمم وقصر الصلاة ، فمن اشترط في السفر المبيح أن لا يكون لسفر معصية (١) كالشافعية لا يبيحها للمسافرين إلى الموالد المعهودة والزيارات غير المشروعة والمختار عندنا أن ذلك ليس بشرع نعم إن من سافر إلى مسجد آخر لسبب فني أو تاريخي أو علمي لا يدخل عمله في عموم المنع لأنه من المباحات لا من القربات والعبادات ، فالعبادة هي التي يشترط فيها ما ذكر ، وكذا من يسافر إلى المساجد التي اتخذت مدارس كالأزهر وجامع الزيتونة لأجل طلب العلم فإن طلب العلم في كل المساجد مشروع والله أعلم » (٢) انتهى بلفظه وهو كلام سديد يدل على دقته رحمه الله وحسن تفهمه للأحاديث ، والعجب كل العجب ممن يجوز مثل ذلك مدعياً أن الاستثناء متصل ومعناه لا تشد الرحال لأي مسجد آخر إلا لهذه الثلاثة .

وأنه لو قيل بأنه منقطع لكان المعنى لا تشد الرحال لأي شيء آخر إلا لهذه الثلاثة وأنه لو قيل بأنه منقطع لكان المعنى لا تشد الرحال لأي شيء آخر إلا لهذه الثلاثة ، وبنى على ذلك منع شد الرحال للعلم وزيارة الأقارب وصلة الرحم ونحو ذلك ، وهو غلط واضح فإن الذين قالوا بمنع شد الرحال لزيارة القبور لم يقولوا بالمنع مطلقاً من شد الرحال لأي مكان بل قيدوا بذلك بقصد القربة لأن المنع لمن اعتقد في السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين أنه قربة

---

(١) يعني أن القصر لمطلق السفر ولو كان معصية فيصح الأخذ بالرخصة فيه .

(٢) انظر مجموع فتاوى الإمام رشيد ٥/ ٢٠٥١ ، ٢٠٥٢ .

وطاعة ، ومعلوم أن أحداً لا يسافر إليها إلا لذلك ، فهذا هو وجه المنع والتحريم وقالوا : « وأما إذا قدر أن شُد الرحال إليها لغرض مباح فهذا جائز وليس من هذا الباب (١) قال شيخ الإسلام : « قول (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) يتناول المنع من السفر إلى كل بقعة مقصودة ، بخلاف السفر للتجارة ، وطلب العلم ، ونحو ذلك ، فإن السفر لطلب تلك الحاجة حيث كانت ، وكذلك السفر لزيارة الأخ في الله فإنه هو المقصود حيث كان » (٢)

بل قيد فضيلة المكان قيد به السبكي الحديث وإن كان تناقض في التطبيق ، ففي الفتح ٣/ ٦٦

قال الحافظ : « وقال السبكي الكبير : ليس في الأرض بقعة لها فضل لذاتها حتى تشد الرحال إليها غير البلاد الثلاثة المذكورة ، ومرادي بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكماً شرعياً ، وأما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها بل لزيارة أو جهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات قال : والتبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع ، وهو خطأ لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه فمعنى الحديث لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان والله أعلم » أهـ من الفتح وهو كلام

---

(١) انظر شرح النونية ٢/ ٣٥٧ وما بعدها لأحمد بن عيسى وانظر شرح خليل هراس عليها ٢/ ١٩٨ - ٢٠١ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى جزء ٢٧ ص ٢١ .

صحيح إلا في إدخاله زيارة القبور فيه لأن شد الرحال لزيارة القبور هو شدها لمكان تبتغى فضيلته ، ولذلك قال من قال إن السبكي تناقض في هذا الباب .

ويلزمه في ذلك لوازم :

(الأول :) أن يستحب للإنسان أن يشد الرحال لزيارة قبر نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم يرجع دون أن يقصد المسجد ليصلي فيه ، وهذا خلاف لسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولإجماع أصحابه ، ولعلماء أمته ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في مسجده ، وسافر إلى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الصلاة بل أتى القبر ثم رجع ، فهذا مبتدع ضال مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولإجماع أصحابه ولعلماء أمته ، وهو الذي ذكر فيه القولان : أحدهما أنه محرم والثاني أنه لا شيء عليه ولا أجر له ، (مجموع الفتاوي ٢٧/ ٣٤٢) وقال أيضاً : « وإما إذاقدر أن من أتى المسجد فلم يصل فيه ، ولكن أتى القبر ثم رجع فهذا هو الذي أنكره الأئمة كمالك وغيره ، وليس هذا مستحباً عند أحد من العلماء ، وهو محل النزاع هل هو حرام أو مباح ؟ وما علمنا أحداً من علماء المسلمين استحب مثل هذا ، بل أنكروا إذا كان مقصوده بالسفر مجرد القبرمن غير أن يقصد الصلاة في المسجد وجعلوا هذا من السفر المنهي عنه ولا كان أحد من السلف يفعل هذا » أهـ .

(مجموع الفتاوى ٢٧/ ٣٤٤) .

(الثاني) من اللوازم التي تلزم السبكي في جعله الزيارة مستثناة من الحديث أنه يستحب شد الرحال لقبور الأنبياء والصالحين ، باعتبارها من جنس زيارة القبور للعظة وهي مستحبة وشد الرحال لها لا يدخل في حديث المنع ،

وهذا خلاف ما عليه أئمة المسلمين فإنها لو كانت مستحبة لكانت تلزم بالنذر وعلماء الإسلام لا يحبون ذلك :

قال شيخ الإسلام : وأما السفر إلى مجرد زيارة « قبر الخليل » أو غيره من مقابر الأنبياء والصالحين ومشاهدهم وآثارهم فلم يستحب أحد من أئمة المسلمين الأربعة ولا غيرهم بل لو نذر ذلك ناذر لم يجب عليه الوفاء بهذا النذر عند الأئمة وغيرهم بخلاف المساجد الثلاثة ، فإنه إذا نذر إلى المسجد الحرام أو عمرة لزمه ذلك باتفاق الأئمة ، وإذا نذر السفر إلى المسجدين الآخرين لزمه السفر عند أكثرهم كمالك وأحمد والشافعي في أظهر قوليه ،لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) رواه البخاري وإنما يجب الوفاء بنذر كل ما كان طاعة مثل من نذر صلاة ، أو صوماً ، أو اعتكافاً ، أو صدقة لله ، أو حجاً ، ولهذا لا يجب بالنذر السفر إلى غير المساجد الثلاثة ، لأنه ليس بطاعة لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » فمنع من السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة ، فغير المساجد أولى بالمنع لأن العبادة في المساجد أفضل منها في غير المساجد وغير البيوت بلا ريب ولأنه ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال « أحب البقاع إلى الله المساجد » أهـ جزء ٢٧ هـ ٢١

وقد أجاد الحافظ ابن عبد الهادي في كتابه « الصارم المنكي في الرد على السبكي » ، فقد أتى بكلام السبكي ، وفنده وبين ضعف أحاديث استحباب الزيارة كلها وعدم نهوضها للاحتجاج فليراجع فإن فيه فائدة ، ولعل في هذا القدر ما يمكن أن تتضح به المسألة لكل ذي عينين والله أعلم .

التوسل بالأنبياء والصالحين

مسألة التوسل بالنبي مسألة قديمة اختلفت فيها الأوهام وتشعبت الطرق ، وهي في حد ذاتها مسألة أحكام وفيها اشتباه في الدليل على كثير من الناس ، والتحريم هو القول الراجح فيها ولا شك لأنه ذريعة لما هو أعلى من ذلك من الاستغاثة بالمقبورين إلا أن كثيراً من الناس يظن أن التوسل هو الاستغاثة ، وعليه فإذا قرأوا في كتب أهل العلم بالخلاف في جوازه ظنوا أن ذلك الخلاف في الاستعانة بالمتوسل به من دون الله ، ولهذا فإن عامة المصنفين في المسألة ممن أنار الله بصيرتهم في هذا الموضوع ينبهون على الفرق بين التوسل والاستغاثة ، ومن هؤلاء محمد رشيد رضا فقد سئل عن التوسل هل يجوز بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو الأنبياء ، أو الصحابة ، أو الأولياء ولو قيل بالجواز أو عدمه فهل من دليل ثم ذكر عدة أحاديث في الموضوع مما يستدل به على جواز التوسل كحديث « اللهم بحق ممشاي . . . . . » ، وحديث « توسلوا بجاهي . . . . . »

وأجاب الإمام رشيد بقوله (١) :

« المعروف عند عامة أهل عصرنا من معنى التوسل أن يعتمد المرء في قضاء حاجاته من جلب نفع أو كشف ضر أو نجاة في الآخرة من عذاب الله أو فوز بنعيم الجنة على أشخاص الأنبياء والصالحين ، وسؤالهم ذلك .

أو سؤال الله تعالى بأشخاصهم أن يعطيه إياه ، دون العمل بما جاء به الرسل عن الله من علم اعتقادي وعمل صالح وهو ما كان الصالحون صالحين باتباعهم فيه .

وهذا التوسل مخالف لأصول الإسلام وهداية القرآن ، وجار على قواعد

---

(١) انظر الفتوى في فتاوى الإمام رشيد رضا ٥/ ١٨٦١ - ١٨٦٣ .

الوثنية ، وتعاليم النصرانية الكاثوليكية ، فإن قاعدة الإسلام أن النجاة في الآخرة وسعادتها ينالان باتباع الرسل فيما جاءوا به من الإيمان وعبادة الله تعالى وحده بما شرعه ، لا بوجود أشخاصهم ، ولا بدعائهم وسؤالهم ، والتوسل هو التقرب ولا يتقرب إلى الله تعالى إلا بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأنه هو الذي تتزكى به النفس وتصير أهلاً لرضوان الله تعالى قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس ٩] .

إلى أن قال : « وقد ثبت أن وجود بعض المرسلين لم يكن سبباً لهداية بعض أبنائهم وآبائهم وأزواجهم ولا لنجاتهم من العذاب الذي عوقب به من كفر بهم كولد نوح ووالد إبراهيم وامرأة لوط عليهم السلام .

إلى أن قال : « وجملة القول أن التوسل هو التقرب ، وإنما يتقرب إلى الله تعالى بما شرعه على ألسنة رسله لابأشخاصهم واتباع الصالحين في ذلك لا بذواتهم ، وأن غير ذلك غير مشروع ، ومنه ما هو شرك بالله ، كدعاء غيره بما لايدعى به غيره كما فصلناه مراراً ومنه ما هو ذريعة إلى الشرك ، ومنه ما هو معصية . . . . » أهـ المراد منه ثم أخذ بعد ذلك في تحقيق الأحاديث الواردة في السؤال وأبان عللها وعدم انتهاضها للاحتجاج مطلقا (١) وقوله « ومنها ما هو شرك بالله كدعاء غيره بما لا يدعى به غيره » يقصد به من يسأل المقبورين ممن اعتقد صلاحهم مالا يسأل فيه إلا الله كالرزق والشفاء ونحو ذلك وسؤال الميت نفسه شرك في الألوهية فإن اعتقد السائل أن المقبور ينفع أو يضر استقلالًا كان شركًا كذلك في الربوبية (٢) ، وبعض الجهال يجعلون الشرك هو اعتقاد النفع والضر

---

(١) وقد جمعها وابان عللها أيضاً الشيخ الألباني في « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » حديث ٢٢ - ٢٥ ، ثم في كتابه في التوسل والوسيلة .

(٢) راجع هذا الأمر بتوسع من ص ١٠٧ - ١٢٥ من كتاب « هذه مفاهيمنا » للشيخ / مهندس صالح بن عبد العزيز آل الشيخ .

فقط فيجوزون للعوام والدهماء دعاء غير الله تعالى إذا لم يعتقدوا فيهم الاستقلال بالتأثير ، كما زعموا وهو باطل لأن مشركي مكة ما كانوا يعتقدون الاستقلال في آلهتهم كما ظهر ذلك من قوله تعالى حاكياً عنهم ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وقوله تعالى حاكياً عنهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وكانت تلبيتهم « لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » فلم يعتقدوا في معبوداتهم الاستقلال بالنفع والضر وهذا واضح بحمد الله ، فتبين أن دعاء الموتى من دون الله شرك وإن لم يعتقد الداعي فيهم التأثير وقد بين السيد رشيد رضا في فتوى له أن هذا المنع هو مقتضى كلام المتكلمين أيضاً (١) .

---

(١) يقول في هذه الفتوى : « يذكر جمهور علماء الكلام أن الإيمان بوحدانية الأفعال عبارة عن التصديق الجازم بأنه لا فعل لغير الله تعالى في الحقيقة ، فكل ما يقع في الكون من خير وشر ونفع وضر فهو من فعل الله تعالى وحده ويصرح الأشعرية في كتب العقائد بأن الأسباب الظاهرة للحوادث ومنها كسب الإنسان من الملائكة والجان ، لا تأثير لها في نفسها ، وإنما يخلق الله المسببات والمكسوبات عندها لا بها فلا فرق بين النار والماء في حصول الإحراق والإرواء ، إلا أن عادة الله قد جرت بخلق الإحراق عند مس النار واتصالها بالجسم القابل للاحتراق ، وخلق الإرواء ، عقب خلق شرب الماء ولكن الشرع أمر بالكسب كالتداوي والأكل والشرب فينبغي القيام بالمشروع منه

إلى أن قال حاكياً عنهم « ومن اعتقد أن ولي الزار أو شيخه ينفع ولو بقدرة خلقها الله فيه ومزية أعطاها إياه وأن عفريته يضر ولو بقدرة خلقها الله فيه أيضاً فهو عند هؤلاء المتكلمين شرك بالله تعالى فالخطر على منتحلي خرافات الزار وغيرها شديد في مذهب هؤلاء المتكلمين الذين ينتمي إليهم أكثر الخرافيين أما مذهب غير هؤلاء من المتكلمين ومحققي أهل الأثر من الحنابلة وغيرهم فهو أن الله تعالى جعل الأسباب مفردة بخواص خلقها فيهاكالإحراق في النار ، والإرواء في الماء . . . إلى أن قال حاكياً عنهم : « واتخاذ الأسباب الوهمية مذموم شرعاً وعقلاً . . . فمن اعتقد أن غير الله تعالى ينفع أو يضر بذاته دون ماجرت به سنته تعالى في الأسباب . . .) أهـ يعني فهو مشرك أيضاً هذا حاصل كلامه والفتوى بها طول قد اختصرت خلاصتها فلتراجع ص ١٣٣٢ وما بعدها من الجزء الرابع من فتاوى الإمام رشيد رضا .

والعجب أنهم يثبتون السماع المطلق لبعض الموتى مع أن هذا منفي بقوله تعالى ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ وقوله ﴿ وما أنتِ بمسمع من في القبور ﴾ وعلى التفسير بأن المراد بالآية الكفار ، يصح الاستدلال أيضاً لأن يقال شبه الكفار بالموتى في عدم السماع مما دل على أن عدم السماع متحقق في المشبه به (وهم الموتى) أكثر من تحققه في المشبه .

وقد أقر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عمر رضي الله عنه على فهم هذه الآية وذلك حينما نادى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أهل القليب ناداه عمر يارسول الله أتنادي أجسادًا لا روح فيها والله يقول ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ فأجابه « ما أنتم بأسمع لي منهم » فلو كان استدلال عمر بالآية به خطأ لما تركه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على خطئه هذا ولأبان له وجه الآية كما بين لعائشة رضي الله عنها أن المراد بقوله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ أنه العرض وغير ذلك من المواقف ، فلما أقر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عمر على فهم الآية علمنا أن أهل القليب كان سماعهم خاصاً بهم كما قال قتادة أحياهم الله له تبكيتاً لهم ، وهذا واضح جداً .

ولا يعكر على ذلك حديث (وإنه ليسمع قرع نعالهم) فإنه خاص بوقت الدفن (١) لأنه رتب بعده سؤال الملكين ثم بعد ذلك يفرش للميت من الجنة أو النار ولا يسمع (٢)

---

(١) وللألوسي كتاب في هذه المسألة قيم سمّاه « الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات وحققه الشيخ الألباني وقدم له بمقدمة طيبة فليراجع فإنه مفيد ، وراجع فيه الكلام على هذا الحديث ص ٢٨ - ص ٣٦ .

(٢) ومن طريف ما وقع أنه تناظر رجلان في مسألة السماع وادعى أحدهم أن المنع من السماع يدخل فيه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهذا إنقاص من مرتبته فأجاب السلفي بأنه لو كان أحد ما من=

وإنما أوردت هذه المسألة لأنها مما بنى عليها القبوريون مذهبهم في دعاء الأموات والاستغاثة بهم وطلب الحوائج منهم من دون الله تعالى ، فهذا هو التوسل الذي هو شرك .

وأما التوسل الذي هو ذريعة للشرك فهو نحو أن يتوجه الشخص لقبر نبي أو صالح فيدعو الله هناك ويتوسل بصاحب القبر ، ويفرق هذا النوع عن الذي قبله أن الأول يوجه السؤال للمقبور ، والثاني يتوجه بسؤاله لله سبحانه ولكنه يقرنه بتوسله بالمقبور .

وإنما كان ذريعة للشرك لخوف أن يتوجه بالسؤال للمقبور بعد ذلك وأما التوسل الذي هو معصية ، فهو مما خلا عما سبق كقول كثير من الناس في دعائهم (بحق جاه النبي) ونحو ذلك ، وهو توسل ممنوع أيضاً لكنه دون سابقيه في المنع وكل ما استدل به المانعون من أحاديث تدل على جوازه فهي إما لا تقوم بها حجة لافتقارها للصحة أو الحسن ، وإما لا دلالة فيها على المدعى والحاصل أن هذه المسألة مما تشعبت آراء الناس فيها وأداهم الأمر إلى أن تركوا ما شرعه الله من التوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ومن التوسل بالأعمال الصالحة ثم اتجهوا لما هو ممنوع ولو اجتمعوا على ما اتفقوا فيه لعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه ولكن إلى الله المشتكى (١)

= الموتى يسمع لكان أحق الناس بذلك هو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومعلوم أن التحدث عند قبر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم منكرات لا يقرها مسلم ويتأذى منها كل موحد ، أفيكتب الله على نبيه سماع الأذى إلى يوم القيامة ؟ ! فانقطع المخالف . وهذا مما يستأنس به في هذا الباب والله أعلم .

(١) ومما يقرب من هذا أيضا مسألة التبرك بالصالحين والمثبت لذلك يحتج بما ورد من تبرك الصحابة بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم له هذا من الاعتراض لأن الصحابة إنما تبركوا بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكونه نبيًّا لا لكونه رجلاً صالحاً بدلالة أنهم لم يتبركوا بعده بأحد من أهل الفضل ، وكان بينهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها وهو أبو بكر ولم يتبركوا به ، غير أن التبرك قد يكون ذريعة للشرك كما هو معلوم ومشاهد وقد ورد في حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما نبع الماء بين أصابعه قال : « البركة من الله » والوقوف على ما سبق فيه أثر وسنة هو الحق وخلافه باطل ، وقد نبه على نحو ذلك السيد رشيد في كثير من فتاويه .

وأختتم الكلام على التوسل بكلامه رحمه الله في التفسير والذي جمع فيه خلاصة ما تقدم حيث قال في تفسير قوله تعالى ﴿ ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة . . . ﴾ [المائدة ٣٥] .

يقول (ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أو عامتهم أن الوسيلة إلى الله تعالى تبتغى بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل ومنه الدعاء إلا كلمة رويت عن الإمام مالك لم تصح عنه بل صح عنه ما ينافيها (١)

وقد حدث في القرون الوسطى (*) التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين والمتقين أي تسميتهم وسائل إلى الله تعالى والإقسام على الله بهم وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو في حال البعد عنها وشاع هذا وكثر حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور في حاجاتهم مع الله تعالى ، أو يدعونهم من دون الله تعالى (والدعاء هو العبادة) كما قال

---

(١) لعله يقصد الحديث الباطل وفيه مناظرة أبي جعفر أمير المؤمنين لمالك في مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وسؤاله لمالك : أستقبل القبلة وأدعو ؟ أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . . .) إلخ القصة وهي منقطعة ، وقد تكلم عليها سنداً ومتناً شيخ الإسلام في (التوسل والوسيلة) - انظر الجزء الأول (ص ٢٢٧ - ٢٤٢) من مجموع الفتاوى كما ذكر فيها الآثار عن مالك التي تخالف هذه الحكاية الواهية .

(*) درج المؤرخون على استعمال لفظ القرون الوسطى على الفترة التاريخية التي قبل عصر النهضة في أوروبا والثورة الفرنسية وتسمية ما بعد ذلك بالقرون الحديثة والواقع أن ما أسموه بالقرون الوسطى كانت قرون الازدهار في تاريخ الإسلام وقد يكون هذا السبب الدافع لهم لتسميتها هكذا حقدًا على المسلمين ولذا فلا داعي للتوسع في استعمالها .

النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رواه النعمان بن بشير والله تعالى يقول ﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [الجن - ١٨ -] ويقول ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ [الأعراف - ١٩٤] ويقول ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر ١٣ ، ١٤] لكن بعض المصنفين زعم أنهم يسمعون ويستجيبون للداعي والعوام يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى ، لعموم الجهل ، ومن المشتغلين بالعلم من يتأول لهم بأن هذا من التوسل بهم وقد حقق شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الموضوع بجميع فروعه فكان ما كتبه في ذلك مصنفاً حافلاً أطلق عليه اسم (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) وقد طبعناه مرتين .

ثم شرع في النقل عن شيخ الإسلام بتوسع فليراجع فإنه مفيد (١)

* السبحة : تاريخها والتسبيح بها

سئل السيد رشيد عن الوجهة التاريخية والتعبدية للسبحة ، ولما كان رأيه أن يجهر بما يعتقده وليس ثمة حاجز يحجز بينه وبين أن يصدع بالحق ، ولم يكن يبالي أيؤخذ كلامه بنفوس راضية أو ضد ذلك . فلذا نراه يجيب في مثل هذا بما يشفي قلباً شغوفاً بالحق ، وفؤاداً مستنيراً بالهدى حيث قال لما سئل عنها :

« لم يرد للسبحة ذكر في كتاب الله تعالى ولا في الأحاديث الشريفة ولا في كلام الصحابة (رضي الله عنهم) ونقل شارح القاموس عن الأزهري أن

---

(١) انظر التفسير ٦/ ٣٧١ .

هذه اللفظة مولدة لم تعرفها العرب ، ويدخل في هذا النقي،أنها حدثت في الصدر الأول للاستعانة بها على التسبيح .

كنا نرى هذه السبح في أيدي القسيسين من النصارى والرهبان والراهبات ونسمع أنها مأخوذة عن البراهمة . . . . إلى أن قال :

« والأمر في السبحة ينبغي أن يكون أشر من أخذ غيرها عنهم لأنها تدخل في العبادة وتعد شعاراً . . . . فالسبحة من البدع الداخلة في العبادة ، فكان الظاهر أن يتشدد في تحريمها أكثر مما يتشدد بعضهم في حظر أزياء الكفار لا أن يقولوا أن الذكر بها أفضل ، فإن قالوا إنهم وجدوا لافائدة في ضبط الذكر الكثير الذي يفرضه عليهم شيوخ الطريقة نقول يلزمهم بهذا أن يبيحوا كل ما توجد له فائدة من البدع الدينية ...

إلى أن قال :

أما السنة في إحصاء ما ورد من الذكر معدوداً فهي العقد بالأنامل أي وضع رأس الأصبع على عقدها وفي كل أصبع ثلاث عقد ... روى أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعقد التسبيح » أهـ المراد منه (١) وهذا الذي قاله السيد رشيد هو الحق في هذه المسألة وقدتكلم علامة الشام الشيخ الألباني على هذه المسألة في كتابه القيم سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (حديث ٨٣) ص ٩٥ فبعد أن حكم على حديث (نعم المذكر

---

(١) انظر فتاوى الإمام رشيد ٣/ ١١٢٩ : ١١٣١ ، وقد ذكر لي بعضهم أن في دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان أن أصل السبحة مأخوذ من البوذيين ، ولم أراجع ذلك بنفسي ، وهو لا يخالف بعض ما هنا .

السبحة) بأنه موضوع ، قال بعد ذلك «الحديث باطل من حيث معناه عندي لأمور :

(الأول) أن السبحة بدعة لم تكن في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإنما حدثت بعده صلى الله عليه وعلى آله وسلم (وقال في الهامش ويؤيد ذلك قول علماء اللغة أن لفظه (السبحة) مولدة لا تعرفها العرب) قال : والدليل على ما ذكرت ما روى ابن وضاح القرطبي في (البدع والنهي عنها) ص ١٢ عن الصلت بن بهرام قال : مرّ ابن مسعود بامرأة معها تسبيح تسبح به فقطعه وألقاه ، ثم مر برجل يسبح بحصا فضربه برجله ، ثم قال : لقد سبقتم ! ركبتم بدعة ظلمًا ، ولقد غلبتم أصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم علمًا ! » وهو ثقة من أتباع التابعين .

إلى أن قال: فإن قيل قد جاء في بعض الأحاديث التسبيح بالحصى وأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أقره فلا فرق حينئذ بينه وبين التسبيح بالسبحة كما قال الشوكاني .

قلت : هذا قد يسلم لو أن الأحاديث في ذلك صحيحة ، وليس كذلك . . . إلى أن قال (قد يقول قائل : إن العد بالأصابع كما ورد في السنة لا يمكن أن يضبط به العدد إذا كان كثيراً فالجواب قلت : إنما جاء هذا الإشكال من بدعة أخرى وهي ذكر الله في عدد محصور لم يأت به الشارع الحكيم ، فتطلبت هذه البدعة بدعة أخرى وهي السبحة ! فإن أكثر ما جاء من العدد في السنة الصحيحة فيما أذكر الآن . . . مائة وهذا يمكن ضبطه بالأصابع بسهولة لمن كان ذلك عادته .

قال (ولو لم يكن إلا سيئة واحدة ، وهي أنها قضت على سنة العد بالأصابع أو كادت مع اتفاقهم على أنها أفضل لكفى ! فإني قلما أرى شيخاً

يعقد التسبيح بالأنامل . . .) إلى آخر كلامه حفظه الله وهو نفيس فليراجع .

ويحتج بعض من يجوز العد بالسبحة بفتوى شيخ الإسلام رحمه الله في السبحة وفيها (٢٢/ ٥٠٦) من مجموع الفتاوى :

« وأما التسبيح بمايجعل في نظام من الخرزونحوه ، فمن الناس من كرهه ، ومنهم من لم يكرهه ، وإذا أحسنت فيه النية فهو حسن غير مكروه ، وأما اتخاذه من غير حاجة أو إظهاره للناس مثل تعليقه في العنق ، أو جعله كالسوار في اليد أو نحو ذلك فهذا إما رياء للناس أو مظنه المراءاة ومشابهة المرائين من غير حاجة الأول محرم ، والثاني أقل أحواله الكراهية ، فإن مراءاة الناس في العبادات المختصة كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن من أعظم الذنوب) أهـ محل الغرض منه

فهذا الكلام من شيخ الإسلام لا يخالف في حقيقته ما تقدم ، ولو فرضنا وقوع مخالفة، فالمرجع إلى الكتاب والسنة عند التنازع، فقوله (إذا أحسنت فيه النية) يشمل النوايا الحسنة التي تخرجه عن حد البدعة ، ومن الصور التي يتصور فيها عدم الإنكار ما لو كان دأب الرجل التسبيح على يده ، فسبح مرة بالسبحة في بيته دون إظهارها للناس لاعلى وجه العبادة ، ولا وهو دائم التسبيح بها عادة ، ويتأكد عدم الإنكار لوقام بيده ما يمنعه من حسن التسبيح بها والله أعلم .

وقد صدرت فتوى من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية بهذا الصدد

أنقل طرفًا منها لزيادة الفائدة (مجلة البحوث عدد ١٩ ص ١٤٣) .

السؤال : هل استعمال المسبحة بعد الصلاة بدعة ؟

الجواب : الثابت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يسبح بعد الصلاة بيده والخير كل الخير في اتباعه والاقتداء به ولا سيما في أمور العبادات التي الأصل منها التوقيف - ولم يرد دليل من الشرع في التسبيح بالمسبحة بل وردت بعض الآثار عن الصحابة ما يدل على استنكار التسبيح بها واعتبارها بدعة من ذلك ما رواه محمد بن وضاح ... ص ٩ ثم أوردت الفتوى أثر ابن مسعود السابق في كلام الألباني) أهـ .

ويمكن بهذا أن يكتشف وجه الحق في هذه القضية .

وعود على بدء أؤكد أن الشيخ رشيد رغم حماسه في الدعوة للتقريب بين آراء واتجاهات فرق وجماعات الأمة إلا أن هذا لم يمنعه أن يبين وجه الحق ولو في قضية فرعية كهذه والله المستعان .

المذهبية

هاجم بعض الشيوخ السيد رشيد رضا في تحرره من ربقة التقليد واعترض عليه الكثيرون ولما كان الحق الذي لا مرية فيه أن لا يحق لأحد أن يقدم قولًا لأحد علماء الأمة أو غيرهم على قول الله سبحانه وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لذا نجد الشيخ قد انبرى للرد على هذه الفرية ، وتلك المقولة الساقطة وهي وجوب التقليد لكل أحد ولعل القائلين بذلك ممن يخاف أن يفتي في دين الله من ليس أهلاً لذلك ، وهذا صحيح من وجه إلا أنهم يطلقون تحريم التقليد ويمنعون من الاتباع ، وقد انتقيت من فتاوى الشيخ رشيد بعض المقاطع التي تبين رأيه في ذلك فقد أجاب بعض من اعترض عليه قائلاً : (فتاوى الإمام

رشيد رضا ١ / ٣٧٨)

وأما سؤال المعترض هل نطلق الحرية للآراء والأفكار في الأخذ من الكتاب والسنة أم نعملهم على رأي واحد ، وإيراد على كل واحد من طرفي الترديد ما أورده ، فإننا نجيب عنه بما ليس في حسبانه فنقول : لا شك أن الكلام في المسائل الخلافية ، وقد كان السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين يطلقون الحرية في المسائل الاجتهادية لكل أحد في المسائل العلمية بالشخص لا بالحكومة وكانوا لا يرون ذلك موجباً للخلاف والتفريق ولا للتنازع والتقاطع كما حدث بعد التزام المذاهب والتعصب لها بل كان كل يعذر الآخر فيماخالفه فيه . . . »

إلى أن قال : « وأما قوله أنه يعلم قطعاً أن أتباع الأئمة الأربعة كانوا كذا وكذا فنقول فيه « أن المنقول عن الأئمة وأصحابهم تحريم التقليد ومنعه ووجوب الأخذ بالكتاب والسنة وستجد طائفة من هذه النقول عنهم في كتاب محاورات المصلح والمقلد ، ولكن لم يتبعهم في هذا كل من انتمى إليهم لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة ، فإن كلام الأئمة الأولين صار مجهولاً حتى للمنقطعين إلى العلم ، والأستاذ الإمام يسعى في إحياء كتبهم وهو رئيس جمعية ألفت لهذا الغرض ، وأما العوام فأكثرهم لا يعرف الآن من الدين إلا بعض مسائل الخلاف بين المذهب الذي يدعيه والمذهب المنتشر في بلده كانتشار مذهب المدعي . ثم إن أكثرهم لا يعملون إلا بقليل مما يعلمون من مسائل الخلاف والوفاق ، والمعترض وأمثاله لا يخافون من هذا الضياع للدين ولكنهم يخافون من الدعوة إلى الكتاب والسنة ، والاهتداء بها بحجة الخوف على المذاهب التي لم يبق منها إلا الجدل فيما بقي من دروس المقلدين الدارسة» .

ولعل بعد هذا التفصيل لا يخالف أحد من أنار الله قلوبهم الشيخ رشيد

في هذه المسألة ، وتحقيق القول فيها ليس هذا مجاله وتلك فقط إشارة للرد على بدعة المذهبية والتقليد الأعمى (١) والله أعلم

* أحاديث الآحاد والأخذ بها في العقائد

خبر الواحد الثقة الصحيح هو خبر عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صح نقله إلا أنه لم يبلغ رتبة التواتر ، وقد ذهب المتكلمون إلى أن هذا الخبر لا يؤخذ به في العقائد وهذه المقولة هي من أفسد ما يكون وقد جعلها ابن القيم رحمه الله من مسائل المفاصلة بين أهل السنة وأهل البدعة في كتابه الرائع (الصواعق المرسلة) ، ولقد رأيت رأياً سديداً للشيخ رشيد أحببت أن أنقله هنا من ضمن ما ابتدأته من ردوده رحمه الله على أهل البدع .

فقد سئل رحمه الله عن ذلك فأجاب جواباً مفصلاً شافيا

ثم قال بعده (٢)

« نتيجة البحث وخلاصة الجواب : فمن فقه ما شرحناه علم أن أكثر الأحاديث الآحادية المتفق على صحتها لذاتها ، كأكثر الأحاديث المسندة ، في صحيحي البخاري ومسلم جدير بأن يجزم بها جزماً لا تردد فيه ولا اضطراب ، وتعد أخبارها مفيدة لليقين بالمعنى اللغوى . . . ولا شك في أن أهل العلم بهذا الشأن قلما يشكون في صحة حديث منها ، فكيف يمكن لمسلم يجزم بأن

---

(١) ولتمام الفائدة انظر ص ١٥ - ٣٩ / جزء ٢٠ من مجموع فتاوى شيخ الإسلام .

(٢) انظر ص ١٣٣١ / ٤ من فتاوى الإمام رشيد رضا .

الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر بكذا ولا يؤمن بصدقه فيه ؟

أليس هذا من قبيل الجمع بين الكفر والإيمان وليعلم إنني أعني بالمتفق عليه هنا ما لم ينتقد أحد من أئمة العلم متنه ولا سنده ، فيخرج من ذلك ما انتقده مثل الدار قطني وما انتقده أئمة الفقهاء وغيرهم ، ومن غير الأكثر ما تظهر فيه علة في متنه خفيت على المتقدمين أو لم تنقل عنهم وذلك نادر ، وقد عد بعضهم هذه الأحاديث المتفق على صحتها مفيدة للعلم اليقيني الاصطلاحي إذا تعددت طرقها » (١) أهـ .

هذا البحث طويل متشعب ولعل ما سبق هو خلاصة الرأي فيه وبه أكتفي والله أعلم .

وفي نهاية الكلام على بعض فتاوي « البدع » أؤكد على أن الشيخ رشيد رغم قوة عباراته ، وقسوتها أحياناً ، إلا أنه لا يطلق عبارات التكفير على الأعيان ، إلا إذا استجمعت الشروط وانتفت الموانع ، ويمكن مراجعة فتاويه في ذلك ومنها على سبيل المثال ما جاء في ص ١٣٠٨ / جزء ٤ من فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ، وغيرها ، فهو رجل سنة وأثر ، لا بدعة وهوى ، والله المستعان .

جـ : الخصومة مع الشيعة

اتخذت خصومة السيد رشيد مع الشيعة شكلاً عاماً في حياته ، وشغلت جزءًا من تفكيره، ولاسيما عندما بدأ مجتهدوهم ومشايخهم يوجهون أقلام الحرب للسيد رشيد أو لعقيدته أمثال العاملي وعبد الحسين .

---

(١) وانظر نحو هذا في كلام شيخ الإسلام في ص (١٨/٢٧ ، ٢٠/٢٥ ٣٥٠/١٣ من فتاوى شيخ الإسلام)

ولعل ما سبق في الباب السابق يكفي في توضيح جذور القضية ، ولكن المقصود هنا أن نبين أن هذه الخصومة حالت دون التقارب الذي سعى إليه الشيخ رشيد ، وليت عقلاء الشيعة استجابوا لدعوة الحق حتى يتسنى للمسلمين أن يوجهوا ضالهم ، ويعينوا الذي تعثر منهم ، ويأخذوا بيده لنور السنة وهدى الجماعة .

د - الخصومة مع المستشرقين

كان لابد أن يكون لرجل كرشيد رضا أن يكون قريباً من السموم التي ينشرها المستشرقون تارة بأسمائهم ، وتارة عن طريق أبواقهم ومن استغفلوهم من أبناء المسلمين ، كما فعلوا مع أمثال « طه حسين » وكتاب « الشعر الجاهلي »

وعلى هذا وقف السيد رشيد في وجه هؤلاء جميعاً ينافح بالحجة والمحجة ، وأصدر كتابه « الوحي المحمدي » يرد فيه على كثير مما أثاره المستشرقون ولم يكتف بهذا بل راسلهم وقدم لهم الكتاب رجاء أن يؤثر فيهم ، وسجل في مقدمة الطبعات المتأخرة من الكتاب بعض هذه المراسلات ، وما رد به هؤلاء عليه وكان حريصاً أن يبلغ هؤلاء دعوة صحيحة عن الإسلام ، وأن يدخلوا في دين الله أفواجا ولكن قدر الله نافذ ومشيئته غالبة

يقول الشيخ رشيد في مقدمة الطبعة الثالثة للوحي المحمدي تحت عنوان : (بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج والمستشرقين منهم) « لن يكون بلوغ الدعوة صحيحاً موجزاً إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم ، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين ، فإنهم مادرسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته ، ويعرفوا غيرهم بها ، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها ، لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التي ينكرونها ، كما نرى فيما

اطلعنا عليه من كتبهم ، وفي معجمهم العلمي ، الذي سموه بـ« دائرة المعارف الإسلامية » ، ومن خيبة الآمال بعلمهم ومصنفاتهم أن وجدت كتاب (مفتاح كنوز السنة) على غير ما كنت ظننت ، وخلاف ما قلت في التعريف به ، فإنني لم أستفد منه أدنى فائدة .

وأما المستقلون منهم وهم الأقلون ، فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم فقضاياها عندهم مسلمات ، كأنها لا مجال للبحث فيها ، وقد قربنا مسافة الخلف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية على أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أن قال : « ولعل كتاب « الوحي المحمدي » قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية ، فإنني أهديته إلى من عرفت عناوينهم ، وأرسله غيري إلى أناس منهم ، ومن عاداتهم أن يبحثوا عن كل كتاب جديد له شأن ، وقد شكر لي بعضهم هذه الهدية بكلمة لم يزد عليها كصاحب « مفتاح كنوز السنة » الدكتور فنسنك ، وانفرد العلامة الدكتور موريتس الألماني منهم بإبداء رأي فيه . . . » إلخ

هـ - الخصومة مع النصارى

رغم أن السيد كان لين الجانب مع النصارى ، إلا أن هذا اللين كان في المعاملة ، أما إذا اقترب الأمر من الدين والعقيدة ، فهو لا يبالي أكان كلامه مقبولاً عندهم أولا ، وقد وضع كتابه « شبهات النصارى وحجج الإسلام » ويتضمن ست عشرة مقالة نشرت في المجلدين الرابع والخامس من المنار في الرد على كتاب (أبحاث المجتهدين) ومجلة بشائر الإسلام ، ومجلة الجامعة ، وفيها تحقيق معنى التوراة والإنجيل والموازنة بين موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم والمقابلة بين الإسلام والنصرانية ، وتحقيق كون

النصرانية من الوثنية ، وعصمة الأنبياء ، والخلاص ، والإيمان ، والأعمال ، وسنن الله في الخلق ، وكون الإسلام دين العلم والعقل ، والسلطتان الدينية والمدنية ، والشريعة والدين وغير ذلك وبدأه بآيتين من سورة النحل ﴿ ادع إلى سبيل ربك . . . ﴾ (١) ، ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (٢) وقد أصدر السيد رشيد رضا إنجيل برنابا وطبعه ، وهذا الإنجيل كان النصارى قد أخفوه وحرموا مطالعته ، ففوجئوا بالسيد رشيد يطبعه في المنار معلقاً عليه وذلك لأن هذا الإنجيل فيه توحيد الرب وبشرية عيسى ، ولا يوجد فيه ما يوجد في أناجيلهم الأربعة الأخرى (متى - لوقا - يوحنا - مرقس) من التثليث وألوهية عيسى .

وألف أيضاً كتاب (المسلمون والقبط) فيه كما يقول الشرباصي « فيض من الشواهد على غيرته الدينية ، وعدم التساهل مع غير المسلمين فيما هو من حقوق الإسلام » (٣)

فهو يقول فيه مثلاً « فكل ما ناله القبط من الوظائف الكثيرة فهي فضل وإحسان من أمير مصر المسلم المتساهل (٤) » وقد تعدى دعوة رشيد رضا النصارى عن طريق المقالات ، فذهب إلى النصارى وناقشهم بالحجة واللسان ، كما ذكر ذلك في تفسير المنار (٥)

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

(٣) انظر ص ١٨٧ من كتاب الشرباصي .

(٤) انظر ص ٣٧ من المسلمين والقبط .

(٥) انظر التعليق على ذلك في ص ١٨٦ من كتاب الشرباصي ، وانظر تفسير المنار ص ٦/٢٥ .

وقد سأله ذات مرة القس الدانيمركي الفردنيلسن في دمشق قائلاً : « ما هو الذي يجعلك تتبع الإسلام كدين الحق ، وإذا تعرفت بالتبشير المسيحي وبالكتب المسيحية فما هو الذي يبعدك وينفرك عن دعوتها ؟

فأجابه إجابة طويلة شافية فكان مما قال (١)

« ثبت عندي أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان رجلاً أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، ولا عاشر أحداً من علماء الأديان ولا التاريخ ولا القوانين والفلسفة والآداب ولا غير ذلك ، وأنه لم يكن شاعراً ولا خطيباً ، ولا محباً لما كان معهوداً بين كبراء قومه وأذكيائهم من الرياسة والمفاخرة والشهرة بالفصاحة والبلاغة ، وإنما كان ممتازاً بين أقرانه في قومه بسلامة الفطرة وحب العزلة والصدق والأمانة والعفة والمروءة وغير ذلك من مكارم الأخلاق ، حتى لقبوه بالأمين ، قضى على ذلك سن الصبا والشباب التي تظهر فيها جميع رغبات البشر ومزاياهم ، ثم إنه بعد إكمال الأربعين والدخول في سن الكهولة ادعى النبوة وأن الله بعثه رسولاً إلى الناس كافة كما أرسل من قبله من الرسل إلى أقوامهم بمثل ماأرسله به من الدعوة إلى توحيده . . . . إلى أن قال : « وجاء بكتاب في ذلك قال : إن الله تعالى نزله عليه وإنه وحي من لدنه سبحانه يعجز جميع البشر عن الإتيان بمثله في علومه ومعارفه وإصلاحه ، وتأثيره في إبطال الشرك والخرافات والأباطيل الفاشية في البشر ، وإصلاح الفطر والقلوب والأعمال لمن اهتدى به . . . »

ثم ذكر جملةمن الأدلة الدافعة ، والبراهين الساطعة على صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصحة دين الإسلام وفساد غيره مما حرفه أو

---

(١) انظر فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ٥/ ١٨٢٠ وما بعدها .

وضعه البشر(١).

وهي فتوى جليلة القدر عظيمة النفع لعل الله يكون قد نفع بها هذا القس الدانيمركي وأمثاله ومن اطلع عليها من أضرابه.

ويطرح سؤال نفسه الآن :

إذا كان السيد رشيد بهذا المعتقد ، وهذه الروح الإسلامية ، فلماذا كان ليناً مع بعض هؤلاء النصارى كما سبق نقل ما يؤكد ذلك (٢)؟

والجواب أن السيد رشيد لم يكن يرى أن ذلك يخالف عقيدة المسلمين في الولاء والبراء ، وذلك لأن الولاء أمر قلبي يظهر على الجوارح أثره ، وما كان من السيد رشيد هو أشبه ما يكون مجاملة ومداراة ، وقد ظفرت بقصة أوردها السيد رشيد في المنار توضح ذلك ، عند تفسير قوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ [النساء ١٤٤]

ومؤدى هذه القصة أنه في خلال زيارته للأستاذ حضر درساً سئل المعلم فيه عن تفسير هذه الآية وكيف أن الدولة العثمانية تستخدم غير المسلمين في بعض الوظائف ، فاستأذن السيد رشيد في الإجابة ، قال :

« وبينت معنى الولاية ، وكيف كان حال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والمؤمنين مع أهل الكتاب وغيرهم في صدر الإسلام ، وتحقيق كون

---

(١) وانظر كذلك ما نشره الشيخ رشيد في المنار رداً على هانوتو أحد وزراء فرنسا وكتابها عندما طعن في الإسلام فانبرى له محمد عبده ونشره رشيد انظر تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٧٩٩ ، ٢/ ٤٠٠ وما بعدها.

(٢) انظر ص ٢٧ ، ص ٢٨ من البحث .

الولاية المنهي عنها في الآية هي ولاية النصرة والمعونة لهم إن كانوا محاربين ، وكون استخدام الذميين منهم في الحكومة الإسلامية لا يدخل في مفهومها، بل له أحكام أخرى ، والصحابة قد استخدموهم في الدواوين الأميرية . . . . » إلى آخر كلامه رحمه الله .

فهذا النقل عن السيد رشيد رضا يفيد سبب لينه مع أهل الكتاب في باب المعاملة دون الميل القلبي .

وقد بوب البخاري رحمه الله في كتاب الهبة من الصحيح : (باب الهدية للمشركين وقول الله تعالى ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة آية ٨]

ثم أورد حديث إهداء عمر حلة حرير لأخيه المشرك ، وحديث بر أسماء لأمها عندما قدمت عليها وهي مشركة .

قال الحافظ : (ومن هذه المادة قوله تعالى ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ الآية [لقمان - ١٥] ، ثم البر والصلة والإحسان لايستلزم التحاب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ الآية [المجادلة ٢٢] فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل . . .)(١)

وقال ابن القيم : « الذي يقوم عليه الدليل: وجوب الإنفاق، وإن اختلف

---

(١) انظر فتح الباري ٥/ ٢٣٥ .

الدينان لقوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾ [لقمان- ١٥] وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة ، وهو في غاية الغنى .

وقد ذم الله تعالى قاطع الرحم، وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة لقوله تعالى ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ [النساء ١] وفي الحديث :

« لا يدخل الجنة قاطع رحم » (٢)

وصلة الرحم واجبة ، وإن كانت لكافر ، فله دينه وللواصل دينه ، وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد . فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة .

وقد جعل الله للقرابة حقاً - وإن كانت كافرة - فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا قال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء - ٣٦] .

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافراً ، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة ما وصى الله بالإحسان إليه ؟) (٢) أهـ .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٠/ ٤١٥) ، ومسلم ٤/ ١٩٨١ قال د. محمد سعيد القحطاني معلقاً : ويلاحظ هنا أن النكرة وقعت في سياق النفي فتعم [الولاء والبراء] ص ٣٥٤ .

(٢) انظر أحكام أهل الذمة ٢/ ٤١٧ - ٤١٨ ، وانظر الولاء والبراء ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

والإحسان الذي تعرض له الإمام ابن القيم ليس خاصاً بذوي القربى بل عام للناس كما قال تعالى ﴿ وقولوا للناس حسنًا ﴾ [البقرة - ٨٣] وقد كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يحسن حتى مع من ساء خلقه من المنافقين وضعاف الإيمان ، فقد ورد في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلما رآه قال : بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت عائشة : يارسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم متى عهدتني فاحشاً ؟

إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » (١) قال الحافظ : « قال الخطابي : جمع هذا الحديث علماً وأدباً . . . . . ثم قال تبعاً لعياض : والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أوهما معاً ، وهي مباحة ، وربما استحبت ، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا ، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنما بذل له من دنياه : حسن عشرته ، والرفق في مكالمته ، ومع ذلك فلم يمدحه بقول ، فلم يناقض قوله فيه فعله ، فإن قوله فيه قول حق ، وفعله معه حسن عشرة . . . .) (١)

وقال الحافظ في موضع آخر « قال ابن بطال : المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهي خفض الجناح للناس ، ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول ، وذلك من أقوى أسباب الألفة .

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط ، لأن المداراة مندوب إليها ،

---

(١) انظر الفتح (١٠ / ٤٥٢) .

والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة (١) هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك» (١) أهـ.

فمما سبق من أدلة وأقوال أهل العلم يتضح الفرق بين موالاة الكافرين، وحسن العشرة من غير المحاربين منهم، فالموالاة أمر قلبي هو المحبة والنصرة، أما بذل الدنيا لصلاح الدين فلا يدخل في هذا، ولعل هذا كان فعل السيد رشيد رضا مع من ربطته به صحبة أو ترافق في إصلاح أمر من أمور الدنيا (٢)، وكان بعض السلف يفعل مثل هذا، قال القرطبي (قال الطبري: قد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه قال له علقمة: ياأبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدؤا بالسلام؟

---

(١) انظر فتح الباري (١٠/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٢) والشيخ رشيد رضا في ذلك متفق مع الشيخ محمد عبده، وللأخير فتوى في حكم الاستعانة بالكفار (١/ ٦٥٢ - تاريخ الأستاذ الإمام) نقل أقوال أهل العلم فيها ورجح فيها جواز التعامل مع أهل الكتاب في الجملة بشروط منها أمن كيدهم، وعدم التذلل لهم ونحو ذلك، وتكلم فيها عن المداراة وأحكامها، ومن هنا يلتمس بعض الناس العذر للشيخ محمدعبده في دخوله جمعية التقريب بين الأديان) أنه أراد منها عملاً سياسياً برفع تسليط أوربا على الشرق، وعملاً دينياً وهو كما يقول رشيد رضا «تعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام وحقيته من أقرب الطرق» ولكن هل هذا يعني الدخول في مثل هذه الجمعية؟ لا شك أن من اتقى مواضع الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.... وانظر تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨١٧ - ٨٣٠).

قال : نعم ، يكره أن يبدؤا بالسلام ؟

قال : نعم ، ولكن حق الصحبة .

وقال الأوزاعي : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . . .) (١) ولعل في هذا القدر كفاية لمن أراد الهداية والله أعلم .

(ثانياً) الاتجاهات الفكرية التي تأثرت برشيد رضا : (٢)

لقد كان السيد رشيد رضا نواة لكثير من الأفراد والجماعات الإسلامية ، بل لا نبعد كثيراً إذا ما قلنا إن السيد رشيد قد أثر في أكثر من جاء بعده من الأفراد والجماعات ، كلها قد جعلت رشيد رضا إماماً واستمدت منه الطريق ، واستوحت من كتاباته ومقالاته هداها ، فأحببت أن أكتب هنا هذه العلاقات الإيمانية ، والروابط الوشيجة لأثبت أن هذا الطود الشامخ رشيد رضا لم يكن فيلسوفاً في برج عاجي ، والناس يسيرون بعيداً عنه لا يعبأ أحد الفريقين بالآخر

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١١/ ١٢) ، ومسألة السلام على أهل الكتاب محل خلاف ، والجمهور على المنع من بدئهم لحديث مسلم (٢١٦٧) أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال « لا تبدؤوهم بالسلام » والمخالف يراه خاصًا بقضية خاصة ، وأيا كان فإذا بدأ هم فلا يترحم في سلامه عليهم على ما حققه العلامة ابن القيم في الزاد (٢/ ٤٢٥) ، وعلى كل فالمنع منه أولى ، وإنما أوردت ذلك لأبين أن للسيد رشيد سلفًا في بعض ما صدر عنه والله أعلم.

(٢) طلب مني بعض الأفاضل حذف هذا الفصل من الرسالة ، إلا أنني بعد الاستشارة والاستخارة ، رأيت أنه من المناسب جداً أن أبقيه مع بعض التعديل ، وذلك لأنه يمثل الجانب التطبيقي في حياة السيد رشيد رضا ، لأنه رحمه الله لم يؤسس جماعة أو جمعية ولكن صوته الذي شع من المنار كان نواة كثير من الجماعات والجمعيات ، فهي بمثابة التطبيق الواقعي لنظرياته . فإذا حذف هذا الفصل كانت النظرية تفتقر إلى تطبيق ، مما ينفر من الأخذ بها .

، بل كان نبراساً وشعلة هدى أثر في كل من جاء بعده تقريباً ولقد صدع (المنار) بالحق على أكثر من ثلاثين سنة ينشر الفكر السلفي المتحرر من ربقة الجهل والضلال ، وجاء صوت الهدى ، ومعول النور يدق صروح التخلف مذعناً ببدء دعوة جديدة مع داعية ومصلح عظيم ألا وهو السيد رشيد رضا ولما كانت الساحة الإسلامية تعج الآن بكثير من الأفكار والآراء والاتجاهات الإسلامية وكل هذه الجمعيات تعمل على طريق الإسلام ، أردت أن أنبه على علاقة بعض هذه الجماعات بالسيد رشيد ، والجانب الذي ركزت عليه كل جماعة مما استوحته من قلم رشيد ومدرسته ولقد أعطيت جماعة (الإخوان المسلمون) النصيب الأكبر في البحث والمدارسة ، وذلك لأنها من أكبر الجماعات الإسلامية الموجودة على الساحة ، والتي يرجى لها أن تشمل برعايتها الخضم الواسع من السواعد الشبابية ، والأيدي المتوضئة ، وهي أيضا الجماعة التي حرص منشئها والمؤرخون لها أن ينسبوها إلى حركة رشيد رضا ربطاً للواقع بالماضي والأصالة بالمعاصرة ومما ينبغي التنويه عليه هنا أن ما يلحظه القارىء من نقد لبعض هذه الجماعات إنما هو من حرص الباحث أن يتنبه القائمون على مثل هذه الجماعات ، ويصححوا ما قد يرون إصابة هذا البحث فيه من النقد البناء حتى يلتئم شمل الحركات الإسلامية كلها ، فإذا كانت جميعها اجتمعت في التأثر بشخص واحد ، ألا وهو رشيد رضا ، كان من السهل لطلاب الحق فيها أن يصححوا المسار ، وينتقوا الرجال ، لبناءمستقبل أفضل ، وغد مشرق ، وتشع عليه أنوار الألفة والتحاب .

ولا أقصد في كلماتي هذه توجيه تجريح لشخص أو لجماعة إنما هو منهج النقد العلمي ، وهو على كل حال يمثل رأي الباحث الذي قد يخطىء فيه أو يصيب ، أضع ذلك بين يدي إخواني في الله طالباً منهم أن يؤدوا حق النصيحة فيه . . .

وقد وجدت أنه من المناسب أن أركز الضوء على ثلاثة اتجاهات ومدارس لها الدور والتأثير الكبير في الساحة الدعوية اليوم، وأظهر أن هذه الاتجاهات كان للسيد رشيد رضا الأثر البالغ في نضوجها الفكري والحركي ، وكانت مجلة المنار من أكبر العوامل التي أثرت فيها بالإيجاب وهذه الاتجاهات هي :

١- جمعية أنصار السنة المحمدية .

٢- مدرسة العلامة الألباني .

٣- جماعة (الإخوان المسلمين) .

١- مع أنصار السنة المحمدية

جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ، جماعة قامت على محاربة البدع والخرافات ، وعملت على تصفية المجتمع مما فيه من المحدثات التي كانت سبباً في تخلف المسلمين برهة من الزمان ولا عجب أن نجد أفكار هذه الجماعة شديدة الالتصاق بأفكار السيد رشيد ، إذ إن كبار الرواد الأول للجماعة كانوا من تلاميذ السيد رشيد ممن أخذ عنه مباشرة أو عن مجلته الغراء (المنار) .

وكان الشيخ محمد حامد الفقي رئيس الجماعة في وقت من الأوقات يفتخر بانتسابه لرشيد رضا وربما كان يكتب عن نفسه (تلميذ حكيم الإسلام رشيد رضا) كما سبق ذلك في بيان تلاميذ رشيد رضا (١) ونشطت الجماعة في محاربة الشركيات والوثنية التي كانت (ولا تزال) تشمل أطرافاً من البلاد الإسلامية في مصر وغيرها ، وكان لها الدور الرئيسي في التحذير من عبادة القبور والدعوة إلى التحرر في الفقه من ربقة التقليد .

---

(١) انظر ص ٢٦ من هذا البحث .

وقد امتد التأثر إلى كثير من رجالات الجماعة ومحبيهم أذكر منهم فضيلة الشيخ العلامة المحدث أحمد محمد شاكر (١) ، والعلامة محمد عبد الرزاق حمزة والشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح (٢) وخلق كثير .

وقد امتد التأثير بالشيخ رشيد إلى الأجيال التالية في جماعة أنصار السنة ، بل وجدنا في بعضهم تأثراً برشيد رضا في أمور خالف فيها ، ومن ذلك إنكار بعضهم (المهدي) الذي يظهر في آخر الزمان واسمه محمد بن عبد الله يملك سبع سنين يحثو المال حثوا ولا يعده عداً أجلى الجبهة أقنى الأنف وقد وردت الأحاديث الصحيحة بذلك (٣)

وقد امتد هذا التأثير في تصور كثير منهم لحقيقة الجن تصوراً خاطئاً فأنكر كثير من هؤلاء مس الجن للبشر ، ولعل السبب في هذا الشطح أن المجتمع

---

(١) وسبق نقول عنهم تثبت ذلك في ص ٢٦ من هذا البحث .

(٢) وعنهما يقول الشيخ رشيد (وهما من تلاميذي) انظر ص ٧٥٦ من ترجمة شكيب لرشيد رضا ، وأيد ذلك الشيخ عبد الرزاق عفيفي .

(٣) ومن هذه الأحاديث : حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذي حسن صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

- وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال « لا تقوم الساعة حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي » رواه الإمام أحمد .

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً » رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

وإبان حادث الحرم عام ١٤٠٠ هـ كتب الكثيرون من أنصار السنة في مجلتهم (التوحيد) التي تصدر بمصر ، كتبوا عقيدتهم في إنكار المهدي !!

المصري آنذاك كان يعج بكثير من الأمراض والآفات التي كانت تنسب إلى الجن ، وكان تأخر المسلمين سببه مثل هذه الخرافات في زعمهم وهذا الكلام فيه كثير من الحق ولكنه لا ينفي أن هناك حالات حقيقية ثبت فيها تلبس الجن للإنس وعلى هذا فسروا قوله تعالى ﴿ لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ . (١)

والذي يؤخذ عموماً على الجماعة هو حصرها الدعوة في بعض مجالات العقيدة دون شمولها لباقي المجالات ، وهو ليس بعيب إن قال أصحابها : نحن نهتم بكذا ونركز عليه لأننا رأينا أن هذا المرض هو الذي أقعد المجتمعات عن النهوض والتقدم ، ونترك لغيرنا أن يصلح باقي المجالات التي لم نطرقها .

وهذا يكون في حقيقته أقرب لدعوة الشيخ رشيد فرغم أنه شمل بدعوته اتجاهات كثيرة وجاب العالم الإسلامي فكراً ودعوة إلا أن تعامله مع باقي الاتجاهات كان في ضمن إطار النصيحة والرحمة للأمة فحبذا لو حذت حذوه هذه الجماعات والاتجاهات .

ولا ننسى أن جماعة أنصار السنة كان بها وتخرج منها أفذاذ عظماء فهموا الإسلام فهماً حقيقياً وعلى رأسهم محمد حامد الفقي رحمه الله والشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي حفظه الله وغيرهم فالأمر قريب ، والله الموفق (٢)

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٥) ، وللشيخ رشيد بحث في تفسير هذه الآية ضمنه تفسيره المنار – وهو لا يرجح فيه أن التشبيه حاصل للمصروع كما ذهب إليه كثيرون (٣/ ٩٥ – تفسير المنار)

وقد كتب (أبو الوفا درويش) رحمه الله وهو من أساطين أنصار السنة ، كتابه صيحة الحق وفيه إنكاره لتلبس الجن بالمصروع .

(٢) كنت قد كتبت بعضاً من تأثر الجمعية الشرعية بالشيخ رشيد رضا ولكن لم أجد نقولاً تكفي لذلك وأشار الدكتور المشرف بحذفها وهو ممن لا يرد طلبه في مثل هذا .

٢- الألباني ومدرسته

لا يشك أحد في أن علامة الشام الألباني قد أثر في فكر الدعوات الإسلامية الموجودة الآن على اختلاف مناهجها .

كما لا يشك منصف أن محدث الشام قد بعث روح السلفية في كثير من الأفراد والجماعات الإسلامية ، وجدد مدارس من الشريعة والدين ، وأكد على ضرورة الالتزام بالمنهج الحديثي في التصحيح والتضعيف لئلا يقع المسلم في نسبة حديث للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يقله ، أو في نفي رواية صحيحة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأنها خالفت رأي إنسان أو آخر .

ومن العجب أن للسيد رشيد رضا فضل التأثير على الشيخ الألباني في هاتين النقطتين أي السلفية ومنهج البحث الحديثي ، وبه تخرج المحدث الألباني وهو يذكر هذا للشيخ رشيد فيذكره بالجميل ، رغم أنه خالفه في أمور نبه عليها في مصنفاته .

يقول الشيخ محمد المجذوب في كتابه (علماء ومفكرون عرفتهم) من حديث دار بينه وبين الشيخ الألباني (. . . . وركز الشيخ من بين الموجهين له على السيد رشيد رضا الذي يعتبره من أكبر الرجال أثراً في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف .) (١)

ويقول الألباني ملخصاً صلته بالسيد رشيد على نحو ما ورد في كتاب المجذوب

---

(١) انظر ص٢٩١ من علماء ومفكرون عرفتهم للمجذوب .

(أول ماولعت بمطالعته من الكتب القصص العربية كالظاهر وعنترة و . . . إلى أن قال : وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة المنار فاطلعت عليه ووقعت على بحث بقلم السيد رشيد رضا يصف فيه كتاب الإحياء للغزالي ، ويشير إلى محاسنه ومآخذه ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله ثم أمضى لأتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على الإحياء . . .)

وقد نقل محمد بن إبراهيم الشيباني عن الألباني رأيه في السيد رشيد تحت عنوان (الألباني ومدرسة محمد رشيد رضا) يقول فيه (١)

(السيد محمد رشيد رضا ، رحمه الله له فضل كبير على العالم الإسلامي ، بصورة عامة ، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة ، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بوساطة مجلته (المنار) وقد جاهد في سبيل ذلك جهاداً يشكر عليه ، ويرجى أن يكون أجره مدخرا عند ربه وبالإضافة إلى كونه داعية إلى اتباع منهج السلف الصالح فيما كانوا عليه من عقيدة وفكر وسلوك فقد كانت له عناية تشكر بالأحاديث الصحيحة والضعيفة ، هذه الأحاديث التي لا يخفى على أي مسلم عنده شيء من الثقافة الإسلامية أنها هي السبيل الوحيد لفهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً ، حيث إن كثيراً من الآيات لا يمكن أن يتوصل إلى فهمها إلا بطريق بيان السنة النبوية وقد نص الله عز وجل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ (٢)

---

(١) انظر ص٤٦/ ١ من كتاب حياة الألباني لمحمد بن إبراهيم الشيباني .

(٢) سورة النحل آية (٤٤) .

فهذا وغيره من النصوص تؤكد للمسلم أنه لا سبيل إلى فهم القرآن إلا بطريق سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد كان للسيد محمد رشيد رضا عناية بالغة بعلم الحديث بحدود مساعدة وضعه العلمي والاجتماعي والسياسي فكثيراً ما نبه إلى ضعف بعض الأحاديث من حيث إسنادها ، عبر مجلته (المنار) التي أصبحت نواة طيبة ، لفتت أنظار المسلمين للعناية بأحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم . . فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل ، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة ليطلع عليها من بلغته ، فإنني بفضل الله عز وجل بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً ، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانياً يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا رحمه الله عن طريق أعداد مجلته المنار التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم . . . .)

ثم سرد الشيخ الألباني بعض ما انتقد به السيد رشيد رضا فذكر منها قضية الإيمان بالغيب ، وأن الشيخ محمد عبده رغم تحرره وجهوده في تطوير الأزهر لم يكن كالسيد رشيد رضا من حيث الحرص على نهج السلف الصالح من عقيدة ومنهاج ، وعلى الرغم من ذلك تأثر به رشيد في مجال الإيمان بالغيب وضرب مثلاً على ذلك بالجن فقال :

(ولعل من الأمثلة المشهورة في أنه كان ينقل عن محمد عبده تفسيره للجن المذكور في الكتاب والسنة بما يقرب الجن إلى العقل المادي المثقف ثقافة مادية ، فادعى أن الجن هي الميكروبات الخفية التي تؤثر في صحة الناس ونحو ذلك (١)

---

(١) ذكر الشيخ رشيد في المنار (٣/ ٩٦) أن المتكلمين يقولون : إن الجن أجسام حية خفيفة لا ترى قال : وقد قلنا في المنار غير مرة إنه يصح أن يقال : إن الأجسام الحية الخفيفة التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالمكروبات يصح أن تكون نوعاً من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر=

، ولا أذكر بأن أحداً رد عليه مبيناً خطأه بأن هذا التأويل يشبه طريقة الباطنية والمعتزلة وغيرهم ممن انحرفوا عن الكتاب والسنة بسبب التأويل »

ثم تابع الألباني انتقاده للسيد رشيد في إنكار الأخير أحاديث خروج المهدي ونزول عيسى (١) واعتذر له بأنه أراد أن يرد انحرافات وتأويلات القاديانية في ادعائهم مهدية ميرزا غلام أحمد القادياني وذلك بإنكار أو تشكيك في بعض الأحاديث التي يتعلق بها فلا يبقى لهم حجة يدعي بها مدع أنه عيسى أو مثيله أو المهدي .

ثم قال الألباني حفظه الله :

(لقد أصيب السيد رشيد رضا رحمه الله بشيء من الاستعجال بإنكار أحاديث صحيحة معروفة عند عامة المحدثين قديماً وحديثاً وسلفاً وخلفاً وإن كان الباعث له باعثاً حسناً ولكن من المسلم به لدينا نحن معشر المسلمين أن الغاية لا تبرر الوسيلة » أهـ .

= الأمراض قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن . . . . .)وعبارة السيد رشيد هذه أقل خطأ من التي أخذت عليه ، فهو لم يجزم بذلك بل يقول (إنه يصح أن تكون نوعاً من الجن) فهو لم يزعم أن الجن كله من الميكروبات بل جعل الميكروبات من أنواعه بدليل أن الطاعون وخز الجن ، وهو وإن كان مما لا يجزم به إلا أنه ليس تأويلاً باطنياً في الجملة كما قد قيل ، كما أن الشيخ رشيد قد أثبت الجن كما يثبته أهل السنة في غير ما موضع من تفسيره انظر تفسير آيات (٢ : ٢٤ ص٢٦٥/ ١) ،(٢ : ١٦٧ ص٩٦/ ٢) ، (ص٢٩/ ٣) ، ص (٤٢٥ ـ ٤٣٠/ ٥) ، (ص٣٢٨ ـ ٣٧٢ / ٨) وقد نفي السيد رشيد هذا عن نفسه لما اتهمه الديجوي بذلك وأبان أن عقيدته في الجن هي عقيدة السلف ، راجع المنار والأزهر ص ٦٣ ـ ٦٧ .

(١) وقد سبق الإشارة لكلام رشيد رضا في ذلك في ص ٣٥ من هذا البحث .

ثم انتقد الشيخ الألباني السيد رشيد في تصحيحه بعض الأحاديث الضعيفة بعبارة مهذبة ، وجملة علمية دقيقة (١)

وأخيراً ، فإنه من المعلوم أن الشيخ الألباني هو حامل راية السلفية في الشام بخاصة ، وفي باقي بلاد العالم الإسلامي بعامة ، وقد استفاد من علمه وكتبه الموافق والمخالف ، ولولا حدة تعتري بعض ما كتب لكان محل اتفاق إذ الجميع يذعنون له بالعلم والفضل .

فإذا عرفنا مما سبق صلة الشيخ الألباني بالسيد رشيد وأن رشيداً كان الدافع له على الاتجاه السلفي ، والاتجاه النقدي الحديثي ، علمنا تأثير مدرسة المنار التي حمل لواءها الشيخ رشيد في المدارس الفكرية المختلفة في هذا العصر .

ولا يحتاج الأمر إلى عقد مقارنة بفضيلة بين الرجلين في ميدان السلفية والنقد الحديثي إذ إن ما سبق يوضح مسيرة الشيخ الألباني على منهج رشيد في الجملة (٢) وأن مخالفاته له كانت في بعض ما استدركه عليه من الأمور التي اعتبره قد أخطأ فيها وسبق بيانها .

رحم الله الشيخ رشيد ، وحفظ الله لنا الشيخ الألباني ، ويسر الدعاة للسير على منوالهما

---

(١) انظر حياة الألباني في تصنيف الشيباني (١/ ٤٠٠-٤٠٥) .

(٢) ومن عجيب الاتفاق بينهما أن قول الشيخ الألباني بجواز كشف المرأة وجهها عند الأجنبي عند أمن الفتنة (كما بكتابه حجاب المرأة المسلمة) هو نفس كلام الشيخ رشيد ، فقد نصر هذا القول في فتوى له (٢/ ٢٦٩ فتاوى السيد رشيد رضا) رقال في آخرها : (ولكن المرأة التي تعلم أن في كشف وجهها مفسدة يحرم عليها كشفه بلا شك)اهـ (٢/ ٦٨٣ فتاوى رشيد رضا) ومحل تحقيق المسألة في غير هذا البحث وإنما أشرت إليها لشهرتها .

٣- مع (الإخوان المسلمون)

الحديث عن علاقة الإخوان بالشيخ رشيد رضا أشد وألصق من الحديث عن علاقة غيرها من الجماعات برشيد رضا ، وذلك لأن جماعة الإخوان - وهي من أكبر الجماعات الإسلامية على الساحة اليوم - قد تبنت كثيراً من آراء السيد رشيد الإصلاحية في مجال الوحدة بين المسلمين والعمل على تقريب وجهات النظر - بين الفئات المختلفة .

ولا نبعد كثيراً إذا ما قلنا إن الإخوان اعتبروا أنفسهم امتداداً لدعوة رشيد رضا ولم يتحرجوا أن يسطروا ذلك في تاريخ الحركة بوضوح وصراحة .

ولذا فإذا كنا في صدر الحديث عن السيد رشيد رضا وجهوده في خدمة العقيدة وتأثر الجماعات الإسلامية به فلا بد أن يتضمن ذلك حديثاً عن الإخوان ، حديثاً متوسعاً فيه عن باقي الأفراد والجماعات الأخرى .

ويرجع تأثر جماعة الإخوان بالمدرسة الرشيدية إلى تأثر مؤسسها الشيخ حسن البنا عليه رحمة الله بدعوة المنار فقد اعتبر دعوته امتداداً أو تطبيقاً لما نادى به السيد رشيد رضا (١) ولذا فإنه من المناسب أن أعقد مقارنة سريعة بين بعض الجوانب الموجودة في فكر الرجلين لأنبه على التأثر الواضح بينهما ومدى موافقة أو مخالفة الشيخ البنا للسيد رشيد في ذلك .

---

(١) بل لعل العلاقة بينهما كانت اجتماعية أيضاً ، يقول الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه (رؤية من الداخل ٩ ص ٢٤٦/١ ولم يكن الأستاذ المرشد غريباً على أسرة الشيخ رشيد ، فلقد كان على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالباً بدار العلوم ، وكانت مجلة المنار ملتقاه بأكثر من التقى بهم من رجالات الحركة الإسلامية في ذلك العهد ، واتخذت أكثر القرارات في مواجهة المؤامرات ضد الإسلام في هذه الدار ، وظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان ، وكان يستشيره في كثير من الأمور » اهـ .

وقبل ذلك أنقل ما يؤكد للقارىء امتداد حركة الإخوان للحركات السلفية السابقة لها بعامة ولمدرسة السيد رشيد رضا بخاصة .

يقول الدكتور زكريا سليمان بيومي في كتابه (الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨)

« لم يكن البنا في فكره هذا مجدداً بل كانت دعوته في فكرها امتداداً لدعوات إسلامية سابقة ، فدعوته تشبه إلى حد كبير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والدعوة السنوسية ، ودعوة الشيخ رشيد رضا ، وأغلب هذه الدعوات امتداد لمدرسة ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ سنة ١٣٢٧ م ، المستمدة من مدرسة الإمام أحمد بن حنبل التي وجدت في العراق في القرن الثالث الهجري ويبدو ارتباط دعوة الإخوان بهذه الدعوات والمدارس من إيمانها بوحدة النظام الإسلامي وتكامله ، أو بمبدأ الشمول في الفكر الإسلامي ، وهي المبادىء التي تربط الدين بالدولة ، وتطبق أحكام الشريعة الإسلامية والعودة إلى القرآن والحديث دون سواهما ، والإمساك عن الخوض في علم الكلام ، ومحاربة بدع المتصوفة ، وتقليد السلف الصالح ، وإذا كان البنا قد أضاف إليها ما فرضته عليه ظروف العصر والبيئة ، إلا أنه لم يخرج في الإطار العام عن هذه القواعد ، وإن كانت هذه الظروف قد ميزت دعوة البنا بطابع عما سبقها من دعوات ، كما أن البنا في دعوته قد استفاد من المشكلات التي واجهتها الدعوات السابقة ، الأمر الذي جعل أتباعه وغيرهم من الكتاب والمؤرخين يلقبونه بـ (الداعية) في وقت اكتفوا فيه بتلقيب من سبقوه كجمال الدين ومحمد عبده بالمجتهدين أو المصلحين ، وكان ذلك لأن البنا قد خلف وراءه دعوة تطبيقية نسبياً ذات منهج ومراحل ومبادىء وبرامج ووسائل ولم يكتف بعرض الأفكار فقط مثلما كان غيره .

على أن مدرسة المنار التي تبلورت فيها مبادىء السلفية للدعوات السابقة كانت الأكثر تأثيرًا على دعوة البنا أو مدرسته إذا جاز استخدام ذلك .

ويرجع ذلك في الغالب إلى معاصرة البنا لرشيد رضا ، وتأثره بالدور الذي لعبه في الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية ، وتصديه للأفكار الجديدة ، وتأكيده من خلالها على أنه لا نجاة بغير العودة لتعاليم الإسلام ويتضح ذلك التأثير فيما ورد عن البنا من حضوره بعض مجالس رشيد رضا وقراءته لكثير من أعداد مجلة (المنار) واعتزامه على إصدار مجلة شهرية شبيهة بها . . . . إلى أن قال :

« كما أنه قد انتقل من الفكر إلى التطبيق في بعض جوانب دعوته وماسمحت به الظروف وهذا ما افتقدته دعوة السيد رشيد رضا » (١) أهـ .

وقد تحقق هذا الذي أشار إليه الدكتور البيومي فقد تابع الشيخ حسن البنا إصدار المنار بعد موت الشيخ رشيد كما سطر ذلك في مذكرات الدعوة والداعية (٢) وهذا يؤكد امتداد دعوة الإخوان لدعوة الشيخ رشيد وقد قدم شيخ الأزهر المراغي تصديراً للعدد الخامس جاء فيه : . . . والآن قد علمت أن الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث المنار ، ويعيد سيرته الأولى ، فسرني هذا . . . . وبعد فإني أرجو للأستاذ البنا أن يسير على سيرة السيد رشيد رضا ،

---

(١) انظر ص ١٤٢ ، ١٤٣ من الكتاب وهو رسالة دكتوراه مُنحت له بمرتبة الشرف ونشرتها مكتبة وهبة بعابدين سنة ١٩٧٩م وانظر ما أشار إليه في كتاب تطور الحركة الوطنية في مصر لعبد العظيم رمضان ١/ ٢٨٥-٢٨٧ .

وفي كتاب الحركة السياسية في مصر لطارق البشري ص٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٢٥٣ من مذكرات الدعوة والداعية للبنا.ط . المكتب الإسلامي ط . الخامسة .

وأن يلازمه التوفيق كما صاحب السيد رشيد رضا) (١) أهـ

ولعل في هذا القدر ما يثبت أن ما بدأت به من تأثر حركة (الإخوان المسلمون) بالسيد رشيد رضا ولقد أكد هذا الاتصال الوثيق بين جماعة الإخوان ، والسيد رشيد رضا ما كتبه الدكتور ريتشارد ميتشل في كتابه (الإخوان المسلمون) وأقره عليه المعلق الأستاذ صالح أبو رقيق فلم يتعقبه ، وأنقل ههنا بعضاً مما جاء فيه :

يقول : « لقد رأى الإخوان في وضوح أنهم يتأثرون خطى حركات الإصلاح الحديث التي سبق بها جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وكانت وجهة نظرهم في العلاقة الخاصة بين هؤلاء المصلحين بعضهم البعض ، وعلاقتهم بالنهضة الفكرية في مصر المعاصرة مقياساً قريباً من الدقة لدورهم ، ولدور الجمعية في التطورات العصرية : فنظر إلى الأفغاني باعتبار (المؤذن) أو (الصرخة) ، وإلى رشيد رضا باعتباره (السجل) و(المؤرخ) ، أما حسن البنا فاعتبر باني نهضة وقائد جيل ، ومؤسس أمة ، وبناء على هذا الرأي كانت جمعية الإخوان الامتداد (العملي) للحركات السابقة عليها . . . . . » إلى أن قال : « كان الأفغاني يرى المشاكل ويحذر منها ، وكان (محمد عبده) يعلم ويفكر ، كان شيخاً حسن القصد أوصى بإصلاحات في الأزهر ، أما رشيد رضا فكان يكتب ويسجل . . . . » [وذكر في الهامش أن هذه

---

(١) انظر ص ٢٥٤ من المرجع السابق وانظر في أسباب سحب ترخيص المنار من الإخوان في ص ٥٧ من كتاب الإخوان المسلمون لريتشارد ميتشل تقديم صلاح عيسى ، وص ٣٢٦ من نفس الكتاب ولكن بتعليق صالح أبو رقيق وترجمة د. أبو السعود .

التصريحات مذكورة له شفاهة] (١)

ويقول [ولنذكر هنا أن والد البنا كان تلميذاً لمحمد عبده ، وأن البنا ذاته كان يقبل في باكورة حياته على قراءة مجلة المنار حتى نحا في أسلوبه الصحفي منحى أسلوبها . .] (٢)

ويقول [أما رأي البنا في رشيد رضا فقد عبر عنه في تقويمه لمجلة المنار حين أشرف عليها رضا إذ وصفها بأنها : (من أعظم المؤثرات في خدمة الإسلام المعاصر في مصر وغيرها من البلاد ، وحتى بعد أن انهارت المنار رغم جهود الجمعية لإنقاذها ، اعتبر البنا مجلته الخاصة « الشهاب » امتداداً لها . .] (٣)

وذكر أيضاً أن تفسير المنار كان مقدماً على تفسير ابن كثير في قائمة أسماء الكتب التي كانت توزع على معلمي الجمعية لتوجيههم حتى يعدوا أنفسهم لبناء جيل جديد من الشباب المسلم من بين تلامذتهم » (٤) أهـ .

ولعل في هذا القدر ما يثبت ما بدأت به من تأثر حركة (الإخوان المسلمون) بالسيد رشيد رضا ، ومدرسته المنارية هو واقع لاينكر ، مما سبق يتبين العلاقة الوثيقة بين (الإخوان المسلمون) ورشيد رضا وكيف كانت جماعة (الإخوان) امتداداً لفكر السيد رشيد ، ولكن هل استمرت الجماعة على هذا الفكر ، أو

---

(١) انظر ص ٤٩٢ وما بعدها من كتاب (الإخوان المسلمون) لريتشارد ميتشل ترجمة د . محمود أبو السعود وتعليق صالح أبو رقيق .

(٢) انظر ص ٤٩٤ المرجع السابق .

(٣) انظر ص ٤٩٤ المرجع السابق .

(٤) انظر ص ٤٩٥ المرجع السابق .

بمعنى آخر هل استوعبت الجماعة أسس المدرسة المنارية ، أو اختلفت نظرتها لبعض القضايا) (١)

ولنترك السطور توضح المراد ، وتجلي السطور في المقارنة بين رشيد والبنا

وأحب أنوه هنا أنني سأكتفي بعرض مقارنة لبعض الموضوعات الرئيسية

* العقيدة

* الوحدة مع الشيعة

* معاملة أهل الكتب

* التصوف

---

(١) هذا البحث مما تختلف فيه وجهات النظر ، وإذا عقدنا مقارنة ربما يتبين لنا جوانب من الإجابة على هذا السؤال . وكنت قد عقدت فصلاً أبحث فيه هذه القضية عن طريق مقارنة بين رشيد رضا ، والشيخ البنا رحمهما الله توصلت فيه إلى وجود اختلافات بينهما في مجالات العقيدة والنظرة للوحدة . رغم تبني الإخوان قاعدة المنار الذهبية (نتعاون فيما اتفقنا فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) ، وكذلك وجدت فروقا في كيفية التعامل مع أهل الكتاب ، والنظرة الصوفية .

ثم رأى فضيلة الأستاذ المشرف حذفه ، لعدم اقتناعه بما سقته من أدلة تثبت أن الإخوان امتداد لرشيد رضا ، ولكن هذا لا يمنع أن تختلف النظرة في تحديد مقدار هذا التجاوز ، ولذا فهأنذا أثبته مع الاحتفاظ لفضيلة الدكتور المشرف برأيه في محل احترام وتقدير وقد أبقيته لأنه من الخلل في البحث العلمي أن أتعرض للكتابة عن السيد رشيد رضا وأثره في الجماعات الإسلامية ، ثم أعرض عن مقارنة دعوته فكراً وحركة بدعوة مثل دعوة الإخوان اعتبرها المؤرخون لها امتداداً لرشيدرضا . ولذا فإن سطور المقارنة القادمة هي في الحقيقة امتداد لتثبيت فكرة اتصال الإخوان الوثيق برشيدرضا ، فالألفاظ والعبارات ، أحياناً ، تكون منتزعة من المنار بنصها كقاعدة المنار الذهبية في الوحدة والاختلاف ، وقد يكون المعنى دون اللفظ ، كفكرة التقريب بين السنة والشيعة ، وأصل لين الجانب من أهل الكتاب ، وغير ذلك

وهي تعتبر رءوس الموضوعات التي يمكن من خلالها أن نحكم على اقتراب أو ابتعاد الشيخ البنا رحمه الله ، ومن ثم الإخوان ، عن المنهج الفكري الذي أسسه السيد محمد رشيد رضا رحمه الله .

** أ- في مجال العقيدة

حرص الشيخ حسن البنا على وحدة كلمة المسلمين ، واشتد حرصه على ذلك ، والأقرب أنه تأثر برشيد رضا في ذلك ، فكما سبق من كلام السيد رشيد في محاولة جذب المنحرفين في الاعتقاد إلى نور السنة بأن وضح لهم الهدى تارة ، وجعل بعض الخلاف لفظياً أخرى

فكذلك كان نهج الشيخ البنا رحمه الله

ولعل الفرق بينهما أن الشيخ رشيد ، وإن صدرت منه أحياناًعبارات الاتحاد وعدم الفرقة بإطلاق ، حتى مع المخالفين من المتكلمين والشيعة ، إلا أنه عندما كان يحقق المسائل ، لا يخرج في الجملة عن مذهب السلف ، لخبرته به وبمآخذه وطرق الاستدلال عليه ، وذلك لمتانة علمه ، وقوة رأيه .

وأما الشيخ البنا رحمه الله ، فلربما يحيد قليلاً عن التحقيق العلمي ، ولا يغض ذلك من قدره ، لأنه كان رجل دعوة وحركة أكثر منه رجل تعليم وتحقيق (١)

* فنجده مثلاً في باب « الألوهية » يذكر الشرك ويحذر منه ، ولكن تارة بأسماء مجملة ، كالمنكر ولا يصرح بكونه شركاً ، عكس ما كان يفعله رشيد رضا :

---

(١) انظر ص ٥٦ من مذكرات الدعوة والداعية ، ففيها ما يوافق هذا الكلام .

يقول الشيخ البنا في الأصول العشرين :

- « ٤ » : والتمائم ، والرقى ، والودع ، والرمل ، والمعرفة ، والكهانة ، وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب « منكر » تجب محاربته إلا ما كان من آية ، أو رقية مأثورة » (١)

ولا يخفى أن الاستثناء الأخير لا يصح حمله ، إلا على الرقي من المذكورات فحسب وقد أحسن رحمه الله في جعل محاربة ذلك واجبة ، ولو قرن ذلك بأنه شرك لكان أولى ، لأن محاربة الأمر مع اعتقاد أنه شرك تختلف عما لا يعتقد ذلك

ولعله أراد الإجمال لأن في هذه الأشياء ما ينقسم إلى شرك أكبر ، وإلى شرك أصغر ، ولكن على كل حال قد جاء اللفظ النبوي بإطلاق الشرك عليها (٢) وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا سيما كثير من العوام آنذاك لا يعرفون منها إلا الأمور الشركية (٣)

- وبينما نجد السيد رشيد رضا يحارب التوسل بغير الله ، ويجعل بعض صوره من الشرك ، بل ويعمل على طبع كتاب (التوسل والوسيلة) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، نجد في المقابل الشيخ البنا يراه خلافاً فرعياً ، وتتسع دائرته بأن يشمل التوسل إلى الله بأحد من خلقه ، فلا يقصره على

---

(١) انظر ص ٣٥٦ من (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا) .

(٢) كما في حديث (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أبو داود (كتاب الطب باب ١٧) ، والإمام أحمد ١/ ٣٨١ .

(٣) ولو جعل رحمه الله العبارة هكذا (وكل ما كان من هذا الباب فهو شرك تجب محاربته) لكان ذلك أنسب فيما أراه والله أعلم .

التوسل بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحسب يقول في الأصول العشرين :

« ١٥ - والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء ، وليس من مسائل العقيدة » أهـ[١]

ولفظ (أحد من خلقه) يشمل المسلمين كما يشمل غيرهم ، بل ويشمل الجمادات مقدسة كالكعبة ، أو غير مقدسة ، ويشمل أبعد من ذلك !! ، وإن كان الشيخ يقطع بأنه لا يقصد هذا الاتساع ، ولكن لما شمله اللفظ ، اقتضى ذلك التنبيه عليه[٢]

ولعل الشيخ أراد ألا يختلف المسلمون على هذا اختلافاً يوجب التباغض والشحناء ، وأن يشهد أحدهم على الآخر بتفسيق أو تبديع بسبب هذه المسألة ، إلا أن إدخال مثل هذا في (الأصول العشرين) ، جعل الكثيرين لا يسمح أحدهم لشخص أن ينكر على من رآه يتوسل بالصالحين في دعائه ، علماً أن بعض أنواع التوسل هذه قد تكون ذريعة إلى الشرك ، فلو نص رحمه الله على أنها خلاف فرعي ، ولكن الصواب فيها كذا - يعني المنع سداً للذريعة - ، لكان ذلك أتم للمراد ، وأبين للقضية .

- وفي الكلام على زيارة القبور يذكر الشيخ رحمه الله بعض أنواع الشرك، ولا يصرح بكونها شركاً . يقول في الأصول العشرين :

« زيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة

---

(١) انظر ص ٣٥٨ من (مجموعة رسائل البنا) .

(٢) وحبذا لو علق ثلة من العلماء على هذه العبارات المجملة في الأصول العشرين حتى يصح أن يقوم هيكل فكري لجماعة عليها .

بالمقبورين ، أياً كانوا ، ونداءهم لذلك ، وطلب قضاء الحاجات منهم من قرب أو بعد ، والنذر لهم ، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها ، والحلف بغير الله ، وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة » أهـ[١]

ويلاحظ على هذا الأصل أمور :

١ - أن قوله (أياً كانت) فيه عموم ، فهو يشمل قبور المسلمين ، وغير المسلمين وزيارة قبر غير المسلم جائزة على الصحيح ، ولا يلتفت لقول الماوردي بالمنع مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ [التوبة - ٨٤] قال الحافظ : وفي الاستدلال به نظر لا يخفى » أهـ[٢] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : زار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قبر أمه فبكى ، وأبكى من حوله فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « استأذنت ربي في أن أستغفر لها ، فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت »[٣] .

وعلى الرغم أن زيارة قبر الكافر جائزة كما تقدم إلا أن هيئتها ليست بالكيفية المأثورة المعروفة في زيارة قبور المسلمين

---

(١) انظر ص ٣٥٨ من (مجموعة رسائل البنا) .

(٢) انظر الفتح (٣/ ٢٥٠) .

(٣) رواه مسلم في (زيارة القبور) [ص ١٣٣ مختصر المنذري] ورواه النسائي وبوب عليه (باب زيارة قبر المشرك - كتاب الجنائز من السنن باب ١٠١) ، ورواه أبو داود في الجنائز من السنن باب ٧٧ ، ورواه الإمام أحمد ٢/ ٤٤١ ، ومسألة كفر الأبوين محل خلاف بين أهل العلم ، ولرشيد رضا تحقيق طيب فيها كما بتفسير المنار ٧١/ ٥٣٧ وما بعدها) .

فعن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار »[(١)]

ولعل الشيخ البنا أراد بقول (أياً كانت) أي قبور المسلمين ، أو أراد العموم ثم أراد بقول : (بالكيفية المأثورة) ما ورد في حق المسلمين ، وما ورد في حق غيرهم ، والله أعلم .

٢- ويلاحظ أيضاً أنه رحمه الله حاد عن لفظ (شرك) إلى لفظ كبائر ، وهذا ليس بسديد ، وقد يكون سبب ذلك أنه ذكر أموراً تنقسم إلى شرك أكبر وإلى شرك أصغر كالحلف بغير الله ، فأراد أن يعم الجميع بلفظ واحد ، ولو جعل هذا اللفظ (شرك) لحصل المقصود ، لاسيما وأن عوام بلده وقعوا في هذا وأشد منه .

وقد يكون مقصوده رحمه الله (الحيدة) عن لفظ (الشرك) لئلا ينجذب الشباب إلى السرعة في التكفير ، وهذا غرض طيب إلا أنه كان يكفيه ما قاله في الأصل الأخير من الأصول العشرين عند قوله : (لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاها وأدى الفرائض برأي أو معصية إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله اللغة العربية بحال أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلا غير الكفر)[(٢)] ، وهو كلام طيب سديد في الجملة ، إلا أن من فسر القرآن على وجه لا تحتمله اللغة العربية فيه تفصيل في تكفيره والله أعلم .

---

(١) رواه الطبراني ، وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١/ ١١٧ - ١١٨) ، وصححه الألباني في (الصحيحة) (١/ ٢٥) رقم ١٨ .

(٢) انظر مجموعة رسائل الإمام البنا ص ٣٥٩ .

٣- قوله (ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة) يفهم منه أنه لا يراها من الشرك بل ذريعة للشرك ، وهذا غلط لأن الاستعانة بالمقبورين وطلب قضاء الحاجات منهم وغير ذلك مما ذكره ، كل هذاشرك واضح ، فما المقصود بقوله (سداً للذريعة) !!

فإنه كان يرى رحمه الله أن هذه المذكورات (شرك) وإنها لا يتأول لها ، فيكون فاعلها عنده يدخل في الكفر لأنه ذكر في الأصل العشرين (الذي مر ذكره قريباً) أن من المكفرات من (عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر) ، وهنا يرى أنه لا يتأول لهذه الأعمال .

وقد يكون مقصوده غير ذلك فالله أعلم .

والحاصل أن الشيخ البنا رغم ارتباطه الوثيق برشيد رضا ، إلا أنه لم يتفق معه تماماً في أبواب (توحيد الألوهية) كما تقدم ، وغفر الله لهما جميعاً .

* وأما أبواب « الأسماء والصفات » فالفرق واضح جداً بينهما ، فرشيد رضا كما تقدم النقل عنه سلفي في هذا الباب ، يثبت الأسماء والصفات على منهج السلف من غير تشبيه ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .

وأما الشيخ البنا فقد مال إلى مذهب الأشاعرة المفوضة ، فهو يراها من المتشابهات ، ويفوض المعنى والكيفية .

يقول في الأصل العشرين :

« ١ - معرفة الله تبارك ، وتوحيده أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات، وأحاديثه الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه ، ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . . . ﴾ [آل عمران – ٧] » أهـ[١]

ويلاحظ على هذا الأصل أمران :

(الأول) : قوله (ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء . . . .) إلخ

إن كان المراد منه ألا نتعرض للخلاف يعني لا نبين وجه الحق في مثل هذه المسائل التي وصفها في أول كلامه بأنها أسمى عقائد الإسلام ، فلا يصح وإن كان المراد ألا نتعرض للخلاف يعني في دقائق هذه المسائل ، فهو صحيح بالنسبة للعوام إذ لم يكلفوا بالدقائق ، لكنه غير صحيح بالنسبة للعلماء وطلاب العلم ، بل عليهم أن يتعرضوا لمثل هذه المسائل ويبينوا فيها مذهب السلف وفي كل خلاف بين الناس أو تنازع .

(الثاني) : أنه يفهم من قوله « ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه ، ﴿ **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ [آل عمران – ٧] أنه يرى أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه كانوا يعدّون آيات الصفات من المتشابه ، وهذا الكلام ليس بصحيح على إطلاقه لأن المتشابه ، الصحيح أن المراد به ما لم يتضح معناه لا شتراك أوإجمال ، أو ظهور تشبيه والمحكم هو ماالتضح معناه[٢] وعليه فآيات الصفات محكمة من جهة ظهور معناها الذي تعرفه العرب من كلامها ، وأما كيفية اتصاف الله بهذه

---

(١) انظر ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ من مجموعة رسائل الإمام البنا .

(٢) انظر البلبل للطوفي – (مختصر الروضة لابن قدامة) ص ٤٨ .

الصفات ، فهذا الذي لا نعلمه ، وهذا الجانب من المتشابه ، وهذا الذي دل عليه كلام الإمام مالك رحمه الله حيث قال : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول) [١]

ومما يؤكد أيضاً ميل الشيخ البنا لمذهب الأشاعرة إنه حين عرض صفات الله سبحانه في كتابه (العقائد) قال إنها لا تتناهى ، ثم خص بالذكر ثلاث عشرة صفة وهي : الوجود - القدم - البقاء - مخالفته للحوادث - قيام الله تعالى بنفسه - وحدانيته - قدرة الله تعالى - إرادته - علمه - حياته - سمعه - بصره - كلامه تعالى) [٢]

وهذه نفس الصفات التي يسميها الأشاعرة بالصفات العقلية ، ولم يذكر في هذا العرض الصفات الاختيارية كالرحمة والرضا والغضب و . . . غير ذلك

والحاصل أن رسالة الشيخ رحمه الله لا تخلوا من ملحوظات لباحث أو ناقد ، وأكتفي هنا بالإشارة لباقي هذه الملحوظات مع ترك مناقشة أقواله فيها لغير هذا البحث

- قال الشيخ عن آيات وأحاديث الصفات أنها (توهم بظاهرها مشابهة الحق للخلق) [٣]

ويقول عن المجسمة (فرقة أخذوا بظواهرها كما هي . . .)

ويلزم من كلام الشيخ أن (ظاهر القرآن في آيات الصفات يؤدي للكفر) .

---

(١) وانظر ص ٢٩٤ - ٢٩٦ / ج ١٣ من فتاوى شيخ الإسلام في مبحث (الإكليل في المتشابه والتأويل)

(٢) انظر ص ٤٠٨ من (مجموعة الرسائل) .

(٣) انظر ص ٤١٠ من (مجموعة الرسائل) .

وهذا بشع ومستشنع ، والظاهر في آيات الصفات هو ليس التشبيه . [انظر ص ٤٣ / ج ٣ من الفتاوى]

- قال الشيخ بعد ذكر بعض الآيات الدالة علىَ الفوقية (مما يؤخذ منه نسبة الجهة لله تبارك وتعالى) [١] ، ولفظ (الجهة) مجمل فإن قصد به أمر وجودي من أن الله موجود في مكان يحيط به فهو ممتنع ، وإن كان المراد منه أمراً عدماً كما فوق العرش ، فالمعنى صحيح ، واللفظ محدث وعليه فلا يصح إطلاق لفظ الجهة أو نفيه عن الله حتى يعلم المراد به .

- قال عن تقرير مذهب السلف : أنهم قالوا : « نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى ، فهم يثبتون اليد والعين والأعين ، والاستواء والضحك والتعجب . . . وكل ذلك بمعان لا ندركها . .) [٢] أهـ

وليس إثبات (الأعين) مذهب السلف ، فإنها جاءت مجموعة لإضافتها للضمير (نا) في قوله تعالى ﴿ **تجري بأعيننا** ﴾ [القمر - ١٤] ، وهو جائز في لغة العرب أن يعبر عن الإثنين بلفظ الجمع كما في قوله تعالى ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾ [التحريم - ٤] ، أي قلباكما ، وحديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدجال فيه إثبات العينين لله من قوله (وإن ربكم ليس بأعور . . .) [٣]

ثم إن السلف رحمهم الله لم يتركوا معاني هذه الصفات ، ولم يزعموا أن

---

(١) السابق ص ٤١٠ .

(٢) السابق ص ٤١٠ .

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٩١) ومسلم (٤/ ٢٢٤٨) وغيرهما .

هذه معان لا ندركها إذ يلزم من هذا أن يكون الله سبحانه خاطبنا بما لا نفهمه(١) وهذا يتنافى مع مثل قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [النساء-٨٢، محمد-٢٤] .

قال بعد ذلك (وإذا تقرر هذا فقد اتفق السلف والخلف على أصل التأويل . .) أهـ

وهذا الكلام ليس صحيحاً لإطلاقه ، فإن التأويل يطلق ويراد به معان ، منها صرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى معنى آخر بقرينة ، ولعله المقصود بكلام الشيخ ، وهذا المعنى لا ينطبق على السلف بل الخلف ، ولعل الذي أدى الشيخ للقول بهذا ، أنه ظن أن ظاهر الصفات مشابهة المخلوقين وتقدم الإشارة لذلك .

ختم الكلام على الصفات بقوله :

« نحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع . .)[٢] إلخ

وهذا على التحقيق ليس مذهب السلف ، وإنما هو مذهب الأشاعرة المفوضة وأما مذهب السلف فهو تفويض الكيفية لا تفويض علم هذه المعاني ، وقد يكون المعنى الصحيح هو مقصود الشيخ رحمه الله ، إلا أن ما قدمته من نقول عنه في جعله آيات الصفات من المتشابه ، ثم ما ذكرته في عرضه لمذهب السلف ، كل هذا يرجح أنه يعني بالتفويض المعنى والكيفية معاً .

---

(١) انظر التدمرية ص ٥٤ جـ ٣ من الفتاوى .

(٢) انظر ص ٤١٨ من (مجموعة الرسائل) ، وقد قرأت هذه العبارة منذ سنوات وبالتحديد عام ١٤٠٠هـ على العلامة عبد الرزاق عفيفي فأجابني بأن هذا هو مذهب الأشاعرة !! .

وأما نسبة هذا القول للسلف ، فيجاب عنه بأنه رحمه الله كان شديد الحب لمذهب السلف إلا أنه لم يتضح له جلياً كما اتضح لرشيد رضا وقد سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله عن قول أحد الدعاة : إن آيات الصفات من المتشابهات ، ثم ذكر رأيه فقال : ونحن نرجِّح مذهب السلف من تفويض علم هذه المعاني إلى الله ، فهل هذا هو مذهب السلف (في تفويض المعاني والكيفية) ، أم مذهب السلف تفويض الكيفية مع معرفة المعنى الكلي . . . أفيدونا

فأجاب حفظه الله قائلاً :

« هذا غلط ، هذا القول غلط ، ليست من المتشابهات ، من الواضحات ، آيات الصفات وأحاديث الصفات من أمر واضح ، وليس فيها متشابه ، الله أخبر عن أسمائه وصفاته فعلينا أن نؤمن بها ونمرها كمل جاءت مع الإيمان بها وأنها حق وأنها لائقة بالله سبحانه وأنه لا يشابه فيها خلقه ، كما قال عز وجل ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [الشورى - ١١] ﴿ **ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾ [الصمد -٣] ، ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ [مريم - ٦٥] ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ [النحل - ٧٤] فهي معلومة معروفة المعاني عند أهل السنة ولكنها مجهولة الكيفية فالتفويض في الكيفية فقط .

أما من قال نفوض معانيها إلى الله فهذا قول المفوضة وهو قول قبيح قول منكر معناه أن الله خاطب الناس بما لا يفهمون ولا يعقلون ، وهذا غلط ، أهل السنة والجماعة يفوضون الكيفية فقط ويؤمنون بالمعاني وأنها حق:الرحمن - الرحمة معلومة - السميع معروف السمع - البصير معروف البصر-الاستواء معروف - الإرادة معروفة الكلام معروف وهكذا كلها لائقة بالله جل وعلا لا يشابه منها خلقه سبحانه وتعالى ، ولكن الكيفية هي التي توكل إليه جل وعلا كما قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء كما قال:الاستواء معلوم والكيف

مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.وجاء عن أم سلمة عن ربيعة شيخ مالك نحو هذا الكلام وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة قاطبة - المعاني معروفة والكيف مجهول والإيمان بها واجب أما التفويض فهو من قول أهل البدع والقول بأنها مشتبهة من قول أهل البدع فليس من المشتبهات بل من المعلومات ، ولا تفوض معانيها وإنما التفويض للكيفية أما معاني الصفات فهي معلومة السميع غير البصير، والبصير غير الرؤوف ، والرحيم غير الرضا وغير الغضب وهكذا ، الصفات متنوعة معانيها معروفة ، فليس معنى (هو السميع البصير) ، (هو الغفور الرحيم) هذه لها معنى وهذه لها معنى لكنه يليق بالله لا يشابه في ذلك خلقه سبحانه وتعالى وله الكمال المطلق في كل شيء ، هو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وليس له نظير ولاشبيه ، ولهذا يقول أهل السنة والجماعة في جنس آيات الصفات وأحاديثها يجب إمرارها كما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بل نؤمن بها على حد قوله سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (١) [الشورى - ١١] انتهى كلام الشيخ .

وهذا الكلام سديد ، ولعل الشيخ البنا رحمه الله لو اطلع على مثل هذه الأدلة لرجع إليها إذ هو معروف عنه الإذعان للحق والرجوع إلى السنة ، كيف وهو سليل بيت علم وحديث ووالده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا لا يزال الناس يشكرون له خدمته لمسند أحمد بكتابه الفتح الرباني وفي النهاية يتضح الفرق بين الشيخ رشيد والشيخ البنا رحمهما الله في باب الصفات وليت الشيخ البنا التزم منهج الشيخ رشيد وأعطى الصفات نصيباً أكبر من التحقيق والله

(١) مسجل من شريط رقم (١٥) من فتاوى حج عام ١٤٠٨ هـ بالتوعية الإسلامية- مكة المكرمة.

أعلم

ب - مع الشيعة :

الجانب الذي تأثر به جداً الشيخ حسن البنا برشيد رضا هو قاعدة المنار الذهبية في الاتفاق والوحدة ، « نتعاون فيما نتفق فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » وتقدم كيف أن السيد رشيد كان يطلق هذه القاعدة في جانب الوحدة مع الشيعة بضوابط تخرج غلاتهم ومشركيهم حتى يبقى فيمن يندرج في هذه القاعدة : الزيدية وبعض المعتدلين من الإمامية ، ولكن الشيخ حسن البنا كان موقفه غير ذلك فقد أطلق الكلام بالاتفاق ولم يفصل تفصيل رشيد رضا ، فظهر كلامه بحيث ينفر منه ذوو العقائد السليمة ، والنفوس الزكية .

وأنا أنقل هنا نص كلامه (على طول فيه) والذي نقله عنه الشيخ عمر التلمساني في مذكراته قال الشيخ عمر التلمساني رحمه الله :

« وفي الأربعينيات- على ما أذكر كان السيد القمي - وهو شيعي المذهب - ينزل ضيفاً على الإخوان في المركز العام ، ووقتها كان الإمام الشهيد (١) يعمل جاداً على التقريب بين المذاهب حتى لا يتخذ أعداء الإسلام الفرقة بين المذاهب منفذاً يعملون من خلاله على تمزيق الوحدة الإسلامية .

---

(١) إطلاق لفظ الشهيد لا يصلح إلا لمن شهد له الشرع بذلك وحسبنا أن نقول نحسبه شهيداً والله حسيبه وقد بوب البخاري «باب لا يقال فلان شهيد» قال الحافظ أي على سبيل القطع إلا إذا كان بالوحي وكأنه أشار إلي حديث عمر أنه خطب فقال تقولون في منازلكم فلان شهيد ومات فلان شهيداً أو لعله يكون أوقر راحلته ألا لا تقولوا كما قال رسول الله ص « من مات في سبيل الله أو قتل فهو شهيد » وهو حديث حسن أخرجه أحمد وسعيد بن منصور . . . . . إلى أن قال وعلى هذا فالنهي عن تعيين وصف أحد بعينه بأنه شهيد بل يجوز ذلك أن يقال على طريق الإجمال» اهـ من كلام الحافظ انظر ص ٦٨/ ١ من فتح الباري ط . دار إحياء التراث .

وسألناه يوماً عن مدى الخلاف بين أهل السنة والشيعة ، فنهانا عن الدخول في مثل هذه المسائل الشائكة التي لا يليق بالمسلمين أن يشغلوا أنفسهم بها والمسلمون على ما نرى من تنابذ يعمل أعداء الإسلام على إشعال ناره .

قلنا لفضيلته : نحن لا نسأل عن هذا للتعصب أو توسعة لهوة الخلاف بين المسلمين ، ولكننا نسأل للعلم ، لأن ما بين السنة والشيعة مذكور في مؤلفات لاحصر لها ، وليس لدينا من سعة الوقت ما يمكننا من البحث في تلك الأمور .

فقال رضوان الله عليه : اعلموا أن أهل السنة والشيعة مسلمون تجمعهم كلمة لا إله إلا الله وهذا أصل العقيدة ، والسنة والشيعة فيه سواء (١) وعلى التقاء ، أما الخلاف بينهما فهو في أمور من الممكن التقريب فيها بينهما (٢) قلنا : ما مثال ذلك ؟

قال : الشيعة فرق ، تشبه على التقريب ما بين المذاهب الأربعة عند أهل السنة فالشيعة الإمامية مثلاً يقولون أن الإمامة أصل لازم في الإسلام ولابد من تحديده وهم لا يقاتلون إلا مع إمامهم المنتظر (٣) ، لأن الإمام هو الذي يحافظ على الشريعة وقوله فصل في أحكامها ، وطاعته ملزمة على الإطلاق .

وهناك بعض فوارق من الممكن إزالتها كنكاح المتعة ، وعدد الزوجات للمسلم وذلك عند بعض فرقهم . وما أشبه ذلك مما لا يجب أن نجعله سببا للقطيعة بين أهل السنة والشيعة ، ولقد قام المذهبان جنباً إلى جنب مئات السنين

(١) العبارة فيها إجمال وغموض في المعنى ، والصواب التفصيل .

(٢) كذلك هذه العبارة تشمل الغلاة ، والمعتدلين وليس فيها تفصيل السيد رشيد ، ومما هو معروف أن الشيخ البنا كان في لجنة التقريب بين السنة والشيعة أيضاً وأثبت ذلك الأستاذ حامد أبو النصر (عن شريط مسجل) .

(٣) هل هذا الفارق بسيط في اعتقادهم المنتظر الذي دخل السرداب منذ أكثر من ألف سنة ، وكذلك القول في الذي بعده ؟! .

الشهيد ، ولولا أن الموقف اليوم بين إيران والعراق على ما هو عليه لتوسعوا في هذه الناحية ولكن من الخير ديناً ألا نشتغل بأمريوسع هوة الخلاف بين الشيعة والسنة ، ، وهو هدف من أهداف أعداء الإسلام (١) » انتهى من كلام الشيخ عمر رحمه الله وهو كما ترى مجملا ، وأظنه كان مكتوباً عنده لأنه قال انتهى رأي الإمام الشهيد ولا نعرف للشيخ حسن البنا رأياً فيه تفصيل وضوابط في أي من كتبه فالظاهر أنه كان رأيه الخاص ، وهو كما يظهر متفق مع كلام رشيد رضا السابق نقله عنه ، إلا أن رشيداً حد حدوداً ، وضبط القواعد ولم يطلق كلامه بلا زمام ولا حكام ، ولم يضبط ذلك الشيخ البنا عفا الله عنه

جـ - مع أهل الكتاب

رأينا فيما سبق كيف كان السيد رشيد رضا لينا مع النصارى فيما لا يخص العقيدة ، وقد انتهج الشيخ حسن البنا ذلك المنهج وكان يلين مع أهل الكتاب بتأويل قريب من تأويل الشيخ رشيد السابق ذكره .

واتخذ على هذا التأويل أصدقاء من النصارى ، يقول الأستاذ صالح أبو رقيق (وقد صادق الأستاذ البنا بعض الأقباط وصافاهم الود) (٢)

وفي خطاب الأستاذ عبد الرحمن البنا وجهه لصلاح حافظ ونشره الأخير بجريدة أخبار اليوم قدمه الأستاذ عبد الرحمن : بقوله « ويسعدني أن أكتب

---

(١) انظر جريدة الشرق الأوسط ص ٩ بتاريخ الإثنين ٢٤/ ٩/ ١٩٨٤ .

(٢) انظر تعليق الأستاذ صالح أبو رقيق على كتاب ميتشل (ص ٢٣٥ هامش) وقد ذكر الأستاذ التلمساني في جريدة الأخبار في عدد صدر بعد أحداث ١٩٨١م التي شهدتها مصر أنه كان في المكتب العام للإخوان نصارى ، ولا يحضرني التاريخ بالتحديد ولكني قرأته بنفسي .

إليك لا باسمي وحدي ولكن باسم البنا مرشد الإخوان المسلمين ومؤسس دعوتهم الذي عاصرته من الطفولة ، فهو شقيقي وأستاذي الذي يكبرني في السن بعامين فقط ، وقد رضعنا من ثدي أمي معاً ، وتلقينا العلم وأصول الدعوة من والدي العالم الجليل والمحدث الكبير أحمد عبد الرحمن البنا »

ثم بعد أن تكلم عن النقاب وأنه (تزيد) على قول الله وقول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحجاب !! ، ثم اعتراضه على الشباب الذين ينكرون بأيديهم وأنه لا يعترف بأمير أسيوط أو غيرها ، وأنه لا يرى حقاً لأحد أن يخرج على الحاكم أو يتطاول عليه ، بعد ذلك قال : وأما حكاية المسيحيين فقد كان موقف الإمام حسن البنا منهم أنه إذا وقف خطيباً - خاصة في مدن الصعيد - بدأ بقول الله تعالى ﴿ **يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ [آل عمران - ٤٢] وكان المواطنون المسيحيون يلتفون حوله ويخالونه يخطب لهم وحدهم . وأراد مسيحيو مدينة دمنهور [. . ذات يوم] أن يبنوا كنيسة فاعترضهم الإخوان المسلمون وحضر الأستاذ المستشار ميلاد تادرس من دمنهور إلى الشيخ حسن البنا في القاهرة وأخبره بالأمر فأمسك الشيخ حسن البنا بالتليفون وأمر الإخوان المسلمين في دمنهور أن يقوموا بالعمل في بناء الكنيسة مع المواطنين المسيحيين .

وقد اعتدت في أعياد المسيحيين أن أكتب لهم بخط يدي فلمامرضت في العام الماضي كتبت لهم على صفحات جريدة الأخبار (في ٧ يناير و ٢١ أبريل) في العمود الذي يستضيفني فيه الأستاذ الكبير عبد السلام داود بين فترة وأخرى دون أن يحصل احتكاك بينهما إلا في المؤلفات (١) مع العلم بأن أئمتهم قد أثروا التأليف الإسلامي ثورة لا تزال المكتبات تعج بها ، انتهى رأي الإمام

---

(١) بل لقد أريقت الدماء ، ونشبت الفتن طيلة القرون بسبب الشيعة ، والتاريخ واضح !

» (١) أهـ

وهذا الكلام عجب حقاً فإن بناء الكنائس في ديار المسلمين ليس من شرع الله ، فإنه لا تجتمع قبلتان في أرض ، وأما ما تركه المسلمون للنصارى من كنائس قديمة فهذا كان في أرض الصلح لا في مدائن المسلمين ولا يقاس عليه إحداث كنائس جديدة يبنيها النصارى فضلا من أن يقوم المسلمون بالعمل في بنائها !!!

فهل هذا يقول به فقيه من فقهاء الإسلام

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الكنائس التي بالقاهرة وغيرها التي أغلقت بأمر ولاة الأمور إذا ادعى أهل الذمة أنها أغلقت ظلماً وطلبوا فتحها فهل تجب إجابتهم ، فأجاب جواباً طويلاً شافياً جاء فيه (الحمد لله رب العالمين ، أما دعواهم أن المسلمين ظلموهم في إغلاقها فهذاكذب مخالف لإجماع المسلمين ، فإن علماء المسلمين من أهل المذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وغيرهم من الأئمة ، كسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد وغيرهم ومن قبلهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين : متفقون على أن الإمام لو هدم كنيسة بأرض العنوة، كأرض مصر، والسواد بالعراق ، وبر الشام ، ونحو ذلك مجتهداً في ذلك ومتبعاً في ذلك لمن يرى ذلك لم يكن ذلك ظلماً منه ، بل تجب طاعته في ذلك ، ومساعدته في ذلك ممن يرى ذلك

وإن امتنعوا عن حكم المسلمين لهم كانوا ناقضين العهد ، وحلت بذلك

---

(١) انظر أخبار اليوم عدد ٢٠/ ٢/ ١٩٨٨م الصفحة الأخيرة والعجيب أن الخبر لم يكذب .

دماؤهم وأموالهم .

وأما قولهم : إن هذه الكنائس قائمة من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأن الخلفاء الراشدين أقروهم عليها ، فهذا أيضاً من الكذب ، فإن من العلم المتواتر أن القاهرة بنيت بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بأكثر من ثلاثمائة سنة : بنيت بعد بغداد ، وبعد البصرة : والكوفة ، وواسط .

وقد اتفق المسلمون على أن ما بناه المسلمون من المدائن لم يكن لأهل الذمة أن يحدثوا فيها كنيسة ، مثل ما فتحه المسلمون صلحاً وأبقوا لهم كنائسهم القديمة ، بعد أن شرط عليهم فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يحدثوا كنيسة في أرض الصلح ، فكيف في مدائن المسلمين ؟ !

بل إذا كان لهم كنيسة بأرض العنوة كالعراق ومصر ونحو ذلك فبنى المسلمون مدينة عليها فإن لهم أخذ تلك الكنيسة ، لئلا تترك في مدائن المسلمين كنيسة بغير عهد ، فإن في سنن أبي داود بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : لا تصلح قبلتان بأرض ، ولا جزية على مسلم » (١) . والمدينة التي يسكنها المسلمون والقرية التي يسكنها المسلمون وفيها مساجد المسلمين لا يجوز أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر ، لا كنائس ولا غيرها ، إلا أن يكون لهم عهد فيوفى لهم بعهدهم . فلو كان بأرض القاهرة ونحوها كنيسة قبل بنائها لكان للمسلمين أخذها ، لأن الأرض عنوة فكيف وهذه الكنائس محدثة أحدثها النصارى ؟ !) (١)

---

(١) أخرجه أبو داود في الإمارة (باب ٢٨) ، والترمذي في الذكاة (باب ١١) والإمام أحمد في المسند ١/ ٢٢٣/ ٢٨٥ .

انتهى محل الغرض منه (١) .

ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة لليهود ، فقد جعل الأستاذ البنا (غفر الله له) الخلاف مع اليهود ليس دينياً وذلك فيما قاله أمام لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية (٢) حيث قال :

(باسم الإخوان المسلمين أؤيد ما أعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية ، والناحية التي سأتحدث عنها بسيطة من الوجهة الدينية ، لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي ، ولهذا فإني أحب أن أوضحها باختصار ، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم (٣) والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية ، وقد أثنى عليهم (٤) وجعل بيننا وبينهم اتفاقاً ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ (٥)

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ **فبظلم من الذين** هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً (٦)

(١) انظر ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥ جزء ٢٨ من مجموع الفتاوى ، ونحوهما بأتم منها نقلها في أحكام أهل الذمة ٢/ ٦٧٧ .

(٢) انظر ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ من كتاب الإخوان المسلمون رؤية من الداخل لمحمود عبد الحليم .

(٣) ينظر في أي آية هذا الحض ؟! .

(٤) هل في قوله (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) [المائدة ٨٢] ثناء !! .

(٥) آية ٤٦ من سورة العنكبوت ، وبقيتها [إلا الذين ظلموا منهم] .

(٦) هل الوجهة القانونية في قوله (وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) !!! .

وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾

ولي كلمة أخيرة من الوجهة الدينية ، فإن اليهود يقولون عن فلسطين إنها أرض الميعاد . . .

ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا في يوم القيامة معنا (١) أهـ محل الغرض منه

وهذا الكلام نقل أحد رجال الإخوان ، ممن أرخ للحركة ، وسطر تاريخ الإخوان وهو الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه « الإخوان المسلمون رؤية من الداخل أحداث صنعت التاريخ » والذي يؤرخ فيه لتاريخ الحركة وأياً كان العذر الذي يلتمس للإمام حسن البنا في هذا ، فإننا نقيم آراء ونحكم عليها من حيث موافقتها ومخالفتها للشرع ، ولا أظن أن أحداً يوافق أن القرآن أثنى على اليهود ، وحث على مصادقتهم وأن خلافنا معهم ليس في العقيدة والدين !!!

د - مع الصوفية

على الرغم من تأثر الشيخ حسن البنا بالسيد رشيد رضا في مسائل الوحدة ، ونبذ الخلافات ، وتجميع المسلمين على الأصول العامة ، إلا أن ذلك التأثر لم يمتد حتى يشمل الجوانب السلفية في فكر رشيد رضا ، فلقد كان الأخير سلفياً في المعتقد والفهم (٢) ، بل كان يرمى دائما بالوهابية بسبب سلفيته ، أما الشيخ حسن البنا - رحمه الله - فلقد كان لنشأته مع الطريقة

---

(١) لا والله لا نحب هذا فإن المرء يحشر مع من أحب .

(٢) وقد قال الشيخ محمد صالح العثيمين علامة القصيم عن السيد رشيد رضا أنه كان سلفياً ، أنه لا =

الصوفية المسماة بالحصافية (١) بعض التأثير في حياته وسلوكه ، ولذلك نجده يحض أحياناً على سلوك التصوف ، ولعله كان يقصد الجانب التهذيبي للنفوس ، إلاأن الحث على الدخول في مثل هذه السلوكيات له خطره الشديد على المبتدئين ، لأن في التربية على الطريقة الصوفية كثيراً من البدع ، من التزام أوراد وأعداد ليس فيهاآثار النبوة وينتهي الأمر بانحرافات عقدية ، والأمر لا يخفى ، والأولى الابتعاد عن ذلك ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولو كان خيراً لسبقنا إليه أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأئمة السلف رضي الله عنهم أجمعين .

وقد ظهرت في كتابات الشيخ البنا رحمه الله بعض التأثر بأهل التصوف ، فمن ذلك قوله في أول رسالة العقائد ، فبعد أن بين أن الأفضل للإنسان أن يتجنب التفكر في ذات الله . . وأن هذه هي طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره . قال :

« سئل الشبلي رحمه الله تعالى عن الله تبارك وتعالى ، فقال : هو الله الواحد المعروف ، قبل الحدود وقبل الحروف »

وقيل ليحيى بن معاذ : « أخبرني عن الله عز وجل ؟ فقال : إله واحد

= يعرف أنه خرج عن مذهب السلف في المسائل التي كتب فيها ، والقول هذا محمول على الجملة ، ولكنه على أي حال شهادة من رجل مدقق كالشيخ ابن عثيمين حفظه الله .

وأيد هذا الشيخ الألباني محدث الشام إلا أنه خص سلفيته في العقيدة ، وذكر لي أنه ربما انحرف في الحديث عن السلفية ومثل لذلك بإنكار رشيد رضا بعض أحاديث الصحيحين ،

(١) انظر مذكرات الدعوة والداعية ص٢٣ .

فقيل له : كيف هو ؟ قال : ملك قادر ، فقيل له : أين هو ؟ قال : هو بالمرصاد ، فقال السائل : لم أسألك عن هذا ، فقال : ما كان غير هذا كان صفة المخلوق ، فأما صفته فما أخبرتك عنه أهـ

ثم قال الشيخ البنا بعد ذلك : فاحصر همتك في إدراك عظمة ربك بالتفكر في مخلوقاته ، والتمسك بلوازم صفاته (١) أهـ

هذا الكلام عجيب جداً ، ومستغرب أن ينقله الشيخ البنا دونما تعليق ، فضلا أن يقره ! وهنا يتضح الفرق بين علمي السلف والخلف ، فالإمام مالك رحمه الله لماسئل عن الاستواء ، وهي صفة من صفات الله ، قال : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سوء ، وأمر بإخراجه »

وههنا يسأل يحيى بن معاذ عن كيفية الله ، فيحيد بقوله (ملك قادر) ثم لا ينكر هذا السؤال البدعي كما أنكره مالك رحمه الله .

ثم بعد ذلك يقول في جواب : (أين هو) بأنه بالمرصاد وما سوى ذلك فهو (صفة للمخلوق) وظاهر هذا إنكار صفات الله سبحانه لأنها غير قوله (بالمرصاد) ، والغيرية عنده هي صفة المخلوق .

وهذا الكلام المجمل قريب من كلام الشبلي المنقول عنه آنفاً وفيه (قبل الحدود وقبل الحروف) ، وما ينبغي أن تكون عقيدة المسلمين بهذا الغموض والخفاء الذي تسببه هذه المجملات ، يقول الإمام ابن القيم في نونيته :

فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ ... إطلاق والإجمال دون بيان

---

(١) انظر مجموعة رسائل البنا ص٣٨٤ .

قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الـ أذهان والآراء كل زمان(١)

وفي (الأصول العشرين) يلمح القارىء بقاء عبارات يستشف منه التصوف

فمن ذلك قوله رحمه الله (٢)

« . . . . ولكن الإلهام ، والخواطر ، والكشف والرؤى ، ليست من أدلة الأحكام ، ولاتعتد إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه . . . »

ويلاحظ على هذه العبارة ملاحظتان

(١) الأولى أن كلام الشيخ البنا في أولها قد أحسن فيه إذ جعلها ليست من أدلة الأحكام وهذا حق

قال الحافظ في الفتح في الكلام على الإلهام : (وعن بعض المبتدعة أنه حجة بدليل قوله تعالى ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ [الشمس -٨] وقوله تعالى ﴿**وأوحى ربك إلى النحل**﴾ [النحل-٦٨] وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم (اتقوا فراسة المؤمن)

فأجاب الجمهور عن حجج القائلين به بأن معنى قوله تعالى ﴿ **فألهمها** ﴾ أي عرفها طريق العلم وهو الحجج وأما الوحي إلى النحل فنظيره في الآدمي فيما يتعلق بالصنائع وما فيه صلاح المعاش وأما الفراسة ، فنسلمها ولكن لا نجعل شهادة القلب حجة لأنا لا نتحقق كونها من الله أو من غيره

---

(١) انظر ص ٤٣ من النونية ـ ط دار المعرفة . (لأحمد بن عيسى) .

(٢) انظر ص ٣٨٥ من رسائل البنا .

. . .) (١) أهـ

(٢) الملاحظة الثانية في الاستثناء الوارد في آخر كلامه ، وهو قوله (ليست من أدلة الأحكام ولا تعتد إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه)

ومفهوم هذا الكلام أنها إذا لم تصطدم بأحكام الدين ونصوصه فيعتد بها من أدلة الأحكام وهذا باطل !

يقول الحافظ في نقله عن ابن السمعاني

« وإنكار الإلهام مردود ويجوز أن يفعل الله بعبده ما يكرمه به ، ولكن التمييز بين الحق والباطل في ذلك أن كل ما استقام على الشريعة المحمدية ولم يكن في الكتاب والسنة ما يرده فهو مقبول وإلا فمردود

ولا تزعم أنه حجة شرعية وإنما هو نور يختص الله به من يشاء من عباده فإن وافق الشرع فالشرع هوالحجة) (٢)

وفي حديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر قال ابن عباس رضي الله عنهما من نبي ولا محدث » [فتح الباري ٧/ ٤٢] قال الحافظ في شرح قوله (فإن يكن في أمتي منهم أحمد فعمر) : « وقيل الحكمة في أن وجودهم في بني إسرائيل كان قد تحقق وقوعه وسبب ذلك احتياجهم حيث لا يكون حينئذ فيهم نبي ، واحتمل عنده صلى الله عليه

(١) الفتح ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ / ١٢ .

(٢) الفتح ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ / ١٢ .

وعلى آله وسلم أنه لا تحتاج هذا الأمة إلى ذلك لاستغنائها بالقرآن عن حدوث نبي وقد وقع الأمر كذلك حتى أن المحدث منهم إذا تحقق وجوده لا يحكم بما وقع له بل لابد من عرضه على القرآن فإن وافقه أو وافق السنة عمل به وإلا تركه وهذا وإن جاز أن يقع لكنه نادر ممن يكون أمره منهم مبنيًا على اتباع الكتاب والسنة ...)(١)

ويقول الشوكاني في إرشاد الفحول بعد أن تكلم على أدلة الإلهام وتفنيدها

« . . . ثم على تقدير الاستدلال بثبوت الإلهام بمثل ما تقدم من الأدلة ، من أين لنا أن دعوى هذا الفرد لحصول الإلهام له صحيحة وما الدليل على أن قلبه من القلوب التي ليست بموسوسة ولا بمتساهلة . . . .) (٢) أهـ

وأصل دعوى الإلهام هذه دعوة صوفية .

يقول الشوكاني (دلالة الإلهام ذكرها بعض الصوفية . . . .

ثم نقل عن أبي علي التميمي في كتابه التذكرة قوله (وذهب بعض الصوفية إلى أن المعارف تقع اضطراراً للعباد على سبيل الإلهام . . .) (٣) ويتضح مما سبق أن هذه الكلمات والعبارات فيها غموض وإجمال ولعل الشيخ البنا غفر الله له كان يقصد بها الرد على أهل التصوف في عصره ويدل عليه أول كلامه - ولكن عبارته لم تسلم على أي حال من الانتقاد العلمي السابق تقريره

---

(١) الفتح ص ٥٠ ، ٥١ / ٧ .

(٢) إرشاد الفحول ص ٢١٩ .

(٣) إرشاد الفحول ص ٤ .

والله أعلم

* وفي الأصول العشرين أيضاً يقول البنا رحمه الله

١٢ - والبدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان » أهـ

وهنا يفترق الأستاذ البنا غفر الله له مع السيد رشيد رضا رحمه الله تعالى ، فالسيد رشيد قد تقدم رأيه ومعتقده في البدع كلها حقيقية وإضافية ، وقد تكلف عناء تصحيح وتعليق كتاب الشاطبي الفذ في بابه ألا وهو الاعتصام ويصفه في مقدمته له بأنه (لا ند له في بابه فهو ممتع مشبع) (١)

وأما الشيخ البنا غفر الله له فلعل الدافع له لأن يضعه ضمن أصول حركة ومنهج دعوة وهو حرصه على عدم اختلاف الناس ، ولذلك أعقبه بقوله (ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان)

ولكن هل صحيح أن البدعة الإضافية والتركية والالتزام خلاف فقهي فحسب ، ؟

إن المطالع في كتب أهل العلم المصنفين في البدع يجدهم يدخلون في الأنواع المذكورة بدعاً تخرج صاحبها من الملة .

فمثلاً يقول الشيخ علي محفوظ رحمه الله (وكذلك ترك المطلوبات الشرعية وجوباً أو يسمى بدعة إن كان الترك تديناً لأنه تدين بضد ما شرع الله

---

(١) انظر الاعتصام ص ٤ .

أما تركها كسلاً أو تضعيفاً أو ما أشبه ذلك من الدواعي النفسية فهو راجع إلى المخالفة للأمر ، فإن كان في واجب فمعصية وإلا فلا . مثال الترك تديناً أهل الإباحة القائلون بإسقاط التكليف إذا بلغ السالك عندهم المبلغ الذي حددوه وذلك هو الضلال البعيد . . . فمن زعم أن التكليف قد يرفعه البلوغ إلى مرتبة ما من مراتب الكمال كما يزعمه أهل الإباحة ، كان اعتقاده هذا « بدعة » مخرجة من الدين نعوذ بالله من الضلال . . .) (١) أهـ

فهذه البدعة (إسقاط التكاليف) جعلها الشيخ علي رحمه الله من البدع التركية وليست من الخلاف الفقهي ، بل هي خلاف عقدي ، فإطلاق القول بأن الخلاف في هذه الأنواع هو خلاف فقهي قد يكون مجانباً للصواب .

ولعل منشأ الاشتباه أن البدعة الحقيقية تفترق عما ذكره الشيخ البنا من وجوه يقول الشاطبي في الاعتصام

(البدعة الحقيقية هي التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم لا في الجملة ولا في التفصيل ، ولذلك سميت بدعة - كما تقدم ذكره - لأنها شيء مخترع على غير مثال سابق ، وإن كان المبتدع يأبى أن ينسب إليه الخروج عن الشرع ، إذ هو مدع أنه داخل بما استنبط تحت مقتضى الأدلة ، لكن تلك الدعوة غير صحيحة لا في نفس الأمر ولا بحسب الظاهر أما بحسب نفس الأمر فبالعرض ، وأما بحسب الظاهر فإن أدلة شبهته ليست بأدلة إن تثبت(٢) أنه استدل، وإلا فالأمر

---

(١) انظر الإبداع في مضار الابتداع ص ٥٣ .

(٢) انظر الاعتصام ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

واضح

وأما البدعة الإضافية فهي التي لها شائبتان : إحداهما لها من الأدلة متعلق ، فلا تكون من تلك الجهة بدعة ، والأخرى ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية فلما كان العمل الذي له شائبتان لم يتخلص لأحد الطرفين وضعنا له هذه التسمية وهي « البدعة الإضافية » أي أنها بالنسبة إلى إحدى الجهتين سنة لأنها مستندة إلى دليل ، وبالنسبة إلى الجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل أو غير مستندة إلى شيء

والفرق بينهما من جهة المعنى ، أن الدليل عليها من جهة الأصل قائم ومن جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها ، مع أنها محتاجة إليه لأن الغالب وقوعها في التعبديات لا في العاديات المحضة . .) (١) أهـ

والحاصل أن الاشتباه لا يجعل البدعة الإضافية خلافاً مساغاً فإن الاعتراض عليها من جهة استنادها إلى دليل في الجملة منشؤه كما يقول الشيخ علي محفوظ عدم الدراية بحقيقة البدعة وبما يقصده المنكر لها ويقول أيضاً (فالمبتدع بدعة إضافية قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهو يرى أن الكل صالح فلا يدخل في عداد من ترجى توبته لأنه لا يرى لنفسه ذنباً حتى يتوب منه بل يرى أن كل ما يعمله حسن . ولا توبة لمن لم يعرف لنفسه ذنباً،ولهذا قال أئمة المسلمين كسفيان الثوري:إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها،ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها:أن المبتدع

---

(١) انظر الاعتصام ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

الذي يتخذ دينا لم يشرعه الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب مادام يراه حسناً لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه أوأنه ترك حسناً مأمورا به ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب) (١) أهـ

ولعل في هذا البحث دليل كاف على أن منهج الشيخ حسن رحمه الله لم يخل من غبار التصوف ، غفر الله له .

وفي نهاية المطاف بين مختلف الاتجاهات الفكرية ، نجد أن الجميع تأثر بالشيخ رشيد تأثراً واضحاً ، بحيث احتلوا فكره ، ووردوا عن معينه فكان الأجدر بهذه الاتجاهات ، وغيرها أن تتفق في الخطة والعمل وألا يعيب أحدها على الآخر .

ولعل السبب في تنازع بعضها للبعض هو أن كلاً منها تبنى شيئاً من آراء وأفكار ومعتقدات رشيد رضا وغابت عنهم أشياء ، ولعلهم رأوا أن هذا الجانب أولى لحاجة المسلمين له ، أو لملاحظاتهم على الجوانب الأخرى ، والكل يعمل في الظاهر لجمع المسلمين على الحق ، والله يتولى السرائر ، ورحم الله الجميع وغفرلهم .

وهنا ينتهي بي البحث إلى المشكلة القائمة الآن وهي اختلاف كثير من الجماعات الإسلامية الموجودة على الساحة وبقاء المسلم بينها في خضم موحش من التنازع يأباه الإسلام والمسلمون

---

(١) انظر الإبداع في مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص ٦٠ .

وهذه هي النقطة الجوهرية : (إلى أين نحن نسير)

إلى أين نحن نسير :

منذ فترة بعيدة ، ومع اختلاف الأفكار والاتجاهات ، تبين لكاتب هذه السطور أن الحل الإسلامي الجذري والشامل هو الطريق والطريق الوحيد ، للخلاص من هوة الخلافات المنتشرة بين بنات الفكر الإنساني .

ولنكن واقعيين مع أنفسنا ، وأقصد بذلك أن الحل الجذري الشامل لا يكون بين يوم وليلة ، بل بناء وتهذيب (١) ، بناء لصرح المسلمين ، ولا أقول لصرح الإسلام فإنه لم يهدم ، ولكن الذي انهدم صرح الإيمان في قلوب بعض الناس .

وأما التهذيب : فهو إزالة ما علق وتراكم على جسد الأمة الإسلامية طيلة القرون المتتالية ومن هذا المنطلق ، نجد أن البناء والتهذيب هما أساسا الحل الشامل ، وعندما نبدأ في العمل الموحد نتذكر ما قاله النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لبعض أصحابه وهو يبشرهم أن الأمن والأمان سينتشر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه » ، ثم قال : « ولكنكم تستعجلون » (٢) ورحم الله القائل : إن السنة في حياة الأمة كاليوم في حياة الفرد » وعود على بدء أقرر أنه لا بد كي نصل إلى الغاية المحمودة ، والهدف المنشود من أن نمر بفترات مرحلية بين مد وجذر ، وفي

---

(١) يرى بعض المفكرين أن الأولى تسميتها بالتصفية والتربية والآخرون بالتحلية والتخلية على اللفظ الذي اعتمده ابن القيم وغيره ، وربما سماه البعض الأسس التنموية والتصفوية ولا مشاحة في الاصطلاح لأنني اخترت البناء والتهذيب لعدم غموض معناه ودلالته على المراد من أول وهلة بخلاف غيره ولا سيما الأخير والله أعلم .

(٢) رواه البخاري في علامات النبوة (٦/ ٦١٩ - الفتح) .

خلال هذه الأيام نجد أن كثيراً من الجماعات الإسلامية ، انتشرت وأصبح لها مؤيدون ومعارضون كأي دعوة فكرية تقوم على هذه الكرة الأرضية ، والحل الصحيح أن تتعاون هذه الجماعات فيما بينها وتسير على خطى ثابتة كي يمكن أن يثمر هذا التعاون ، وتكلل هاتيك الجهود بالنجاح للوصول إلى الحل الجذري آنف الذكر وقد أدلى الكثيرون بدلائهم في هذا الموضوع ، وما كان لمثلي أن يتكلم مع هؤلاء لا سيما وهم قد بلغوا الغاية في التجارب والخبرات الحياتية ، ولكن من باب إعطاء تصور جديد في عرضه ، قديم في معانيه ، أضعه بين يدي إخواني المسلمين طالباً منهم فيه حق النصيحة في الله ومبيناً فيه ما أراه أساسا للعمل في هذه المرحلة من حياتنا الدعوية بما يمكن أن يسمى (بورقة عمل إسلامي موحد) وهذه فكرة قد تكون تجربة ثم تتحول لواقع ،

والله المعين أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

« ورقة عمل إسلامي موحد لبناء الهيكل الدعوي للجماعات »

(مستنبط بعضها من خلال ما أسسه السيد رشيد في حواره مع الشيعه)

أولاً : المبادىء التي ينبغي أن تلتزم بها الجماعات إجمالاً :

١ - توحيد الله سبحانه وتعالى ، وتحقيق أركان الإيمان والبعد عن الشرك والغلو في المخلوقين .

٢ - تجريد الاتباع للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومنه الإقرار بأركان الإسلام وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن

٣ - التزكية : بتطهر النفس من الآفات والأمراض التي تنخر في الفرد والجماعة .

فهذه هي الأصول العلمية التي تقوم عليها الدعوة بين مختلف الفرق والطوائف

فكل من لم يقر بهذه الأصول لا يمكن أن تقوم الدعوة به ، ويندر أن يكون من صفوف الدعاة إلى الله من يخالف هذه المبادىء كلية

ثانياً : قاعدة الخلاف

وهي أن نجتمع على ما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه مما كان من مسائل الاجتهاد التي تخفى دليلها

وما كان الخلاف فيه لنص واضح من كتاب أو سنة فالعذر يكون قبل البلاغ والإنكار بمايقتضيه الحال بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ولا تطرد هذه القاعدة فتشمل عذر من دعا إلى شرك أو بدعة أو نحو ذلك

ثالثاً : تشكيل لجنة تشمل علماء ودعاة من الأحزاب والجماعات الإسلامية تكون بمثابة مجلس شورى وتوصيات ، ينسق العمل بين الجماعات ويحاول إيجاد حلول مناسبة للخلافات

رابعاً : كل من أخطأ لا سيما علناً ومهما كان مركزه فينبغي على أهل العلم في جماعته أن يبادروا للإنكار عليه ، وينبغي أن يتحرر من صنمية الأشخاص فإن تأخروا أوتركوا فيتاح للآخرين الرد عليه دونما تجريح للأشخاص إن لم يعلم عنهم السعي بالفساد في الأرض

خامساً : يتاح لجميع الدعوات أن تدعو في أي جوانب الدعوة بما يوافق الكتاب والسنة ، ولو أخطأت في تقديم موضوع على آخر فإن أختها تسد الخلل الذي وقعت فيه .

سادساً : على القائمين بالدعوة في كل جماعة إطلاق قدرات الشباب العلمية

والحركية بحيث لا تخرج عن الكتاب والسنة ، ثم الخطوط العريضة لهذه المبادىء .

سابعاً : يمكن عمل لقاءات ودورات تدريبية وعلمية بين الجماعات المختلفة وتنسيق أوجه الدعوة فيما بينها وأن يعامل المسلم بإسلامه وطوعه لربه لا لا تجاهه وانتمائه ، ويسمح لأصحاب الاتجاه بالدعوة في الاتجاه الآخر دونما قيد أو شرط إلا شرط عدم الخروج عن الكتاب والسنة .

ثامناً : الاهتمام بالدعوة المشتركة في مواجهة التيارات المنحرفة الهدامة كالشيوعية والرأسمالية والفرق المارقة كالبهائية والبابية وبعض فرق الشيعة وبعض فرق الصوفية

ويمكن أن تستعين بعض الجماعات بعلماء الآخرين لسد النقص عندها في ذلك

تاسعاً : التعاون فيما بين هذه الجماعات في المسائل الأخلاقية وأوجه البر والخير من إقامة المساجد والمستشفيات ولجان الزكاة وأعمال البر ونحو ذلك دونما قيد على ذلك .

عاشراً : ينتخب مجموعة من الشباب من كل الاتجاهات سنوياً لعمل لقاءات مفتوحة وندوات عامة لعرض قضايا العمل الإسلامي ووضع خطة عمل موحدة ومناقشة القيادات فيها ما تم تنفيذه من الخطط والقرارات السابقة .

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، لقد من الله سبحانه علي أن وفقني لهذا البحث ولقد كنت متردداً يوم اخترت السيد رشيد رضا كمادة لبحثي ، وبعد مطالعتي في المراجع المختلفة وجدت أن هذا البحث هو الأنسب بالنسبة لي ، مع ماوافق من رغبة قديمة كما ذكرت ذلك آنفاً .

ولقد لقيت عدة صعوبات أثناء بحثي (١) ، وأكثرها يرجع لضيق الوقت ، ولعل العذر في ذلك مقبول لدى الأفاضل المسئولين وقد توصلت في بحثي هذا لعدة أمور ومطالب : -

(أولاً) السيد محمد رشيد رضا شخصية فذة ، ظهرت على حين غفلة من التاريخ وإن آثاره في الناس ستبقى لمدة سنين عديدة ، وأجيال مديدة .

(ثانياً) عقيدة السيد رشيد في الجملة على مذهب أهل السنة والجماعة ، وما توجه له من مطاعن أجاب هو بنفسه عن أكثرها يدل على جنوحه الشديد لمذهب السلف سواء كان في توحيد العبادة (الألوهية) ، أو التوحيد العلمي الخبري (الربوبية والأسماء والصفات) ، أو في مسائل الإيمان والقدر ، وغير ذلك مما تقدم

(ثالثاً) السيد محمد رشيد رضا ذا منهج مستقل بنفسه ، وإن تأثر بعض الشيء بالأستاذ محمد عبده ، إلا أنه كان يكرر أنه قام بالدعوة الإصلاحية باستقلاله وبوازع من نفسه ، لا بالتلقين من محمد عبده ، ويؤكد أنه

---

(١) ومن أطرفها بل أغربها أن كتاب د . أبراهيم العدوي كنت أطالعه بمكتبة الجامعة ، وبعد أيام اختفى وعجزت عن الوصول إليه ، ولهذا فما كان من العزو له أحياناً بواسطة كتاب المدرسة العقلية ، أما ترجمة شكيب أرسلان لسيد رشيد رضا فقد فقدت من مكتبة الحرم رغم وجود رقم لها في الفهرس الخاص ، وعجز أمين المكتبة عن إيجادها ! ثم وجدتها بمساعدة بعض الإخوان ، وليس فيها ما يفرح به كثير فقد أورد ترجمة السيد رشيد التي ترجمها لنفسه في المنار ؛ والأزهر ثم لخص مقدمة (تاريخ الأستاذ الإمام) ثم أعقب ذلك بنشر الرسائل المتبادلة بينهما ، وتقدم خلاصة ذلك .

كان مستقلاً برأيه في كل شيء (١)

(رابعاً) جمع السيد رشيد في منهجه بين صفاء العقيدة ، ونقاوة المنهج ، فكانت عقيدته على معتقد السلف الصالح ، ومنهجه كان متحرراً من ربقة التقليد ، ملماً بالعلوم العصرية .

(خامساً) نشاط الإمام رشيد السياسي كان واسعاً ، وكان كله يدور في فلك حبه للإسلام ، وتطلعه لإقامة الحكم الراشد ، والتحرر من الاستعمار الغاشم .

وما ينسب له من أنه تآمر على إسقاط الدولة العثمانية ليس له دليل صحيح صريح يؤيده .

(سادساً) إن دعوة السيد رشيد كان في استمرارها خطورة على منافع شخصية وأهواء استعمارية ، فكان من الطبيعي أن تحارب بعد موته (إن سلمنا أن موته كان طبيعياً) ولذا مع قرب العقد بهذا المصلح (ت ١٩٣٥ - ١٩٨٨م) أي بنحو نصف قرن إلا أن آثاره مع كثرتها لا تكاد تعرف ، ولا أنكر وجود المحاولات الفردية من لدن بعض الأفراد كالأستاذ زهير الشاويش حفظه الله (صاحب المكتب الإسلامي) فقد أعاد طبع بعض كتبه ، إلا أن الكثير منها المطبوع قديماً وغيره لا يزال في عالم النسيان رغم احتياجنا في هذا العصر لبعض مباحثه وتحقيقاته

(سابعا) علاقة السيد رشيد ببعض الأفراد والجماعات ، والتي تشكلت علامات الاستفهام حولها، لم أهتد لحقيقتها فيما يتعلق مثلًا بشكيب

---

(١) انظر ص ١٣٣ من المنار والأزهر .

أرسلان أو ببعض الشيعة ، أو غيرهم ولكني أكاد أجزم أن هذه العلاقة لم يكن لرشيد رضا فيها وجهة سيئة ، بل كانت تدور فيما يدور في عقله من جمع كلمة المسلمين ، والعمل على توحيد صفوفهم فلقد كان هذا مطلبه الأسمى في الوحدة كما هو مطلب الشوامخ من علماء الأمة وإن كنت أميل لرجوع شكيب إلى السنة .

(ثامنا) لسبب أو لآخر اشتهرت بعض آراء السيد رشيد ونسبت لغيره فقد اشتهر عن جماعة أنصار السنة كثير من آرائه في توحيد الألوهية ، ونسبت لجماعة الإخوان المسلمين ، أفكاره ونظرياته في الوحدة الإسلامية .

ولعل السبب في هذا هو جنوح كل طائفة إلى بعض علمه . وفضل زخره ، وتمسكها به حتى يغلب عليها الدعوة لذلك دون غيره .

(تاسعاً) بعد البحث الكثيف في رسائل وكتب رشيد رضا وبالاطلاع على فتاويه أقترح عدة مقترحات ، وأوصي ببعض التوصيات لعلها تكون محل اهتمام أحد الباحثين ، لنشر الخير في المسلمين ، فمن ذلك :

١ - أقترح بعمل جمع للأحاديث التي تناولها السيد رشيد رضا بالتحقيق أو التعليق أو النقد أو الشرح . ويكون هذا الجمع في كتاب على غرار مجموع فتاويه الذي قام به المنجد والخوري ، ويشرف على تحقيقه أهل الخبرة والاختصاص من طلاب علم الحديث الشريف

ثم تفهرس فهرسة علمية دقيقة تسهل الرجوع اليها متى رغب في ذلك .

٢ - كما أوصي بإعادة طبع مبحث التشابه الذي في تفسير المنار في طبعة قشيبة مع التعليق اليسير عليها وتخريج أحاديثها وترقيم أياتها ، وكذلك بحث

التصوف آنف الذكر .

٣- وأود أن ألفت النظر إلى أهمية عقد مقارنة بين السيد رشيد رضا وأستاذه الشيخ محمد عبده ، لتوضيح أوجه التشابه والاختلاف ، ويحكم فيها بما تقتضيه القواعد العلمية ، وأظن أن هذا سيؤيد ما لهج به السيد رشيد من استقلاليته في التفكير والمنهج .

٤- أقترح كذلك دراسة الفترة التاريخية المعاصرة للسيد رشيد ، وإبداء آراءه الإصلاحية في السياسة ، مع التركيز على كلامه على إمامة ابن السعود والشريف حسين ، فإن تحقيق مثل هذا سيقدم للتاريخ خدمة مثلى وسيزيل الكثير مما أخطأ فيه المؤرخون . كما سيفضح مخططات الاستخراب (المسمى بالاستعمار) فإن ربط حلقات السلسلة ، ومعرفة الساقط منها يدلنا على أول الخيط وطرفه ويمكنا من وضع الحقائق في نصابها ، ورؤية الأمور بمنظار أوسع ، ولاسيما ومازال بعض أفراد اللعبة يمارسون المسرحية بنفس الكيفية والهيئة .

٥- أوصي بانتخاب مجموعة من فتاوى رشيد رضا المناسبة للعصر ويحتاجها الشباب وإعادة طباعتها مع التعليق المفيد عليها .

٦- كما أوصي بعمل فهرس تفصيلي للفوائد المنثورة في كتبه لا سيما المجلة الرائدة (المنار)

٧- ليس من المجدي إعادة طبع المنار إذ بها كثير من المقالات غير المناسبة لهذا العصر ، ولكن المناسب أن تنتقى البحوث الجيدة ويعاد طبعها في سلسلة لطيفة مع التعليق عليها ، وتطعيمها بأوجه الاستفادة منها ، مع متطلبات العصر المتغيرة

هذه بعض التوصيات والمقترحات ، ولعل الله ييسر لي القيام ببعضها في المستقبل إن شاء الله تعالى

وبعد . . . .

فقد آن الأوان للرحيل المؤقت عن هذا الطود الشامخ ، والعلم السامق ، ويأبى القلم إلا أن يسطر ، وتأبى السطور إلا أن تنفضي ، وفي النفس تطلعات ورجاء ، ولكن ما سطر فيه الكفاية لمن أراد الهداية ، ويستدل بالحاضر على الغائب وبالظاهر على الخفي .

رحم الله رشيداً ، ويسر الله لنا الهدى والخير

والسلام عليكم ورحمة الله

وكتبه خالد بن فوزي بن عبد الحميد آل حمزة

في مكة المكرمة من جوار بيت الله الحرام .

مبحث تكميلي

وقفة مع الدكتور البوطي
حول كتابه
السلفية فترة زمنية مباركة
لا مذهب إسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

فقد وقفت على كتاب للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي بعنوان:السلفية فترة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي .
وقد راعني العنوان وبعد تصفح الكتاب إذ به نوع من الخلط واللبس حول قضية السلفية وتبديع الانتساب للسلفية كما فيه نوع من الوقوع في العلماء والتجني عليهم .
وقد ادعى الدكتور البوطي أن شعار السلفية ولد في عهد رشيد رضا وعبده والأفغاني ثم ساق كلاماً يدور حول ذلك .
ولما كانت رسالتي في الماجستير تتعلق بالسيد محمد رشيد رضا وجهوده في خدمة العقيدة ، لذا رأيت أن أضم لمباحثها رداً على هذا الذي ادعاه الدكتور البوطي فكتبته وقت أن كانت الرسالة تحت الطبع أثناء الطبعة الأولى ولم يقدر أن يدرج في الكتاب في طبعته الأولى ، لذا أدرجه للقراء في الطبعة الثانية هذه

والله أسأل أن يوفقنا إلى الحق واتباعه ، وأسأل أن يجنبنا الهوى والتعصب للباطل . وأن يغفر لي ولإخواني المسلمين ويهدينا إلى الصراط المستقيم .

ذهب الدكتور البوطي إلى أن شعار السلفية ولد في عصر الأفغاني وعبده ورشيد رضا والكواكبي وأن الشعار لم يكن آنذاك مذهباً إسلامياً ينتمي إليه دعاته ويرفعوا لواءه كما هو الآن وإنما كان عنواناً على دعوة وتعريفاً بمنهج ولم تلتزم الدعوة الإصلاحية المشار إليها بمنهج السلف تماماً بل ابتعدت عن السلف وأعرضت عن حاله وواقعه بالنسبة لكثير من الزوايا والجوانب الأخرى .

والدكتور البوطي غالط في هذا الذي ذهب إليه جملة وتفصيلاً فإن السلفية نسبة إلى السلف وقد صحت هذه النسبة على كل من سار على نهج السلف رحمهم الله واتخذ هذا المنهج ديدنه في حياته وفي فكره ، وقد حاول البوطي النيل من هذا الاتجاه متمثلاً في أمرين رئيسين :

الأول : فصل أصحاب هذا الاتجاه عن الاسم (السلفية) ليصيروا بلا هوية فيمكن بعد ذلك (تفصيل) اسم ملائم له (في حد نظره) قد ينفر الناس عنهم كما فعل بعضهم (وتبعهم هو عليه) في تسمية حركة الإصلاح التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب بالحركة الوهابية ، ولم يكن غرضهم من هذه التسمية التمييز الذي أراده نحو رشيد رضا لأنهم أحاطوا هذا الاسم وألصقوا بأصحابه ما جعل الناس ينفرون عنه ، من تسميته مثلاً بالمذهب الخامس وهذا كله ما كان يمكنه (ولا غيره) فعله ما دام اسم (السلفية) علم على هذا الاتجاه .

الثاني : الطعن في أئمة هذا الاتجاه السلفي بأنهم لم يكونوا على مذهب السلف ، وقد دفعه دافع ما إلى اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ليوجه له الانتقادات التي ظنها علمية وهي في الحقيقة خيالات لا وجود لها .

وأحاول على سبيل الاختصار - قدر الإمكان - أن أبين شيئاً من أخطائه في كتابه هذا .

■ ■ في فصل عنونه بـ (أولاً : أصول وأحكام لا مجال للاختلاف فيها) .

■ ذكر منها الأصل الثاني وفيه (اليقين بأن الله عز وجل واحد في ذاته وصفاته

وأفعاله ، فلا خالق غيره ، ولا ضار ولا نافع سواه وكل ما قد يسمى في عالمنا هذا سبباً فإنما جعله الله بمحض مشيئته كذلك فهو سبب جعلي) (ص٩٩) .
وهو يقصد بالسبب الجعلي مذهب الأشاعرة ، فهو يرجع إلى الكسب ، فعندهم من قال إن النار تحرق حقيقة فهو باطل وإن الله يحرق عند النار لا بالنار ، وهذا التصور هو في حقيقته أميل للجبر فهو يطرد عندهم في أفعال العباد فالله يخلق لهم ما يريدون عند إرادتهم له دون قدرة منهم على الفعل حقيقة ، وقد شنع البوطي على شيخ الإسلام بإثباته ما أثبته كل عاقل من أن الله أودع في الأشياء خصائص تجعل النار تحرق والماء يبرد ، وكذلك إثبات شيخ الإسلام الأسباب التي جاء بإثباته الدين في نحو قوله تعالى ﴿ **فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات** ﴾ [الأعراف : ٥٧،٥٨] .

يقول في تشنيعه [ونحن نقول إن كان ابن تيمية يرى أن الباء في هذه الآيات وأمثالها قول على السببية الحقيقية فذلك كفر وشرك بالله عز وجل باتفاق الملة وبدلالة النصوص القرآنية القاطعة أن المعنى عندئذ أن الله توسط لإنبات النبات بالماء وتوسط لإنزال المطر بالسحاب وهذا يعني أن الله عاجز يقوى بغيره وأنه ليس خالقاً لكل شيء] ص١٧٥ .
ونلحظ على كلامه أموراً « **الأول** » نقله الاتفاق على كفر من قال بالسببية الحقيقية وأين هو من قول أشعريهم

ومن قال بالطبع أو بالعله — فذلك كفر عند أهل الملله
ومن قال بالقوة المودعة — فذاك بدعي فلا تلتفت

فهو لم يكفر من قال بالقوة المودعة ، بل جعله مبتدعاً وأخطأ في هذا أيضاً .
«**الثاني** » أنه فهم أن القول بالسبب الحقيقي يفضي إلى أن الله ليس خالقاً لكل شيء وذلك لأصل فاسد انبنى عليه هذا القول ، وهو أن الله سبحانه لا يخلق

النبات بواسطة الماء وإلا فعلى قول أهل السنة المؤيد بالأدلة الصحيحة أن الله سبحانه خلق النبات بالماء وخلق الحدائق بالماء ونحو ذلك مما لا محذور فيه ولا يرد عليه محذور والحمد لله .

ثم نسأل البوطي هل لما سمع الصحابة وفيهم الأعرابي والقرشي واليمني وغيرهم لما سمعوا هذه الآيات ونحوها هل تطرق لفكرهم هذا السبب الجعلي الاقتراني الذي ادعاه مع اعترافه بأن الاقتران بين السحاب والمطر بشكل مستمر يتجلى منه للناظر العلاقة السببية الطبيعية كما في ص١٧٥ فلم لم يبين لهم النبي ﷺ هذا الضلال في اعتقادهم ولم يوضح هذا السبب الجعلي ووجه الفرق بينه وبين السبب الحقيقي وهذه السنة كلها مليئة بالأسباب وربط السبب بالمسبب دون أن نحس لقولكم هذا من أثر أو نسمع له ركزاً !!

« **الثالث** » أن إثبات إرادة غير مؤثرة في الفعل هوالذي يقدح في أمر خلق الله له ما أراده دون فعل من الإنسان حقيقة ثم من خلق للإنسان الإرادة أليس هو الله سبحانه ، فإذا كان لا محذور في أن الإنسان يريد بإرادة خلقها الله فيه ، فكذلك لا محذور في أنه يقدر على فعل بقدرة خلقها الله فيه ولا تعارض في هذا مع قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ .

وأختم هذا التعليق بكلام لأئمة الأشاعرة أنفسهم يثبتون فيه ما خالفهم البوطي فيه (١)

يقول الأشعري في الإبانة (فكذلك لا يقدرهم على شيء إلا وهو عليه قادر) ا . هـ .

فهو يثبت أن الله سبحانه يقدر عباده على الأشياء وهو يتفق مع ما تقدم .

ويقول الغزالي في الإحياء : ما هو قادر عليه (يعني الإنسان) من نفسه وبنفسه

---

(١) ملخص من مختصر ابن سلوم لشرح السفاريني لعقيدته المسمى لوامع الأنوار البهية

بل الله خالقه وخالق قدرته وأسبابه ، والممكن له من ذلك ، ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوان لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه) .

ويقول إمام الحرمين في الرسالة النظامية :

(فإنا لما أضفنا فعل العبد إلى تقدير الإله قلنا ، أحدث الله القدرة في العبد على أقدار أحاط بها علمه وهي أسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل ، وأراد من العبد أن يفعل فأحدث فيه دوافع مستحسنة وخبرة وإرادة وعلم ، وأن الأفعال ستقع على قدر معلوم ، فوضعت بالقدرة التي اخترعها العلماء على ما علم وأراد) .

ونقل السعد التفتازاني في شرح المقاصد عن الجويني قوله (فعل العبد واقع بقدرته وإرادته إيجاباً) ولعل في هذه العجالة كفاية لمن أراد الهداية .

- **وفي الأصل الثالث** في الصفات يقول (وكلامه من صفاته فهو قديم غير مخلوق) ا. هـ ص٩٩

ولو كان الأمر مقتصراً على ذلك لحملنا قول الدكتور البوطي على نوع صفة الكلام ، لكننا وجدناه بعد ذلك يقول (وتفريق الباحث في مسألة القرآن بين ما فيه من المعاني النفسية والألفاظ المنظومة بها . . . . ليقول أن الأول قديم غير مخلوق والثاني حادث مخلوق) ص١٤٩ (١) .

ويقول (كلام الله تعالى غير مخلوق ولا حادث) ص٢٤ وينقل على ذلك اتفاق أهل السنة والجماعة وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة وهذا صحيح بالنسبة لقوله (غير مخلوق) وأما قوله (ولا حادث) ففيه تفصيل فإن أريد بالحدوث المخلوق فهو صحيح أيضاً وإن أريد به ما هو أعم من ذلك فهو كذب لأن أفراد الكلام ومنها القرآن -حادثة غير مخلوقة قال تعالى ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً** ﴾ [الزمر : ٢٣] ، **وقال** ﴿ **ومن أصدق من الله حديثاً** ﴾

[النساء : ٨٧] وقال ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ [الأنبياء : ٢] .
وقال النبي ﷺ : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء » الحديث .

وقد استدل البخاري بذلك على حدوث القرآن وهو غير مخلوق ، ومعنى الحدوث هنا أن الله تكلم به بعد أن لم يكن متكلماً به ، وهذا قول الإمام أحمد رحمه الله في أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء والقوم لا يرونه متكلماً بمشيئة ، بل الكلام عندهم معنى قديم قائم بذات الله تعالى والمصحف الذي بين أيدينا عبارة عن الكلام ولذلك يرونه مخلوقاً فشابهوا المعتزلة في ذلك وإن كانوا خالفوهم في أمر وراء ذلك وهو الصفة القديمة ، وشابهوا النصارى في جعلهم للكلام لاهوتاً وناسوتاً فالمعنى القديم هو اللاهوت والمصحف الذي بين أيدينا هو الناسوت المخلوق كما ألزمهم بذلك ابن القيم في نونيته ، حيث يقول : ص٣٤ :

والآخرون أبوا وقالوا شطره　　خلق وشطر قام بالرحمن
زعموا القران عبارة وحكاية　　قلنا كما زعموه قرآنان

إلى أن قال :

ودليلهم في ذاك بيت قاله　　فيما يقال الأخطل النصراني
يا قوم قد غلط النصارى قبل في　　معنى الكلام وما اهتدوا لبيان
ولأجل ذا جعلوا المسيح إلههم　　إذ قيل كلمة خالق رحمن
ولأجل ذا جعلوه ناسوتا ولا　　هوتاً قديماً بعد متحدان
ونظير هذا من يقول كلامه　　معنى قديم غير ذي حدثان
والشطر مخلوق وتلك حروفه　　ناسوته لكن هما غيران
فانظر إلى ذي الاتفاق فإنه　　عجب وطالع سنة الرحمن

■ ■ - قوله في **الأصل الرابع** ص ١٠٠ (وكل ما قد وصف به ذاته أو أخبر به عنها مما يستلزم ظاهره التجسيم والتشبيه نثبته له كما قد أثبت ذلك لنفسه) ا.هـ

وهذا الكلام فيه تخليط لأن ظاهر الصفات ليست التشبيه والتجسيم كما ذهب إليه ، (١) بل ظاهر الصفات توحيد وتنزيه بإضافتها إلى الله تعالى [راجع الفتاوى ٣ - ٤٣] .

■ ■ قوله في الرؤية في **الأصل الثامن** (ونوقن بأن هذه الرؤية التي وعد الله بها عباده المؤمنين لا تستلزم أي كيفية ولا تحيز في جهة معينة ، فإن الله قادر على أن يمتع عباده هؤلاء بطاقة إبصار لا تستلزم شيئاً من ذلك فيرونه بها دون أي تحيز ولا كيف) .

وهو كلام مجمل في مبناه وإن كان معروفاً في معناه ، وهو التوصل للقول بإنكار الرؤية في جهة الفوق ونهدي للدكتور البوطي قول شارح الطحاوية (ليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه ، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ، ومن قال يرى لا في جهة فليراجع عقله ، فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة ا. هـ ص (٢١١) .

وبعد فانظر رحمك الله إلى هذه الأصول التي قال عنها الدكتور البوطي أنها (متفق عليها بل التي لا مجال للاختلاف فيها) ص١٠٦ .

وذلك لتعلم أن كل من أصّل للناس أصولاً حاد فيها عن ألفاظ ومعاني الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح لا بد أن يقع في مخالفة الكتاب والسنة مهما اجتهد في انتقاء عباراته وألفاظه .

وأسرد في نهاية هذا البحث بعضاً من أخطاء الدكتور البوطي في كتابه غير ما سبق :

١ - كلامه على التأويل ولمزه في محمد عبده ورشيد رضا في كلامهم على (

الحجارة من سجيل) و (رفع المسيح) (١) [ص ١٢٤ ، ١٢٥] .
٢ - جعله تفسير السلف لاستوى بـ (علا وارتفع) تأويلاً كتأويل الصفات عند الأشاعرة ويكفي في رد هذا حكايته .
٣ - حملته على شيخ الإسلام بأنه أول الوجه في قوله تعالى ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ [القصص : ٨٨] بأن المراد به (جهة الله) ، ونقله عن البيهقي وغيره في تفسير قوله تعالى ﴿ فثم وجه الله ﴾ [البقرة ١١٥] أن المراد جهة الله أو قبلة الله ، وهذه الآيات في الواقع ليست من آيات الصفات عند من فسرها هذا التفسير فليس ثمة تأويل والحمد لله .
٤ - وأما باقي ما نقله عن الإمام أحمد من تأويل المجيء بمجيء أمره فهو لم يطلع على الروايات الواردة عنه رحمه الله في ذلك وأن هذه الرواية . انفرد بها حنبل عن الإمام أحمد وفيها ما يردها ، وقد قال ابن شاقلا : هذا غلط من حنبل لا شك فيه (انظر الفتاوى ١٦/ ٤٠٥) . .
وسائر ما ذكره لا يعدو إلا أن يكون تفسيراً من السلف للآيات بلازم الصفة وهذا لا ينفي الصفة لله ولا يعد تأويلاً لها (٢) .
٥ - كلامه على البدعة وتخليطه حتى في ضابطه الذي وضعه وادعاؤه على شيخ الإسلام أنه انفرد بالتفريق بين التوسل بالأنبياء والصالحين في حال حياتهم والتوسل بهم بعد مماتهم ٠ ص١٥٥) وغفل الدكتور عما ورد عن الإمام أبي حنيفة وصاحبه من المنع بسؤال الله بمعقد العز من عرشه .
ورغم أنه اعترف بأن التوسل بجاه الرسول ﷺ أو غيره من الصالحين لا يعلم فيه أي نقاش أو بحث دار حول ذلك في عصر السلف إلا أنه أثبت التوسل بالأحاديث التي أوردها وهي بين ما لم يصح وهي عامتها أو صح ولم يصح الاستدلال به على مراده هذا (١) .

٦ - تشنيعه على شيخ الإسلام في مسألة حوادث لا أول لها وعلى تعقبه على ابن حزم فيها وربطه ذلك بكلام الفلاسفة في قدم العالم وقد أطال النفس فيها ورمى ابن تيمية بما هو منه بريء ، فتارة يجعل كلامه كفراً كما ذكر ذلك في (ص١٧١) بقوله (كل تلك النصوص القرآنية وهذا البيان النبوي الصحيح لا يجعل المسألة من ضروريات العقيدة الإسلامية ولا يتتبع إجماعاً من أئمة المسلمين وعلمائهم على كفر من اعتقد بقدم المادة أو اعتقد بأصلها النوعي ، إذاً فما هي الأسباب الثلاثة التي أجمع أئمة المسلمين على كفر الفلاسفة بها) ا.هـ

وتارة يسيء لشيخ الإسلام بأن طبيعته (نقدية لمعظم الأئمة والعلماء حتى لكأنه يمارس سعادة ولذة كبيرة في ذلك) [ص١٧٢] .
ويحاول أن يقف موقف المنصف فيقول [(ومع ذلك فلعل أنصع رد على كلام ابن تيمية هذا لكلام ابن تيمية نفسه فقد أثبت كفر من قال بقدم العالم (قدماً نوعياً أو عينياً) . ونقل الإجماع على ذلك في أكثر من موضع ومناسبة في رسائله وكتاباته . يقول في رسالة (الرد على المناطقة) (مجموع الفتاوى ٩/ ٢٨٠ ، ٢٨١) وبعد أن برهن على بطلان القول بوجود حوادث لا أول لها : (فإن الرسل مطبقون على أن كل ما سوى الله محدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، ليس مع الله شيء قديم بقدمه)] ا.هـ ص١٧٢ .
وهذا الكلام تلبيس من الدكتور البوطي أو جهل منه بمراد شيخ الإسلام ، فإن شيخ الإسلام لم يبرهن في الموضع المذكور ببطلان القول بوجود حوادث لا أول لها ، كما زعم الدكتور ، بل على العكس من ذلك وها هو نص كلامه :
قال رحمه الله : (الفتاوى - ٩/ ٢٨٠)
« وكثير منهم لم يفطن للفرق بين نوع الحوادث وبين الحادث المعين فإن الحادث المعين والحوادث المحصورة يمتنع أن تكون أزلية دائماً وما لم يكن قبلها فهو إما

معها وإما بعدها) .

وما كان كذلك فهو حادث قطعاً وهذا لا يخفى على أحد ، ولكن موضع النظر والنزاع : (نوع الحوادث) وهو أنه هل يمكن أن يكون النوع دائماً فيكون الرب لا يزال يتكلم أو يفعل بمشيئته وقدرته أم يمتنع ذلك)
ثم قال بعد ذلك (ص٢٨٢) وهذا مما يستدل به على أن كل ما سوى الله حادث كائن بعد أن لم يكن وإن قيل مع ذلك بدوام فاعليته ومتكلميته] ا . هـ .
فأين يا برهنته على إبطال القول بحوادث لا أول لها .
وأعجب من ذلك ما نقله الدكتور البوطي بعد ذلك عنه في ص ١٧٢ حيث يقول .
" ويقول (أي شيخ الإسلام) في إحدى رسائله حول معنى الاستواء وبعض آيات الصفات . ثم يقال لهؤلاء إن كنتم تقولون بقدم السموات والأرض ودوامها فهو كفر وهو قول بقدم العالم) . الفتاوى ٢/ ١٨٨ .
يعلق البوطي " فهل قال ابن حزم مما شنع عليه بسبب ابن تيمية غير هذا الكلام ذاته وهل الإجماع الذي نقله ابن حزم عن المسلمين غير الإطباق الذي نقله ابن تيمية عن عامة الرسل والأنبياء ، ونحن لا نحب أن نطلق مقتضى كلام ابن تيمية هنا على انتصاره هو في مكان آخر لمذهب الفلاسفة بالقول بالقدم النوعي فنكفره بمقتضى حكمه هو فإن المظنون بابن تيمية غير ذلك " ا . هـ .
ولا أدري هل جهل الدكتور الفرق بين القدم العيني والقدم النوعي حتى مثل هذا الكلام ؛ فإن القول بتسلسل الحوادث في الزمن الماضي أمر بدهي لكل من قرر معنا المقدمات الآتية .
(الأولى) لم يزل الله سبحانه قادراً على الفعل ولم يزل الفعل ممكناً لله سبحانه

(الثانية) أن الذي يفعل أكمل من الذي لا يفعل فالحياة والفعال متلازمان .
فينتج أنه لم يزل الله سبحانه يفعل . ولم يزل يتكلم بمشيئته وقدرته ، وهذا التسلسل واجب في كلام وفي أفعال الله سبحانِه تمكن في مفعولاته على ما اقتضاه الفرق بين (حوادث لا أول لها) و (مخلوقات لا أول لها) ولا أظن أن الخصم يفهم هذا الفرق !!
فكلام شيخ الإسلام الذي نقله الدكتور إنما يعيب على الفلاسفة قولهم بدوام وقدم السموات والأرض وهذه حوادث محصورة فأين هذا من كلامه على حوادث لا أول لها .
وليت الدكتور سأل وطلب الإيضاح من أهل العلم قبل أن يقوم على سطر هذا الكلام غير الصحيح .
وأختم الكلام هنا بإشارات لكلام بعض الأشاعرة في هذا الموضوع .
فها هو الرازي في كتابه مباحثه المشرقية (١/ ٦٥٥- ٦٧٠) يفند الأدلة التي استدل بها أصحابه على منع تسلسل الحوادث في الزمن الماضي ويجيب عليها واحداً واحداً ولولا طول كلامه لنقلت نصه .
ولما قال السعد التفتازاني في شرحه للعقائد النسفية (لا وجود للمطلق إلا في ضمن الجزئي فلا يتصور قدم المطلق مع حدوث كل جزئي من الجزئيات) (ص٥٧ ، ٥٨) .
لما قال ذلك رد عليه المحشي مصطفى الكناني وفند كلامه
وقال الدواني في شرحه للعقائد العضدية ١/ ١٠١ بعد أن ذكر كلام السعد في عدم تصور قدم النوع مع حدوث الفرد .
هذا كلام سخيف لأن مرادهم من قدم النوع أن لا يزال فرد من أفراد ذاك النوع موجوداً بحيث لا ينقطع بالكلية ، ومن البين أن حدوث كل فرد لا ينافي ذلك قدم أصلها ، وليت شعري ماذا يقول هذا القائل في الورد الذي لا

يبقى فرد منه أكثر من يوم أو يومين ، مع أن الورد باق أكثر من شهر أو شهرين وبديهة العقل تحكم بأن لا فرق بين المتناهي وغير المتناهي في مثل هذا الحكم ا . هـ .

وهو يشير بكلامه هذا إلى أن القائلين بالقدم النوعي لا يلزمهم القول بقدم العالم لأنهم يجعلون كل فرد مخلوق حادث ، وجد بعد أن لم يكن ، وله أول ومسبوق بالعدم والرب متقدم عليه تقدماً لا أول له ، وهذا لا ينفي أن يتقدم هذا الفرد فرد آخر ، وهذا ما عزب عن الدكتور البوطي .

ونقول للدكتور البوطي إن أقررت معنا أن حوادث الجنة والنار لا نهاية لها أي الحوادث في المستقبل - والله هو الآخر ، فيلزمك كذلك الإقرار بحوادث لا أول لها ، والله هو الأول ونهدي إليك كلام ابن القيم في النونية ص ٥٠ ، ٥١ ، ونختار هنا منه قوله :

فلئن زعمتم أن ذاك تسلسل ... قلنا صدقتم وهو ذو إمكان
كتسلسل التأثير في مستقبل ... هل بين ذلك قط من فرقان
والله ما افترقا لذي عقل ولا ... نقل ولا نظر ولا برهان
في سلب إمكان ولا في ضده ... هذي العقول ونحن ذو أذهان

إلى أن قال :

وجميع أرباب الكلام الباطل الـ ... مذموم عند أئمة الإيمان
فرقوا وقالوا ذاك فيما لم يزل ... حق وفي أزل بلا إمكان
قالوا لأجل تناقض الأزلي والـ ... أحداث ما هذان يجتمعان
لكن دوام الفعل في مستقبل ... ما فيه محذور من النكران
فانظر إلى التلبيس في ذا الفرق تر ... ويجا على العوران والعميان
ما قال ذو عقل بأن الفرد ذو ... أزل لذي ذهن ولا أعيان
بل كل فرد فهو مسبوق بفر ... د قبله أبداً بلا حسبان

ونظير هذا كل فرد فهو ملـ حوق بفرد بعده حكمان
النوع والآحاد مسبوق وملـ حوق وكل فهو منها فان
والنوع لا يفنى أخيراً فهو لا يفنى كذلك أولاً ببيان ا.هـ

وأصل هذه المقالة (وهي إنكار حوادث لا أول لها) ما توهمه الأشاعرة من محذور وهو ما يسموه (قيام الحوادث بذات الرب سبحانه) ولكن لما لم يتعرض لها الدكتور البوطي أعرض عن الرد عليهم في هذا المقام ولكن أشير هنا أن الرازي قال في الأربعين أن هذه المسألة تلزم جميع الطوائف (ص١١٨، ١١٩) وقد أطلت نسبياً في هذه المقولة لأن الدكتور بنى عليها أموراً ورتب عليها أحكاماً، وظن أنه ظفر بشيء ولا شيء !!

■ - وقد أطال أيضاً في الدفاع عن ابن عربي وأصحابه ولكن لم يتعرض لفلسفته في الوحدة والتفريق بين الوجود والثبوت، والظاهر والمظاهر ونحو ذلك، وإنما أراد أن يخطىء شيخ الإسلام في تكفيره له، وليس شيخ الإسلام بمبتدع في هذا التكفير بل قد أورد ابن ناصر الدين في كتابه (الرد الوافر) عشرات الأئمة الذين حكموا على ابن عربي بكفره.

وأنقل هنا ثلاث مواضع من كلام البوطي نفسه:

يقول في ص ٢٠٤ هامش (١) أما يكون في كتب ابن عربي كلام كثير يخالف العقيدة الصحيحة "و يستوجب" الكفر فهذا ما لا ريب ولا نقاش فيه، وأما أن يدل ذلك دلالة قاطعة على أن ابن عربي كافر وأنه ينطلق في فهم شهود الذات الألهية من أصل كفري هو نظرية الفيض فهذا ما لا يملك ابن تيمية ولا غيره أي دليل قاطع عليه) ا.هـ.

ويقول في ص ٢٠٧ هامش (١): "ما من ريب أن كل من اعتقد أن الله هو عين الموجودات أو متلبس بها أو أنها فيض حتمي من عليته وسببيته الحتمية للأشياء فهو كافر خارج من الملة الإسلامية" ا.هـ.

ويقول في ص ٢٠٨ هامش (بقي علينا أن نميز جهد استطاعتنا بين أصناف من ينطقون بهذه العبارات الكفرية التي تعبر عن اتحاد الله مع مخلوقاته ، فإن قامت الدلائل القطعية على أنهم يعبرون بذلك عن معتقداتهم الفكرية فهم زنادقة ضالون مضلون ، وإن لم تقم الدلائل القطعية على ذلك بأن رأينا لهم أحوالاً تشبه أن تكون نوعاً من الاستغراق والفناء أو كانت الكلمات التي ينطقون بها محتملة وهي التي عبر عنها ابن تيمية بقوله (ألفاظاً متشابهة) ولم يثبت لدينا أنهم زنادقة يختفون وراء الأحوال والمتشابه من الألفاظ فالواجب الذي أمرنا به الشرع في هذه الحال أن يحسن الظن بهم ونتأول حالهم على أنها من قبيل حال الذي قال أنا الحق أو ما في الجبة إلا الله وأن نوضح للعامة خطأ هذا الكلام وجنوحه عن طريق الحق) ا.هـ

فهل بعد إقراره هذا له مجال في الطعن على شيخ الإسلام ؟! فهل ابن عربي وأقواله الكفرية أولى لأن يعتذر الدكتور البوطي عنه أو شيخ الإسلام الذي حمل عليه الدكتور حملة شعواء في كتابه هذا رغم أنها ليس في كلام ابن تيمية التخليط الذي في كلام ابن عربي وأقر به الدكتور فما لكم كيف تحكمون .

هذه رؤوس مسائل في كتابه العجيب ولعل الله سبحانه ييسر لكتابه هذا من يفند كلامه ويتعقبه فيه كلمة كلمة لئلا ينخدع بذلك من لا يعرف حقيقة الأمر هداه الله إلى الحق وهدانا إلى الصراط المستقيم .

الفهارس

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

ثانيًا : فهرس الأحاديث والآثار

ثالثًا : فهرس الأعلام

رابعًا : فهرس الأماكن والبلدان

خامسًا : فهرس الفتاوى والبحوث العلمية

سادسًا : فهرس المراجع

سابعًا : فهرس الموضوعات

❑ أولاً : فهرس الآيات القرآنية ❑

الآية الصفحة

سورة البقرة

الآية	الصفحة

سورة النساء

سورة المائدة

الآية	الصفحة
﴿ إنما جزاؤا الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض ﴾	٢٠٧
﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾	٣١١
﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ﴾	١٧١
﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾	١٨٨
﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ﴾	١١٩
﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾	١٣٦
﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾	٢١٢
﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي ﴾	١٠٨

سورة الأنعام

الآية	الصفحة
﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾	١٠٢
﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون ﴾	١٠٩
﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا ﴾	١٠٩
﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا ءاباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم ﴾	٢٨٠
﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾	٧٤
﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد ﴾	١٥١
﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾	١٦٠
﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ﴾	١٥٦
﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض ﴾	١٢٨

الآية	الصفحة

الآية	الصفحة
سورة السجدة	
﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينها في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾	١٠٢
﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾	٩١
سورة فاطر	
﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾	٣١٢
سورة يس	
﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾	١٢٤
﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ﴾	١٢٢
سورة ص	
﴿ أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾	١٧٦
﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾	٧٥
﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾	١٢١
﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾	١٢٤
سورة الزمر	
﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾	٣٠٨
﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾	١٥٧
﴿ أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾	١٢٧
سورة غافر	
﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾	١٦٤

سورة الشورى

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة الفتح

سورة الحجرات

الآية	الصفحة

❑ ثانيًا : فهرس الأحاديث والآثار ❑

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة ...	١٣٠
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه	٢٨٧
من استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كف من دم فليفعل ...	٢١٧
من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر ..	٢١٥
من سن سنة حسنة ...	٢٨٤
من لم يغز أو يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق ...	٢١٧
من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ...	٣٠٥
نعمت البدعة هذه ... (أثر عن عمر بن الخطاب)	٢٨٥
نور نبيك ياجابر ...	٢٧٣
ولا تشفوا بعضها على بعض ...	٧٨
ويح ابن سمية تقتلك الفئة الباغية ...	٦٢
يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله	٢١٢
ياعائشة متى عهدتني فاحشًا ، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره	٣٢٧
ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا (قدسي)	١٧٥

❑ ثالثًا : فهرس الأعلام الواردة في الرسالة ❑

الاسم	الصفحة
سعاد حسن الصفدي (أم شفيع)	٥٣
السعد التفتازاني	٩٣
سعد بن مالك بن سنان (أبو سعيد)	٣٠١
سعد بن أبي وقاص	٦٤
سعيد أمين	٢٧
سعيد بن جبير	١٣٠
أبو سعيد الخدري = سعد بن مالك	
سفيان الثوري	٣٦١
سلمان الفارسي	
سليمان بن أحمد (الطبراني)	
سليمان بن خلف بن يوسف التجيبي أبو الوليد الباجي	
سليمان بن داود النبي (عليهما الصلاة والسلام)	
ابن السمعاني = السمعاني = منصور بن محمد بن عبد الجبار	
سيد قطب	١٣٨
السيوطي = عبد الرحمن بن أبي بكر	
السهروردي = عمر بن محمد بن عبد الله	
(ش)	
الشاطبي = إبراهيم بن موسى اللخمي	١٤١
الشافعي = محمد بن إدريس الشافعي	٣٠٥
شبل شميل	٢٧

الاسم	الصفحة
الشبلي	
الشرباصي = أحمد الشرباصي	
الشريف حسين = حسين الأمير	٣٨١
الشريف عبد الله = عبد الله الأمير	
الشريف فيصل = فيصل الأمير	
شعبان المجذوب	
الشعراني = عبد الوهاب الشعراني	٢٧٨
أم شفيع = سعاد حسن الصفدي	
شكيب أرسلان	٩
شهاب الدين السهروردي = عمر بن محمد بن عبد الله	١١٨
الشوكاني = محمد بن علي	٢٠٩
ابن أبي شيبة = أبو بكر بن أبي شيبة	

(ص)

الاسم	الصفحة
صالح أبو رقيق	٣٤٢
صالح الفوزان	٢٨٣
صدي بن عجلان (أبو أمامة الباهلي)	
صديق حسن خان	٢٠٩
صلاح حافظ	
صلاح الدين المنجد	

الاسم	الصفحة
عبد الرزاق عفيفي	٤٥
عبد الرزاق بن همام الصنعاني	
عبد العزيز جاويش	٢٧٣
عبد العزيز الحميدي	٥٨
عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (الملك عبد العزيز)	٣٠
عبد العزيز بن عبد الله بن باز	٢٥٢
عبد العظيم بن عبد القوي المنذري	
عبد القادر الجيلاني	
عبد الله الأمير	٣١
عبد الله بن الزبير	
عبد الله بن عباس (الصحابي)	
عبد الله بن عثمان (أبو بكر الصديق)	٢٤٦
عبد الله بن عمرو بن العاص (الصحابي)	٦٣
عبد الله الصديق الغماري	٤٦
عبد الله القادري	٢٢١
عبد الله بن مسعود (الصحابي)	
عبد الله بن منيع	٢٩٩
عبد الله بن يوسف أبو محمد الجويني	
عبد المتعال الصعيدي	١٢
عبد المحسن العباد	٦٦

الاسم	الصفحة
(ل)	
لاون (بابا النصارى)	٥٦
أبو لؤلؤة المجوسي	
(م)	
مالك بن أنس	٥٢
المالكي = محمد علوي مالكي	٢٩٩
المجذوب = شعبان المجذوب	
المجلسي	٢٦٣
محب الدين الخطيب	٢٧
محسن الأمين العاملي	٢٤٨
محمد بن إبراهيم الشيباني	٣٣٥
محمد أحمد العدوي	٤٧
محمد بن أحمد الأنصاري (القرطبي)	
محمد أحمد كنعان	٣٩
محمد بن إدريس الشافعي	٣٠٥
محمد بن أبي بكر (الأشخر)	
محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)	
محمد بهجة البيطار	٤٥
محمد تقي الدين الهلالي	٤٧
محمد توفيق صدقي	١٤٦

الاسم	الصفحة

❑ رابعًا : فهرس الأماكن والبلدان ❑

❑ خامسًا : فهرس الفتاوى والبحوث العلمية ❑

❑ سادسًا : أهم مراجع البحث ❑

(١) الإبداع في مضار الابتداع

علي محفوظ ط . دار المعارف بمصر

(٢) الاحتجاج بالأثر على المهدي المنتظر

حمود بن عبد الله التويجري

(٣) أحكام أهل الذمة

ابن القيم : محمد بن أبي بكر

ت صبحي الصالح ط . جامعة دمشق ١٣٨١هـ

(٤) اختلاف الأمة

رشيد رضا ط . المنار

(٥) الإخوان المسلمون

ريتشارد ميتشل تعليق صالح أبو رفيق

(٦) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ

رؤية من الداخل . محمود عبد الحليم ط . مصر

(٧) الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسة المصرية (١٩٢٨-١٩٤٨)

البيومي : زكريا سليمان البيومي رسالة دكتوراه نشر مكتبة وهبة بعابدين سنة ١٩٧٩م

(٨) الارتسامات اللطاف

شكيب أرسلان

(٩) إرشاد الفحول

الشوكاني : محمد بن علي ـ دار المعرفة بيروت

(١٠) الاعتصام

للشاطبي : إبراهيم بن موسى الشاطبي ـ المكتبة التجارية مصر

(١١) الأعلام

للزركلي : خير الدين الزركلي ط . بيروت سنة ١٩٦٩م

(١٢) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية

العليان : علي نفيع ط . دار طيبة سنة ١٩٨٥م

(١٣) الآيات البينات

الآلوسي : نعمان خير الدين

تحقيق : الألباني : محمد ناصر الدين

(١٤) البرهان في علوم القرآن

للزركشي : محمد بن عبد الله

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط . البابي الحلبي

(١٥) البلبل في أصول الفقه

للطوفي سليمان بن عبد القوي ط . الرياض

(١٦) تاريخ الأستاذ الإمام

للسيد محمد رشيد رضا ط . المنار

(١٧) تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تأويل القرآن)

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ط . دار المعرفة بيروت

(١٨) تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن)
القرطبي : محمد بن أحمد الأنصاري ط . دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٠هـ ـ سنة ١٩٦٠م
(١٩) تفسير ابن كثير المسمى (تفسير القرآن العظيمَ)
أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ط . دار الفكر
(٢٠) تفسير المنار المسمى (تفسير القرآن الحكيم)
للسيد محمد رشيد رضا ط . المنار
(٢١) تنبيهات في الرد علي الصابوني
ابن باز عبد العزيز بن عبد الله ط . الرياض نشر دار الإفتاء بالسعودية
(٢٢) تنبيهات في الرد على الصابوني
الفوزان : صالح الفوزان ط . الرياض ـ نشر دار الإفتاء بالسعودية
(٢٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل
لابن خزيمة : محمد بن إسحق ـ راجعه وعلق عليه : الدكتور محمد خليل هراس ط . دار الفكر
(٢٤) الثورة العربية الكبرى
سعيد أمين
(٢٥) الجهاد في سبيل الله حقيقة وغاية
د . عبد الله بن أحمد القادري دار المنار ـ جدة
(٢٦) حاضر العالم الإسلامي
شكيب أرسلان

(٢٧) رحلات رشيد رضا
جمع وتحقيق : يوسف أيبش
(٢٨) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة
الواردة في المهدي
العباد : عبد المحسن بن حمد العباد ط .
(٢٩) رشيد رضا
د . أحمد الشرباصي ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر
(٣٠) رشيد رضا
د . أحمد العدوي
(٣١) زاد المعاد في هدي خير العباد
ابن القيم محمد بن أبي بكر تحقيق الأرناؤوطيين ط . مؤسسة الرسالة
(٣٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة
الألباني : محمد ناصر الدين ط . المكتب الإسلامي
(٣٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة
الألباني : محمد ناصر الدين ط . المكتب الإسلامي
(٣٤) سنن الترمذي
الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة
تحقيق أحمد شاكر سنة ١٩٦١م
(٣٥) سنن أبي داود
أبو داود سليمان بن الأشعث
راجعه : محمد محيي الدين عبد الحميد نشر دار إحياء السنة النبوية

(٣٦) سنن النسائي
أحمد بن شعيب النسائي
(٣٧) سنن ابن ماجة
محمد بن يزيد القزويني
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط . البابي الحلبي بمصر
(٣٨) السنة والشيعة
للسيد محمد رشيد رضا ط . المنار الطبعة الثانية سنة ١٣٦٦هـ ـ سنة ١٩٤٧م
(٣٩) شرح الذريعة (شرح ذريعة الوصول إلى اقتباس زبد الأصول)
الأشحر : محمد بن أبي بكر
تحقيق : أحمد فرحان دبوان رسالة ماجستير أم القرى
(٤٠) شرح الطحاوية
لابن أبي العز الحنفي
تحقيق : الألباني : محمد ناصر الدين ط . المكتب الإسلامي
(٤١) شرح الكوكب المنير
ابن النجار محمد بن أحمد الفتوحي
تحقيق : د . نزيه حماد ، د . محمد الزحيلي ، منشورات جامعة أم القرى
(٤٢) شرح نونية ابن القيم
أحمد بن إبراهيم بن عيسى ط . المكتب الإسلامي
(٤٣) شرح نونية ابن القيم
محمد خليل هراس الفاروق الحديثة للطباعة والنشر بمصر

(٤٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول

ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام

تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر

(٤٥) صحيح مسلم

القشيري : مسلم بن الحجاج

تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ط . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٥٦م

(٤٦) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن

التويجري : حمود بن عبد الله ط . دار اللواء للنشر والتوزيع ـ الرياض ١٤٠٧هـ

(٤٧) علماء ومفكرون عرفتهم

محمد المجذوب ط . الثانية

(٤٨) فتاوى الإمام محمد رشيد رضا

جمع صلاح الدين المنجد ويوسف الخوري

(٤٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري

ابن حجر : أحمد بن علي العسقلاني ط . السلفية نشر دار المعرفة

(٥٠) فكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة

لناصر الغفاري رسالة ماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(٥١) فقه الدعوة

سيد قطب ـ اختيار : أحمد حسن (من الظلال) ط . مؤسسة الرسالة

(٥٢) كلمة حق

د . عمر عبد الرحمن ط . مصر

(٥٣) المجددون في الإسلام
عبد المتعال الصعيدي
(٥٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد
الهيثمي علي بن أبي بكر الهيثمي ط . بيروت
(٥٥) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية
ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام
جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد
(٥٦) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا
البنا ـ حسن أحمد البنا ط . بيروت
(٥٧) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية
ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ط . المنار
(٥٨) مجلة المنار
رشيد رضا ط . المنار
(٥٩) مختصر صحيح مسلم
المنذري : عبد العظيم ذكر الدين
تحقيق : الألباني ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٥م
(٦٠) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة
ابن القيم محمد بن أبي بكر
اختصار : محمد الموصلي مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض
(٦١) المختصر المفيد للقرآن المجيد
رشيد رضا بإتمام محمد أحمد كنعان ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤م

(٦٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
ابن القيم : محمد بن أبي بكر دار الفكر العربي
(٦٣) المدرسة العقلية الحديثة وموقفها من التفسير
الرومي : فهد الرومي ط . الرياض
(٦٤) مذكرات الدعوة والداعية
البنا : حسن أحمد البنا ط . المكتب الإسلامي
(٦٥) مذكرة أصول الفقه
الشنقيطي محمد الأمين توزيع السلفية بالمدينة المنورة
(٦٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل
الشيباني : أحمد بن حنبل المكتب الإسلامي دار بيروت
(٦٧) مسند أبي داود الطيالسي
الطيالسي : سليمان بن داود بن الجارود ط . الهند
(٦٨) المشروعية الإسلامية العليا
د . جريشة : علي محمد جريشة ط . دار الوفاء بجدة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
(٦٩) معجم المؤلفين
كحالة عمر رضا كحالة
(٧٠) المعتمد في أصول الدين
أبو يعلى محمد بن الحسين بن خلف القاضي
تحقيق : د . وديع زيدان دار المشرق بيروت
(٧١) مفتاح دار السعادة
ابن القيم : محمد بن أبي بكر

(٧٢) المفسرون
المغراوي : محمد عبد الرحمن ط . دار طيبة الرياض ١٩٨٥م
(٧٣) المنار والأزهر
رشيد رضا ط . المنار ١٣٥٣هـ
(٧٤) منع الأعذار بما جاء في كتاب الحوار
عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد ط . المغرب
(٧٥) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم
تحقيق د . محمد رشاد سالم ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦هـ
(٧٦) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والنعمة
مصطفى صبري
تحقيق : د . مصطفى صبري ط . مصر
(٧٧) نونية ابن القيم المسماة (الكافية الشافية في اعتقاد الفرقة الناجية)
ابن القيم : محمد بن أبي بكر نشر دار الباز مكة المكرمة
(٧٨) هذه مفاهيمنا
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ط . الرياض
(٧٩) واقعنا المعاصر
محمد قطب
(٨٠) الوهابيون والحجاز
السيد محمد رشيد رضا ط . المنار

(٨١) الوحي المحمدي

السيد محمد رشيد رضا ط . العاشرة ١٩٨٥ المكتب الإسلامي

(٨٢) الولاء والبراء

محمد سعيد القحطاني ط . الثانية دار طيبة الرياض ١٤٠٤هـ

سقطت بعض الكتب عند عمل الفهرس وأستدركها هنا

(٨٣) الإرجاء

الحوالي : د . سفر الحوالي رسالة دكتوراه جامعة أم القرى

(٨٤) أصول الفقه

خلاف : عبد الوهاب خلاف ط . مصر

(٨٥) الأعمال الكاملة لمحمد عبده

عمارة : محمد عمارة ط . مصر

(٨٦) بحوث أسبوع محمد بن عبد الوهاب ط . جامعة الإمام

(٨٧) تاريخ ابن خلدون

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ط . دار الفكر

(٨٨) جمال الدين الأفغاني

علي عبد الحليم محمود ط . دار عكاظ ١٩٧٩م

(٨٩) الخلافة أو الإمامة العظمى

لمحمد رشيد رضا ط . المنار

(٩٠) رسالة التوحيد محمد عبده تقديم : حسين غزال دار إحياء العلوم بيروت ط ٣ ١٩٧٩م

(٩١) رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار
للأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل
تحقيق الألباني ط . المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م
(٩٢) السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاماً
شكيب أرسلان ط . دمشق ١٩٣٧م
(٩٣) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين
حاشية على شرح الدواني للعضد
تحقيق سليمان دنيا ط . مصر البابي الحلبي ١٩٥٨م
(٩٤) العبر في أخبار من غبر
الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ط . دار الكتب العلمية ـ بيروت

❑ سابعًا : فهرس الموضوعات ❑

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة